أ.د. محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الدولة الصفوية

(في إيران)

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الدولة الصفوية

(في إيران)

٩٠٧ ـ ١١٤٨هـ/ ١٥٠١ ـ ١٧٣٦م

تأليف

الدكتور محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس



تاريخ الدولة الصفوية (في إيران)

تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 474 - 6

نشر

Publisher



للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

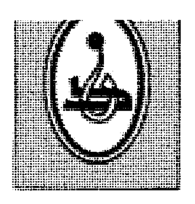
Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon

Web Site: WWW.alnafaes.com

Email: alnafaes@yahoo.com



تاريخ الدولة الصفوية

(في إيران)

بسم الله الرحمن الرحيم

القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩

صورة الغلاف: مدرسة مادر الشاه في أصفهان

الإهـــــداء

إلى حفيدتيّ دارين وفاطمة

قرة عيني

ونبض فؤادي

وبهجة أيامي

وأجمل وردتين في حديقة عائلتي.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة التاريخ السياسي للدولة الصفوية في إيران. والواقع أن تصور الماضي وتمثُّله أمر تكتنفه الصعاب ليس لمجرد تضارب المعلومات التاريخية أو قِلَّتها، ولكن لأن إعادة بناء التاريخ هو عمل سياسي بالدرجة الأولى، فالجدل حول إمكان كتابة التاريخ الصفوي الذي قام على مرتكزات سياسية ومذهبية اتصفت بالآحادية ما يجعل مهمة الباحث على شيء من الصعوبة، فالمصادر الفارسية الخاصة بهذا التاريخ لا تزودنا بصورة كاملة عنه لأنها تنظر إليه بعين واحدة قلَّما نصادف فيها شيئاً إلا الإغراق في مدح شخصياته والثناء عليهم، أما المصادر المقابلة فهي وإن كانت أكثر نقداً إلا أنها أقل مادة تاريخية.

وتُعدُّ الدولة الصفوية إحدى الدول السلطانية التي قامت في المشرق الإسلامي عبر عصوره، ونموذجاً واضحاً للدولة المذهبية في العصر الحديث، وهي دولة شيعية على المذهب الاثني عشري تأسست في إيران وانطلقت منها للتوسع في الشرق والغرب باتجاه خراسان وأفغانستان وأذربيجان والعراق وديار بكر، وبلاد الكرج في الشمال.

والواقع أن الإيرانيين في العالم الإسلامي، شكَّلوا كتلة تباينت من حيث المذهب الديني الخاص بها عن الكتلة الإسلامية التي تُمثِّل جمهور المسلمين، لكن الإيرانيين يفخرون بالدولة الصفوية لأنها أعادت وحدة إيران السياسية بعد مدة طويلة من التردي السياسي والاجتماعي.

إن ظروف ظهور هذه الدولة نشأ نتيجة تفتت الامبراطورية التيمورية حيث كانت إيران تعاني فوضى الانقسام بين ملوك ضعاف، وقد اتفق اعتلاء السلالة الصفوية العرش في إيران مع فاتحة القرن السادس عشر الميلادي.

إن أصل السلالة الصفوية من أذربيجان وتنتسب إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي وهو تركي سني على مذهب الإمام الشافعي وشيخ طريقة صوفية، انتقل

إلى أردبيل في شمالي إيران، ومن هذا الاسم صفي الدين أخذت السلالة اسمها، السلالة الصفوية، ويصل مؤرخو عصره نسبه إلى الإمام موسى الكاظم.

اعتنق أحد أحفاد الشيخ صفي الدين، وهو الشيخ جنيد، المذهب الشيعي الاثني عشري، وترتب على ذلك أنه رفض الاعتراف بسلطة الأمراء المسلمين السنَّة، وراح يعمل على بث مذهبه في الولايات المجاورة، فالتفَّ حوله عشرات الآلاف من التركمان الشيعة في الأناضول، وقد تمت على يديه الانعطافة الكبرى في تحوُّل الحركة الصفوية إلى حركة شيعية بعد أن تهيأ لها الجو السياسي بتفتت الامبراطورية التيمورية بعد وفاة شاه روخ.

وخطا ابنه الشيخ حيدر خطوة أخرى في دفع عجلة الحركة الصفوية إلى التشيع الاثني عشري، وذلك باتخاذه شعاراً يميز أتباعه عن غيرهم على صورة قلنسوة حمراء ذات اثنتي عشرة ذؤابة كناية عن الأئمة الاثني عشر، إنه تاج حيدر، من هنا أطلق العثمانيون على كل من يلبس تاج حيدر: قزلباش؛ أي: الرؤوس الحمراء.

وتوالت الأحداث بعد ذلك بسرعة حتى تولى رئاسة الأسرة إسماعيل ابن الشيخ حيدر، فالتفَّ حوله تركمان الأناضول وراحوا يبثون الدعوة الشيعية بين تركمان الآق قوينلو السنة ما دفع هؤلاء إلى اضطهادهم، وشكَّل تركمان الأناضول نواة جيشه ونظروا إليه وإلى خلفائه من بعده كأحد أولياء الله.

وبدأ إسماعيل حركته الثورية منطلقاً من أذربيجان، فلقَّب نفسه بالشاه واستولى على شَروان وانتزع تبريز من أيدي الآق قوينلو واتخذها عاصمة لدولته الناشئة، وسيطر على أصفهان ويزد وكرمان وجنوبي خراسان وضرب النقود باسمه وخُطب له على المنابر.

كمن سر نجاح الشاه إسماعيل الأول في الدين والجرأة، فقد أعلن أن المذهب الشيعي الاثني عشري هو المذهب الوطني والرسمي لإيران ومن ثَمَّ استطاع توحيد قومه في إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنة الذين طوَّقوا إيران من الشرق: الأوزبك، ومن الغرب: العثمانيين، وحتى يُرضي أتباعه، ويقوم بما يتوجب عليه كولي وكمدافع عن الدين والمذهب، كان على الشاه أن ينهض للحرب، وهذا ما تفرَّغ له، وكانت ذريعة الحرب بطبيعة الحال دينية ودنيوية وهي الرغبة في:

- نشر المذهب الشيعي الاثني عشري بين الأتراك السنة.
- التوسع على الأرض طمعاً في مزيد من الموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب.

ونتيجة لسلسلة الحروب المتواصلة، تقدم العثمانيون نحو الفرات والقوقاز وبحر

قزوين مستحوذين على العاصمة تبريز وبغداد، وإلى الشرق، كانت تقع الولايات الإيرانية الممزقة وتمتد من القوقاز وبحر قزوين في الشمال، إلى المحيط الهندي في الجنوب، والخليج العربي في الجنوب الشرقي، وكأنها تنتظر من يعيد توحيدها.

حارب الشاه الأوزبك في الشرق، فاستعاد خراسان وتقدم باتجاه بخارى. وكانت الحرب على الجبهة الغربية مع العثمانيين سجالاً. أما في الجنوب، فقد استطاع البرتغالي ألبوكرك أن يستولي على جزيرة هرمز الصغيرة في مدخل الخليج العربي وشيَّد عليها قلعة حصينة، فتمكَّن بذلك من السيطرة على الحركة التجارية في الخليج المذكور.

وشجَّع الشاه التجارة ليؤمن موارد مالية لدولته، فدعا التجار الأوروبيين إلى زيارة إيران وممارسة النشاط التجاري معها وعبرها، وسهَّل لهم السبل، وعرف كيف يُسخِّر الأنظمة والقوانين ليزيد موارده ويُقوي سلطته ويضاعف منعة جيشه.

عُرفت الملكية الصفوية بأنها مطلقة، فالشاه هو سيد البلاد والمتصرف في حياة الناس وأموال رعاياه كما يشاء، وكل ما يأمر به يجب أن يُنفَّذ في الحال ومن دون اعتراض أو مناقشة حتى وإن صدر الأمر وهو ثمل فاقداً لوعيه، فهو فوق القوانين الطبيعية والوضعية، وعلى الشعب أن يطيعه في كل شيء، باستثناء ما يخالف أحكام الشريعة، ولعل هذه الهيمنة إنما تنبع من مصدرين، فمن جهة سيطر الصفويون على إيران بالغلبة ولذا كانت الحكومة عسكرية مستبدة، ومن جهة أخرى كان الشاه نائب النبي ﷺ وخليفته.

تعرضت الدولة الصفوية بعد وفاة الشاه إسماعيل الأول لخضات عسكرية وسياسية. فقد استولى العثمانيون على الولايات الفارسية: العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم، كما استولى الأوزبك في الوقت نفسه على هراة ومشهد ونيسابور واجتاحوا الولايات الصفوية الشرقية، فنهض خلفاؤه طهماسب الأول وإسماعيل الثاني ومحمد خدابندة لاستعادتها في ظل الصراع الداخلي على العرش. وظل الوضع على هذا الحال حتى تولى الشاه عباس الأول الحكم.

شبَّ الشاه عباس الأول بين طوائف القزلباش، فتشرب روح البداوة وتخلَّق بالشجاعة والنشاط ولكنه كان شديد الحذر تجاههم وهم الذين اتخذوا من الأقليات وسيلة لتقوية نفوذهم، فراح يُحرِّر العرش والأسرة من هيمنتهم والاعتماد عليهم، فاصطنع جيشاً باسم أنصار الشاه ضمَّ بضعة آلاف اختارهم من بين كل القبائل وبخاصة الكرجية النصرانية، تطوعوا للعمل في الجيش وفي خدمة العرش يتلقون الأمر منه مباشرة، فاكتسب بذلك دعامة أكبر. وفي المقابل، أخذ يُخفض أعدادهم

في الجيش، واستعاض عن الفِرَق التي رفضت الخدمة إلا تحت قيادة رؤسائها، بفرق من المرتزقة من المشاة تألفت من الأرقاء وأبنائهم، كان يُعين ضباطهم ويصرفهم من الخدمة متى شاء، واتخذ من بين رجال هذا الجيش معظم حكام الولايات وموظفي الدواوين.

ولعل الشاه هو أول من أدرك أنه يستحيل عليه النهوض بالحرب على جبهات عدة. فقد قَبِل أن يعقد في مستهل حياته السياسية صلحاً مذلاً مع العثمانيين ليتفرغ لحرب الأوزبك، وبعد أن أبعد خطرهم ارتد لمحاربة العثمانيين، فقاد حملات ناجحة ضدهم وانتزع من أيديهم تبريز وإيروان وشَروان وقارص، واستولى على أذربيجان وخوزستان ودخل بغداد والموصل وديار بكر، وخفَّض الجزية التي كان عليه أن يدفعها إلى السلطان العثماني إلى مائة حمل من الحرير.

وشدَّد الشاه على صفته الدينية بوصفه مرشداً كاملاً وحامي الدين وذمار الشيعة، فشيَّد في مشهد بخراسان مسجداً كبيراً احتفظ فيه بأثر من آثار المسلمين هو قدم الناقة التي كانت تحمل النبي ﷺ. وكان يتوجَّه إلى هذه المدينة كل سنة للتبرك. واعتاد الإيرانيون أن يحجوا في عهده إليها بدلاً من مكة وذلك بهدف الحؤول دون إخراج الذهب من البلاد ودفع رسوم العبور إلى أعدائهم العثمانيين، وكان الشاه يحج أيضاً إلى النجف فيقوم بتنظيف وغسل قبر الإمام علي ويخدم زوّاره.

ودان الشاه بانتصاراته العسكرية لهذه العلاقات الجيدة التي أقامها مع الأوروبيين. ولما كان البرتغاليون قد قطعوا طريق هرمز في الخليج العربي، استطاعت الشركة الإنكليزية في موسكو أن تنشئ لها علاقة تجارية مع إيران عبر روسيا التي كانت قد بسطت سيطرتها على حوض نهر الڤولغا. ودخل الإنكليز إلى إيران عن طريق استراخان وبحر قزوين وباكو وشَروان، إلا أن الفوضى المستحكمة في البلاد والأخطار التي كان يتعرض لها عملاء الشركة الإنكليزية من قِبَل القراصنة في بحر قزوين، أرغمتها على قطع علاقتها بعد ست رحلات قامت بها.

وتعاون الشاه مع مغامرين إنكليزيين دخلا إيران هما أنطوني وروبرت شيرلي وبصحبتهما خمسة وعشرين مرافقاً بينهم خبير بصب المدافع، وعملوا جميعاً في خدمة الشاه. فدربوا الإيرانيين على الفنون العسكرية وأسسوا فرقة المدفعية، وسلَّحوا الجيش بالبنادق، واشترك روبرت شيرلي في القتال ضد العثمانيين. وبفضل هذا التدريب وتلك التجهيزات العسكرية استطاع الشاه أن ينتصر على العثمانيين.

ورغبة منه في مضاعفة وارداته، احتكر الشاه تجارة الحرير، وراح يُصدِّر هذه المادة الحيوية والمهمة عن طريق الخليج العربي تفادياً منه لدفع الرسوم الباهظة التي

فرضها العثمانيون على مرور السلع الإيرانية في أراضيهم، ولذا اضطر إلى محاربة البرتغاليين بمساعدة الإنكليز في الهند، وكان هدف شركة الهند الشرقية الإنكليزية تصريف مصنوعاتها الصوفية في إيران. وهكذا قامت علاقة تجارية بين الجانبين عن طريق مرفأ جاسك، نتج عنها سقوط قاعدة هرمز بيد الإيرانيين. وسرعان ما دخل الهولنديون على خط التجارة مع إيران. وقد عامل الشاه التجار الأوروبيين بسخاء، وأمن لهم ممارسة واجباتهم الدينية وعمل على تحسين طرق المواصلات وبنى الجسور والخانات.

لم يغفل الشاه أثناء انهماكه بالحرب أن ينهض بالعمران، فأنشأ العديد من الإنجازات المدنية في أصفهان بخاصة مثل شق الطرق، والميادين والحدائق العامة والمباني والقصور والمساجد.

وما كاد الشاه عباس الأول يتوارى عن الأنظار بفعل وفاته حتى أخذ الانحلال طريقه إلى قلب الأسرة الصفوية الحاكمة. فقد كان من شدَّة غلوه في الحذر أن أمر بقتل أبنائه وسمل عيونهم وحبسهم في القصور مع النساء والخصيان، بدلاً من أن يُدرِّبهم على أعمال الحرب والإدارة. وكان هؤلاء يقضون أوقاتهم في شرب الخمر ويستسلمون للذاتهم منذ حداثة سنهم.

وهكذا توالى على العرش الصفوي ملوك ضعاف هم الشاه صفي والشاه عباس الثاني والشاه سليمان والشاه سلطان حسين، وأصبحت الوظائف العامة تُشرى وتُباع كالمتاع يتوارثها الابن عن أبيه، وانخفضت مرتبات الضباط بعد أن تولى أمور بيت المال مجلس المحاسبة وراح الحكام ومتعهدو جباية الضرائب يختلسون معظم ما يجبون من ضرائب ورسوم ولم يكن يصل إلى الخزانة العامة أكثر من ثلث المبالغ العائدة لها.

ونتيجة لذلك تزعزعت وحدة الجيش الذي يشكل عماد الدولة، وراح العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع يهاجمون العراق من جديد، وسيطروا على بغداد، كما أخذت قبائل الأوزبك تغزو مجدداً، خراسان، إلا أن الوضع السياسي في بلاد ما وراء النهر كان في طريقه إلى التفسخ والانحلال. واستطاع أمير عُمان أن ينتزع مسقط من البرتغاليين، وراح يُكثر من غزواته لمرافئ إيران الواقعة على الخليج العربي.

وكانت إيران في هذا الوقت تتهيأ لمواجهة أحداث مهمة تستهدفها، ففي الوقت الذي أخذ الشاه سلطان حسين المشهور بورعه يعهد إلى الخصيان ورجال الدين بالمراكز المهمة في الدولة، وهي من اختصاصات أرباب السيف، إذ بسفيرين روسيين يصلان إلى أصفهان، وراح الروس يستعدون للهجوم والانقضاض على

البلاد، كما أخذ الأفغان السنة من جهتهم يعلنون الثورة ضد الحكم الصفوي في قندهار، فكان هذا من شأنه أن يُولِّد الفوضى والاضطراب في إيران.

وقد حفل التاريخ الصفوي بصراع أسري قاس على السلطة وصل إلى حدِّ التخلص من الإخوان والأبناء والأحفاد والأقارب، لازم معظم مراحله، وكانت هذه الظاهرة سمة ذلك العصر، فقد انتشرت في الدولة العثمانية، ودولة المغول في الهند. ووردت في بعض المصادر والمراجع الخاصة بهذا التاريخ أفعال قام بها الملوك الصفويون، تتجافى مع المبادئ الإسلامية، أوردتها في أماكنها من البحث من دون التعليق عليها.

إن الدراسات التاريخية الخاصة بالصفويين باللغة العربية تكاد تكون معدومة، وعليه فإن المكتبة العربية بحاجة إلى دراسة علمية شاملة تعالج تاريخ هذه الأسرة نظراً لارتباط أحداث هذا التاريخ بما يجري في العصر الحاضر من تطورات سياسية، ولتقف الأجيال الطالعة على حقبة مهمة من تاريخنا الإسلامي لا تزال تؤثر إلى اليوم بشكل بارز على أوضاع المسلمين بعامة.

استندت في هذه الدراسة على مصادر ومراجع متنوعة يراها القارئ في ثبت المصادر والمراجع.

أما تشكيل الموضوعات، فقد قسمتها إلى ثمانية فصول:

عالجت في **الفصل الأول** أوضاع إيران السياسية قبل قيام الدولة الصفوية، وقد تنازعت على أرضها دول عدة عبر تاريخها الوسيط كان آخرها دول التيموريين والقرة قوينلو والآق قوينلو، ما جزَّأ البلاد وعرَّضها لأشد أنواع التدمير والخراب، فتطلع الإيرانيون إلى ظهور مُخلِّص ينتشلهم من الفوضى ويعيد إلى بلادهم وحدتها.

وتطرقت في **الفصل الثاني** إلى ظهور الأسرة الصفوية وارتقائها. ظهرت هذه الأسرة في أردبيل بأذربيجان، وتنتسب إلى الشيخ صفي الدين إسحاق، وهو صوفي على مذهب الإمام الشافعي، وتخصَّص شيوخها بالوعظ والإرشاد. وتحوَّلت هذه الأسرة في عهد أحد شيوخها وهو الجنيد إلى المذهب الشيعي الاثني عشري بتأثير الأوضاع السياسية والدينية التي كانت سائدة في المنطقة آنذاك. وقامت الأسرة على أكتاف القبائل التركمانية الشيعية التي كانت تسكن ربوع الأناضول.

وخصَّصت **الفصل الثالث** لدراسة شخصية مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الأول وبيَّنت جهوده في تأسيسها وتوسعها، وتطرقت إلى علاقاته مع جيرانه الأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب التي اتسمت بالعدائية بفعل الاختلاف المذهبي ومحاولة الشاه التوسع على حسابهما. وتمحورت علاقة الشاه مع الأوروبيين حول إقناعهم بمساعدته ضد أعدائه.

وشكَّل **الفصل الرابع** سجلاً دوَّنت فيه أحداث التاريخ الصفوي من خلال ثلاث شخصيات تعاقبت على حكم الدولة وهي: طهماسب الأول وإسماعيل الثاني ومحمد خدابندة. وقد شغل الاضطراب السياسي في عهودهم حيزاً واسعاً من التاريخ الصفوي بفعل التنازع على السلطة والذي كان يؤدي إلى التخلص من كل منافس على العرش من أفراد الأسرة الحاكمة. وقد سلك هؤلاء الملوك النهج التقليدي الذي سنَّه المؤسس في علاقاتهم مع جيرانهم المسلمين السنة ومع الأوروبيين.

وتطرقت في **الفصل الخامس** إلى أوضاع الدولة الصفوية الداخلية في عهد الشاه عباس الأول والتي تمحورت حول القضاء على الحركات الثورية التي قامت ضد حكمه والارتقاء بالدولة إلى مصاف الدول الكبرى في المنطقة من واقع تطوير الجهاز العسكري وإنجازاته الإنشائية في الحقل المدني. إلا أن هذا الشاه اتصف بالتشدد المذهبي وبالظلم أحياناً من ذلك أنه تخلَّص بالقتل أو بسمل العيون من جميع أفراد الأسرة الصفوية تقريباً حتى لا ينافسه أحدهم على العرش. فأفرغ بذلك الأسرة من كل الرجال القادرين على الحكم الذين سيرثونه بعد وفاته.

وعالجت في **الفصل السادس** الأوضاع الخارجية في عهد الشاه عباس الأول من خلال علاقاته مع العالم الإسلامي، الأوزبك، العثمانيين ومغول الهند والتي اتسمت بالعدائية الواضحة. وخرج الشاه من هذا الصراع مع العالم الإسلامي السني منتصراً، إذ سيطر على خراسان وأجزاء من أفغانستان وقندهار وأذربيجان وديار بكر والعراق وأجزاء من الخليج العربي مثل جزيرة هرمز والبحرين. غير أن عداءَه للدولة العثمانية، وإرضاء لنصارى أوروبا دفعه للتصرف بشكل يتجافى مع المبادئ الإسلامية مثل مشاركة النصارى في أعيادهم وشربه الخمر معهم حتى في شهر رمضان وبناء كنائس لهم.

وشرحت في **الفصل السابع** علاقات الشاه عباس الأول الخارجية مع العالم غير الإسلامي وأعني العالم الأوروبي، ولعل ما يُلفت النظر انفتاحه الواسع على الدول الأوروبية إسبانيا ـ البرتغال، إنكلترا، هولندا وشركة الهند الشرقية الإنكليزية من أجل تحقيق هدف مزدوج، التحالف السياسي مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية وتبادل التجارة معهم. والواقع أن التحالف السياسي لم يتحقَّق واكتفى الأوروبيون بالتبادل التجاري نظراً لحاجتهم إلى الحرير الإيراني وتسويق صناعاتهم الصوفية بين الإيرانيين. وبفعل تهافت الشاه على التعاون مع الأوروبيين بأي ثمن بدت المعاهدات التجارية التي عقدها معهم وكأنها بين دولتين إحداهما قوية والأخرى ضعيفة، كما أدخل منطقة الخليج العربي في دائرة الصراع الدولي الاستعماري بين

الدول المتنافسة على بسط سيطرتها على العالم ونهب ثرواته، وقد تأثرت إيران نفسها، سلباً، من هذا الاستعمار.

وعالجت في **الفصل الثامن** انحلال وسقوط الدولة الصفوية التي فقدت كل مقومات وجودها واستمراريتها بفعل تراكم الأخطاء والتجاوزات والتصرفات غير المسؤولة التي قام بها ملوك الأسرة الحاكمة على مدى تاريخهم، فاندفع الأفغان المنطلقين من قندهار باتجاه خراسان، فاجتاحوها ودخلوا إيران. والواقع أن هذه البلاد تعرَّضت في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي لغزوة مدمرة قام بها الأفغان السنة في الوقت الذي دخلت فيه الدولة الصفوية في مرحلة الشيخوخة ما أثار الأفغان الذين كانوا يحتفظون بقندهار باسم شاه إيران. وبرز من الأفغان ثلاث شخصيات أخذت على عاتقها إنهاء حكم الأسرة الصفوية هي مير أويس وابنه مير محمود ومير أشرف ثم نادر شاه الأفشاري مؤسس الدولة الأفشارية على أنقاض الدولة الصفوية المنهارة.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة وعبرة كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ.د. محمد سهيل طقوش

الفَصْــلُ الأولُ

الأوضاع السياسية في إيران[1] قبل قيام الدولة الصفوية

تمهيد

من المفيد قبل دراسة تاريخ الصفويين في إيران أن نلمَّ إلمامة وجيزة بأوضاع هذا البلد الطبيعية والسياسية في محاولة لاستجلاء جذوره التاريخية قبل قيام الدولة الصفوية، بفعل أن تلك الجذور كانت عوامل محركة لمسار التطور التاريخي الذي أتاح للصفويين تأسيس دولة لهم والتوسع على حساب جيرانهم.

الوضع الطبيعي

تتلو العراق شرقاً منطقة إيران، وتُعد النهاية الشرقية لإقليم الشرق الأدنى القديم، وكانت ذات أثر كبير في تاريخه وحضارته لأنها تقع على طريق المواصلات البرية بين الشرق الأقصى وإقليم البحر الأبيض المتوسط.

وشغلت الدولة الصفوية التي تأسست في إيران، من ناحية الجغرافيا الطبيعية، الهضبة الإيرانية التي تمتد بين هضبة أرمينيا في الغرب وهضبة بامير في الشرق، وتشمل في الوقت الحاضر دولتي إيران وأفغانستان وإقليم بلوجستان. وهي في

---

(١) كلمة إيران مشتقة من اسم الشعوب الآرية التي هاجرت إليها في التاريخ القديم ووردت في الأفستا تحت لفظ آيريانا أي موطن الآريين، ولم يُستخدم هذا الاسم في العصر الإسلامي وإنما استخدمت كلمة فارس للدلالة على إيران القديمة، ووفقاً لهذا فإن مفهوم هذا الاسم بعيد جداً عن مفهوم هذه الكلمة. وكانت في هذه البلاد ولاية تُدعى فارس، غير أنها لكونها مسقط رأس الأسرة الهخامنشية التي حكمت إيران قبل الميلاد بستة قرون، والأسرة الساسانية التي حكمت إيران منذ القرن الثالث الميلادي، وقد رفعتا اسم إيران عالياً في الشرق والغرب؛ فقد انتشر معنى هذا اللفظ الخاص وأطلق على العام وشمل الشعب كله والمملكة بأسرها، وهي التي نسميها فارس. وظلت هذه اللفظة مستخدمة في مختلف الدوائر المحلية والعالمية حتى عام ١٩٣٥م عندما عمَّم الشاه رضا بهلوي اسم إيران تأكيداً للفكر القومي الذي تزعمه.

براون، إدوارد: **تاريخ الأدب في إيران** جـ١ ص٣٨، ٣٩.

نوار، عبد العزيز سليمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث** جـ١ ص١٧، ١٨.

شكلها العام تمثل هضبة مثلثة تنحصر بين منخفضين، الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين وسهل التركمان في الشمال، وتغلب عليها الطبيعة الجبلية، وتتعدَّد فيها سلاسل الجبال التي تتخللها الممرات المؤدية إلى الداخل الإيراني، وتحيط بمنخفض في الوسط، وهي:

- جبال زاغروس في الغرب، التي تسير بشكل متواز من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويفصل فيما بينها، عدد من الوديان.

- جبال ألبرز في الشمال، المطلة على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين، وتمتد شرقاً حتى مرتفعات آلاداغ التي تكتنفها شمالاً جبال كوبيت، وتواصل امتدادها في اتجاه الشرق حتى المرتفعات الأفغانية وسلسلة جبال هندوكوش المطلة على سهول تركستان، وتمتد غرباً بحيث تنتهي في منطقة أذربيجان[1] التي تتوسطها بحيرة أرمية المالحة، وتكاد تكون أكثر المناطق الإيرانية كثافة في السكان حيث يسهل الدخول إليها من الشمال الغربي، والشمال، والشمال الشرقي، ما كان له أثر كبير في تاريخ البلاد.

- جبال خراسان[2] في الشرق، وهي قليلة الارتفاع، سهلة العبور، وتُعد المنفذ الثاني لدخول إيران.

- جبال مكران[3] في الجنوب، التي تطل تباعاً على سهول العراق والخليج العربي.

ويتكوَّن القسم الأوسط من البلاد من صحراء، وينقسم بدوره إلى قسمين:

الأول: شمالي، وهو عبارة عن مسطحات طينية مالحة تنعدم الحياة فيها.

الثاني: جنوبي، وهو عبارة عن منطقة جافة، تنعدم الحياة فيها أيضاً، والمعروف

---

(١) أذربيجان: حدّ أذربيجان من بردعة شرقاً إلى أرزنجان غرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرِّم، أشهر مدنها تبريز وهي قصبتها، وأكبر مدنها خُوَيّ وسلماس وأرمية وأردبيل ومَرند وغير ذلك، والغالب عليها الجبال.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: **معجم البلدان** جـ١ ص١٢٨.

(٢) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها، مما يلي العراق، أزاذوار قصبة جوَين وبيهق، وآخر حدودها، مما يلي الهند، طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وكانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٥٠.

(٣) مكران: ولاية واسعة الغالب عليها المفاوز والضرّ والقحط، وتقع بين كرمان في الغرب وسجستان في الشمال والبحر في الجنوب والهند في الشرق. المصدر نفسه: جـ٥ ص١٨٠.

أن الحركة السكانية في إيران تركَّزت منذ العصور القديمة في السهول والوديان التي تحيط بالهضبة من الخارج أو التي توجد في داخلها.

وتحيط بالهضبة من الخارج بعض السهول مثل سهل خوزستان في الجنوب الغربي[١]، ويُعد امتداداً لسهول العراق، وكان في الماضي مقراً لمدنية قديمة استقرت في السهل الشمالي وحتى الجبال المطلة على بحر قزوين.

ولم تؤد السهول الداخلية في الهضبة إلا دوراً ثانوياً في التاريخ الإيراني، وانحصرت الصعوبة الدائمة أمام سكانها في عدم توفر مياه الري، ومحاولتهم تأمينها.

وتقع مدن إيران القديمة وعواصمها في مواجهة الصحراء على طول الطريقين الرئيسين اللذين يحيطان بسلسلتي الجبال العظيمتين ألبرز في الشمال ومكران في الجنوب. وكان لهذا أثر كبير في قيام المدن فيها مثل دامغان[٢] ومشهد[٣] وغيرها، على شكل قوس حول الصحراء المالحة المذكورة[٤].

وهكذا نجد أن الهضبة الإيرانية من الوجهة الطبيعية تُعدُّ مجزأة إلى مناطق منفصلة غير متجانسة لا يسهل توحيدها، كما أن الدفاع عنها يسير، وعلى الرغم من هذه الظاهرة، فقد تمكَّنت بعض الشعوب التي مرَّت عبر تاريخها من خلق وحدة متجانسة تركت بصماتها الواضحة عليها، نذكر منها الصفويين في العصر الحديث.

الأوضاع السياسية

تمهيد: تعرَّضت إيران عبر عصورها لموجات متتالية من الهجرات لعل أهمها الهجرة الآرية ـ الهندوأوروبية ـ، وقد استوطن أفرادها البلاد وأنشأوا فيها المدن والقرى، وأسسوا امبراطوريات اشتهرت في التاريخ مثل: الميديين، والبارثيين والساسانيين وغيرهم.

وبرز في تاريخ إيران أسماء رجال عظام مثل كورش، مؤسس أكبر امبراطورية في الشرق في القرن السادس قبل الميلاد، وقمبيز الذي أوصل المد الفارسي إلى مصر، ودارا الذي غزا بلاد اليونان، وزُردشت الذي وضع القواعد الدينية المجوسية الثنوية القائمة على أساس الصراع الأزلي بين الخير والشر.

---

(١) يشغل منطقة سوسة القديمة.

(٢) دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور وهو قصبة قومس. الحموي: جـ٢ ص٤٣٣.

(٣) مشهد، هي طوس: مدينة في خراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ وبها قبر الإمام علي بن موسى الرضا وقبر هارون الرشيد. المصدر نفسه: جـ٤ ص٤٩.

(٤) عصفور، محمد أبو المحاسن: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم** ص٣٨٧ ـ ٣٨٩.
Ghrishman, R: **Iran**, p26.

وتعرَّضت إيران في القرن الرابع قبل الميلاد، مثل بقية مناطق الشرق الأدنى، لغزو الإسكندر المقدوني، وما جرى بعد وفاته من تجزأة أراضي امبراطوريته وتقاسمها بين قادته أن ظهرت في إيران الدولة السلوقية في عام (٣١٠ق.م). وعندما زالت هذه الدولة بعد وفاة الملك أنطيوخوس الثالث في غربي إيران في عام (١٨٧ق.م)، قامت الدولة البارثية المجوسية[1]. وكانت الدولة الساسانية هي الأخيرة التي قامت قبل الإسلام، وقد قضى عليها المسلمون. وانتشر الإسلام في إيران بسرعة وازدهرت فيها حضارته خلال العصر العباسي.

ونتيجة لضعف الخلفاء العباسيين الذي بدا واضحاً منذ القرن الثالث الهجري، تعرَّضت الدولة العباسية لانقسامات سياسية حادة، فظهرت الدول الانفصالية في إيران مثل الدول الطاهرية، والدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة البويهية، والدولة السلجوقية، قبل أن تتعرَّض البلاد لغزو مغولي في منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وأضحت ترزح تحت حكم مغولي وثني شديد العداء للإسلام والمسلمين، ثم اعتنق هؤلاء الدين الإسلامي، وأخذت إيران تسترد تدريجاً مكانتها تحت حكم الإيلخانيين المغول.

وعندما ضعف الإيلخانيون تعرَّضت البلاد لموجة مغولية ـ تركية بقيادة تيمورلنك[2]، الذي استولى عليها في عام (٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م)، وكانت دولته التي أسَّسها بالغلبة تركية الطابع إيرانية الحضارة. ولم تلبث هذه الدولة أن تفكَّكت بسرعة بعد وفاته في (شعبان ٨٠٧هـ/ شباط ١٤٠٥م)، فسارت الأوضاع السياسية في إيران نحو الأسوأ بفعل:

ـ التنازع الأسري بين خلفائه، فانتشرت الفتن وعمَّت الفوضى.

ـ الصراع بين القبائل التركمانية وبخاصة قبيلتي القرة قوينلو[3] والآق قوينلو[4].

---

(١) استمرت الدولة السلوقية في سوريا حتى عام ٦٤ ق.م عندما قضى عليها القائد الروماني بومبيوس، في عهد أنطيوخوس الثالث عشر، وحوَّلها إلى ولاية رومانية.

(٢) ينتسب تيمور إلى أسرة كوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التركية. وكان أبوه تورغان شيخاً لهذه القبيلة، وأمه تكينة خاتون التي يرتبط نسبها بجنكيزخان. ولد تيمورلنك في قرية خواجة إيلغار من أعمال كش في بلاد ما وراء النهر، ونشأ نشأة لصوصية، فقد بدأ حياته كقاطع طريق يسرق الأغنام وأُصيب بسهم في قدمه في إحدى عمليات السرقة سبَّب له عرجة دائمة، فأضيف إلى اسمه كلمة لنك ومعناها الأعرج فأضحى اسمه تيمورلنك.

(٣) القرة قوينلو، الخروف الأسود وقد سُميت بذلك نسبة إلى لون علمها أو خرافها، ويرى البعض أن الأصل في نسبة هذه التسمية يرجع إلى أن الخروف الأسود كان رمزاً عليها، والجدير بالذكر أن هذه القبيلة اعتنقت المذهب الشيعي الاثني عشري.

(٤) الآق قوينلو، الخروف الأبيض، وقد سميت بذلك إما نسبة إلى لون علمها أو خرافها أو إلى =

ـ تنامي قوة الأوزبك في منطقة ما وراء النهر[1]، وقد تطلعوا للتوسع باتجاه الغرب.

تفكُّك الامبراطورية التيمورية

كانت امبراطورية تيمورلنك التي تركها بعد وفاته واسعة الأرجاء[2]، لكن هذا الاتساع الكبير لم يكن له تأثير على ديمومتها، إذ تعرَّضت للنزاعات الأسرية، ما أفقدها وحدتها وقوتها، ولم تُعمِّر سوى مائة سنة ونيف (٨٠٧ ـ ٩١٣هـ/ ١٤٠٥ ـ ١٥٠٧م)، وكان تيمورلنك قد عيَّن أولاده وأحفاده[3] على الولايات المختلفة، فتمسَّك كل واحد منهم بما تحت يديه من أملاك وحاول توسيع رقعتها على حساب الآخرين.

وعندما توفي تيمورلنك كان ميران شاه حاكماً على أذربيجان والعراق والجزيرة الفراتية، وشاه روخ حاكماً على خراسان وهراة[4]، وبير محمد بن جهانكير حاكماً على غزنة[5]، وخصَّه جده بولاية العهد، وأولوغ بك ابن شاه روخ حاكماً على التركستان[6] وما وراء النهر، وأخوه إبراهيم سلطان حاكماً على بلخ[7] ولورستان[8] وفارس. وعلى أثر الحروب الداخلية التي نشبت بينهم انحصرت التركة بين الأخوين

= أن الخروف الأبيض كان رمزاً عليها، والمعروف أن هذه القبيلة كانت على مذهب أهل السنة.

(١) بلاد ما وراء النهر: يراد بها البلاد الواقعة وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقه يقال له بلاد الهياطلة وما كان في غربه فهو خراسان وولاية خوارزم. الحموي: جـ٥ ص٤٥.

(٢) ضمَّت امبراطورية تيمورلنك: ما وراء النهر، خراسان، جرجان، مازندران، سجستان، هراة، خوارزم، إيران، العراق، لورستان وأذربيجان.

(٣) من بين الأولاد الأربعة الذين أنجبهم تيمورلنك، بقي اثنان منهم على قيد الحياة بعد وفاته، هما: جلال الدين ميران شاه ومعين الدين شاه روخ، أما الولدان اللذان توفيا في حياة والدهما، هما: غياث الدين جهانكير، توفي عام (٧٧٧هـ/ ١٣٢٧٥م) ومعز الدين عمر شيخ، قُتل في عام (٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م)، وكان لتيمورلنك اثنان وثلاثون حفيداً مات معظمهم في حياته.

(٤) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. الحموي: جـ٥ ص٣٩٦.

(٥) غزنة أو غزنين: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند. المصدر نفسه: جـ٤ ص٢٠١.

(٦) تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك. المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٣.

(٧) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخاً. المصدر نفسه: جـ١ ص٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(٨) لورستان: اللور كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان، كانت من خوزستان إلا أنها أُفردت في أعمال الجبل لاتصاله بها. المصدر نفسه: جـ٥ ص٢٥.

ميران شاه وشاه روخ، فحصل الأول مع ابنيه أبي بكر وعمر شيخ على إيران الغربية والعراق والجزيرة الفراتية، وأرَّان[1] والكرج[2] وأرمينيا[3]، وأخذ شاه روخ خراسان وهراة وما وراء النهر.

كان بير محمد الحاكم الشرعي وفقاً لوصية تيمورلنك، غير أن الأمراء التيموريين في مدينة أوترار[4] اختاروا ميرزا خليل بن ميران شاه لحكم بلاد ما وراء النهر وتركستان، فجلس على العرش في سمرقند في (٤ رمضان ٨٠٧هـ/ ٦ آذار ١٤٠٥م)، واعتقدوا أنه سيقودهم للتوسع على حساب الصين وهو المشروع الذي كان تيمورلنك على وشك تنفيذه قبل وفاته، غير أنه لم يكن على مستوى المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه.

والواقع أن ميرزا خليل تعرَّض لمشكلات عدة. فقد خرج عليه بعض أمرائه بفعل سلوكه السيئ، كما تعرَّض لضغط مزدوج من جانب عمه شاه روخ الذي زحف إلى بلاد ما وراء النهر لانتزاع أموال الدولة منه، وكان قد وضع يده عليها بعد وفاة تيمورلنك، غير أنه استرضى عمه بأن دخل في طاعته، وأعطاه قسماً من خزائن تيمورلنك، فثبَّته في حكم بلاد ما وراء النهر وعاد إلى خراسان[5]، وتعرَّض أيضاً لضغط من جانب بير محمد الذي أثاره اعتلاؤه العرش، غير أن جهوده التي بذلها فشلت في القضاء عليه. وعندما كان يُجهز جيشاً آخر لقتاله، اغتيل على يد أحد أمرائه في عام (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)[6].

وما جرى بعد ذلك من عزل ميرزا خليل من قِبَل أحد أمرائه وإلقائه في السجن؛

---

(١) أرَّان: اسم أعجمي لولاية واسعة، من مدنها: جنزة، برذعة، وبيلقان، وبين أذربيجان وأرَّان نهر يقال له الرس، كل ما جاوره من ناحية الغرب والشمال فهو أرَّان، وما كان من جهة الشرق فهو أذربيجان. الحموي: المصدر نفسه: جـ١ ص١٣٦.

(٢) الكرج: مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق. والكرج جيل من النصارى كانوا يسكنون جبال القبق، القبجاق، وبلد السرير، ولهم ولاية تُنسب إليهم. المصدر نفسه: جـ٤ ص٤٤٦.

(٣) أرمينيا: اسم لصقع عظيم في جهة الشمال، والنسبة إليه أرمني، وهما: أرمينيتان، الكبرى والصغرى، وحدُّهما من برذعة إلى باب الأبواب، ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق، وقيل: أرمينيا الكبرى خلاط ونواحيها، وأرمينيا الصغرى تفليس ونواحيها، وقيل: أربع. انظر: المصدر نفسه: جـ١ ص١٥٩، ١٦٠.

(٤) أوترار: تقع على الساحل الغربي لنهر سيحون.

(٥) Roemer, H.R: **The Successors of Timur, ch3**, pp 99-101. in Cambridge History of Iran vol, 1997.

(٦) الحسيني: ص٢٢٤، ٢٢٥.

أن استولى حاكم كاشغر على بلاد ما وراء النهر، فاضطر شاه روخ إلى الذهاب إلى هناك لإصلاح الموقف، فأخرج ميرزا خليل من السجن وعيَّنه على الري وأمره بالاستيلاء على العراق العجمي، غير أنه قُتِل في الري على يد أحد أمرائه في (١٦ رجب ٨١٤هـ/ ٤ تشرين الأول ١٤١١م)، فعيّن شاه روخ ابنه أولوغ بك خلفاً له[١].

وتعرَّض القسم الغربي من امبراطورية تيمورلنك الواقع تحت حكم ميران شاه للاضطرابات أيضاً، ذلك أن ميران شاه أُصيب باختلال في قواه العقلية فضعفت قدرته على إدارة الشؤون العامة، لذلك أشرك معه ولديه أبا بكر وعمر شيخ في الحكم مع تفضيل الثاني في إدارة الشؤون العامة، فطمع هذا بالاستئثار بالحكم، فقبض على أخيه أبي بكر وسجنه في السلطانية، ولاذ ميران شاه بالفرار إلى خراسان، حيث قُتل في غمرة الصراع على أذربيجان مع قرة يوسف زعيم القرة قوينلو في (٢٤ ذي القعدة ٨١٠هـ/ ٢١ نيسان ١٤٠٨م)، واستدعى سكان تبريز ابنه أبا بكر الذي فرَّ من سجنه ونصَّبوه حاكماً عليهم[٢]. وثار عمر شيخ على عمه في شيراز وجُرح في القتال الذي جرى بينهما وتوفي من أثره في (ذي الحجة ٨٠٩هـ/ أيار ١٤٠٧م) في حين اصطدم أخوه أبو بكر بقرة يوسف التركماني، فهُزم وفرَّ إلى كرمان حيث قُتل هناك في السنة نفسها. وعلى هذا الشكل كانت نهاية ميران شاه وولديه أبي بكر وعمر شيخ ثم ميرزا خليل بعد ذلك كما ذكرنا[٣].

وظل شاه روخ يعاني من تمرد أولاد إخوته بالإضافة إلى عداء قرة يوسف وأولاده حتى أخضعهم جميعاً. وساعدته الظروف السياسية بتوسيع أراضيه، فاستولى في عام (٨١٧هـ/ ١٤١٤م) على جرجان ومازندران، كما استولى على كرمان بعد عامين وانتزعها من سلطان أويس ابن الأمير إيديكو برلاس، واستمر يتوسع إما عن طريق الغلبة أو عن طريق التحالفات حتى تمكَّن عام (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) من السيطرة على القسم الشرقي من امبراطورية تيمورلنك الذي يشمل بلاد ما وراء النهر وجرجان وسيستان وجنوبي إيران ووسطها باستثناء العراق العربي وأذربيجان، وأضحى خليفة تيمورلنك.

وتصدَّى شاه روخ لطموحات قرة يوسف التركماني وأولاده وقد طمعوا في تأسيس إمارة لهم في أذربيجان. والواقع أن القرة قوينلو شكلوا خطراً جدياً، على مدى عقود، على امبراطورية تيمورلنك، وحاول شاه روخ أن يسوي المسألة مع قرة

---

(١) الحسيني ص٢٢٤، ٢٢٥. پازوكي، رضا: **تاريخ إيران أز مغول تا أفشارية** ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) إقبال: ص٦١٤.

(٣) المرجع نفسه. شيباني، نظام الدين مجير: **تشكيل شاهنشاهي صفوية** ص٩، ١٠.

يوسف سلماً، إلا أنه فشل في ذلك، عندئذ لم يكن أمامه سوى الحل العسكري. فقام بثلاث حملات عسكرية في أعوام (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) و(٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) و(٨٣٨هـ/ ١٤٣٤ ـ ١٤٣٥م) تمكَّن في نهايتها من إخضاع قبيلة القرة قوينلو، فدخل جهان شاه بن قرة يوسف في طاعته، فوَّلاه على أذربيجان وفرَّ أخوه إسكندر، وكان والدهما قرة يوسف قد توفي وهو في طريقه لمحاربة شاه روخ في الحملة الأولى[١].

لم يقم شاه روخ بعد قضائه على القرة قوينلو بأي حملات عسكرية هامة، وانصرف إلى إقامة الإنشاءات المعمارية والحفاظ على العلاقات الودية مع دول الأطراف، الصين والهند والتيبت، وتوفي في الري في (٢٥ ذي الحجة ٨٥٠هـ/ ١٣ آذار ١٤٤٧م)[٢] بعد حياة حافلة بالنضال من أجل إعادة الوحدة إلى مملكة والده، وتحقيق الاستقرار في ربوعها وإنقاذها من التردي السياسي والاجتماعي الذي كان قد حلَّ بها بعد وفاة تيمورلنك، ويُعدُّ أحد أفضل الرجال الذين حكموا إيران. اتصف بالتدين والتقوى والعدل والكرم، أحبَّ العلم، وشجَّع الطلاب على طلبه، واهتم بالفنون، رمَّم كثيراً مما تهدم نتيجة حروب والده، وأنشأ قلعة على نهر هندوان[٣]، وأوصى ولاته بإقامة الأبنية في أقاليمهم. واقتدت زوجته، جوهر شاد آغا، به، وما زالت آثارها في هراة وخراسان قائمة لعل أهمها: مدرسة هراة ومدرسة مشهد التي تحمل اسمها. وكان شاه روخ ينظم الشعر، حسن الخط، وكانت هراة في عصره مركزاً لتجمع العلماء والأدباء والشعراء والخطاطين والرسامين، وأسس مكتبة ضخمة، وأُلِّف في عهده عدد من أفضل الكتب التاريخية الفارسية.

تعرَّضت الدولة التيمورية بعد وفاة شاه روخ إلى نزاعات أسرية حادة ودامية عجَّلت في تفكُّكها وقرَّبت نهايتها. والواقع أن شاه روخ لم ينظم أمر خلافته، لكن المعروف أنه كان يُفضل ابنه محمد جوكي حاكم بلخ ليخلفه على العرش، ولكن هذا الابن توفي قبل ثلاث سنوات من وفاة والده، وساندت جوهر شاد آغا سراً علاء الدين بن بايستقر بن شاه روخ، والمعروف أن هذه السيدة اتسمت بالازدواجية السياسية، في حين كان شاه روخ قد أحاط في أواخر سني حكمه حفيده عبد اللطيف بن أولوغ بك باهتمام كبير، وهو الذي تميز بصفات القائد العسكري، وآثره مع وزيريه خواجة غياث الدين بير أحمد خوافي وخواجة شمس الدين

---

(١) إقبال: ص٦١٥.

(٢) الحسيني، يحيى بن عبد اللطيف: **لب التواريخ** ص١٩٠.

(٣) هندوان: نهر بين خوزستان وأرّجان عليه ولاية. الحموي: جـ٥ ص٤١٨.

السمناني، وعيَّنه حاكماً على هراة في عام (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)[١].

وساند الوزيران عبد اللطيف في سعيه لاعتلاء العرش بعد وفاة شاه روخ، غير أن جوهر شاد آغا دفعت بعض الأمراء إلى مساندة علاء الدين الموجود في هراة لخلافة جده، وأقنعت عبد اللطيف بشغل منصب قيادة الجيش.

وأرسل عبد اللطيف رسالة إلى والده أولوغ بك يعلمه بالتطورات المستجدة بعد وفاة شاه روخ، فأسرع بالحضور إلى خراسان لتسوية الموقف لصالحه، فعبر نهر جيحون واستولى على بلخ واستقر في سمرقند، وأفشل محاولة الأمير أبي بكر بن محمد بن جوكي الاستيلاء على السلطة، فاتهمه بالخيانة وقضى عليه في سمرقند. وعندما علم علاء الدين بذلك، قبض على عبد اللطيف وأودعه السجن، واضطر أولوغ بك إلى التفاهم مع ابن أخيه حيث تقرر أن يحتفظ علاء الدين بحكم هراة مقابل الإفراج عن عبد اللطيف الذي عاد إلى سمرقند[٢].

تجدَّد الصراع السياسي على السلطة بين أولوغ بك وعلاء الدين، وانتهى بانتصار الأول في معركة ترناب في (أوائل ٨٥٢هـ/ ربيع ١٤٤٨م)، فاستولى على مشهد، في حين دخل ابنه عبد اللطيف هراة. وقد شكل هذا التوسع خطوة مهمة للنفاذ إلى خراسان، وفرَّ علاء الدين إلى شيراز محتمياً بأخيه أبي القاسم بابر[٣].

واجه أولوغ بك خلال حكمه بعض المشكلات التي لم يتمكَّن من تجاوزها منها:

- لقد تعرَّض لخطر خارجي مزدوج. ففي الغرب ثبَّتت قبيلة القرة قوينلو أقدامها في الشمال الغربي لإيران وشرقي الأناضول بعد الحملات الثلاث الفاشلة التي نفَّذها شاه روخ ضدها، وأسَّست إمارة في ربوعها، وأخذت تهاجم الأراضي التيمورية. وفي الشرق، هاجم الزعيم الأوزبكي أبو الخير (٨٣١ - ٨٧٣هـ/ ١٤٢٨ - ١٤٦٨م) أراضي بلاد ما وراء النهر ووصل إلى ضواحي سمرقند، فأحرقها وعاد إلى بلاده[٤].

- وتعرَّض أولوغ بك في الداخل لثورة قام بها ابنه عبد اللطيف بالتحالف مع أبي القاسم بابر في عام (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)، وجرى قتال بينهما حول سمرقند انهزم أولوغ بك في نهايته ووقع أسيراً في يد ابنه، فطلب منه السماح له بالذهاب إلى مكة للحج، غير أنه قتل في الطريق بالقرب من سمرقند في (١٨ رمضان/ ٢٥ تشرين الأول)، والراجح أن ابنه عبد اللطيف كان وراء حادثة الاغتيال[٥].

---

(١) أحمدوف، يوريبوي وزاهد الله منروف: **العرب والإسلام في أوزبكستان** ص٢٥٢.

(٢) إقبال: ص٦١٦.

(٣) المرجع نفسه: ص٦١٧.

(٤) أحمدوف ومنروف: ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٥) المرجع نفسه: ص٢٥٥، ٢٥٦.

لم يحكم عبد اللطيف بعد مقتل والده أكثر من ستة أشهر، فقد اتصف بالفظاظة وسوء الخلق والظن ما عرَّضه لمؤامرة داخلية، وقُتل بالسهام خارج سمرقند في (٢٦ ربيع الأول ٨٥٤هـ/ ١٠ أيار ١٤٥٢م)[١].

خلف عبد اللطيف، عبد الله بن إبراهيم سلطان بن شاه روخ حاكم فارس، لكن نازعه أبو سعيد حفيد ميران شاه، حاكم سمرقند، وقد طمع في السيطرة على خراسان وسائر أنحاء إيران، إلا أنه تعرَّض للهزيمة وفرَّ إلى الزعيم الأوزبكي أبي الخير لطلب المساعدة. وكان الأوزبك آنذاك يطمعون في بلاد ما وراء النهر، فقدَّم أبو الخير له المساعدة المطلوبة، فهاجم سمرقند في (جمادى الأولى ٨٥٥هـ/ حزيران ١٤٥١م)، ودخلها وقتل عبد الله وتولى الحكم، وتوسع على حساب الأمراء التيموريين في هراة وغزنة وكابل وسيستان وخوارزم، وقتل جوهر شاد آغا زوجة شاه روخ في (٩ رمضان ٨٦١هـ/ ٣١ تموز ١٤٥٧م) لأنها اعترضت طريقه، وسيطر على بلاد ما وراء النهر بعد مقتل أميرها عبد الله[٢].

وما جرى بعد ذلك من وفاة جهان شاه حاكم أذربيجان أن زحف أبو سعيد إلى النواحي الغربية لمملكته في محاولة للاستيلاء على أملاك المتوفى، غير أنه واجه معارضة من جانب أوزون حسن زعيم الآق قوينلو، وجرى قتال بين الطرفين وقع أبو سعيد خلاله في الأسر، وقُتل على يد يادكار محمد بن سلطان محمد بن بايسنقر في (رجب ٨٧٣هـ/ كانون الثاني ١٤٦٩م) ولعل الذي دفع هذا إلى قتله هو الانتقام لمقتل جدته جوهر شاد آغا على يديه[٣].

انقسمت الدولة التيمورية في بلاد ما وراء النهر بعد مقتل أبي سعيد، وتوزَّعت أراضيها على أبنائه، فنال الابن الأكبر أحمد سمرقند وما جاور بخارى وكان نصيب ابنه الثاني محمود منطقة بذخشان ويدخل فيها المنطقة الواقعة بين هندوكوش وجبال حصار في الجنوب الشرقي من سمرقند، ونال الابن الثالث عمر شيخ بخارى وما حولها ومن ضمنها مدينة فرغانة، وكان نصيب الابن الرابع أولوغ كابل وغزنة.

اتصف الإخوة بالطموح السياسي فأراد كل واحد منهم أن يوسع أراضيه على حساب إخوته وجيرانه، وحذا أولادهم، من بعدهم، حذوهم، ما أتاح للأوزبك التدخل في شؤونهم، فهاجم شيباني خان الأوزبكي مدينة سمرقند في عام (٩٠٧هـ/

---

(١) الحسيني: ص٢٠٠. إقبال: ص٦١٨.

(٢) الحسيني: المصدر نفسه. إقبال: ص٦١٩.

(٣) الحسيني: ص٢٠٢. أحمدوف ومنروف: ص٢٦٦، ٢٦٧.

١٥٠١ ـ ١٥٠٢م) وكانت تحت حكم بابر بن عمر شيخ، ودخلها منهياً بذلك حكم التيموريين في بلاد ما وراء النهر[١].

وتعرض القسم الغربي لدولة التيموريين لنزاعات داخلية حادة وخطر خارجي تركماني وأوزبكي، ما أدى إلى زواله. ذلك أنه بعد مقتل أبي سعيد اعتلى حسين بايقرا[٢] عرش التيموريين بمساعدة وزيره علي شيرنوائي، وقد واجه ضغطاً خارجياً من قِبَل أوزون حسن زعيم الآق قوينلو، الذي أراد أن يستثمر انتصاره على أبي سعيد، فاجتاح العراق العجمي وفارس وكرمان، وعيَّن يادكار محمد أميراً على أملاك التيموريين، وأرسله إلى خراسان مع الجنود التيموريين الذين كانوا معه آنذاك، فاصطدم بحسين بايقرا إلا أنه تعرض لهزيمة غير واضحة في شيناران في (٨ ربيع الأول ٨٧٤هـ/ ١٥ أيلول ١٤٦٩م)، فأمده أوزون حسن بقوة إضافية. وبدا واضحاً أن الزعيم التركماني أراد أن يستغل الأمير التيموري للاستيلاء على خراسان، فهاجم هراة، واضطر حسين بايقرا إلى الخروج منها، ودخلها يادكار محمد في (٩ محرم ٨٧٥هـ/ ٨ تموز ١٤٧٠م)، غير أنه لم يلبث أن فقدها بعد ستة أسابيع واستعادها حسين بايقرا.

وتقلَّصت بعد وفاة يادكار محمد، سلطة أوزون حسن على خراسان وقاربت نهايتها، إذ لم يقم بأي محاولة أخرى للتوسع في أراضي إيران الشرقية، ومن جهته قنع حسين بايقرا بحكم هراة وأحجم عن التوسع على حساب جيرانه. وتعرَّض حسين بايقرا لضغط الأوزبك في الشرق الذين تطلعوا للتمدد باتجاه خراسان بعد أن سيطروا على بلاد ما وراء النهر.

وواجه حسين بايقرا ثورة أبنائه في الداخل ضمن الصراع المتنامي بين الأمراء التيموريين على السلطة، نذكر منهم: إبراهيم حسين في بلخ وبديع الزمان حاكم استرآباد، وعلى الرغم من أنه أخمد هذه الثورات إلا أن نتائجها كانت سلبية على وضع التيموريين، وأدَّت إلى مزيد من التفكُّكْ. وتوفي حسين بايقرا في (١١ ذي الحجة ٩١١هـ/ ٤ أيار ١٥٠٦م) وهو في طريقة لمحاربة الأوزبك، فدبَّ النزاع بين أولاده في ظل استمرار الضغط الأوزبكي. ونجح محمد شيباني خان الأوزبكي (٨٥٥ ـ ٩١٦هـ/ ١٤٥١ ـ ١٥١٠م) في دخول هراة، وفرَّ أولاد حسين بايقرا منها.

وكان محمد زمان آخر شخصية تيمورية ظلت تحكم حتى عام (٩٢٩هـ/ ١٥٢٤م)

---

(١) **بابر نامه**: ص٢٦٩. فامبري، أرمينيوس: **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر** ص٣٠٩.

(٢) هو ابن غياث الدين منصور بن بايقرا بن عمر شيخ بن تيمورلنك.

في بلخ قبل أن يقضي عليه الشاه إسماعيل الصفوي[1]. وأعلنت بعض الأسر في غضون ذلك، عن معارضتها للحكم التيموري في إيران، وشرعت في تأسيس حكومات مستقلة نذكر منها: حكومة شَروان شاه في شَروان، ومحمد قرة في أبرقوه[2] وحسين كياي جلاوي في سِمنان وخوار وفيروزكوه وغيرهم.

وبذلك انتهى حكم التيموريين في إيران.

الصراع بين القبيلتين التركمانيتين القرة قوينلو والآق قوينلو

بعد انهيار سلطة الإيلخانات[3] في إيران في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥ ـ ١٣٣٦م) توزعت أملاكهم بين الأسر المغولية ومن بينها الأسرة الجلائرية التي استقلّت في العراق بزعامة شيخ حسن الكبير واتخذت بغداد حاضرة لها، كما برز التركمان الذين تدفقوا على غربي آسيا بسبب الضغط المغولي قادمين من خوارزم وأطراف بحيرة آرال وشرقي بحر قزوين، الخزر، واستقروا في الشمال الغربي، وشمالي الجزيرة الفراتية، واستغلوا ضعف إيلخانات إيران بعد وفاة الإيلخان أبي سعيد بهادور في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥ ـ ١٣٣٦م)، فأخذوا يغيرون على مناطق الأطراف. وأشهر هذه القبائل التركمانية التي أدَّت دوراً فاعلاً في الحياة السياسية قبيلتان هما القرة قوينلو الشيعية المذهب بزعامة قرة يوسف بن قرة محمد[4] والآق قوينلو السنية المذهب بزعامة أوزون حسن[5].

سكنت قبيلة القرة قوينلو الأراضي الواقعة شمالي بحيرة وان في أرمينيا واتخذت أرغيش الواقعة في شمال شرقي البحيرة المذكورة حاضرة لها، في حين استقرت قبيلة الآق قوينلو إلى الغرب منها، في ديار بكر، واتخذت آمد حاضرة لها.

واجه قرة يوسف في أوائل عهده خطر تيمورلنك الزاحف إلى غربي آسيا للقضاء

---

(١) شيباني: ص١٢، ١٣.

(٢) أبرقوه: بلد مشهور بأرض فارس من كورة إصطخر قرب يَزْد، وأهل فارس يسمونها وركوه. الحموي: المصدر نفسه: جـ١ ص٦٩.

(٣) شكَّلت إيران والعراق وآسيا الصغرى وما التحق بها من ولايات نصرانية مثل: قيليقيا والكرج، منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، الدولة الإيلخانية المغولية ولكن تحت إشراف الخان الأعظم في الصين قبل أن تستقل في أواخر القرن المذكور في عهد الإيلخان محمود قازان. وكلمة إيلخان تعني تابع الخان.

(٤) كان قرة محمد أحد أعيان السلطان الإيلخاني أحمد تكو دار (٦٨١ ـ ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤م) وقد تزوج هذا السلطان أخته. الحسيني: ص٢١١.

(٥) هو أبو النصر حسن بك بن علي بن عثمان بن قتلغ بن حاجي بيك. وقد اشتهر بأوزون حسن نظراً لطول قامته، والمعروف أن كلمة أوزون بالتركية تعني الطويل القامة.

على نفوذ الحكام المحليين ومنهم قرة يوسف نفسه وأحمد الجلائري حاكم العراق. فتحالف الرجلان لمقاومته، غير أنهما لم يصمدا طويلاً في وجهه واضطرا إلى الفرار إلى آسيا الصغرى للاحتماء بالسلطان العثماني بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣م). فدخل تيمورلنك العراق في عام (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، وكان قد سيطر على خراسان ومازندران وكردستان وأذربيجان وشَروان وأرمينيا وأرزن الروم وأرزنجان، ثم توجها إلى مصر لطلب المساعدة من الملك المملوكي الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ ـ ٨١٥هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤١٢م)، إلا أنه قبض عليهما وزجَّهما في السجن حرصاً على صداقته مع تيمورلنك[١].

وبعد وفاة تيمورلنك أطلق الناصر فرج سراحهما، فتوجَّه قرة يوسف في (جمادى الأولى ٨٠٩هـ/ تشرين الأول ١٤٠٦م) على رأس ألف مقاتل إلى أذربيجان للسيطرة عليها وكانت تحت حكم أبي بكر ميرزا بن ميرانشاه، واستولى في طريقه على قلاع عدة انتزعها من القادة التيموريين، فاصطدم به بالقرب من نخجوان وانتصر عليه وانتزع منه مدينة تبريز وطارده حتى جرجان وهزمه ثانية، وقُتل ميرانشاه بن أبي بكر في المعركة، وسيطر قرة يوسف على كامل أذربيجان[٢]!

وطمع قرة يوسف في ضم ديار بكر والعراق، فهاجم قرة عثمان البايندري زعيم الآق قوينلو في (جمادى الأولى ٨٠٩هـ/ تشرين الأول ١٤٠٦م) وانتصر عليه، وضمَّ ديار بكر إلى أملاكه، ثم ضمَّ العراق في عام (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) بعد قتال جرى بينه وبين حليفه السابق أحمد الجلائري الذي قُتل في المعركة. وعيَّن قرة يوسف ابنه محمد شاه حاكماً على العراق[٣].

وتوسع قرة يوسف باتجاه الشمال، فهاجم شَروان والكرج، وسيطر على السلطانية[٤] وساوة[٥] وقزوين[٦] وطارم[٧]، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى وصل

---

(١) ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي: **عجائب المقدور في نوائب تيمور** ص٣٠٨. شيباني: ص١٨.

(٢) شيباني: ص١٨.

(٣) إقبال: ص٦٣.

(٤) السلطانية: تقع بين أبهر وزنجان بناها أرغون خان المغولي وأتمها السلطان أولغايتو في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م) وجعلها قاعدةً للدولة الإيلخانية. لسترنج، كي: **بلدان الخلافة الشرقية** ص٢٥٧.

(٥) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط بينهما وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخاً. الحموي: جـ٣ ص١٧٩.

(٦) قزوين: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً. المصدر نفسه: جـ٤ ص٣٤١.

(٧) طارم: تقع هذه المدينة بمحاذاة السفح الجنوبي للجبال التي تفصل إقليم الجبال عن بلاد الديلم وطبرستان في الشمال. لسترنج: ص٢٦٠.

إلى حلب[١].

وضعت هذه الرغبة في التوسع قرة يوسف وجهاً لوجه أمام شاه روخ الحاكم التيموري على خراسان، بفعل تجاور أملاكهما، وقد خشي من امتداد النفوذ التركماني إلى أراضيه، فنهض للقضاء على قرة يوسف، غير أن هذا ألمَّ به مرض توفي من إثره في عام (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)[٢].

خلف إسكندر والده قرة يوسف، وكان شاه روخ يتقدم باتجاه أذربيجان، وجرى اللقاء الدامي بينهما في السنة نفسها، وأسفر عن انتصار شاه روخ، وفرَّ إسكندر مع أخيه جهان شاه من أرض المعركة، ودخل القائد التيموري البلاد، وبعد أن رتَّب أوضاعها عاد إلى خراسان[٣].

استغل إسكندر عودة شاه روخ إلى بلاده، فجمع قواته وهاجم الحاميات التيمورية في أذربيجان، فطردها واستعاد البلاد، وهاجم شَروان وأرَّان وبلاد الأكراد، واستولى على السلطانية التابعة لشاه روخ في عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، فاضطر القائد التيموري للعودة إلى أذربيجان للمرة الثانية لتأديب إسكندر، فاصطدم به في سلماس[٤]، وعلى الرغم من استبسال الأمير التركماني إلا أنه تعرض لهزيمة قاسية، وفرَّ من أرض المعركة باتجاه الأناضول، وعاد شاه روخ بعد انتصاره إلى خراسان[٥].

وقام شاه روخ بحملة ثالثة ضد إسكندر في عام (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤ ـ ١٤٣٥م)، الذي استعاد أذربيجان مرة ثانية. وما جرى في غضون ذلك من انضمام جهان شاه وبعض أمراء القرة قوينلو إلى صفوف التيموريين، بعد فشل إسكندر في حسم الصراع لصالحه مع شاه روخ، أجبر إسكندر على الفرار من أمامه من دون قتال، متوجهاً إلى الأناضول للاحتماء بالعثمانيين، وقد تصدّى له قرة عثمان البايندري قرب أرزنجان لقطع الطريق عليه، لكنه جُرح في القتال الذي جرى بينهما وتوفي من إثره في (صفر ٨٣٩هـ/ آب ١٤٣٥م)[٦].

استاء إسكندر من انقلاب أخيه عليه وانضمامه إلى شاه روخ، فهاجمه، إلا أنه تعرض للهزيمة وفر إلى نخجوان، حيث قُتل هناك على يد ابنه قباد في عام

---

(١) شيباني: ص١٩. صفا، ذبيح الله: **تاريخ أدبيات در إيران** جـ٤ ص١٤.

(٢) شيباني: المصدر نفسه. Roemer: p162.

(٣) Ibid.

(٤) سلماس: مدينة مشهورة بأذربيجان بينها وبين أُرمية يومان وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام، وهي بينهما. الحموي: جـ٣ ص٢٣٨، ٢٣٩.

(٥) إقبال: ص٦٣١.

(٦) Roemer: p158.

(٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)[1].

خلف جهان شاه أخاه إسكندر، ووصلت إمارة القرة قوينلو في عهده إلى ذروة قوتها، وكان تابعاً لشاه روخ الذي أضاف إليه حكم العراق وفارس وكرمان، غير أن وفاة القائد التيموري في عام (٨٥٠هـ/ ١٤٤٧م) غيَّرت الأوضاع السياسية في المنطقة، فقد أعلن جهان شاه استقلاله عن التيموريين، وتمسَّك بما تحت يديه من أملاك، وأراد أن يتوسع على حسابهم، فزحف شرقاً واستولى على السلطانية وقزوين وأصفهان[2] في عام (٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، وفارس وكرمان في العام التالي وتلقَّب بلقب سلطان وخاقان، ثم استولى على هراة عاصمة التيموريين في عام (٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م)، غير أنه توقف عن الزحف فجأة. فما الذي تغيَّر في الأفق السياسي حتى أقدم على ذلك؟

الواقع أن توسع جهان شاه على هذا الشكل أثار ضده كلّاً من أبي سعيد بن شاه روخ الذي نهض من التركستان على رأس جيش كبير لاستعادة أملاك التيموريين وبخاصة العاصمة هراة، وأوزون حسن زعيم الآق قوينلو الذي خشي من أن يُهدد جهان شاه أملاكه في ديار بكر. وواجه جهان شاه خطراً ثالثاً تمثل بثورة ابنيه حسن علي في أذربيجان، وبير بوداق حاكم فارس، وقد استولى على بغداد وأعلن ثورته منها.

وهكذا وقع جهان شاه بين فكي الكماشة، التيموريين من الغرب والآق قوينلو من الشرق بالإضافة إلى ثورة ابنيه، فاضطر إلى التوقف عن متابعة الزحف للاستعداد لمواجهة هذه الأخطار.

الواقع أن جهان شاه أراد تبريد الجبهة الشرقية ليتفرغ لثورة ابنيه بالإضافة إلى الخطر القادم من الغرب، فتفاهم مع أبي سعيد وعقد صلحاً معه تنازل له بموجبه، عن خراسان، وعاد إلى تبريز[3].

ونهض جهان شاه لوضع حد لتمرد ابنه بير بوداق، فحاصره في بغداد في عام (٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م) التي سقطت بعد عام ونصف، وقُتل بير بوداق على يد أخيه محمد الذي خلفه على الحكم. ونجح جهان شاه في إخماد ثورة ابنه حسن علي، ثم التفت لحسم الصراع مع الآق قوينلو. فزحف على رأس جيشه إلى ديار بكر في (ربيع الأول ٨٧٢هـ/ تشرين الأول ١٤٦٧م)، غير أن شتاء ذلك العام كان قاسياً،

---

(١) الحسيني: ص٢١٦.

(٢) أصفهان أو أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها. وأصبهان اسم للإقليم بأسره، وهو من نواحي الجبل. الحموي: جـ١ ص٢٠٦.

(٣) Roemer: p164.

فتعذَّر عليه متابعة الزحف وتوقف في سنجاق، فباغته أوزون حسن وقتله وهو يهم بالفرار وذلك في (١٤ ربيع الآخر/١١ تشرين الثاني)[١].

تضعضعت دولة القرة قوينلو بعد مقتل جهان شاه، وفقدت أهميتها وبخاصة أن ابنه وخليفته حسن علي كان مختل العقل نتيجة إقامته الجبرية في باكو مدة خمس وعشرين عاماً في عهد والده، فلم يحسن تدبير الأمور، وأسرف في تبذير الأموال، وقتل عدداً من أمراء القبيلة، ولما تعرَّض لهجوم أوزون حسن هرب إلى همدان ودفع حياته ثمناً لذلك في (شوال ٨٧٣هـ/ نيسان ١٤٦٩م). ويبدو أنه قُتل بأيدي أتباعه أو أنه انتحر، كما قُتل أخوه أبو يوسف عندما حاول إعادة إحياء الإمارة في فارس[٢]، وبذلك انتهى عهد هذه الأسرة، وحلَّت محلها أسرة الآق قوينلو.

توجَّهت أسرة الآق قوينلو بعد وفاة تيمورلنك إلى النواحي الوسطى والشرقية من إيران. وبعد وفاة قرة عثمان البايندري تولى حفيده أوزون حسن زعامة الأسرة وقد انتزعها من يد أخيه الأكبر جهانكير[٣].

اتصف أوزون حسن بالطموح السياسي، فما إن تولى زعامة الأسرة حتى توسَّع باتجاه الشمال الشرقي فاستولى على أرمينيا الغربية والوادي الأعلى لنهر دجلة وأدخل الأكراد في هذه المنطقة في طاعته، ثم التفت إلى الشرق للتوسع على حساب القرة قوينلو في أذربيجان وإيران، فقضى على جهان شاه زعيم القرة قوينلو كما ذكرنا وضمَّ أذربيجان إلى أملاكه، ما وضعه وجهاً لوجه أمام الزعيم التيموري أبي سعيد خليفة شاه روخ الذي خرج على رأس جيشه إلى أذربيجان لاستعادة حقوقه في غربي إيران، إلا أنه هُزم أمام أوزون حسن الذي سيطر بعد هذا الانتصار على جميع أنحاء إيران تقريباً واتخذ تبريز عاصمة له[٤].

تداعت قوة الآق قوينلو بعد وفاة أوزون حسن في عام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)[٥] بسبب الصراع على السلطة بين أولاده وأحفاده، فانتشرت الفوضى في كل أنحاء إيران، ولم ينقذ الوضع المتردي سوى ظهور إسماعيل الصفوي شاه إيران الجديد الذي أخذ على عاتقه توحيد إيران تحت سلطانه، وقد حقَّق انتصاراً على زعيم الآق قوينلو ألوند ميرزا بن يوسف بيك بن أوزن حسن عند نخجوان في عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م)، وضمّ أذربيجان إلى أملاكه[٦].

---

(١) إقبال: ص٦٣٢.
(٢) المرجع نفسه .Roemer: p173
(٣) إقبال: ص٦٣٣.
(٤) شيباني: ص٢١.
(٥) خواندمير، غياث الدين بن همام الدين: **حبيب السير في أخبار أفراد البشر**: جـ٤ ص٤٣٠.
(٦) الحسيني: ص٢٢١ ـ ٢٢٧، ٢٣١. شيباني: ص٢٤، ٢٥.

تنامي قوة الأوزبك[1] في منطقة ما وراء النهر

نزح الأوزبك وهم من القبائل البدوية الرحل، من هضاب آسيا وينتسب زعماؤهم الأوائل إلى جنكيزخان، وقد شكَّلوا خلال حكم شاه روخ وأولوغ بك قوة عسكرية وسياسية مؤثرة. فقد استولوا على القسم الجنوبي من خوارزم، وكان تابعاً للجغتائيين المغول، وبسطوا سلطانهم على ضفاف نهر سيحون واضعين بلاد ما وراء النهر وبخاصة مدينتي استرآباد وكركانج تحت رحمة تهديداتهم.

الواقع أن الأوزبك بزعامة أبي الخير خان بن دولت شيخ استغلوا النزاعات الإقطاعية والخلافات الأسرية في دولة التيموريين والتي نشطت بعد وفاة أبي سعيد؛ لتقويض أركان هذه الدولة ووراثة ممتلكاتها، فهاجموا، على مدى سنوات، بلاد ما وراء النهر، وتدخلوا في الشؤون الداخلية للأمراء التيموريين بهدف تعميق الفرقة بينهم، ونجحوا في عام (٨٦٤هـ/ ١٤٦٠م) في الاستيلاء على معظم هذه البلاد باستثناء سمرقند وبخارى وبعض المدن المحصنة والقلاع[2].

ترك أبو الخير خان بعد وفاته ولدين هما شاه بوداغ سلطان وخواجة محمد، وقد خلفه الأول في حكم الأوزبك وحكم في بلاد القبجاق، وانتزع من حسين بايقرا التيموري بعض المناطق واستولى على سمرقند وبخارى في عام (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) وحاصر بلخ إلا أنه هُزم على يد حسين بايقرا، ففك الحصار عنها وعاد إلى بلاده.

وعلى هذا الشكل أسس الأوزبك دولة في بلاد ما وراء النهر عاصمتها سمرقند، ثم تطلعوا إلى خراسان لانتزاعها من بقايا التيموريين.

وظهرت بين الأوزبك في عام (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤ ـ ١٤٩٥م) شخصية قوية أخذت

---

(١) عُرفوا بهذا الاسم نسبة إلى أوزبك خان (٧١٢ ـ ٧٤٢هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٤١م) زعيم القبيلة الذهبية في جنوبي روسيا، وهو من أعقاب جوجي بن جنكيزخان، وكانوا يسكنون في بادئ الأمر في المناطق الروسية الواقعة بين نهري أورال وچو. ويُسمي مؤرخو القرن الخامس عشر الميلادي بلاد جوجي أو شعبه باسم شعوب الأوزبك. ونظراً لكثرة حملات هذا الخان ضد أطراف أذربيجان وخراسان، وحروبه الشهيرة مع الإيلخانيين، كثر التداول بعبارات «جاء الأوزبك» و«هجم الأوزبك»، وبقي هذا الاسم علماً لتلك الديار مدة من الزمن. وعندما سيطر الشيبانيون المنحدرون من أولاد تيمورلنك على بلاد ما وراء النهر واستقروا فيها غلب عليهم هذا الاسم الذي يُنسب إلى محمد شاه بخت المعروف بشاهي بيك أو شيبك خان، وكان مركزهم سمرقند. وعندما اضمحلت القبيلة الذهبية تدريجياً وفقدت أجزاءها المختلفة، لم تعد كلمة أوزبك في جنوبي روسيا علماً على أمة أو دولة، بل صارت تدل على القبائل التي هاجرت إلى تركستان.

(٢) أحمدوف ومنروف: ص٢٩٢.

على عاتقها تثبيت أقدام الأوزبك في بلاد ما وراء النهر والتوسع باتجاه خراسان، هي شخصية محمد خان شيباني المعروف بشاهي بك أو شيبك خان وهو ابن بوداغ سلطان بن أبي الخير خان[1].

كانت الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان تعمها الفوضى، إذ تعرَّض الحكم الأوزبكي في بلاد ما وراء النهر لضغط من بقايا التيموريين وبخاصة بابر، وكان نفوذ التيموريين قد أخذ بالتفكك في خراسان. وبعد سلسلة من الحروب المتواصلة استطاع القائد الأوزبكي أن يُثبت أقدام الأوزبك في بلاد ما وراء النهر وذلك في عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠ ـ ١٥٠١م)، ثم التفت إلى خراسان للاستيلاء عليها.

أدرك سلطان حسين بايقرا التيموري حاكم خراسان مدى الخطر المحدق بالبلاد، إلا أن مرضه وعجزه إضافة إلى انهماكه بتأديب أولاده المتمردين، منعه من التصدي لطموحات شيباني خان، لذا وقع عبء الحرب على عاتق ابنه بديع الزمان، وحتى يُقوِّي موقفه حاول عقد تحالف ضد الأوزبك مع كل من خسرو شاه صاحب حصار، الذي كان يتعرض لضغط أوزبكي، والأمير زنون أرغين حاكم قندهار، وتم الاتفاق بين المتحالفين على الالتقاء في ترمذ في (ذي الحجة ٩٠٨هـ/ نيسان ١٥٠٣م) والانطلاق منها إلى عمق بلاد ما وراء النهر. فخرج بديع الزمان على رأس جيشه من بلخ كما وصل الأمير زنون أرغين على رأس قوة صغيرة إلا أنهما لم ينتظرا وصول خسرو شاه[2].

ويبدو أن الخلافات قد دبَّت بينهم بفعل تضارب المصالح، فقد خشي خسرو شاه من خطر قد يتهدده من جانب حليفه بديع الزمان إذا انتصر على شيباني خان، فانفض الائتلاف ما شجَّع الزعيم الأوزبكي على مواصلة العمليات العسكرية، فعبر في (ربيع الأول ٩٠٩هـ/ أيلول ١٥٠٣م) نهر جيحون واجتاح خراسان، وظهر عند أسوار بلخ وحاصرها، غير أن المدينة امتنعت عليه، ولم تُجدِ المفاوضات لإخضاعها سلماً كما فتَّ البرد القارس في عضد جنده، فاضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاد ما وراء النهر[3].

بعد استيلائه على خوارزم في (أواسط ٩١١هـ/ شتاء ١٥٠٥م) أرسل شيباني خان في ربيع ذلك العام جيشاً إلى خراسان، فهاجم مدينتي ميمنة وفارياب، وسحق المقاومة التي أبداها أميراهما قاسم ميرزا وشيرين جلاير والأمير باجاق. وتوفي حسين بايقرا في غضون ذلك، فاندلعت الاضطرابات في خراسان وعمَّتها الفوضى

---

(١) أصبح الأوزبك أتباع شيباني خان يُعرفون في عهد الصفويين بالشيبانيين نسبة إليه.

(٢) أحمدوف ومنروف: ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٣) المرجع نفسه: ص٣٠١.

في ظل الصراع الداخلي بين الأمراء وحكام المقاطعات الإقطاعيين، وقد أتاح ذلك لشيباني خان الفرصة لاجتياح المنطقة، فاجتازت قواته نهر جيحون وتوغلت في خراسان. ولم يصل نبأ هذا الاجتياح إلى العاصمة هراة إلا في شهر (محرم ٩١٢هـ/حزيران ١٥٠٦م)، فأحدث ارتباكاً في الأوساط الحكومية، فأرسل بديع الزمان بن حسين بايقرا جيشاً على وجه السرعة قوامه اثني عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير زنون أرغين، للتصدي للزحف الأوزبكي، وقد حقَّق انتصاراً واضحاً على القوات الأوزبكية، لكنه أدرك على الرغم من هذا الانتصار أنه لا يمكن طرد الأوزبك من خراسان وبلاد ما وراء النهر، إلا إذا توفرت عناصر الوحدة، الأمر الذي كان يفتقر إليه التيموريون، وبخاصة أنهم تركوا زمام المبادرة كلياً بيد شيباني خان الذي قرَّر الدخول في مفاوضات مع القوى التيمورية لكسب الوقت وتنفيس حذرهم ويقظتهم، فأرسل إليهم رسولاً لإقناعهم بالتنازل له عن خراسان طواعية. وكان من الطبيعي في ظل تمسك الأمراء التيموريين بأملاكهم في خراسان، أن تنتهي المفاوضات بالفشل، وتعبَّأ كل طرف استعداداً للقتال.

هاجم شيباني خان مدينة بلخ في (جمادى الأولى ٩١٢هـ/أيلول ١٥٠٦م)، وحاصرها من جميع الجهات. وأضاع الأمراء التيموريون كثيراً من الوقت بالجدل العقيم الخاص بكيفية التصدي له، فتباطؤوا في استعداداتهم، وتردَّدوا في النهوض للقتال، وبالتالي لم تتلقَّ بلخ أي مساعدة، وسقطت بعد مرور شهرين من الحصار في (جمادى الآخرة/تشرين الثاني)، فعين شيباني خان كانبارا ميرزا والياً على المدينة وعاد إلى سمرقند مكتفياً بما حقَّقه من انتصارات[١].

الواقع أن الأمراء التيموريين أخفقوا في توحيد صفوفهم لمواجهة طموحات شيباني خان، وطغت مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة، وأدَّى ذلك إلى مزيد من الانقسام والتشتت والاضطراب السياسي، ما أتاح لشيباني خان القيام بتوجيه ضربة قوية إليهم. ففي (مطلع محرم ٩١٣هـ/١٣ أيار ١٥٠٧م)، اجتاز نهر جيحون ودخل خراسان، فاستسلم له أمراء المدن، ثم عبر نهر مرغاب ودخل حدود باذغيس، وامتنع بديع الزمان ومظفر حسين والتيموريون الآخرون، عن اتخاذ الإجراءات الضرورية للتصدي له، ما أتاح له التوغل في عمق خراسان، ووصل إلى العاصمة التيمورية هراة، فذُعِر سكانها وسادها الاضطراب وفرَّ أمراؤها منها وبخاصة بديع الزمان ومظفر حسين ميرزا وسعيد عبد الله ميرزا، إلى أماكن بعيدة عن النفوذ الأوزبكي، مثل قندهار واستراباد. وفي صباح (١٠ محرم/٢٢ أيار) سقطت المدينة

---

(١) أحمدوف ومنروف: ص٣٠٥.

بيد شيباني خان، وأُقيمت له الخطبة في مسجدها يوم الجمعة (١١ محرم/٢٣ أيار)، وعيَّن وفا ميرزا حاكماً عليها[١].

كانت إيران الخطوة التالية في مخطط شيباني خان التوسعي، فأرسل بعد سقوط هراة في يده، قواته الرئيسة إلى مناطق إيران الشرقية، شاه جهان، جام، مشهد وغيرها بقيادة محمد تيمور سلطان وعبيد الله خان، ولم يشارك بنفسه بالحملة وقد بقي في بولي سراي إحدى ضواحي هراة.

استطاعت القوات الأوزبكية دخول المناطق المذكورة من دون مقاومة تُذكر. واستولى الزعيم الأوزبكي في العام التالي على جرجان، وفرَّ بديع الزمان إلى أذربيجان، فسيطر نتيجة هذه الفتوح على شرق إيران[٢]، وحاز على مساحات واسعة من الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحون، فامتدت حدود ممتلكاته في خراسان غرباً إلى خط سِمنان بين الري ودامغان، وإلى بدخشان شرقاً، ومنطقة كاخيندار وغوري الجبليتين في أواسط أفغانستان جنوباً.

غير أن انهماك شيباني خان بمشكلاته الداخلية مثل محاربة الأوزبك الكازخانيين، والأوزبك في القبجاق، والأمراء المغول الجغتائيين في تركستان؛ منعه من الاهتمام بالمناطق المستولى عليها، كما أن فتوحه التي امتدت إلى شرقي إيران وضعته وجهاً لوجه أمام الشاه إسماعيل الصفوي، وكان طبيعياً أن تنشب الحروب بينهما بفعل التجاور والاختلاف المذهبي والطموح السياسي والرغبة في التوسع التي تَتملَّك كلّاً منهما كما تُبيِّنه هذه الدراسة في الفصل التالي.

---

(١) منشي، إسكندر بك تركمان: **تاريخ عالم آراي عباسي** جـ١ ص٣٧. أحمدوف ومنروف: ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) شيباني: ص٢٩.

الفصل الثاني

ظهور الأسرة الصفوية

أصل الصفويين

في الوقت الذي أصبحت فيه إيران خلال حكم الآق قوينلو مسرحاً للحروب بين الطامعين في السلطة، كانت تنمو في الشمال، في أردبيل بأذربيجان، أسرة تركية تخصَّصت في الوعظ والإرشاد، عُرفت بالأسرة الصفوية، والمعروف أن هذه المنطقة يسكنها الترك على الغالب بالإضافة إلى الكرد والأرمن.

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي (٦٥٠ ـ ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢ ـ ١٣٣٤م) وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية في إيران، ومن هذا الاسم صفي الدين، أخذت السلالة اسمها السلالة الصفوية، ويصل مؤرخو عصره نسبه إلى الإمام موسى الكاظم من ناحية الأب[1]، في حين يُشكِّك بعض المؤرخين في صحة هذا النسب لعدم وجود دليل مقنع يثبته[2]، كما أن المؤرخين المؤيدين لهذا النسب اعتمدوا على كتاب صفوة الصفا لابن بزاز من أهل أردبيل، وقد ألَّف كتابه في عهد الشيخ صفي الدين إسحاق على الأرجح، وقد يكون كلفه بأن يصل بالنسب إلى آل البيت، مقتدياً بشيخه تاج الدين إبراهيم الجيلاني المعروف بالشيخ زاهد. وكانت هذه الظاهرة رائجة في ذلك الوقت نظراً لارتفاع نجم العلويين بفعل ميل الإيلخانيين المغول في إيران إلى الشيعة والذي تُوِّج باعتناق الإيلخان أولغايتو (٧٠٣ ـ ٧١٦هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣١٦م)

---

(١) ابن بزاز، توكلي بن إسماعيل بن حاجي الأردبيلي: **صفوة الصفا** ص٢. الأسترآبادي، سيد حسن بن مرتضى حسني: **أز شيخ صفي تا شاه صفي** ص١٤، ١٥. زاهدي، حسين بير زادة: **سلسلة النسب صفوية** ص١٠، ١١. صفوي، رحيم زادة: **شرح جنگهاي وتاريخ زندگاني شاه إسماعيل صفوي** ص٢٦. خورموجي، ميرزا جعفر خان حقايق نكار: **نزهة الأخبار** ص٢٠١.

(٢) العليمي، مجير الدين: **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** جـ٢ ص٣٠٨، ٣٠٩. العرضي، أبو الوفا بن عمر: **معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب** ص٤٧٠. دهخدا، علي أكبر: **لغت نامه**، مادة: إسماعيل الصفوي.

مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية[1].

وأعاد مير أبو الفتح الحسيني بتكليف من الشاه طهماسب ثاني ملوك الصفويين تنقيح كتاب ابن بزاز مؤكداً النسب العلوي في محاولة لإقرار المذهب الشيعي، ثم إن الوثائق التي كُتبت بين عهد الشيخ صفي الدين إسحاق وعهد إسماعيل تدل على أن الأسرة الصفوية كانت منتشرة في ربوع أذربيجان، وبناء على ذلك يكون شيخ الأسرة الصفوية من أصل آري قديم، وينفي ذلك انتسابه إلى الإمام موسى الكاظم[2].

الواضح أن الذين يعتقدون بانتساب الصفويين إلى آل البيت، أرادوا أن يُكسبوا الأسرة أحقيتها في الحكم، وقد حدث ذلك بتوجيه من جانب أفرادها، وأما الذين يعتقدون بانتساب الصفويين للآريين إنما هدفوا إلى تأكيد دور الصفويين في بعث القومية الإيرانية التي ظهرت على أيديهم[3].

والمعروف أن الصفويين اعتمدوا على فكرة الحق الإلهي للملوك الإيرانيين قبل الإسلام وذلك بوراثة هذا الحق، وعندما تزوج الحسين بن علي بن أبي طالب ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس أنجب منها ابنه زين العابدين علي، فاجتمع عندهم حقان:

الأول: حق أهل البيت في الخلافة وفقاً لنظرية الإمامة عند الشيعة.

الثاني: حق ملوك إيران وفقاً لنظرية الفرس القائلة بالحق الإلهي لهؤلاء الملوك بالحكم.

والواقع أن انتساب الشيخ صفي الدين إسحاق إلى الإمام موسى الكاظم، شابه الضعف، والشواهد التالية دليل على ذلك:

- إن زوجة الشيخ صفي الدين إسحاق لم تكن تعلم بهذا الانتساب[4].

- بدا واضحاً من نصوص ابن بزاز الذي أرَّخ له، أنه لما فسَّر الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة/٦٧]، التي تردها الشيعة إلى حديث الغدير واستخلاف النبي محمد ﷺ لعلي بن أبي طالب من بعده؛ لم يقف الوقفة الشيعية

---

(١) تراجع أولغايتو بعد ذلك عن المذهب الشيعي وعاد إلى المذهب السني. اللواتي، محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة** المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ١ ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) شيباني: ص٤٣، ٤٤.

(٣) جمعة، بديع وأحمد الخولي: **تاريخ الصفويين وحضارتهم** جـ١ هامش ص٢٩.

(٤) ابن بزاز: ص١١.

المعهودة[1]، كما لم يقف عند تأويل ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران/٧] على التفسير الشيعي أيضاً.

- لم يتطرق الشيخ صفي الدين إسحاق إلى ذكر مصنف شيعي واحد في الوقت الذي أشار فيه لمؤلفين سنة مثل: الغزالي والسهروردي ونجم الدين الرازي[2].

- لا ينبغي التسليم مباشرة بتشيع الشيخ صفي الدين إسحاق بفعل أن أكثر سكان أردبيل كانوا آنذاك سنة، على مذهب الإمام الشافعي، وهم من مريديه، كما أن عبيد الله خان زعيم الأوزبك كتب في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م) إلى الشاه طهماسب يعاتبه ويشير إلى أن الشيخ صفي الدين إسحاق كان من أهل السنة والجماعة[3].

- الملفت مع صراحة اتصال سلسلة النسب التي سجَّلها أصحاب الكتب في العصر الصفوي، بالحسين بن علي بن أبي طالب، فقد رُوي عن الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفي الدين إسحاق ووارثه، أنه لم يكن يدري أحسني هو أم حسيني[4]، ما يُشكِّك في النسب ابتداء من فيروز شاه، الجد الأكبر للشيخ صفي الدين إسحاق إلى الإمام الكاظم.

- ليس مستغرباً أن يدَّعي الشيخ صفي الدين إسحاق النسب العلوي في ذلك الوقت، فقد فعل شيخه إبراهيم الجيلاني ذلك، كما فعل ذلك أحفاد عبد القادر الجيلاني، وغيرهم.

- ليس مستبعداً أن تكون الأجزاء التي تضمَّنت النسب العلوي من إضافة المصنفين وأولهم ابن بزاز، أو أن الشيخ صدر الدين هو الذي ادعاه كما هو الحال مع أبناء عبد القادر الجيلاني[5].

وفي المقابل، أورد ابن بزاز أن الشيخ صفي الدين إسحاق علَّق على أشعار الرومي والعطار وأوحد الدين الكرماني وفخر الدين العراقي وأحمد الجامي وروزبهان البقلي والسنائي والخاقاني، وشرحها، وروى له أبياتاً فارسية في وحدة الوجود ورباعية واحدة في حب علي بن أبي طالب، وقد يكون ذلك من ابتكار هذا المؤرخ لأن الشيخ صفي الدين إسحاق كان تركياً لم يثبت له من النظم الفارسية إلا بيت واحد[6]، وكان الترك بخاصة يعدُّونه زعيماً روحياً لهم. ويبدو أنه كان سني المظهر على مذهب الإمام

---

(١) **صفوة الصفا**: ص١٤١. الشيبي، كامل مصطفى: **الصلة بين التصوف والتشيع** جـ٢ ص٣٥٥.

(٢) **صفوة الصفا**: ص١٤٠، ١٤٦، ١٥٢.

(٣) المستوفي، حمد الله القزويني: **نزهة القلوب** ص٨١.

(٤) الشيبي: جـ٢ ص٣٥٣، ٣٥٤.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) قليخان، رضا المتخلص بهدايت: **رياض العارفين** ص١٤٦.

الشافعي، شيعي الميل على مذهب الإمام جعفر الصادق، متأثراً بالظروف الدينية والسياسية التي كانت تمر بها إيران آنذاك، والمعروف أن المغول الإيلخانيين حكام البلاد توزَّعت ولاءاتهم الدينية والمذهبية على: البوذية (هولاكو ـ أباقا) والإسلام على المذهب السني (محمود غازان وآخرون) والإسلام على المذهب الشيعي (أولغايتو).

ولا بد لنا من التساؤل في هذا المقام، متى اعتنق شيوخ الأسرة الصفوية المذهب الشيعي؟

الواقع أن الأفكار الشيعية بدأت تتسرب إلى فرق التشكيلات الصفوية في الوقت الذي بدأ فيه التصوف ينتشر في المجتمع الإيراني في عهد الشيخ صفي الدين إسحاق، وذلك كرد فعل على حال الفساد الذي تفشَّى في البلاد من واقع ممارسات أصحاب السلطة من المغول الإيلخانيين ثم التيموريين والأمراء المتغلبين أمثال شَروان شاه في شَروان، والآق قوينلو في أذربيجان وجزء من غربي إيران، ومراد بك البايندري في يزد، وغيرهم كثير، ما ترك آثاراً مدمرة في نفوس الإيرانيين الذين ضاقوا ذرعاً بالظلم والإجحاف الواقع عليهم. وإذا لم يثبت على وجه اليقين تشيع كل من الشيخ صفي الدين إسحاق وابنه صدر الدين موسى، فإن حفيد الأول خواجة علي سياه بوش جاهر بالدعوة الشيعية[١]، وأدرك حفيده الجنيد مدى الاستفادة السياسية من واقع تحويل الدعوة المذهبية إلى حركة سياسية تعتمد في إثبات وجودها على الأعداد الضخمة من المريدين. وأكد ابنه حيدر صلة نسب أجداده بالإمام موسى الكاظم وألبس أتباعه قبعة حمراء ذات اثنتي عشرة ذؤابة، رمزاً إلى اعتناق المذهب الشيعي على المذهب الاثني عشري.

ويبدو أن هذا التحول إلى المذهب الشيعي كان يهدف إلى استقطاب الشيعة في إيران وتوسيع قاعدتهم الشعبية وبخاصة السربداريين المعارضين للحكم الإيلخاني، والمعروف أن المعارضة للإيلخانيين اعتمدت على العناصر الشيعية، وأدى ذلك إلى تحول الصفويين من التوجه الصوفي المحض إلى العمل السياسي والذي تُوِّج بتأسيس دولة صفوية شيعية المذهب على يد إسماعيل الصفوي.

الآباء الأوائل

فيروز شاه: يبدأ تاريخ الأسرة الصفوية المعروف من فيروز شاه بن محمد شرف شاه[٢]

(١) أبدال، حسين پسر: **سلسلة النسب صفوية** ص٤٦.

(٢) القزويني، أبو الحسن: **فوايد الصفوية** ص٤.

الذي قاد ثورة دينية انطلقت من سنجان[١] إحدى قرى مرو عاصمة خراسان، وامتدت إلى أذربيجان، وغزا الكفار في موقان وبلاد الكرج. وقد نتج عن هذا النشاط الجهادي سيطرته على أردبيل، أشهر مدن أذربيجان ونواحيها وموقان وتوابعها، فكثر ماله، واضطر بسبب كثرة مواشيه إلى الانتقال إلى قرية زنگين قرب جيلان حيث المراعي الواسعة[٢].

سيد عوض إسماعيل: آلت زعامة الأسرة بعد وفاة فيروز شاه إلى ابنه سيد عوض إسماعيل، وقد انتقل من زنگين إلى قرية أسفرنجان، من قرى أردبيل وتوفي فيها[٣].

محمد حافظ: وبدأ الصفويون يشعرون بالولاية عندما فَقَدَ سيد عوض إسماعيل ابنه محمد حافظ وكان في السابعة من عمره، ثم ظهر بعد سبع سنوات، ولما سُئل عن مكان اختفائه أجاب بأن الجن خطفته وعلَّمته القرآن والشرائع[٤].

صلاح الدين رشيد: خلف محمد حافظ بعد وفاته ابنه صلاح الدين رشيد الذي انتقل إلى قرية كلخوران إحدى قرى أردبيل واستقر فيها يمارس الزراعة[٥].

قطب الدين يحيى: ورث قطب الدين يحيى أباه صلاح الدين رشيد في زعامة الأسرة بعد وفاته، وقد بقي في كلخوران، وتعرَّضت أملاكه لهجوم الكرج الذين أغاروا على أردبيل وأعمال أرمينيا في ظل الصراع الإسلامي ـ النصراني، وقتلوا كثيراً من سكانها.

سيد صالح: خلف سيد صالح أباه قطب الدين يحيى، عمل في الزراعة كآبائه واشتهر بالصلاح والتقوى ومساعدة الناس ودُفن بعد وفاته في كلخوران[٦].

أمين الدين جبرائيل: خلف سيد صالح بعد وفاته ابنه أمين الدين جبرائيل الذي اضطر تحت ضغط غارات الكرج إلى مغادرة كلخوران إلى شيراز حيث أمضى فيها عشر سنوات، دخل خلالها في زاوية الشيخ جمال الدين باراتي الأردبيلي، أحد مشاهير الصوفية الفرس هناك، وأضحى من مريديه، وزوَّجه الشيخ ابنته دولت[٧].

---

(١) سنجان: قرية على باب مدينة مرو يقال لها دارسنگان. الحموي: جـ٣ ص٢٦٧. ويذكر الحموي أيضاً أن سنجال قرية في أرمينيا أو أذربيجان. المصدر نفسه.

(٢) زاهدي، حسين أبدال: **سلسلة النسب الصفوية** ص٦.

(٣) الأسترآبادي: ص١٦.

(٤) ابن بزاز: ص١٢.

(٥) الأسترآبادي: ص١٦، ١٧.

(٦) المصدر نفسه: ص١٧.

(٧) المصدر نفسه.

وتبدو أهمية هذه الزيجة في اتحاد العنصرين الفارسي والتركي، وقد رحَّب الفرس به شخصياً في تبريز قاعدة أذربيجان التركية منذ القدم كما فرحوا بهذا الزواج، ما يدل على أن هذه العائلة الصفوية لم تكن فارسية[١].

وعاد أمين الدين جبرائيل إلى كلخوران بعد زوال الخطر الكرجي ليزاول أعمال الزراعة وإدارة أملاكه، وهناك ولدت له زوجته الفارسية دولت، صفي الدين إسحاق سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)[٢]. وقد بولغ في وصف السيدة دولت بالزهد والعصمة والولاية تمهيداً لجعل ولادة صفي الدين حدثاً يتصل بإرادة سماوية[٣].

صفي الدين إسحاق: درس الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي العلوم الدينية والعقلية في صباه، ثم تعمَّق في أسرار المحبة الإلهية والتصوف، وتتلمذ على شيوخ عدة، وفكَّر بالرحيل إلى فارس ولكنه نزل بشيراز حيث اتصل بالشاعر سعدي الشيرازي، ونصحه الأمير عبد الله الفارسي، من أعيان شيراز، بالاتصال بالشيخ تاج الدين إبراهيم الجيلاني المعروف بالشيخ زاهد، فلزمه وتزوج ابنته فاطمة، وقد جعل الشيخ زاهد من صهره أميراً صوفياً تتهيأ له الدنيا لخدمته. من هنا رُوي أن الشيخ صفي الدين إسحاق رأى في المنام أنه «كان جالساً على جبل قاف وقد تدلّى من وسطه سيف طويل عريض وعلى رأسه غطاء من جلد السمور ما لبث أن طلعت الشمس منه فأضاء لها العالم»، ففسَّر الشيخ هذا الحلم على أن السيف يرمز إلى حكم الولاية وأن الشمس نورها، وكان ذلك الخطوة الأولى في مسيرة الدعوة السياسية لصالح البيت الصفوي[٤]. ولما توفي الشيخ زاهد خلفه في زاويته، والتفَّ مريدوه حوله، فكثر أتباعه، واكتسب احترام الأعيان ومن ضمنهم الوزير رشيد الدين فضل الله وابنه الوزير غياث الدين محمد. وكان إقليم أذربيجان آنذاك تحت نير المغول الذين حكموا البلاد بعد سلسلة من المحن والويلات نتجت عن اجتياحهم الوحشي، الأمر الذي جعل الناس على شفافية بالغة من الناحية الروحية خوفاً من الموت الذي كان يطاردهم من كل جانب، فمالوا إلى الزهد والتصوف كملجأ وملاذ ليخفِّفوا من الضغط النفسي الواقع عليهم، وكان لذيوع صيت الشيخ أن كَثُر توافد الناس عليه لتتميز زاويته عن بقية الزوايا التي كانت منتشرة في البلاد[٥].

---

(١) الشيبي: جـ٢ ص٣٥١.

(٢) الأسترآبادي: ص١٧.

(٣) الشيبي: جـ٢ ص٣٥١.

(٤) ابن بزاز: ص١٥.

(٥) منشي: ص١١.

صدر الدين موسى: خلف الشيخ صفي الدين إسحاق ابنه صدر الدين موسى وعمره واحد وثلاثين عاماً وقد نشأ منذ صغره في حلقات الصوفية، فكان عماد الأولياء وفتيانهم، يطعم الفقراء والمساكين، فاكتسب بذلك الزعامة الروحية. وبدأت في عهده تطلعات الأسرة الصفوية نحو العمل السياسي ما أثار ضده الحاكم المغولي في أردبيل الأشرف جوبان بن تيمورتاش الذي نفاه إلى تبريز، لكن مكانة الشيخ صدر الدين موسى في نفوس الأتراك في أردبيل دفعت الحاكم المغولي إلى إعادته، إلّا أنه فكَّر في القضاء عليه ثانية عن طريق دس السم له، ولما علم الشيخ بذلك غادر أردبيل إلى جيلان واستقر عند أخواله وأتباع الشيخ إبراهيم زاهد الجيلاني ما أثار فزع الأشرف جوبان، وظل هناك إلى أن هاجم جاني بك، حاكم القبيلة الذهبية المغولية في جنوبي روسيا، أذربيجان في عام (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م) وانتزعها من أيدي الأمراء الجوبانيين، وتمكَّن أحد الأمراء المغول ويُدعى أرغون من قتل الأشرف جوبان، فعاد صدر الدين موسى إلى أردبيل معززاً مكرماً، ويدل ذلك على نفوذ الأسرة الصفوية ومكانة شيوخها بين الحكام المحليين[١].

واستمرت الأوضاع السياسية في أنحاء إيران والعراق مضطربة في عهده، وتجزأت البلاد إلى دويلات صغيرة أبرزها دولة آل جلائر في العراق، ودولة آل جوبان في أذربيجان، ودولة آل المظفر في يزد وكرمان، ودولة أينجو في فارس، والدولة السربدارية في سبزوار. وقد ساعد الاضطراب السياسي على استمرار هذه الزاوية الصوفية وازدياد التفاف الناس حولها، طمعاً في الراحة النفسية.

توفي صدر الدين موسى في عام (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م) في أردبيل ودُفن إلى جانب والده في مركز الصوفيين[٢]. وتكمن أهميته:

- في أنه ارتقى بالأسرة الصفوية إلى مكانة رفيعة بين الأوساط الحاكمة.
- شكَّل عهده فاتحة التطلعات السياسية للأسرة الصفوية.
- بنى مشهداً لأبيه وجعله مقراً لأتباعه، وأضحى بعد ذلك مركزاً روحياً يجتمع عنده الصوفية وتُنذر له النذور التي تُنفق عليهم.
- بنى مسجداً في أردبيل أطلق عليه اسم «آرامكاه خاندان صفوي»[٣].

علاء الدين علي: خلف علاء الدين علي والده صدر الدين موسى في مقام الإرشاد[٤]، تميز عن أسلافه بلبس السواد بشكل دائم، فلُقِّب من أجل ذلك

---

(١) الأستراباذي: ص٢١، ٢٢.
(٢) خواند مير: جـ٤ ص٥٢١، ٥٢٢.
(٣) شيباني: ص٦١، ٦٢.
(٤) الأستراباذي: ص٢٢.

بسياه بوش أو المسوَّد. كان مبالغاً في الزهد وعاصر الاجتياح التيموري لمعظم البلاد الإسلامية الشرقية والذي قاده تيمورلنك. وساعدت الظروف السيئة التي حلَّت بإيران على أيدي التيموريين في التفاف المريدين حوله وازدياد أعدادهم يوماً بعد يوم.

وحظي علي سياه بوش برعاية تيمورلنك الذي كان على وفاق معه ربما لميل الثاني إلى المذهب الشيعي، واجتمع به ثلاث مرات. وكان تيمورلنك يزداد تعلقاً به مرة بعد مرة. ولعل أهم هذه اللقاءات تلك التي حدثت بعد هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول عام (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) على يد هذا القائد في معركة أنقرة، وأسره لعدد كبير من الجند الأتراك بلغ ثلاثين ألفاً، وإحضارهم إلى أردبيل. وقد طلب علي سياه بوش من تيمورلنك أن يهبهم له ففعل، فأقامهم في أطراف آرامگاه گنجة في كول قرب مدافن آبائه في أردبيل، وسماهم الصوفية الروملو، لقدومهم من الأناضول في بلاد الروم، وهم أجداد طائفة روملو القزلباشية التي كانت من أشد أنصار الشاه إسماعيل الأول إخلاصاً في الدفاع عن مبادئه المذهبية ضد مواطنيهم الأتراك السنة[١]. ويُعد هذا الحادث أساساً وسابقة لتنظيم القزلباش، أي الرؤوس الحمر، بفعل تغطية رؤوسهم بشعار أحمر، والذين كانوا يلتقون مع الانكشارية العثمانية في الوحدة العنصرية والعقلية. وحرَّر علي سياه بوش جماعة من هؤلاء الأسرى وأرسلهم إلى الأناضول ليكونوا دعاة له وفدائية ومساعدين للصفويين عند الحاجة، وعيوناً لتيمورلنك في آسيا الصغرى. والجدير بالذكر أنه أُشير لأول مرة في تاريخ الصفويين إلى ظهور الفدائيين من بين مريدي شيوخ الصفوية، وتلك ظاهرة تبين التطور التدريجي نحو التنظيم العسكري[٢].

وحصل الشيخ من تيمورلنك على إقطاعات واسعة في أذربيجان وعراق العجم، ومنح أولاده القرى والمزارع الكثيرة في أطراف قزل أوزون وكمرة وأصفهان وهمدان، وفَّرت للأسرة الصفوية موارد مالية ضخمة ضمنت استمراريتها[٣].

وجاء ذكر علاء الدين علي في المصنفات العربية، باسم علي سياه على أنه شيخ الصوفية في العراق[٤]. وقد مرَّ بدمشق أثناء ذهابه إلى الحج سنة

---

(١) شيباني: ص٤٨. براون، إدوارد: **تاريخ أدبيات إيران** جـ٤ ص٥٢، ٥٣. زاهدي: ص١٢، ١٣.

(٢) الأسترآبادي: ص٢٤. شيباني: ص٦٥. (٣) المصدران نفساهما.

(٤) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن: **الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع** =

(٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م) ومعه جماعة من أتباعه الذين كانوا يجلونه بشكل يفوق الوصف.

وبعد ثمان وثلاثين سنة من الزعامة الروحية توفي علي سياه بوش في القدس في (١٨ رجب ٨٣٠هـ/ ١٥ أيار ١٤٢٧م) أثناء عودته من مكة ودُفن فيها، وأُقيم له مزار كبير، ويُعرف قبره بضريح الشيخ علي العجمي[١]. والجدير بالذكر أن المصادر الصفوية أضافت إليه ميولاً شيعية واضحة، غير أنها مشكوك في صحتها، من ذلك أنه أول من اعتنق المذهب الشيعي من أولاد الشيخ صفي الدين إسحاق، ودعا صراحة إلى اتِّباعه[٢].

إبراهيم: أنجب علي سياه بوش ثلاثة أولاد هم: شيخ شاه المعروف بالشيخ إبراهيم وجعفر وعبد الرحمٰن، وعلى الرغم من أن أياً منهم لم يكن على قدر المسؤولية لقيادة الحركة الصفوية، فقد خلفه إبراهيم الذي افتقر إلى قوة الشخصية، كما لم يكن على قدر من الذكاء والعلم ما يؤهله للنهوض بأمر الدعوة، وكان عليلاً، فانصرف إلى العبادة الأمر الذي أجَّل انطلاق الصفويين وقتاً آخر[٣]. وأهملت بعض المصادر الصفوية الإشارة إليه، ولما عرضت لابنه جنيد لم تصله به وإنما أرجعته إلى علي سياه بوش بوصفه أباً له[٤]. وتوفي إبراهيم في عام (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) ودُفن بجوار آبائه[٥].

جنيد: أنجب الشيخ إبراهيم ستة أولاد هم: جنيد، أبو سعيد، سيد أحمد، سيد بايزيد، خواجة جهان ميرزا وإبراهيم خواجة گي[٦]. كان جنيد أجدر الإخوة بالزعامة، فخلف والده وتزعم الحركة، فأخذ يكشف عن رغبته في الملك، ويتصرف كالملوك، وتلقب بلقب سلطان، وحوَّل الدعوة المذهبية إلى حركة سياسية تعتمد في إثبات وجودها على الأعداد الضخمة من المريدين، وعَبَّأهم في تنظيم شبه عسكري.

كانت أوضاع إيران آنذاك مضطربة، فقد شهدت البلاد بعد وفاة شاه روخ حركات

= جـ٦ ص٢٩. والراجح أن السخاوي كان يعني بالعراق، عراق العجم. انظر أيضاً: القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف: **أخبار الدول وآثار الأول** ص٣٤٨.

(١) الأسترآبادي: ص٢٤.

(٢) براون: جـ٤ ص٥٢ حاشية رقم ١.

(٣) أبدال: ص٥٠.

(٤) الطباخ، راغب محمد: **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء** جـ٣ ص٥٦.

(٥) الأسترآبادي: ص٢٤.

(٦) أبدال: ص٥٠.

استقلالية قام بها الأمراء الطامعون وقد نجحوا في تأسيس إمارات لهم، كما كانت ثورة المشعشعين[1] على أشدها، وقد هدَّدت باحتلال جنوبي إيران وغربها، فاستغل جنيد هذه الظروف واستقل بمدينة أردبيل[2].

وتمَّت على يد جنيد الانعطافة المذهبية الكبرى للحركة الصفوية بتحويلها صراحة إلى المذهب الاثني عشري. فمن الواقع الاجتماعي الذي كان سائداً في غربي إيران وجنوبي الأناضول وشمالي بلاد الشام، وهي المناطق التي تقطنها قبائل تركمانية حازت على سلطة متنامية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي بعد انهيار السلطة المركزية العثمانية إثر غزوات تيمورلنك، ومع ذلك فإن ترسيخ السلطة العثمانية بعد فتح القسطنطينية والتمدد اللاحق للعثمانيين في الأناضول، أدى إلى تقليص سلطة القبائل التركمانية وانحسار استقلالها الجزئي، وكانت الظروف ملائمة لنجاح الدعاية الدينية ذات البعد السياسي.

وقام الشيخ جنيد في هذا الوقت برحلة إلى الأناضول وأجزاء من بلاد الشام، فصادف العقائد الشيعية المتطرفة منتشرة في هذه المناطق، ولما كان يبحث عن أتباع ومريدين لطريقته بعد طرده من أردبيل[3]؛ قرَّر استقطاب التركمان إلى صفه من خلال تبنِّيه لشعائرهم في التشيع، وأشاع بأن دولة العلويين الموعودة التي ستظهر في آخر الزمان هي وشيكة القيام بقيادته وهو سيحارب في جيش المهدي، واضعاً بذلك البنى التأسيسية لمشروع سياسي يهدف إلى إنشاء دولة.

وذهب جنيد إلى حلب، فأقام في صحبة الشيخ محمد بن أويس الإربلي، أحد أتباع الصفويين، وانتقل منها إلى كلّز وهي إحدى نواحيها وكانت مقراً قديماً لقبائل التركمان، ثم غادرها إلى جبل موسى بأنطاكية[4]، وشرع في تكوين فرقة شيعية غالية متأثراً بالمشعشعين، ومستغلاً النفوذ الروحي الذي نضج في قلوب أتباعه التركمان،

---

(١) أسَّس محمد بن فلاح بن فهد الحلي الشيعي، المذهب المعروف بالمشعشع، وحركة المشعشعين هي حركة شيعية تجلَّت بادعاء مؤسسها بأنه الوارث للأئمة، وعدَّ نفسه نائباً عنهم ووكيلاً عن المهدي.

(٢) شيباني: ص٦٧.

(٣) كان لنشاط جنيد السياسي والمذهبي في أردبيل رد فعل سيئ في نفس حاكم أذربيجان جهان شاه بن قرة يوسف زعيم القرة قوينلو، فنفى جنيد من المدينة.

(٤) الشيبي: جـ٢ ص٣٦١.

ما أثار مضيفه الشيخ محمد الذي عارضه في التوسل بهذه الوسيلة لتحقيق أهدافه السياسية، وأعقب ذلك ازدياد نشاط أتباعه. ولم يحتمل المجتمع الحلبي هذه الدعوة، فعُقد في حلب مجلس فقهي لمحاكمته بتهمة التشيع الغالي، وصدر حكم يقضي بقتله، فغادر حلب سراً وتوجَّه إلى ديار بكر، وكان يحكمها آنذاك، أوزون حسن، فوثَّق صلته به وتزوج بأخته خديجة بيكم كغطاء يؤمن له الحماية لمتابعة مشروعه السياسي ـ المذهبي، وكان هدف أوزون حسن كسب الشيعة إلى جانبه في صراعه مع القرة قوينلو. ومن جهة أخرى أعطى هذا الزواج جنيد قوة دفع جديدة وحماية، فعزم على العودة إلى أردبيل، فطلب من أوزون حسن أن يمده بالمساعدة ففعل، ثم غادر آمد عاصمة ديار بكر متوجهاً إلى بلاده، وعندما وصل إلى شَروان اعترضه حاكمها سلطان خليل التركماني الموالي للقرة قوينلو، وجرى قتال بينهما أسفر عن مقتل جنيد وذلك في (١٠ جمادى الأولى ٨٦٤هـ/ ٤ آذار ١٤٦٠م)[١].

والواقع أن الحركة الصفوية تحوَّلت على يد جنيد إلى حركة يغلب عليها الطابع السياسي، وكان أنصاره يقصدونه من بلاد العثمانيين وبلاد العجم ومن سائر البلاد، وادعى بعض أصحابه قيامه من الموت بعد مقتله ما يوحي بالشبه الكبير بين عقيدته وعقيدة المشعشعين.

ومهما يكن من أمر، فقد توضحت الصورة في عهد جنيد من واقع أن الصفويين أضحوا حزباً سياسياً ثورياً، وأخذ التشيع الغالي يتسرب إلى عقائدهم، وسيتبلور ذلك من خلال موقف حيدر بن جنيد الذي خلفه في قيادة الحركة.

حيدر: خلف حيدر أباه جنيد، وكان صغير السن، أقام في أردبيل تحت رعاية أتباعه الكُثر الذين فترت عزيمتهم بمقتل زعيمهم جنيد، فجنح إلى السلم بانتظار الفرصة المناسبة لإعادة الانطلاق، وأخذ في غضون ذلك، يُنمِّي قوته نتيجة ازدياد عدد أتباعه، ولما بلغ أشده خطا خطوة أخرى في دفع عجلة الطريقة الصوفية نحو التشيع الاثني عشري وذلك باتخاذه شعاراً يميز أتباعه عن غيرهم على صورة قلنسوة حمراء ذات اثنتي عشرة ذؤابة دلالة على الأئمة الاثني عشر، إنه تاج حيدر، من هنا أطلق العثمانيون على كل من يلبس تاج حيدر قزل باش؛ أي: الرؤوس الحمر[٢].

---

(١) الذهبي، محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء** جـ٣ ص٥٦. القزويني: **فوايد الصفوية** ص٥. الأسترآبادي: ص٢٥. Roemer. P204.

(٢) شيباني: ص٦٩ .**دائرة المعارف الإسلامية**: جـ٨ ص١٥٧.

وظل حيدر في أردبيل خشية العواقب بفعل تراجع قوة الصفويين حتى استولى أوزون حسن على العراق وأذربيجان بعد أن قضى على كل من جهان شاه بن قرة يوسف وأبي سعيد التيموري في عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩م)، ولم يعد يخشى أحداً في العراق وإيران حتى بلاد ما وراء النهر[(١)].

وطلب زعيم الآق قوينلو من ابن أخته حيدر أن يُرسل إليه شعار طريقته ليتزيَّا به هو وأولاده، ودعاه إلى مقره في ديار بكر حيث زوّجه ابنته كاترين، حليمة بيكم الملقبة بعلم شاه، وقد أنجبها من زوجته دسبينا خاتون ابنة الامبراطور يوحنا الرابع حاكم طرابزون[(٢)]. ويبدو أن أوزون حسن أراد أن يساعد صهره وابن أخته في تأسيس مُلك له، غير أنه توفي في عام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م) قبل أن يُحقق هدفه، وخلفه ابنه وولي عهده خليل الذي تعرض لمؤامرة من جانب أخيه الأصغر يعقوب، وقتله بعد أشهر عدة من وفاة والده، ونصَّب نفسه حاكماً على الآق قوينلو[(٣)].

وساءت العلاقة بين الشابين حيدر ويعقوب بفعل طموح الأول السياسي، وأخذ يعقوب يراقب تحركاته حتى بلغ التوتر بينهما الذروة، فاضطر حيدر وأتباعه إلى الرحيل عن ديار بكر عائدين إلى أردبيل.

وأدرك حيدر أن المواجهة لا بد آتية لذلك راح يُقوي نفسه، فغزا الكرج مرتين (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) و(٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م) لتأمين موطئ قدم أو مغنم يساعده في تموين جيشه بعد أن حصل على إذن من خليل حاكم شَروان التي تقع في طريق زحفه إلى بلاد الكرج، ثم طمع في الاستيلاء على هذه الإمارة والانتقام لمقتل والده بعد أن لمس ضعفها، فهاجم عاصمتها شماخي. فأصاب خليل الذعر وطلب المساعدة من يعقوب زعيم الآق قوينلو وخصم حيدر. وتعاون الطرفان في حرب ناجحة ضده، وجرى الصدام بين الفريقين المتنازعين في طبرستان قرب دربند، باب الأبواب، في عام (٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) وأسفر عن مقتل حيدر[(٤)].

تكمن أهمية حيدر في أنه أخرج الحركة الصفوية من طورها الديني إلى طورها العسكري بعد أن نظَّم مريديه تنظيماً عسكرياً جيداً واختار لهم لباساً خاصاً أكثر ما يميزه قلنسوته الحمراء ذات الاثنتي عشرة ذؤابة تيمناً بالأئمة الاثني عشر، والذي

---

(١) السخاوي: جـ٣ ص٨٠.

(٢) Kritovoulos: **History of Mehmed the Conqueror**, p169.

(٣) إقبال: ص٦٣٥، ٦٣٦.

(٤) القزويني: ص٥، ٦. الأسترآبادي: ص٢٥. شيباني: ص٦٩. Roemer: pp208, 209. شاملوئي: حبيب الله: **تاريخ تهران** ص٥٦٨.

صار شعاراً للقوى الصفوية[1].

سلطان علي: ترك حيدر بعد وفاته ثلاثة أولاد هم: إبراهيم وإسماعيل وسلطان علي، وقد خلف هذا الأخير أباه في زعامة الأسرة والتف جميع المريدين حوله، وحرَّضوه على الانتقام لمقتل والده، وقد أقلق ذلك يعقوب زعيم الآق قوينلو، فأوعز إلى حاكم أردبيل باعتقالهم، فاعتقلهم مع والدتهم حليمة وسلَّمهم إلى منصور بك حاكم فارس الذي سجنهم في قلعة اصطخر، غير أنهم ما لبثوا أن خرجوا من سجنهم بعد أربع سنوات إثر وفاة يعقوب في عام (٨٩٦هـ/ ١٤٩١م) في ظل الصراع على السلطة بين خلفائه[2].

ونجح رستم بن مقصود بن أوزون حسن في تولي زعامة الآق قوينلو في ديار بكر، لكن نازعه بايسنقر بن يعقوب الذي طلب المساعدة من فروخ يسار شاه حاكم شَروان، ما دفع رستم إلى إطلاق سراح الإخوة مع والدتهم، وحرَّض الابن الأكبر سلطان علي على الانتقام لمقتل والده على يد خليل، والد فروخ يسار شاه[3].

انتشر إطلاق سراح أولاد حيدر بين مريديه، فالتفوا من حولهم ورفعوا سلطان علي إلى زعامة الأسرة، فحارب بايسنقر وقتله في عام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) ليحول دون تحالفه مع فروخ يسار شاه، وقد صبَّت هذه الحادثة في مصلحة رستم الذي كافأ سلطان علي واستقبله في عاصمته بالترحاب، وسمح له بالعودة إلى أردبيل ليتولى رئاسة مريديه[4].

ويبدو أن التجمع الضخم للمريدين أزعج رستم وأثار الأحقاد الدفينة بين الأسرتين، فاستدعى الإخوة الثلاثة إلى تبريز وفي نيته تحديد إقامتهم ليقطع صلته بمريديهم، غير أن سلطان علي علم بنيته، فنشبت الحرب بينهما، وقُتل سلطان علي في المعركة، فحُملت جثته إلى أردبيل ودُفنت في ضريح أجداده، والتجأ إبراهيم وأخوه إسماعيل إلى جيلان، ثم قُتل الأول أثناء محاولته العودة إلى أردبيل، وبقي إسماعيل في جيلان بانتظار فرصة للعودة[5]. وتكرَّس نتيجة ذلك، الصراع بين الأسرتين الذي سيتحدَّد مصيره في عهد الشاه إسماعيل.

دور العامل القبلي في تأسيس الدولة الصفوية

يلاحظ الباحث في تاريخ الدولة الصفوية الدور الكبير الذي أدَّته القبائل التركمانية

---

(١) صباغ، عباس: **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية** ص٤١.

(٢) القزويني: ص٦.

(٣) إقبال: ص٦٣٦، ٦٤٠.

(٤) الأسترآبادي: ص٢٩.

(٥) شيباني: ص٦٩. القزويني: ص٦.

في تأسيس الدولة الصفوية وفي استمراريتها. والواقع أن القوة العسكرية التي رافقت الشاه إسماعيل الأول في أعماله العسكرية، كانت تتألف في غالبيتها من رجال القبائل التركمانية المسماة قزلباش، وهي:

روملو

يبدو أن أقدم مريدي الأسرة الصفوية من مجموعات القزلباش كانوا من قبيلة روملو، وهم من سلالة أسرى الحرب الأتراك الذين اصطحبهم تيمورلنك معه بعد معركة أنقرة ضد السلطان بايزيد الأول العثماني، وقد توسط علاء الدين علي الصفوي في تحريرهم ليصبحوا مع مرور الزمن من أشد مريدي الأسرة الصفوية ولاء.

شاملو

تنتسب هذه القبيلة التركمانية إلى الشام لقدومها من أطراف حلب وأدنة وطرسوس وسائر المناطق الشمالية لبلاد الشام، وقد تقلَّد زعماؤها الوظائف الكبيرة طوال عهد الحكم الصفوي وبخاصة أيام الشاه إسماعيل الأول، نذكر منهم: ثلاثة إخوة هم: حسين بك لله خان، أمير أمراء الشاه إسماعيل الأول الذي قُتل في معركة تشالديران، وأخوه درويش خان صاحب الحظوة عند الشاه، وأخوه حسين خان الذي شغل منصب أمير الأمراء في عهد الشاه طهماسب الأول[(١)].

زينل خان: تولى حكومة هراة في عهد الشاه طهماسب الأول[(٢)].

علي قولي خان: تولى منصب وزير البلاط في عهد الشاه عباس الأول، وأكرمه الشاه بأن أقطعه أراضي مدينة الري كلها[(٣)].

استاجلو

قبيلة تركمانية ساند أفرادها الدولة الصفوية منذ بداية نشأتها، وكانت منتشرة في منطقة أرزنجان في أرمينيا، وبرز من زعمائها:

محمد خان: حاكم ديار بكر من قِبل الشاه إسماعيل الأول، الذي امتد نفوذه إلى القسم الشرقي من آسيا الصغرى والقسم الأعلى من نهر الفرات في مرعش والبستان وخرتبرت وآمد والرها، فهدَّد بذلك السلطان سليم الأول العثماني، وقُتل في معركة تشالديران[(٤)].

قزاخان: أخو محمد خان وخليفته في حكومة ديار بكر، قُتل في ماردين في عام (٩٩٢هـ/١٥١٦م) إثر صدام جرى بينه وبين مصطفى باشا العثماني، أحد قادة

---

(١) الأسترآبادي: ص٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٩.
(٣) مؤرخ مجهول: **تاريخ قزلباشان** ص٨ ـ ١١.
(٤) شيباني: ص٧٩.

السلطان سليم الأول، وقد تسلم سبعة وعشرون أميراً من هذه القبيلة، مناصب مهمة في الدولة الصفوية[1].

تكلو

قبيلة تركمانية كانت تسكن أطراف قونية في آسيا الصغرى وانتشر أفرادها في إمارة تكة جنوبي الأناضول، وأدَّت هذه القبيلة دوراً بارزاً في استقطاب التركمان إلى الدعوة الشيعية في مناطق منتشا وآيدين، والتحق أحد شيوخها، وهو بابا حسن خليفة، أحد أبرز دعاة الدولة الصفوية في الأناضول؛ بخدمة حيدر والد الشاه إسماعيل الأول، فكلَّفه بالعودة إلى ولايته والترويج للمذهب الشيعي، وتجميع المريدين. وقام بالأمر بعده ابنه نور الذي عُرف فيما بعد بشاه قولي (عبد الشاه) في عام (٩١٥هـ/١٥٠٩م) فقاد ثورة ضد الدولة العثمانية في إمارة تكة لصالح الشاه إسماعيل الأول، جامعاً حوله حوالي عشرين ألف مقاتل، وأعلن نفسه مهدياً، فتصدَّى له الصدر الأعظم خادم علي باشا في منطقة تشوبوك قرب سيواس، وهزمه وقتله وذلك في (جمادى الآخرة ٩١٧هـ/تموز ١٥١١م)[2]. واشتهر من أمرائها: جُوها سلطان، أمير أمراء الشاه إسماعيل الأول، وأولمة خان، حاكم أذربيجان في عهد الشاه طهماسب، ومحمد خان شرف الدين أوغلي، حاكم هراة في عهد الشاه محمد خدابنده (٩٨٦ ـ ٩٩٥هـ/١٥٧٨ ـ ١٥٨٧م)[3].

ذو القدر

ترجع أصول هذه القبيلة إلى تركمان مرعش والبستان[4] وسكنت في ديار بكر، التحق أفرادها بالأسرة الصفوية منذ أيام جنيد، وشاركوا في الحروب التي خاضتها الأسرة ضد شَروان شاه يسار[5]، ثم ساندوا ابنه حيدر، وأقطعهم الشاه إسماعيل الأول إقليم فارس. وأبرز من اشتهر منهم: محمد بن كوشاه ابن علاء الدولة[6].

أفشار

قبيلة تركمانية هاجر أفرادها من تركستان إلى أذربيجان وشمالي بلاد الشام تحت الضغط المغولي، وانتشروا في أذربيجان وقزوين وأطراف طهران وخراسان وفارس

---

(١) مؤرخ مجهول: ص٤٥ ـ ٤٩.
(٢) النهروالي، الشيخ قطب الدين: **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، أخبار مكة المشرفة** ص٢٦٠.
(٣) روملو، حسن بك: **أحسن التواريخ** ص٣١١. مؤرخ مجهول: ص٢٩.
(٤) مؤرخ مجهول: ص٤٩. (٥) شيباني: ص٨١.
(٦) مؤرخ مجهول: ص٤٩ ـ ٥١.

وكرمان ومازندران وخوزستان، واشتق اسم القبيلة من أوشاريا أو وشار، حفيد جنكيز خان، وتنقسم هذه القبيلة إلى قسمين، قاسملو وقرة خلو، وظهر من هذا القسم الأخير نادر شاه الأفشاري أحد أعظم حكام إيران في العصر الحديث ومؤسس الدولة الأفشارية التي حكمت إيران بعد الدولة الصفوية(١).

قاجار

يتصل نسب هذه القبيلة التركمانية بقاجار نويان أحد قادة المغول، هاجرت من أواسط آسيا خلال الاجتياح المغولي وانتشرت في مختلف أنحاء إيران وبخاصة في أذربيجان، كما استوطن قسم من أفرادها أرمينيا والشام، غير أنهم لم يستقروا وعادوا مع تيمورلنك بعد أن فرغ من غزو المنطقة واستقروا في أذربيجان ثم التحقوا بخدمة الشاه إسماعيل الأول، وتولى بعض أفراد هذه القبيلة مناصب مهمة في عهد الشاه عباس الأول(٢).

ورساق

قبيلة تركمانية سكنت ورساق في مقاطعة قرمان في آسيا الصغرى، هاجر أفرادها إلى أذربيجان لمساعدة الشاه إسماعيل الأول في حروبه(٣).

صوفية قراباغ

تتشكل هذه الفئة من الجماعات الصوفية التي انضمت إلى صفوف الشاه إسماعيل الأول عندما نزل بأرزنجان(٤).

ودخلت أعداد أخرى كبيرة من التركمان في خدمة الدولة الصفوية، إلى جانب هذه القبائل نذكر منها:

- تركمان ديار بكر، بعد سقوط دولتهم بيد القزلباش في عام (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م).
- المجموعات البشرية من قبائل الآق قوينلو، بعد زوال دولتهم.
- مجموعات فارسية على أثر استيلاء القزلباش على إقليمي فارس وعراق العجم في عام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) وقد شكّلت العمق التاريخي والسكاني للهضبة الإيرانية.
- سكان خراسان من الفرس والترك، على أثر المعركة التي دارت رحاها في عام (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) في مرو بين الصفويين والأوزبك.
- المجموعة الأفغانية في عهد الشاه طهماسب الأول.
- البلوج، وهم بدو ينتشرون بين كرمان وسيستان في المنطقة المنسوبة إليهم،

---

(١) إقبال: ص٦٩٥.
(٢) شيباني: ص٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٨٣.
(٤) روملو: ص٤١.

بلوجستان، كما ينتشرون في الصحاري الواقعة على أطراف وادي السند.

التفَّت هذه القبائل حول شيوخ الأسرة الصفوية، وقد وحَّدهم حب الشاه والتضحية في سبيل تحقيق أهدافه التي تنحصر في تدعيم الكيان الصفوي وإقرار المذهب الشيعي الاثني عشري. وكان القزلباش يعدُّون الشاه إسماعيل الأول، على الرغم من صغر سنه[1]، مرشداً كاملاً مثل أبيه وأجداده، ويرون أن التبعية له والتضحية في سبيله واجبة وكذلك تنفيذ أوامره. وكان بعضهم يخوض الحروب وهم عُزَّل من السلاح معتقدين بأن المرشد الكامل يحرسهم في ميدان القتال، ووصل بهم الأمر إلى حد أنهم كانوا يذكرونه أكثر مما يذكرون الله[2].

ومهما يكن من أمر، فعندما ظهر الشاه إسماعيل الأول على مسرح الحياة السياسية، كانت دعايات جده جنيد ووالده حيدر القائمة على أساس مذهبي في مظهرها، ورغبة في العرش في جوهرها قد حقّقت الغاية المنشودة منها من واقع رد الفعل المعادي للأسرة الحاكمة في إيران التي تدين بالمذهب السني، وقد بدا أثر هذه الدعايات واضحاً بين السكان في المدن الغربية من إيران[3].

والواضح أن التفاف هذه القبائل التركمانية حول الأسرة الصفوية جاء نتيجة ثلاثة عوامل مذهبية اقتصادية وسياسية.

فمن حيث العامل المذهبي، فقد اعتنقت هذه القبائل المذهب الشيعي، فكان من الطبيعي أن تساند حركة تسعى إلى إقامة دولة شيعية في المنطقة تنافس الدولة العثمانية بخاصة، السنية المذهب.

ومن حيث العامل الاقتصادي، فقد عمد العثمانيون، منذ عهد السلطان محمد الفاتح على الأقل (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٥١ ـ ١٤٨١م)، إلى إحداث تغييرات جذرية في البنية الاقتصادية لتحقيق المركزية وذلك بانتزاع أراضي التيمارات الإقطاعية من أيدي أصحابها، ومعظمهم من التركمان، وعندما رفع قادة هذه القبائل الشاه إسماعيل الأول على العرش، وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، أرادوا أن يُعوِّضوا عما كانوا قد خسروه من مزايا إقطاعية في الدولة العثمانية، والتفَّت حولهم الغالبية الساحقة من الفلاحين الفقراء والمضطهدين من العلويين.

ومن حيث العامل السياسي، فقد ارتبط توجُّه زعماء القبائل التركمانية السياسي بالصراع الإقليمي على السيطرة بين الدولة العثمانية والصفويين، والسعي إلى إقامة نظام بديل عن النظام العثماني.

---

(١) لم يتجاوز آنذاك الثالثة عشرة.

(٢) براون: جـ٤ ص٥٦.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٤٨.

الشاه إسماعيل الأول

٩٠٧ ـ ٩٣٠هـ/ ١٥٠١ ـ ١٥٢٤م

البدايات الأولى

بعد مقتل سلطان علي بن حيدر على أيدي الآق قوينلو، نقل أتباع الأسرة الصفوية الأخوين إسماعيل وإبراهيم، سراً من أردبيل إلى جيلان بعيداً عن رقابة رستم رئيس الآق قوينلو وذلك في عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م)، ثم استدعاهما كاركيا ميرزا علي حاكم لاهيجان القريبة من جيلان للاستقرار في كنفه، ووعدهما بالمساعدة، غير أن إبراهيم عاد إلى أردبيل ودفع حياته ثمناً لذلك، وبقي إسماعيل في لاهيجان بانتظار الفرصة المناسبة. وقام كاركيا ميرزا علي بإعداده وتربيته تربية عسكرية ودينية، وقد كلَّف الشيخ شمس الدين اللاهيجي الاهتمام به وتحفيظه القرآن الكريم، ويدل ذلك على استعداد حكام وسكان المناطق القريبة من إيران تقبُّل مذهب جديد معارض للمذهب السني[(١)].

بقي إسماعيل مدة خمسة أعوام في لاهيجان في كنف كاركيا ميرزا علي، وكان بحاجة إلى جيش قوي وبداية موفقة، فجيَّش أتباعه الذين كانوا يتردَّدون عليه. وفي لاهيجان، بدأ التنظيم السياسي والعسكري على يد الصوفية الصفويين الذين رسَّخوا مبادئ المذهب الشيعي في نفسه، وأضحى وهو لا يزال صبياً، زعيماً محبوباً يتفانى المريدون في خدمته والذود عنه.

وبدأت ترتسم في الأفق السياسي، منذ ذلك الحين، إشارات تجمُّع صفوي هدفه تحقيق تطلعات الأسرة الصفوية المذهبية والسياسية، ما أثار ألوند ميرزا علي رئيس الآق قوينلو[(٢)] وقد شعر بخطر التجمعات الصفوية على بلاده، فكتب إلى كاركيا ميرزا علي يطلب منه إخراج إسماعيل من بلاده وإرساله إليه كشرط لتحسين العلاقة

---

(١) القزويني: ص٦.

(٢) خلف ألوند، أحمد بن محمد بن أوزون حسن في عام (٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م) الذي كان قد خلف رستم في عام (٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م).

بينهما وهدَّده باجيتاح بلاده إن هو أحجم عن ذلك. ويبدو أنه لم يطمئن إلى نوايا كاركيا، فأرسل قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثمائة جندي إلى لاهيجان بقيادة كاظم للقبض على إسماعيل. ولما علم كاركيا ميرزا علي بذلك وضع إسماعيل في قفص وعلَّقه في أعلى شجرة، وأقسم لرسول ألوند أن إسماعيل ليس في أراضيه، فعاد كاظم بك إلى تبريز خالي الوفاض[١].

وما جرى في هذه الأثناء من نزاعات أسرية حادة داخل الآق قوينلو، استفاد منها إسماعيل وأتباعه الذين أرادوا الجهر بدعوتهم والعودة إلى أردبيل، غير أن كاركيا ميرزا علي نصحهم بالتريث حتى تنجلي صورة الوضع السياسي في قبيلة الآق قوينلو، إلا أن إسماعيل لم يأخذ بهذه النصيحة، وخرج من لاهيجان بصحبة سبعة من كبار مريديه[٢] متوجهاً إلى أردبيل المقر الروحي للصفويين عن طريق طارم. ويبدو أن حاكمها علي بك جاكرلو لم يسمح لهم بالاستقرار في المدينة، إلا أنه لم يمنعهم من زيارة قبور شيوخ الصفوية، على أن يُغادروها بعد ذلك[٣].

وخرج إسماعيل مع أتباعه إلى قراباغ ومنها إلى أرزنجان في آسيا الصغرى ليستنصر أتباعه فيها، فانضم إليه منهم سبعة آلاف، ثم توجّه إلى طالش بدعوة من حاكمها محمد سلطان، واستقر في أرجوان بالقرب من أستارا، وأسَّس فيها جيشه المسمى قزلباش وذلك في عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م)، وكان عمره آنذاك ثلاث عشرة سنة[٤].

كان أول عمل عسكري قام به إسماعيل هو الانتقام لمقتل والده حيدر، فتوجَّه إلى ولاية شَروان في (جمادى الأولى/ كانون الأول) على رأس جيش من القزلباش يُقدر بسبعة آلاف مقاتل، وهاجم عاصمتها شماخي، وقبض على حاكمها فروخ يسار شاه وقتله[٥].

وأبدى إسماعيل في حملته هذه منتهى القسوة والعنف، فقد أحرق جثة فروخ يسار شاه، وخرَّب مقابر حكام شَروان، ونبش قبر خليل والد فروخ يسار شاه وقاتل جده جنيد، فاستخرج جثته وأحرقها، وأقام برجاً من رؤوس القتلى، وغنم ممتلكات وأموال وقلاع الأسرة ووضع نهاية لحكمها، ثم تعقَّب سلطان إبراهيم بن فروخ يسار شاه الذي تمكَّن من الهرب، وسيطر على مدينة باكو القريبة[٦].

---

(١) شيباني: ص٧٥.

(٢) هم: حسين بك الله، دده بك طالش، خادم بك خليفة، رستم بك قهرماني، بايرام بك قهرماني، إلياس بك آيغور أوغلي وقرة بيري.

(٣) شيباني: ص٧٦. Roemer: p210.

(٤) الأسترآبادي: ص٣٣ ـ ٣٥.

(٥) القزويني: ص٧.

(٦) شيباني: ص٨٥.

ترتب على حملة شَروان أربع نتائج كانت لصالح القضية الصفوية:

الأولى: بدأ الإيرانيون يلتفون حول الأسرة الصفوية، ورأوا في إسماعيل منقذاً لهم من الفوضى التي تسببها الأسر العديدة المتصارعة، فضمَّ بذلك العديد من الأتباع إلى حركته.

الثانية: إن الغنائم التي حصل عليها دعَّمت جيشه وضاعفت من قدرته العسكرية، ما أتاح له مواصلة الحرب ومواجهة أعدائه في مناطق أخرى.

الثالثة: وضعت السيطرة على باكو الأسرة الصفوية في موقع المواجهة مع ألوند رئيس الآق قوينلو، وبدا هذا ضعيفاً بفعل النزاعات الأسرية داخل القبيلة ومقتل حليفه فروخ يسار شاه حاكم شَروان، فمال إلى المهادنة، وكتب إلى إسماعيل بذلك، فردَّ عليه إسماعيل يُخيِّره بين اعتناق المذهب الشيعي والانضمام إليه وبين الحرب[1]، ويدل ذلك على:

- تراجع الحكام الأقوياء في إيران أمام الاندفاع الصفوي الجارف.
- إصرار إسماعيل على التمسك بالمذهب الشيعي وفرضه كمذهب وحيد في إيران.
- اعتبار المذهب الشيعي الأساس الذي يُوجِّه سياسات الأسرة الصفوية في المستقبل.

الرابعة: أحكَمَ الصفويون سيطرتهم على مداخل الهضبة الإيرانية من جهة الغرب.

ويبدو أن ألوند لم يقتنع برد إسماعيل، كما لم يُدرك المدى الذي وصلت إليه قوته العسكرية، فغامر بحكمه وخرج للقتال. كان إسماعيل آنذاك يحاصر مدينة گلستان، فرفع الحصار عنها وتوجَّه لملاقاة ألوند، والتقى به عند شرور في وادي أراكس في (أول محرم ٩٠٧هـ/ ١٧ تموز ١٥٠١م)، وجرى بينهما قتال ضار انتهى بهزيمة ألوند الذي هرب إلى أرزنجان في جو الهزيمة القاتم تاركاً معداته وأمتعته تقع غنيمة سهلة في أيدي إسماعيل[2].

وزحف إسماعيل بعد انتصاره إلى تبريز عاصمة الآق قوينلو، فدخلها واستولى عليها واتخذها عاصمة له، واستقبله أهلها استقبال الفاتحين، ولعلهم أرادوا التخلص من الفوضى التي سبَّبها حكم الآق قوينلو[3].

قيام الدولة الصفوية

فرض إسماعيل، بعد أن استولى على تبريز، المذهب الشيعي الاثني عشري على

---

(١) انظر نص الرسالتين المتبادلتين بين الرجلين عند شيباني: ص٨٧. مؤرخ مجهول: **عالم آراي صفوي**: ص٦١، ٦٢.

(٢) خواندمير: جـ٤ ص٤٦٢، ٤٦٣. القزويني: ص٧. الأسترآبادي: ص٣٥، ٣٦.

(٣) شيباني: ص٨٩. القزويني: ص٧. الأسترآبادي: ص٣٥، ٣٦.

سكانها وأجبرهم على وضع علامة القزلباش، واضطهد مخالفيه من أهل السنة وقتل منهم نحو عشرين ألفاً وكان يمتحنهم بطرق شتى، وأمر بإخراج جثث رؤساء الآق قوينلو من القبور وإحراقها[١]. وتوَّجه أعوانه ومريدوه ملكاً على إيران ولقَّبوه بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، وذلك في عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م)، فضرب النقود باسمه وكتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي ولي الله» ثم كتب اسمه. كما أقام الخطبة باسمه كدلالة على قيام الدولة ثم فرض المذهب الشيعي الاثني عشري في مختلف أنحاء إيران وأعلنه مذهباً وحيداً وإجبارياً لدولته. ويبدو أن إعلان المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً للدولة في إيران لم يكن في معظمه إلا من أجل إيجاد إطار إداري شرعي للدولة الجديدة من جهة وإرضاء لعقائد السكان في إيران من جهة أخرى، حيث كان التشيع منتشراً على مستويات شعبية وقيادية. وقد خشي علماء المذهب من هذا التسرع لأن معظم سكان تبريز وكذلك سكان إيران كانوا من السنة ولا يدرون شيئاً من تعاليم المذهب الشيعي وقد يعارضون هذا التوجُّه[٢].

كان موقف الشاه إسماعيل الأول من هذه القضية ثابتاً، فهدَّد كل من يخالف أوامره، ثم أمر الخطباء والمؤذنين بإضافة تشهد الشيعة في الأذان «أشهد أن علياً ولي الله» و«حي على خير العمل» ولعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أبا بكر وعمر وعثمان[٣] مع المبالغة في تقديس الأئمة الاثني عشر، فاستسلم الناس لهذا التصميم من جانبه. والواقع أن التوحيد المذهبي الذي فرضه الشاه إسماعيل الأول وحَّد البلاد اجتماعياً وعسكرياً بحيث شهدت استقراراً داخلياً.

وأجرى الشاه إسماعيل الأول بعد استقراره في تبريز بعض الترتيبات الإدارية لتسيير أمور البلاد، فعيَّن حسين بك الله نائباً له، ومربيه الشيخ شمس الدين اللاهيجي حاملاً للأختام، واستقدم الأمير محمد زكريا، وزير الآق قوينلو، ونصَّبه وزيراً له[٤].

الامتدادات الصفوية داخل إيران

بعد عام من قيام الدولة، جهَّز الشاه إسماعيل الأول جيشاً لمطاردة مراد بن يعقوب بن أوزون حسن حاكم فارس والعراق وآخر أمراء الآق قوينلو، واصطدم به بالقرب من همدان وهزمه، وفرَّ أمير الآق قوينلو إلى بغداد[٥]، وغدا إقليم فارس ضمن الممتلكات الصفوية، وقد مثَّل هذا الامتداد أول اختراق صفوي في عمق الهضبة

---

(١) شيباني: ص٨٨.

(٢) مؤرخ مجهول: ص٦٤.

(٣) الأسترآبادي: ص٣٦.

(٤) شيباني: ص٩١.

(٥) شيباني: ص٨٩. القزويني: ص٧. الأسترآبادي: ص٣٥، ٣٦.

الإيرانية، وطال المركز الذي تمحورت عليه الحكومات الإيرانية عبر التاريخ[١].

كان على الشاه إسماعيل الأول، بعد الانتصار على مراد بن يعقوب ميرزا، أن يستكمل سيطرته على الهضبة الإيرانية وتثبيت حكمه فيها تمهيداً للتوسع في الخارج على حساب جيرانه، فاستولى على شيراز، وفرض على سكانها المذهب الرسمي للدولة، وخشيه أمراء المناطق المجاورة، فأسرعوا بتقديم الولاء له، نذكر منهم: محمد قرة حاكم أبرقوه القريبة من أصفهان، فأبقاه الشاه في منصبه، وأمر جان محمد استاجلو، المعروف بخان سلطان، بالاستيلاء على كرمان، وما إن علم حاكمها محمد بك برناك بقدوم الصفويين حتى فرَّ إلى خراسان محتمياً بالسلطان حسين بايقرا التيموري، وترك بلاده مفتوحة أمام القوات الصفوية، فدخلتها وضمَّتها إلى الأملاك الصفوية، لكن حسين بايقرا دخل بعد ذلك في طاعة الشاه إسماعيل الأول وقد خشي من قسوته وشدة بطشه بأعدائه[٢]، وكذلك فعل ابنه محمد. وجاءه حكام مازندران الواقعة في جنوبي بحر قزوين، نظام الدين عبد الكريم وآقا رستم، ولاهيجان، كاركيا ميرزا علي، مستأمنين وقدَّموا له فروض الولاء والطاعة[٣].

التفت الشاه إسماعيل الأول بعد ذلك إلى عراق العجم، فخرج من تبريز قاصداً قاشان، وعيَّن إلياس بك ذو القدر حاكماً على فارس، فدانت المدينة له، واستولى على قم، المدينة المقدسة لدى الشيعة، وأمضى فيها شتاء عام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، محققاً بذلك سيطرة على القسم الشمالي لإقليم عراق العجم[٤].

ويبدو أن التوجُّه المذهبي وقسوة الشاه إسماعيل الأول في معاملة أعدائه أثارت بعض حكام المقاطعات والمدن. فقد استغل حسين كيا جلاوي حاكم خوار وسمنان وفيروزكوه ودماوند غياب الشاه عن عاصمته تبريز، فهاجمها وقتل حاكمها إلياس بك فتصدَّى له الشاه في (أوائل عام ٩١٠هـ/ منتصف عام ١٥٠٤م)، واستعاد المدن بعد معارك ضارية وتعقَّبه حتى اعتقله، ثم قتله ووضع جثته في قفص وحملها إلى أصفهان وأحرقها في ميدان المدينة[٥]، وعاد إلى تبريز ليواجه حاكم يزد[٦] الذي رفض الاعتراف بسلطته، فاجتاحت القوات الصفوية مدينته واستولت عليها وقتلت كثيراً من أهلها.

---

(١) صباغ: ص٤٦.

(٢) شيباني: ص١٠١. الأسترآبادي: ص٣٧.

(٣) الأسترآبادي: ص٣٧، ٣٨. (٤) المصدر نفسه.

(٥) مؤرخ مجهول: ص٩٨، ٩٩. الأسترآبادي: ص٣٧، ٣٨.

(٦) يزد: تقع هذه المدينة بين مدن نيسابور وشيراز وأصفهان وهي معدودة في أعمال فارس. الحموي: جـ٢ ص٤٣٥.

نتيجة لهذه الانتصارات العسكرية سيطر الشاه إسماعيل الأول على إيران الشمالية والجنوبية، وحاز الامتداد الصفوي على معظم الهضبة الإيرانية بما فيها إقليم عراق العجم.

التوسع الصفوي خارج إيران

تمهيد

يُعدُّ اعتلاء الشاه إسماعيل الأول الصفوي عرش إيران ظاهرة ملفتة تختلف في طبيعتها عن حكم الأسر التي مرَّت على هذه البلاد قبل ذلك، مثل: الإيلخانيين، الجلائريين، القرة قوينلو، والآق قوينلو. فقد جمع في شخصه الناحيتين السياسية والدينية، فهو رجل دولة ومرشد أكبر لدعاة المذهب الشيعي الاثني عشري، واتخذ من السيف والدعوة بالتي هي أحسن، أساليب متكاملة لتحقيق أهداف أسرته، من هنا كانت أهمية حركته واعتلائه العرش في تبريز. ولا يعني ذلك أن الأمور قد توطَّدت له وأن طموحه البعيد قد توقف عند هذا الحد، إذ كانت سياسات الأمراء المجاورين له وتوجهاتهم المذهبية المناهضة تفرض عليه أن يصطدم بهم أو يعمل على إخضاعهم ليستمر في تحقيق أهدافه.

والواقع أن القوى المعادية كانت تحيط به من كل جانب:

- ففي الغرب، كان العراق الذي لجأ إليه مراد بن يعقوب، آخر الأمراء الآق قوينلو، محط أطماع الشاه إسماعيل الأول.
- وفي الشمال الغربي، كان الأناضول قلب الدولة العثمانية النامية والسنية المذهب، وكانت تتوسع في البلقان على حساب القوى الأوروبية.
- وفي الشمال الشرقي، كانت قبائل الأوزبك بزعامة محمد الشيباني الشديد البأس في بلاد ما وراء النهر، وقد سيطر على خراسان وعلى أجزاء من شمال شرقي إيران.
- وفي الشرق، كانت توجد قبائل الأفغان القوية والقاطنة في صحراء صعبة المسالك وتتوثَّب لمهاجمة المناطق الزراعية الخصبة.
- وفي الخليج العربي، كان الأسطول البرتغالي يجوب عباب مياهه بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، كقوة تتحكم في مقدرات الخليج كله[1].

الاستيلاء على العراق

بعد أن قضى الشاه إسماعيل الأول على أسرة الآق قوينلو في داخل إيران، كان عليه

---

(١) نوار، سليمان عبد العزيز: **تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث** جـ١ ص٢٦، ٢٧.

أن يقضي عليها أيضاً خارج إيران، وقد تركزت الأسرة آنذاك في منطقتين، إحداهما العراق بزعامة مراد بن يعقوب، والأخرى البستان في الأناضول بقيادة علاء الدولة.

كانت حملة الشاه ضد علاء الدولة من أولى حملاته المهمة فيما وراء إيران. فقد غادرت القوات الصفوية تبريز في عام (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م) متوجهة إلى إقليم كردستان الذي يفصل الهضبة الإيرانية عن العراق والأناضول في محاولة للاستيلاء عليه، لكنها فشلت في التغلب على المقاومة الكردية بقيادة صارم بن سيف الدين المكري، غير أنها أخضعت عدداً من الأمراء الأكراد[١]، ثم هاجمت مرعش والبستان في العام التالي إثر تحالف مراد بن يعقوب مع علاء الدولة اللذين وقفا في وجه امتدادات الشاه بالإضافة إلى جهودهما للقضاء على أسرته[٢]، وجرى قتال بين الطرفين انهزم فيه المتحالفان وفرَّا إلى بغداد. واجتاحت القوات الصفوية ديار بكر ودخلتها ثم غادرتها بعد أن عيَّن الشاه عليها محمد خان استاجلو نائباً عنه في حكمها، وأمضى الشتاء في خوي، وأخذ يُعد العدة لاجتياح العراق آخر معاقل الآق قوينلو[٣].

نتيجة سيطرته على البستان أضحى الشاه يجاور أكبر قوتين إسلاميتين في الشرق الأدنى هما قوة الأتراك العثمانيين الذين امتدت ممتلكاتهم من جبال طوروس والأناضول إلى أوروبا الشرقية والوسطى، وهم في نضال مستمر مع القوى الأوروبية، وقوة المماليك الذين امتدت أراضيهم من جبال طوروس والشام حتى مصر والحجاز، وهم في نضال مع البرتغاليين في المياه الجنوبية الإسلامية. وكانت إمارة البستان تابعة لدولة المماليك في مصر، وكان العثمانيون يعدونها من ضمن مجالهم الحيوي ويتنافسون مع المماليك على امتلاكها. وحتى لا يثير أياً منهما أرسل سفارة إلى القاهرة طمأن فيها السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٧ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠١ ـ ١٥١٦م) مبرراً عملياته العسكرية في إمارة البستان بأنها وقائية، وكذلك أرسل سفارة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦ ـ ٩١٨هـ/ ١٤٨١ ـ ١٥١٢م) في إستانبول للغاية نفسها[٤].

---

(١) البدليسي، شرف خان: **شرف نامه البدليسي** جـ١ ص٢٨، ١٠٤، ١٢١.

(٢) نظمي زادة، مرتضى أفندي: **گلشن خلفاء** ص١٢٨.

(٣) شيباني: ص١٠٨.

(٤) مهدوي، عبد الرضا هوشنك: **تاريخ روابط خارجي إيران** ص١٣. ابن إياس، محمد بن أحمد: **بدائع الزهور في وقائع الدهور** جـ٤ ص١٢٣. فريدون بك: **منشآت السلاطين** ص٣٤٥.

تطلع الشاه بعد ذلك لاجتياح العراق، وتتداخل هنا الدوافع المذهبية والسياسية والاقتصادية التي حرَّكته ودفعته بقوة لتحقيق غايته.

فمن حيث الدافع المذهبي، كانت حركة الشاه تعتمد على المذهب الشيعي الاثني عشري، وعدَّت إيران نفسها المدافع الأول عن هذا المذهب ومسؤولة عن انتشاره، ومن ثَمَّ كانت سيطرته على كربلاء والنجف، وهي من الأماكن المقدسة لدى الشيعة، تعطي حركته دفعاً قوياً وتُحقِّق هدفاً مذهبياً.

يضاف إلى ذلك، كان الشيعة في العراق ينظرون إلى شاه إيران على أنه الحامي لهم، يلجأون إليه كلما نزل بهم ضرر أو أعوزتهم الأموال. وكانت حكومة إيران تهتم بالقيام بإصلاحات معمارية في العتبات المقدسة، ما جعل شيعة العراق يعتقدون أن إيران تقف وراءهم إذا تدهورت العلاقات بينهم وبين المسلمين السنة في العراق، لذلك كان من الطبيعي أن يتطلعوا إلى اليوم الذي تحكم فيه إيران العراق[1].

ومن حيث الدافع السياسي فإن التداخل الاثني بين الدولتين الصفوية والعثمانية أدى دوراً خطيراً في دفع الشاه إسماعيل الأول إلى مهاجمة العراق وضمِّه إلى أملاكه، فقد كان يسكن في جنوبي الأناضول، وديار بكر قبائل تركمانية استقطبها شيوخ الصفوية قبله، وكان زعماء هذه القبائل مع بداية القرن السادس عشر الميلادي على استعداد لتنفيذ رغباتهم المبيتة لحركتهم، ولما اعتلى الشاه العرش في تبريز كان عدد أتباعه قد تنامى وأخذ يشكل خطراً سياسياً واضحاً على الدولة العثمانية في جنوبي الأناضول، وبخاصة بعد أن تمكَّنوا من الاستيلاء على ولاية تكة وقتلوا حاكمها، كما تغلَّبوا على قرة كوز باشا حاكم قرمان الذي تصدَّى لهم، ثم اجتازوا توقات واستولوا عليها وخطبوا فيها باسمه، يضاف إلى ذلك فإن سيطرته على العراق تُكسبه مكانة رفيعة لدى المسلمين الشيعة، كما أن مسألة الحدود بين الدولتين العثمانية والصفوية وعدم تحديدها تحديداً واضحاً ودقيقاً، شكَّل سبباً سياسياً آخر تعدَّدت بسببها الأزمات بينهما بفعل تحركات القبائل الكردية التي كانت تجتاز الحدود وتثير مشكلات معقَّدة، وكانت تصحب هذه التنقلات، في معظم الأحيان، اعتداءات على قوافل الحجاج الإيرانيين وعلى القوافل التجارية. ومما شجَّع الصفويين على غزو العراق أن نصف سكانه كانوا شيعة، ومما ساعد العثمانيين على صدِّ الصفويين عن العراق أن نصف سكانه كانوا من أهل السنَّة.

ومن حيث الدافع الاقتصادي، فإن خصب العراق الزراعي يمكن أن يسد الكثير

---

(١) الهريدي، محمد عبد اللطيف: **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي على أوروبا** ص٤٦، ٤٧.

من حاجات سكان إيران، يضاف إلى ذلك، أن الشاه أراد السيطرة على الطريق التجاري المار بديار بكر والموصل والذي يقطع عمق وادي الرافدين نحو الخليج العربي عبر بغداد، وتُعدُّ الموصل، رأس هذا الطريق، الباب الطبيعي لشمالي العراق عبر اتصالها بأقاليم الأناضول وبلاد الشام. والجدير ذكره أن الحصار الذي فرضته السلطات العثمانية منذ أواخر عهد السلطان بايزيد الثاني على حركة التجارة الإيرانية كان مؤثراً بحيث اضطر التجار الإيرانيون إلى التحول نحو الجنوب.

أدرك مراد بن يعقوب حاكم بغداد أهداف وغايات الشاه إسماعيل الأول، وأنه أعجز من أن يقف وحده أمام أطماعه، فاستنجد بإمارة ذي القدر الواقعة في جنوب شرقي الأناضول، ولكن هذه الإمارة كانت تمر بمراحل شيخوختها فلم تستطع تقديم أي مساعدة، فاتجه عندئذ إلى السلطان قانصوه الغوري في مصر الذي أدرك خطورة التوسع الشيعي ومنافسة الشاه إسماعيل الأول له في منطقة المشرق العربي، فاتخذ بعض الإجراءات التمهيدية لإعداد حملة عسكرية استعداداً للتصدي لطموحه، إلا أن الظروف السياسية الصعبة التي كان يمر بها الغوري آنذاك، كانت لا تسمح له إلا بمناورات عسكرية فقط.

والواقع أن المماليك في مصر اعتادوا منذ اجتياح المغول للعراق في منتصف (القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) أن يروا هذا البلد تحت حكم مغولي أو فارسي أو تركماني، ومن ثَمَّ لم يروا في استيلاء الشاه إسماعيل الأول عليه وضعاً غير اعتيادي باستثناء أنهم نظروا إلى الدولة الصفوية النامية، كقوة يمكن أن تُهدِّد نفوذهم في بلاد الشام بدرجة لا تقل عن تهديد العثمانيين له، يضاف إلى ذلك، كان السلطان قانصوه الغوري منهمكاً في التصدي لخطر البرتغاليين الذين كثرت تعدياتهم ضد السواحل الإسلامية الجنوبية وبخاصة أن أسطولهم البحري قد سيطر على مداخل البحر الأحمر والخليج العربي وأغلقها في وجه التجارة الإسلامية بهدف تحويل طرق التجارة عن مصر إلى رأس الرجاء الصالح[1].

استغل الشاه هذه الظروف الموآتية وأعدَّ جيشين لاجتياح العراق، الأول بقيادته والثاني بقيادة حسن بك لالا. وما إن علم باريك بك برناك، عامل الآق قوينلو على بغداد، بزحف القوات الصفوية حتى غادر المدينة، فدخلتها القوات الصفوية من دون قتال، وخُطب للشاه إسماعيل الأول على منابرها، كما سُكَّت النقود باسمه دلالة على ضمِّها إلى ممتلكات الدولة الصفوية وذلك في عام (٩١٤هـ/١٥٠٨م)[2].

---

(١) نوار: ص٢٩، ٣٠.

(٢) شيباني: ص١٠٩. مؤرخ مجهول: ص١٢٣. القزويني: ص٨. إقبال: ص٦٤٢.

وأخذ الشاه يصبغ العراق بالصبغة الشيعية، فعمَّر مزارات الأئمة الشيعة، وزار مشهد الإمام الحسين في كربلاء ومشهد الإمام علي بن أبي طالب في النجف تأكيداً على الالتزام بالمذهب الشيعي، وانقلب على علماء المذهب السني، ووجد نفسه سيد العراق وبغداد من دون أن تتحرك ضده أيٌّ من الدولتين السنيتين الكبيرتين، الدولة العثمانية والدولة المملوكية، ما شجَّعه على التطلع إلى ما وراء العراق لعله يستطيع أن يُحقِّق آمال الشيعة البعيدة في إقامة دولة شيعية كبرى في المنطقة تضم إيران والعراق وبلاد الشام، وتتزعَّم العالم الإسلامي.

ونظَّم الشاه أوضاع العراق، فعيَّن خادم بك والياً عليه ومنحه لقب الخلفاء، ثم غادره إلى الحويزة الواقعة بين واسط والبصرة، وكانت تحكمها أسرة عربية من آل المشعشع منذ عام (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)، وقد أقلقه أن يدَّعي حاكمها السلطان فياض المشعشعي الألوهية في الوقت نفسه الذي تنتسب فيه قبيلته إلى علي بن أبي طالب، فاشتبك معه وقتله واستولى على أملاكه، وذلك في عام (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)[١].

وأرسل الشاه وهو في طريقه إلى الحويزة جيشاً بقيادة نجم الدين مسعود وبايرام بك قهرماني وحسين بك لله، للقضاء على ملكشاه رستم الذي كان يقيم في خُرَّم آباد، في لورستان ورفض الاعتراف بنفوذه عليه، فقبض القادة الثلاثة عليه وأحضروه أمام الشاه فاعتذر عما بدر منه، فعفا عنه الشاه وثبَّته في حكم لورستان[٢].

توجَّه الشاه بعد ذلك إلى شيراز، فأمضى فيها فصل الشتاء ثم غادرها إلى شَروان وقد ثار فيها شيخ شاه بن فروخ يسار، وطرد الوالي الصفوي حسين بك لله، واستولى عليها واستقر بها، غير أن الشاه تغلَّب عليه واستعاد شَروان وعيَّن منصوراً بك حاكماً عليها[٣]. وسار الشاه بعد ذلك إلى قراباغ قبل أن يعود إلى عاصمته تبريز في (أوائل ٩٠٦هـ/ ربيع ١٥١٠م) بعد عشر سنوات من الحروب المتواصلة في مختلف أنحاء إيران وديار بكر والعراق للقضاء على أعدائه من ناحية وفرض المذهب الشيعي في جميع أراضي دولته من ناحية أخرى، وكان قد بلغ آنذاك الخامسة والعشرين من عمره ونجح في تثبيت أقدامه في الحكم وتوحيد معظم أنحاء إيران، وأقام دولة امتدت من شَروان في جنوب شرقي القوقاز إلى كرمان في أقصى الجنوب الغربي لصحراء لوط باستثناء خراسان التي كانت في قبضة الأوزبك القوية،

---

(١) شيباني: ص٨٦. الأسترآبادي: ص٤٣. مؤرخ مجهول: ص١٣٥. شير، حسن جاسم: **تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم** ص٧٣ ـ ٧٦. الحلو، علي نعمة: **الأهواز، عربستان** ص١٦٧. Roemer: p216.

(٢) مؤرخ مجهول: ص١٣٣، ١٣٤.

(٣) شيباني: ص١١٠.

وامتدت في الغرب إلى ديار بكر والعراق، فجاور الأناضول والشام الأمر الذي سبَّب احتكاكاً مع العثمانيين بخاصة.

علاقة الصفويين مع الأوزبك

في عهد محمد شيباني خان: كانت سيطرة الشاه إسماعيل الأول على إيران غير مكتملة، إذ ظلَّت الأجزاء الشرقية والشمالية الشرقية وبخاصة خراسان، خارج حكمه، ولهذا كان طبيعياً أن يتجهز لكي يستولي عليها ويضمها إلى أملاكه، ما أدى إلى أن يصطدم بقوة فتية ناشئة إلى الشمال الشرقي منه هي قوة الأوزبك بقيادة محمد شيباني خان الذي يسيطر على مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى الجنوبية لنهر جيحون، وامتدت حدود دولته في الغرب إلى خط محاذ لسمنان في خراسان حتى بدخشان في الشرق، وجنوباً حتى منطقة كاخيندار وغور الجبليتين في أواسط أفغانستان، فأضحى بذلك على أبواب إيران من الشرق. ولما كانت التوجهات السياسية والمذهبية لكل من الأوزبك والصفويين متناقضة، كان من الطبيعي أن تنشب الحرب بينهما. فقد أراد محمد شيباني خان أن يتابع فتوحه باتجاه الغرب وبخاصة في إيران التي كانت يوماً تحت حكم أجداده بوصفه من سلالة جنكيز خان، كما أن الاختلاف المذهبي بين الأوزبك السنة والصفويين الشيعة ومحاولة الشاه إسماعيل الأول نشر مذهبه بين الأوزبك بالقوة، كان سبباً آخر دفع الطرفين إلى الاصطدام.

بدأت العمليات العسكرية من جانب محمد شيباني خان الذي انتهز فرصة انهماك الشاه إسماعيل الأول بتأديب حاكم شَروان، فهاجم كرمان وقتل حاكمها خواجة شيخ محمد[1]، وعلى الرغم من ذلك أرسل الشاه مبعوثين من جانبه إلى الزعيم الأوزبكي يعرض عليه إقامة علاقة سلمية واحترام متبادل ويُذكِّره بأن كرمان حق له وهي من أملاكه، ويبدو أن عرضه كان من أجل كسب الوقت، وهو يرنو ببصره إلى خراسان، إذ إنه لم يكن مستعداً أن يفتح جبهة جديدة في الشرق لانهماكه بترتيب أوضاعه الداخلية وتثبيت أقدامه في الحكم. لكن شيباني رفض عرض التفاهم وردَّ السفيرين[2]، ثم أرسل إليه رسالة حملها كمال الدين حسين الأبيوردي، فنَّد فيها حق الشاه في حكم إيران من واقع أن الملكية إذا كانت وراثية، فإن الوراثة تتعلق بالذكور من دون الإناث، أي أنها تتعلق بالنسل من ناحية الأب، لا من ناحية الأم،

---

(١) كرماني، أحمد علي خان وزيري: **تاريخ كرمان** ص٢٥٦.

(٢) الأسترآبادي: ص٤٤، ٤٥.

ولما كان زواج الشيخ جنيد جد إسماعيل من أخت أوزون حسن، فإن هذا لا يعطيه الحق في حكم إيران، وبالتالي فإن ادعاءه بأحقيته في حكم كرمان لا أساس له من الصحة، كما أشار بأن إقليم فارس كان تحت حكم والده أبي الخير، ومن ثَمَّ فإن ذكر اسمه في الخطبة وضربه على السكة أمر واجب، ودعاه إلى التخلي عن مذهب التشيع ونشره بالقوة وهدَّده باجتياح بلاده إن رفض الدعوة[١]. وردّ الشاه إسماعيل على رسالة محمد شيباني خان بأنه مستعد لهذا اللقاء وأنه ينوي زيارة الإمام الرضا في مشهد[٢].

وحدث آنذاك أن توغلت قوة مغولية أوزبكية في جنوبي خراسان، وتجاوزت قندهار، ما أثار الشاه إسماعيل الأول، فخرج من تبريز في صيف (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) على رأس جيش قوي، فتوغل في خراسان ودخل مشهد واقتحم هراة، وأجبر أحمد سلطان، حاكم دامغان وصهر محمد شيباني خان، على إخلائها، حتى إذا بلغ مرو تحصَّن محمد شيباني خان بها، وقد أعاقه عن الزحف جنوباً، للتصدي له، ما كان من ثورة سكان فيروزكوه الجبلية المنيعة، بالإضافة إلى ورود أنباء من بلاد ما وراء النهر عن مباغتة بيونسز حسن لابنه محمد تيمور عند نهر سيحون وتغلبه عليه. وهكذا أضحت الحاجة ماسة للحرب على ثلاث جبهات.

وفي الوقت الذي كان يفكر، أيبادر بعبور جيحون أم ينتظر عدوه عند حدود الصحراء، كان الشاه إسماعيل الأول في طريقه إليه، وعمد إلى الخدعة، فاستدار بجيشه في اتجاه العراق ليوهم عدوه الأوزبكي أنه الرحيل والجلاء، وكمن على بُعد عشرة أميال من مرو على مقربة من قرية محمود آباد. وعندما خرج الخان في عشرين ألفاً من الجند لمطاردته على الرغم من معارضة أركان حربه، وقع في الكمين، ولقي قادته حتفهم فيه، وقُتل هو تحت أرجل الخيل أو أن الشاه ضربه بسهم فقتله. وسيطر الشاه على خراسان كلها وأضحى نهر جيحون الحد الفاصل بين طوران وإيران[٣] وفرض المذهب الشيعي في مدن خراسان كافة، وعيَّن دده بك سلطان حاكماً على مرو، وحسين بك لالا حاكماً على هراة، واستولى بسهولة على بلخ

---

(١) إقبال: ص٦٤٣. جمعة والخولي: ص٦٤. (٢) شيباني: ص١١٦.

(٣) Babur-Nama: pp350, 351. Ferishta, M.K: History of the Rise The Mohamedan Power in India: II, p20.

أمر الشاه إسماعيل بقطع أطراف محمد شيباني خان الأربعة وأرسلها إلى بعض المتمردين والعصاة لتخويفهم، وأرسل جلد رأسه إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، كما ألبس قحفة جمجمته بالذهب وجعلها كأساً يُدار بها في مجلسه. وهذا العنف مشهود ومتكرر في سيرة حياته. لواساني، أحمد: **ثلاثة ملوك باسم إسماعيل الصفوي** ص٨.

وفارياب وميمنة وغيرها من مدن بلخ[١].

في عهد خلفاء محمد شيباني خان: نتج عن انتصار الصفويين على الأوزبك ثلاث نتائج هي:

الأولى: قيام حاجز شيعي بين السنة في بلاد ما وراء النهر، وبين المسلمين السنة في غربي آسيا، وانقطاع الأتراك العثمانيين بخاصة عن جذورهم، الأمر الذي دفع السلطان سليم العثماني إلى القيام بغزو إيران وكسر هذا الحاجز في معركة تشالديران، كما سيمر معنا.

الثانية: بعث الأمل في نفس بابر[٢] الذي كان في صراع مع الأوزبك في بلاد ما وراء النهر، لاسترداد عرش آبائه وبخاصة أن الشقاق قد دب بين أفراد الأسرة الشيبانية بشأن خلافة محمد شيباني خان، وكان مستعداً أن يضع يده بيد الشاه إسماعيل على الرغم من اختلاف المذهب الديني.

الثالثة: تفرَّقت كلمة الشيبانيين، فحكم عبيد الله خان بخارى، وجان بك ميان قلعة، ومحمد تيمور بن محمد شيباني خان سمرقند.

ولما كان هؤلاء الأمراء عاجزين عن الوقوف في وجه الشاه وحليفه بابر، اتفقوا على عقد اتفاقية سلام مع الشاه مهما كانت الشروط لإخراجه من الصراع، فيتفرغوا عندئذ لطموحات بابر في بلاد ما وراء النهر. وبفضل وساطة كمال الدين حسين الأبيوردي، الوزير السابق لدى محمد شيباني خان والذي انتقل إلى خدمة الشاه، وُقِّعت الاتفاقية بين الجانبين في عام (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)، وكان الشاه يستعد آنذاك للتمدد على الجبهة الغربية مع العثمانيين، لذلك وافق على الاتفاقية التي نصت على البندين التاليين:

- أن لا يتعرض الصفويون للأوزبك في تركستان.
- تعود خوارزم للشاه إسماعيل الأول[٣].

وبموجب هذه الاتفاقية، انتقلت الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحون، بالإضافة إلى خراسان، من أيدي الشيبانيين إلى الصفويين، وضحَّى الشيبانيون بخراسان وخوارزم مقابل تفرغهم لقتال بابر، ويُعد ذلك نصراً للشاه إسماعيل الأول الذي ألحق تلك المناطق بدولته.

وما جرى من قيام بابر بعبور نهر جيحون واستيلائه على بخارى وسمرقند في (١٥ رجب ٩١٧هـ/ ٨ تشرين الثاني ١٥١١م)، أن نقض الشاه الاتفاقية المعقودة مع

---

(١) أحمدوف ومنروف: ص٣٠٩.

(٢) بابر: هو مؤسس دولة المغول في الهند.

(٣) شيباني: ص١٢٨.

الأوزبك وهاجم المناطق الغربية من إيران الملاصقة لبلاد ما وراء النهر، لكن هؤلاء، وقد تجاوزا خلافاتهم واختاروا كجكونجي خاناً عليهم بعد وفاة محمد تيمور، اصطدموا ببابر عند بحيرة قولي مَلَك في منطقة خير أباد على مسافة قصيرة من بخارى، وتغلبوا عليه واستعادوا سمرقند في (صفر ٩١٨هـ/ نيسان ١٥١٢م)[١].

كان انتصار الأوزبك يعني استعادتهم لقدرتهم على توجيه الضربات إلى الأجزاء الشمالية ـ الشرقية لإيران وضياع آمال الشاه إسماعيل الأول في السيطرة على تلك الأقاليم الشرقية، وإذا كان قد تطلع إلى التعاون مع بابر لتحقيق هذا الهدف التوسعي، فإن ذلك لن يتحقَّق لو تمكَّن الأوزبك من القضاء على جيش بابر وإخراجه من الصراع.

وكان الشاه إسماعيل الأول يدرك أهمية تعاونه مع بابر قبل أن يصبح القائد الأوزبكي عبيد الله، الذي تغلَّب على بابر عند بحيرة قولي، في وضع يستطيع فيه أن يرغم بابر على الخروج نهائياً من الصراع أو أن يصبح قادراً على ضرب كل طرف بشكل منفرد؛ لهذا أسرع في إرسال المعدات العسكرية إلى جيش بابر بقيادة حاكم خراسان أميريار أحمد أصفهاني الملقب بنجم ثاني، فلحق به عند ترمذ وانضم إليه.

وهاجمت الجيوش المتحالفة مدينة قارشي واستولت عليها، لكن تصرف نجم ثاني الانتقامي بحق السكان والحامية[٢]، كان من العوامل التي أدَّت إلى تحوُّل جذري في موقف بابر، كما تعرَّض هذا لضغط عشائر أواسط آسيا التي نظرت بخوف إلى توسع الشاه الصفوي، الذي إذا نجح في بسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر التي كانت محط أنظاره، فإنه سيسلِّط سيفه على رقاب الناس باستمرار إذا ظلوا متمسكين بمذهبهم السني، لذلك كانت الظروف تلح على بابر أن يعيد النظر بتحالفه مع الشاه، ولم يلبث أن قطع علاقته به، وترك القائد الصفوي يتخذ طريقه إلى بخارى منفرداً[٣].

لم يدرك نجم ثاني أنه أضحى أوهن من أن يتفوق على الأوزبك في أرضهم من دون مساعدة مغول بابر، فهاجم القلاع الأوزبكية وأحرز انتصارات محلية. وكان الأوزبك يراقبون تحركاته عن كثب، وتركوه يتوغل في بلادهم لإنهاكه، حتى إذا وصل إلى غجديوان أطبقوا على جنده، وجرى قتال ضار بين الطرفين هو إلى المذبحة أقرب، وتعرَّض الجيش الصفوي لهزيمة قاسية، وسقط قائده نجم ثاني

---

(١) Babur-Nama: pp354-358. Fersihta: II. P21.

(٢) أقدم القائد الصفوي على قتل خمسة عشر ألفاً من السكان والحامية بمن فيهم نخبة من علماء السنة والأعيان بدافع التعصب.

(٣) شيباني: ص١٢٩، ١٣٠.

صريعاً في أرض المعركة مع عدد كبير من قادته وجنده[١].

كان لمعركة غجديوان نتائج عدة أهمها:

ـ بدا واضحاً أن التعصب المذهبي الشيعي ضد الأوزبك السنة واجهه تعصب مذهبي مماثل، فتصاعدت حرب التدمير والتقتيل والإبادة بين الطرفين.

ـ انعتق الأوزبك من سيطرة الصفويين وضغطهم عليهم، وأضحت مساحة البلاد التي يحكمها عبيد الله خان بعد معركة غجديوان تعادل تقريباً تلك التي كان يحكمها محمد شيباني خان.

ـ شجَّع هذا الانتصار الأوزبك على استئناف التوسع في أقاليم إيران الشمالية الشرقية، وبخاصة خراسان، ما شكَّل ضغطاً متزايداً على الشاه إسماعيل الأول في الوقت الذي بدأ يتعرض لضغط عثماني على جبهته الغربية[٢].

واجتاح الأوزبك خراسان مدفوعين بالحماس المذهبي وخرَّبوا مدنها وقراها، واستغلوا تدمير القوة الميدانية للجيش الصفوي في معركة تشالديران على أيدي العثمانيين؛ فزحفوا باتجاه إيران لتقويض الدولة الصفوية واجتثاثها من جذورها، واستولوا على المناطق الواقعة شرقي هراة، وحاصروا المدينة، وعلى الرغم من ذلك لم يحققوا انتصاراً واضحاً، واضطروا إلى إخلاء خراسان مرة أخرى عندما نهض الشاه إسماعيل الأول للتصدي لهم، فتوجه إلى مشهد عن طريق ساوة وفيروزكوه، ففر عبيد الله إلى مرو ومنها إلى بخارى، ولجأت القوات الأوزبكية إلى غرجستان[٣]. وتوفي الشاه إسماعيل الأول في هذه الأثناء.

اعتقد الأوزبك أن وفاة الشاه إسماعيل الأول ستترك آثاراً سلبية على الدولة الصفوية ما يعطيهم الفرصة للإجهاز عليها أو على الأقل ضم أقاليمها الشرقية التي هي محط أنظارهم، ولهذا شنَّ عبيد الله خان حملات ضارية، فاستولى على مرو ومشهد واستراباد ولكن من دون أن يحقق نصراً يفتح أمامه الطريق المؤدي إلى قلب إيران.

علاقة الصفويين مع العثمانيين

قيام الدولة العثمانية

يرجع أصل العثمانيين إلى قبيلة قايى التركية، وهي إحدى عشائر الأتراك الغز،

---

(١) نواز، شاه خان: **مآثر الأمراء** ص٤٠٩. Babur-Nama: pp359-361.

(٢) نوار: ص٤٠.

(٣) غرجستان أو غرشستان: ولاية يحدها هراة من الغرب والغور من الشرق ومرو الروذ من الشمال وغزنة من الجنوب، وهي ناحية واسعة كثيرة القرى. الحموي: جـ٤ ص١٩٣.

نزحت من أواسط آسيا إلى أعالي الجزيرة الفراتية وسكنت في المراعي المجاورة لمدينة خلاط، ثم هاجرت إلى أرزنجان في آسيا الصغرى بزعامة طغرل، تحت ضغط الأحداث العسكرية التي أثارها السلطان جلال الدين الخوارزمي. وكانت هذه المدينة مسرحاً للقتال بين الدولة السلجوقية الرومية[١] والخوارزميين[٢]. وساند طغرل السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ ـ ٦٣٤هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٧م)، فكافأه السلطان بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب أنقرة. وظل طغرل حليفاً للسلاجقة حتى أقطعه السلطان منطقة أخرى تقع في أقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى على الحدود البيزنطية في المنطقة المعروفة بـ«سكود» حول أسكي شهر، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة، فأخذت تمارس نشاطاً اقتصادياً لتضمن وجودها ونشاطها، وآخر سياسياً لتضمن ثباتها في المكان التي حازت عليه. ونالت مرتبة الإمارة في عهد عاهلها عثمان بن طغرل (٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٣٢٦م) نتيجة نشاطها الجهادي ضد البيزنطيين، واكتسبت شهرتها منه فيما بعد وحملت اسمه. وجلب إليها وضعها الخاص، مجموعات من العلماء ومشايخ الطرق الصوفية والدراويش والصناع المهرة والتجار ما أكسبها ثقافة مميزة وحركة تجارية نشطة جعلتها تتميز عن الوحدات التركمانية الأخرى في الأناضول، وجعلت عثمان يتلقَّب بلقب بادشاه، سلطان، كدلالة على قيام دولته.

وسَّع عثمان رقعة إمارته على حساب البيزنطيين واتخذ مدينة يني شهر عاصمة له، وعزَّزها ابنه وخلفه أورخان (٧٢٦ ـ ٧٦١هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠م) بأن اتخذ بورصة عاصمة له، وتُعدُّ إحدى أهم النقاط العسكرية في الأناضول، حيث أُتيح للدولة العثمانية من خلالها الامتداد إلى المناطق المجاورة في الأناضول والانطلاق إلى الروملي والبلقان.

تنامي الدولة العثمانية

وتنامت مكانة الدولة العثمانية في عهد خلفاء أورخان من خلال الامتداد في

---

(١) سلاجقة الروم: أسرة تركية سلجوقية أسَّست دولة إسلامية في آسيا الصغرى بين عامي (٤٧٠ ـ ٧٠٤هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٣٠٤م) وسميت بذلك الاسم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى الذين عرفهم العرب باسم الروم كانوا يحكمون هذه المنطقة، ولم تلبث أن سميت باسمهم فعُرفت باسم بلاد الروم، وعندما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم.

(٢) ينتسب الخوارزميون إلى أنوشتكين، أحد الأتراك في بلاط السلطان ملكشاه السلجوقي حيث كان يشغل وظيفة ساقي، واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعيَّنه أحد قادة السلطان بركياروق السلجوقي حاكماً على إقليم خوارزم ولقَّبه خوارزمشاه وهو مؤسس الدولة الخوارزمية التي توسعت باتجاه إيران والعراق.

الأناضول على حساب البيزنطيين، نيقية ونيقوميدية، وفي البلقان، غاليبولي.

ومثَّل عهد مراد الأول ابن أورخان (٧٦١ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩م) ثورة في الامتداد العثماني. فقد وسَّع دولته بما يعادل خمس مرات لما كانت عليه في عهد أسلافه، فأوصلها إلى شواطئ نهر الدانوب وجهات البوسنة في عمق أوروبا الشرقية، وضمَّ إمارة القرمان القوية في الأناضول ودخل عاصمتها أنقرة بالإضافة إلى إمارة كرميان وإقليم الحميد وتكة.

وعندما اعتلى ابنه بايزيد الأول الحكم خلفاً له (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣م) كان هدف الدولة قد أضحى واضحاً، فحدَّد سياسته على قاعدتين:

الأولى: تصفية الأسر الحاكمة في الأناضول والبلقان وضم ولاياتهم إلى دولته الناشئة.

الثانية: تأسيس دولة مركزية في تلك المناطق متخذاً من النظام المركزي في الدول الإسلامية المشرقية وتشكيلات مؤسساتها كأساس لهذا التوجه.

وفعلاً، حقَّق هذا السلطان هدفيه عبر عمليات سريعة ومذهلة كادت تودي بدولته، وذلك حين لجأ أمراء الدويلات التركمانية الذين أُبعدوا عن الحكم إلى تيمورلنك ليعيد لهم ما سلبه منهم السلطان العثماني، فلبى تيمورلنك دعوتهم، فاجتاح أراضي السلطنة وتغلَّب على السلطان بايزيد الأول في معركة أنقرة في (ذي الحجة ٨٠٤هـ/ تموز ١٤٠٢م) وأسره، لكن خلفاءه استطاعوا أن يعيدوا ما زعزعته نكبة أنقرة وأعادوا لدولتهم الهيبة التي مكَّنتهم من تجاوز الحدود التي وصل إليها أسلافهم، وبخاصة في عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٥١ ـ ١٤٨١م) الذي فتح القسطنطينية واتخذها عاصمة له تحت اسم إستانبول، ومكَّن لسلطته في شمالي البلقان ليواجه المجر التي أثبتت خلال العهود السابقة أنها العقبة الرئيسة أمام التوسع العثماني في أوروبا. فتوغل في بلاد الصرب وفتح مدناً عدة، واستعصت عليه بلغراد، كما فتح المورة في اليونان، والأفلاق في شمالي نهر الدانوب، والبوسنة والهرسك، وسقطت في قبضته كلًّا من طرابزون آخر معاقل البيزنطيين في آسيا الصغرى وسينوب والقرمان، وفتح بلاد القرم وزنطا وكورفو وسان موري وكفالونيا، ودخل في حرب طويلة الأمد، ستة عشر عاماً، مع البندقية وأجبرها على التنازل عن بعض مستعمراتها في اليونان وجزر الأرخبيل.

تأزم العلاقة بين الصفويين والعثمانيين

تطورت العلاقة الصفوية ـ العثمانية مع مرور الزمن واتخذت شكلاً تصاعدياً، ووصلت إلى القمة في معركة تشالديران. والمعروف أنه ساد العلاقة بين الطرفين

هدوء نسبي بعد القضاء على أسرة الآق قوينلو، ذلك أن السلطان بايزيد الثاني الذي خلف أباه محمد الفاتح كان بطبعه ميالاً إلى المسالمة، فلم يفكر بإنجاز فتوح أخرى لا في الشرق ولا في الغرب، كما لم يكن على استعداد لمساعدة ألوند رئيس الآق قوينلو في حربه ضد الشاه إسماعيل الأول عدوهما المشترك، لكنه كان حذراً على أي حال، فقد طلب من رستم بك مكري كرد حاكم ديار بكر أن يوافيه بتقرير عن حقيقة نوايا الصفويين بالتوسع باتجاه الغرب، واستعدادات الشاه إسماعيل الأول العسكرية ومدى قوته بالمقارنة مع قوة ألوند، لكن هذا الطلب جاء متأخراً، فقد هزم الشاه ألوند، وهو على وشك إجراء مفاوضات مع المماليك في مصر بهدف التعاون ضد العثمانيين، وإرسال حملة عسكرية إلى ديار بكر ومرعش[١].

وبدأت العلاقة بين الدولتين الصفوية والعثمانية تسير نحو الأسوأ بعد القضاء على الآق قوينلو، بفعل تنافسهما على اقتسام ممتلكات هؤلاء التي تقع على حدودهما المشتركة، فكان من الطبيعي أن يتصاعد الخلاف السياسي والحقد المذهبي، على أن هذا التنافس استمر مستتراً طيلة عهد السلطان بايزيد الثاني بفعل الاضطرابات في بلاد العثمانيين الناتجة عن ثورات الشيعة والتنافس الأسري على العرش، ويبدو ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين العاهلين[٢]. وعندما استولى الشاه على العراق وضمَّه إلى أملاك الصفويين، أرسل إليه السلطان العثماني رسولاً هو محمد جاوش بالابان وحمَّله الهدايا الكثيرة ورسالة تهنئة غير متوقعة بفتح فارس والعراق، ويبدو أنه كان يهدف إلى تدعيم العلاقة الجيدة مع الشاه، من دون أن يدرك مدى ما يشكله من خطر على دولته، وعندما تمادى الشاه في إلحاق الأذى بالمسلمين السنة، وفرار هؤلاء إلى الأراضي العثمانية، كتب إليه يطلب منه التعقل في معاملة أهل السنة الأحياء منهم والأموات[٣] وأن يقتدي بأسلافه العظماء وبتاريخ إيران وحضارتها العريقة[٤].

كان رد فعل الشاه إيجابياً، فعندما هاجم مرعش والبستان في حربه ضد علاء الدولة ذي القدر، واضطر أن يعبر الحدود العثمانية عند قيصرية؛ أمر جنوده بعدم التعرض لأرواح وأموال الرعايا، وأن يعاملوهم بالحسنى، واعتذر للسلطان عن اختراق الأراضي العثمانية، وأعلمه بأنه لا يفكر مطلقاً في تعكير صفو العلاقة بينهما[٥].

---

(١) فريدون بك: جـ١ ص٣٥٣، ٣٥٤. (٢) شيباني: ص١٥٠.

(٣) إشارة إلى ما كان يفعله القزلباش بنبش قبور شيوخ السنة تمادياً في إلحاق الأذى بأتباع هذا المذهب.

(٤) فلسفي، نصر الله: **جنك تشالديران، مجلة دانشكده، أدبيات**، العدد الأول، دي ١٣٣٢هـ.

(٥) فريدون بك: جـ١ ص٣٤٦، ٣٤٧.

وتمثَّل رضاء السلطان العثماني على تصرف الشاه من خلال الألقاب الفخمة التي أطلقها عليه في رسالته الجوابية التي بعث بها إليه مثل: «المليك الأعظم» و«المتوج الأكرم» و«ملك ممالك العجم»[1].

وفي الوقت الذي كان فيه العاهلان يتبادلان الرسائل الودية، كان الأمير سليم بن بايزيد الثاني يقاتل الصفويين في بلاده ويتعقّبهم إلى خارج حدودها، ووصل في إحدى حملاته إلى أرزنجان وأسر إبراهيم، شقيق الشاه إسماعيل الأول، فأرسل هذا رسالة احتجاج إلى السلطان العثماني مع التذكير بالصداقة الصفوية العثمانية، ولكن السلطان بايزيد الثاني لم يحسن استقبال السفير الصفوي[2].

وعامل الشاه إسماعيل الأول السفير العثماني، الذي حمل إليه الرد، بالمثل فامتهنه امتهاناً شديداً. ومنذ تلك اللحظة تبدَّلت العلاقة الودية بين الدولتين إلى مواجهة سافرة. وقد ساعد على هذا التحول بروز الأمير سليم كخليفة محتمل لوالده من واقع مساندة الإنكشارية له وتفضيلهم إياه على أخويه أحمد وقورقود.

وازدادت العلاقة سوءاً في عام (٩١٧هـ/ ١٥١١م) إثر الثورة التي فجَّرها شاه قولي بن حسن خليفة في ولاية تكة في الأناضول، وهو رئيس طائفة تكلو القزلباشية، والتفاف الشيعة المتشددين في المنطقة حوله بوصفه ممثلاً للشاه إسماعيل الأول. وتلقَّى الثائرون إمدادات من الشيعة المنتشرين في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، وقتلوا القائد العثماني الذي كلَّفه السلطان بإخماد ثورتهم، وعندما اشتد ساعدهم هاجموا منطقة قرمان وانتصروا على حاكمها قرة كوز باشا، واجتاحوا ولاية سيواس، ما دفع السلطان العثماني إلى إرسال الصدر الأعظم خادم علي باشا على رأس جيش كبير للقضاء على الثورة كما ذكرنا ذلك من قبل، لكن القائدين قُتلا في المعركة، ولجأ كثير من أتباع الشاه إلى إيران[3]. واكتفى السلطان العثماني الذي كان يعاني آنذاك من تدهور في صحته، ومن تنازع أسري على العرش بين أولاده الثلاثة أحمد وقورقود وسليم؛ بأن أرسل إلى الشاه إسماعيل الأول يؤنبه على تشجيعه لأتباعه في الأراضي العثمانية وتأييده لهم في انتفاضاتهم ضد السلطة.

اعتلاء سليم سدة العرش العثماني

أدَّى تفكك الأناضول المرتبط بالعجز الواضح للسلطان بايزيد الثاني إلى تفجُّر أزمة سياسية، وإلى تنافس أبناء السلطان الثلاثة على العرش ما كان له أثر سيئ على

---

(١) فريدون بك: جـ١ ص٣٤٦، ٣٤٧.
(٢) شيباني: ص١٥٥، ١٥٦.
(٣) براون: جـ٤ ص٧٢، ٧٣.

قدرات الدولة. كان سليم الأكثر قلقاً على المستقبل وبُغضاً للشاه إسماعيل الأول، فطلب من والده أن يعينه حاكماً على إحدى ولايات أوروبا، فرفض طلبه، عند ذلك شقَّ عصا الطاعة وتقدم على رأس جيش جرار إلى بلاد الروملي، وظهر أمام مدينة أدرنة في عام (٩١٧هـ/ ١٥١١م) وأجبر والده على تلبية طلبه، فعيَّنه السلطان والياً على سمندرية وڤيدين وآلاجه حصار ونيقوبوليس[١]، فوطَّد أقدامه فيها بهدف إنشاء دولة جديدة له في الشمال، على ما يبدو.

واستغل سليم التمرد الذي حصل في تكة وغياب والده عن العاصمة فزحف من مقر إقامته إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً على العثمانيين، وكان ذلك أكثر ما يمكن السكوت عليه، فأرسل السلطان بايزيد الثاني إليه جيشاً هزمه عند جورلي وأجبره على الارتداد إلى بلاد القرم. وبدا لأخيه أحمد في هذا الوقت، أن باستطاعته التوجه إلى العاصمة لإعلان نفسه سلطاناً، لكن الإنكشارية، الذين اتهموه بعدم الكفاءة، تمردوا عليه وأرغموه على الانسحاب[٢].

وبدأت الأحداث تسير لصالح الشاه إسماعيل الأول الذي دبَّر في بداية عام (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) تمرداً آخر قاده نور علي خليفة في توقات وأماسيا، ويُعدُّ التمرد الوحيد ذا الصلة الوثيقة بالشاه الذي أداره بنفسه، ما أثار غضب الإنكشارية الذين أزعجهم خسارة سليم وانتصار الشاه، فألحّوا على السلطان أن يعفو عنه، فاستجاب لطلبهم وأعاد ابنه إلى سمندرية. لكن حدث أثناء انتقاله أن سانده الإنكشارية الذين وضعوا ثقتهم به، فدخلوا العاصمة وضغطوا على السلطان للتنازل له عن العرش، فوافق مرغماً، وذلك في (٨ صفر ٩١٨هـ/ ٢٥ نيسان ١٥١٢م)، وانسحب من الحياة السياسية العامة[٣].

سياسة السلطان سليم الشرقية

شكَّل اعتلاء السلطان سليم بن بايزيد الثاني (٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) العرش العثماني نقلة نوعية في تاريخ العثمانيين، تمثَّلت بتوقف الزحف نحو الغرب والتوجه إلى الشرق. وقد بدأ هذا التحول من الغرب إلى الشرق، مع بداية المد الشيعي باتجاه الأراضي العثمانية، ونتيجة لذلك قامت سياسة هذا السلطان الشرقية على قاعدتين:

الأولى: السيطرة على طرق التجارة الشمالية بين الشرق والغرب:

لقد سعى هذا السلطان إلى الوصول إلى الهند وتحقيق سيطرة عثمانية على طرق

---

(١) فريد، محمد بك: **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ص١٨٦.

(٢) حليم، إبراهيم بك: **تاريخ الدولة العثمانية العلية** ص٧٦.

(٣) أوزتونا، يلماز: **تاريخ الدولة العثمانية** جـ١ ص٢١٠.

التجارة الشمالية بفعل احتكار البرتغاليين تجارة التوابل، وسيطرتهم على الطرق التجارية الجنوبية مع الهند.

هذا، وقد شهدت بداية عهده تطوراً في البيروقراطية العثمانية والحِرَف والأعمال التقنية السائدة في البلاد آنذاك، ما جعل متطلبات الدولة تزداد مع تطور هذه الأعمال(١). ثم إن استمرار زيادة ارتفاع أسعار الحبوب في أوروبا في ذلك الوقت، وهو ما يشكل أساساً لازدهار تصدير الحبوب من الأناضول، وزيادة عدد السكان في آسيا الصغرى، ما يحملنا على الاستنتاج بأنه رافقه توسع في الإنتاج الزراعي(٢). يضاف إلى ذلك الاستهلاك المتزايد في أوروبا للمنتوجات الشرقية وبخاصة التوابل والحرير، ما دفع السلطان إلى السيطرة على الطرق التجارية الشمالية واحتكار التجارة بين الشرق والغرب.

لقد حاول في بادئ الأمر منع الصفويين من الاستفادة من المواد الخام الخاصة بصنع الأسلحة والذخائر مثل: النحاس والحديد التي اشتهرت بها بلاد الأناضول، كما فرض حصاراً تجارياً على الدولة الصفوية، وبخاصة تجارة الحرير التي تمر عبر الأراضي العثمانية عن طريق حلب ـ الإسكندرون في طريقها إلى الغرب الأوروبي الذي يقوم بمقايضتها بالذهب، ما خفَّض إيرادات الصفويين بشكل ملحوظ.

وخطا السلطان خطوة أخرى، حين أخذ يصادر البضائع الإيرانية من جميع التجار لشحنها من الجانب الأوروبي في الروملّي، ما أثَّر على حركة التجار الذين تحوَّلوا نحو الجنوب عبر وادي الرافدين(٣). وأخيراً قرَّر الاستيلاء على الطرق التجارية الشمالية مع الهند، ولما كانت الدولة الصفوية تقوم حجر عثرة في سبيل ذلك، فقد قرَّر القضاء عليها.

الثانية: التوسع على حساب القوى في المشرق:

وتقوم هذه القاعدة على أسس مذهبية وسياسية وفكرية.

فمن حيث الأساس المذهبي، بذل الشاه إسماعيل الأول جهوداً جبارة لنشر المذهب الشيعي في الأناضول العثماني ليزعزع بذلك كيان الدولة العثمانية ويجتثها من جذورها، وكان الشيعة في آسيا الصغرى قد ثاروا بزعامة شاه قولي في السنة الأخيرة من حكم السلطان بايزيد الثاني اعتماداً منهم على حكام إيران، كما ذكرنا

---

(١) Inalçik, Halil: **The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy**. Studies in the Economic History of the Middle East. M.A. Cook, 1970, pp213, 214.

(٢) أوين، روجر: **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ ـ ١٩١٤م** ص١٧.

(٣) Inalçik: p214.

ذلك من قبل، فارتاب السلطان العثماني من نوايا الشاه المعادية وأرسل جيشاً إلى مناطق الحدود لرصد الموقف، وأقدم في الوقت نفسه على تهجير العديد من السكان من مؤيدي الشاه إلى المورة، ثم أغلق الحدود بين الدولتين بهدف عزل الشاه عن قاعدته في الأناضول الشرقي، إلا أن هذا الإجراء لم يكن فعَّالاً لأن أتباعه استفادوا من السماح للقوافل التجارية بالمرور عبر الأناضول فتغلغلوا في ربوعه. ولما كان السلطان بايزيد الثاني يتميز بطبع حذر، فإنه تجنَّب دائماً الدخول في حرب في المنطقة خشية من حصول تمرد في بلاده يصبح مصدراً للقلق، فأرسل رسولاً إلى تبريز للاحتجاج على تجاوزات أتباع الشاه في حق أهل السنة، واستقبل من جهته سفيراً صفوياً طالبه بإعادة طرابزون إلى الحكم الصفوي بوصفها كانت تحت حكم أجداده البيزنطيين، واحتج على الغارات التي كان يشنها ابنه سليم على الأراضي التابعة للصفويين، واضطهاده الشيعة في بلاده.

وفي الوقت الذي لم يُقدِّر السلطان بايزيد الثاني جديّاً خطورة تحول تركمان الأناضول إلى المذهب الشيعي، كان ابنه سليم شديد الحساسية لهذا التحول، وقد خشي من انتشار الدعاة القزلباش الذين كان يبثهم الشاه في شرقي الأناضول لينشروا الدعوة الشيعية بين قبائل التركمان، لأن من شأن ذلك أن يدفع هؤلاء إلى اعتناق المذهب الشيعي ما يشكل خطراً مباشراً على بلاده، كما أقلقه توسع الشاه باتجاه الغرب في ديار بكر والعراق، ما يشكل تجاوزاً لتوجهات الحركة الصفوية الدينية المعلنة إلى أهداف سياسية للسيطرة على شرقي الأناضول ذات الثقل النوعي السياسي والاقتصادي.

لذلك لم يتوان عن شن الهجمات ضد الشيعة في بلاده وإخماد فتنهم، ما جعله أمل القيادات العسكرية، وبخاصة الإنكشارية، في وقف التمدد الشيعي والمنقذ للدولة من الخطر الشيعي، وتوسعات الصفويين الذين يسعون إلى إضعاف وكسر شوكة الدولة العثمانية عن طريق زرع الفوضى في أراضيها.

وهكذا كان لانفجار الحركة المذهبية التي بدأها الشاه في بث مذهبه عنوة وتوسعاته العسكرية من أجل تثبيت غاياتها؛ إثارة واضحة للحفيظة الدينية السنية للعثمانيين وعاملاً فعَّالاً في تغيير خططهم السياسية، وتوجيه أنظارهم نحو آسيا الغربية بعد أن كانت أوروبا الشرقية شغلهم الشاغل، وبذلك بدأت أولى حلقات النزاع المزمن بين الطرفين، وكان العامل المذهبي أحد دوافعها[١].

ومن حيث الأساس السياسي، فقد كان الأناضول التركي امتداداً طبيعياً للأراضي الإيرانية وأراضي آسيا الوسطى، بفعل أن العنصر التركي ذا الأصول الآسيوية، قد

---

(١) الجميل، سيار: **العثمانيون وتكوين العرب الحديث** ص٣٣٢، ٣٣٣.

سيطر في وقت من الأوقات على مجمل الأراضي من آسيا الوسطى حتى البحر الأبيض المتوسط، وأقام دولة واسعة في هذه المناطق. وظل السلاجقة ومن بعدهم العثمانيون، يعتمدون على المهاجرين التركمان القادمين من الشرق، في بناء المجتمع التركي ونموّه إن في الأناضول أو في البلقان. وقد شكّل قيام الدولة الصفوية في إيران حاجزاً سياسياً قطع الاتصال بين العثمانيين وبين أصولهم الشرقية، على الرغم من أن الشاه إسماعيل كان يمثل آنذاك عالماً تركياً آخر باتجاهات مذهبية واجتماعية مختلفة عن العالم التركي العثماني، ما كان دافعاً لهدم هذا الحاجز وإعادة الاتصال مع الشرق، كما أن السلطان سليم أدرك أن الشاه إسماعيل الأول يشكل عاملاً خطراً من عوامل تفكك الأناضول العثماني، وقد أثبتت أحداث التمرد التي قامت في أواخر عهد السلطان بايزيد الثاني ذلك، وأن حل المشكلة الأناضولية يمر عبر القضاء عليه، يضاف إلى ذلك أن المواجهة الصفوية العثمانية يمكن النظر إليها على ضوء العلاقة المتعارضة لكل من الطرفين مع المماليك والأوزبك وحكام الهند المغول من جانب، ومع الغرب الأوروبي من جانب آخر من واقع الصراع على منطقة آسيا الوسطى حتى البحر الأبيض المتوسط. وشكّل نجاح الشاه إسماعيل الأول في تأسيس الدولة الصفوية خطراً على العثمانيين والمماليك الأمر الذي زعزع الاستقرار في هذه المنطقة واستغله الصفويون لتنفيذ أهدافهم. وكان واقع المواجهة العثمانية الصفوية مزدوجاً، فهو من جهة رد فعل عثماني على طموحات الشاه إسماعيل الأول السياسية، ومن جهة أخرى فهو مواجهة مذهبية.

ومن حيث الأساس الفكري فقد كانت الثقافة في بلاد الروم امتداداً طبيعياً للثقافة التركية ـ الفارسية التي كانت مراكزها في إيران وآسيا الوسطى. ففي حقول الحكم والإدارة، وفي القانون وعلوم الدين، وفي الآداب والفنون، ظل السلاجقة والعثمانيون من بعدهم، يعتمدون اعتماداً كبيراً على المهاجرين من الشرق لشغل وظائف الحكومة وإدارتها. وكان أدب الأناضول السلجوقي كله تقريباً باللغة الفارسية، وعندما ظهر الأدب باللغة التركية في ظل حكم العثمانيين الأوائل، واستلهم من نوابغه في إيران وآسيا الوسطى، ومنذ إنشاء الدولة الصفوية في عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م)، انقطعت تركيا عن إيران وآسيا الوسطى اللتين أسهمتا في تطورها ونموها الثقافي إلى حد كبير، واقتصرت منذ ذلك الوقت على منابعها الفكرية والدينية في الأناضول والروملي[١]، وقد شعر العثمانيون بهذا الانقطاع الفكري عن

---

(١) اشتقت الثقافة التركية بعد ذلك من منبع آخر ومختلف جداً على أثر ضم العثمانيين للبلاد العربية وإن كانت قد تأثرت بتأثيرات عربية قبل ذلك.

أصول ثقافتهم ما كان دافعاً لإعادة فتح هذه القنوات الفكرية الشرقية.

معركة تشالديران

مقدمات المعركة: كانت تحركات الشاه إسماعيل الأول، في الوقت الذي اعتلى فيه سليم العرش العثماني، قد طالت المناطق الشرقية والجنوبية المجاورة لمملكته في إقليم الجزيرة، فنظر إليها بعين الريبة لأنها تستهدف السيطرة على المواقع الاستراتيجية، وبخاصة بعد أن تهاوت المناطق التي تربط إيران بالأناضول وبلاد الشام عبر العراق والتي يسكنها الأكراد، بيد القزلباش.

ونهض السلطان سليم للتصدي لطموحات الشاه، وحتى يتفرغ للقضية الصفوية كان عليه أن يُثبت أقدامه في الحكم وأن يتفاهم مع الدول الأوروبية الفاعلة لتبريد الجبهة الغربية، وكانت النزاعات الأسرية لا تزال ناشطة وكذلك حركات التمرد. فتخلَّص من أخويه أحمد وقورقود اللذين نافساه على السلطة، وأخمد حركات التمرد من واقع تعقُّب الشيعة في بلاده، فأخذ، مدفوعاً بكراهيته للشاه إسماعيل الأول وبغيرته على المذهب السني؛ يضطهدهم، ودبر لهم مذبحة مروعة وقتل من يتراوح عمره بين سبع سنوات وسبعين سنة، كما ألقى كثيراً منهم في غياهب السجون، فهدأت الجبهة الداخلية.

التفت السلطان سليم بعد ذلك إلى تبريد الجبهة الغربية، فعقد معاهدات سلام مع البندقية والمجر وروسيا، فاتحاً بذلك عهداً جديداً من العلاقات السلمية مع أوروبا، ما شكَّل انتصاراً سياسياً له.

وحتى يُشتِّت قوى الشاه، كتب إلى عبيد الله خان الأوزبك في عام (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) يعلمه بنواياه في التحرك إلى غربي إيران، ويطلب منه أن يهاجم خراسان في الوقت نفسه للانتقام لمقتل عمه محمد شيباني خان على يد الشاه إسماعيل الصفوي. وكان هدف سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقي الرحى بهجومه من الغرب وهجوم عبيد الله خان من الشرق، فيضطر الشاه إلى القتال على جبهتين فتضعف قواه. وجاء الرد الأوزبكي بالموافقة، وأبدى عبيد الله خان استعداده لمهاجمة خراسان وأخذ يعدّ العدة لذلك، ثم هاجم سمرقند وانتصر على القوات الصفوية فيها[1].

كان من الطبيعي أن يرد الشاه إسماعيل الأول على تدابير السلطان المعادية،

---

(١) فريدون بك: جـ١ ص٣٧٧ ـ ٣٧٩. ذبيح الله، ثابتيان: **أسنادو نامه هاي تاريخي دوره صفوي** ص١٠٥، ١٠٦.

فشرع في إيواء الفارين الأتراك إلى إيران ومنحهم المساكن، لاستغلالهم بعد ذلك في إحداث الفتنة وإشعال الثورة في الدولة العثمانية، كما سعى لدى بعض الدول الأوروبية لتكوين تحالف ضد العثمانيين، وقد شجعه موقف السلطان المملوكي في مصر قانصوه الغوري المناوئ للسلطان العثماني على المضي في مشروعه، فأرسل إليه وإلى تابعه علاء الدولة في النواحي الشرقية لآسيا الصغرى والقسم الأعلى لنهر الفرات، يطلب المساعدة[١].

كان المماليك في بلاد الشام ومصر قد لاحظوا بقلق شديد بروز الدولة العثمانية على حدودهم الشرقية والتي أخذت تشق طريقها الخاص بها. وكان اتخاذ الألقاب السلطانية من قِبَل الحكام العثمانيين، يرمز إلى تحولهم من الدولة المحلية إلى الدولة العالمية، وقد أدَّت هذه السياسة إلى تدهور في العلاقة العثمانية ـ المملوكية، وأضحى الصراع على السيطرة على زعامة العالم الإسلامي السبب الأساس والرئيس للنزاع العثماني ـ المملوكي.

وأدرك قانصوه الغوري أن المنتصر من الجانبين، الصفوي والعثماني، سيعمل على تصفية الموقف في المشرق العربي بالاصطدام بالمماليك، ومن ثَمَّ التزم جانب الحياد تاركاً الدولة العثمانية وحيدة في مواجهة الصفويين من دون تبصُّر بنتائج ما قد يقوم به الشاه في حال انتصاره من أعمال عدوانية متزايدة ضد المماليك وإقامة علاقات وطيدة مع البرتغاليين، يضاف إلى ذلك، أراد الغوري تدبير استفزاز لإثارة الصدام بين الجانبين العثماني والصفوي لكي يتحطم أحد العدوين بيد العدو الآخر ثم يتقدم المماليك للقيام بدور الوسيط والمنقذ للإسلام والسنة، وربما بدور الوريث للسلطنة العثمانية، ولم يساوره أي شك في قدرته الذاتية، وأن العثمانيين لن يتمكّنوا من التغلب على الصفويين.

ويبدو أن السلطان سليم أراد أن تستقر أموره في النواحي الشرقية من دولته والتي كانت محل تهديد الأكراد أتباع علاء الدولة ذي القدر. فأثناء مروره بقيصرية في طريقه لمحاربة الشاه إسماعيل الأول أرسل رسولاً إلى علاء الدولة ذي القدر حاكم مرعش والبستان طالباً منه المساهمة في حرب الصفويين، لكن علاء الدولة اعتذر متعللاً بكبر سنِّه وأنه لا يستطيع القيام بأي مجهود عسكري لأنه تابع للمماليك ومشمول بحمايتهم. وما إن مضى السلطان في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة جيشه بإيعاز من قانصوه الغوري الأمر الذي دفع السلطان سليم إلى إعلام الغوري بذلك، فرد عليه سلطان مصر بكتاب جاء فيه:

---

(١) يبدو أن علاء الدولة استعاد سيطرته على مرعش والبستان.

«. . . إن علاء الدولة عاص، فإن ظفرت به فاقتله»، وأرسل في الوقت نفسه إلى علاء الدولة يشكره على فعله ويحثُّه على الاستمرار بتصلبه تجاه العثمانيين[١]. لكن هذه السياسة الخادعة كان لها أثر سلبي على الدولة المملوكية وعلى علاء الدولة فيما بعد.

الطريق إلى المعركة: لم تكن ثمة أسباب مباشرة للحرب بين العاهلين، لكن التحركات الصفوية السياسية والعسكرية دفعت السلطان سليم إلى التفكير في وضع حد لها قبل أن تتفاقم. وما جرى من امتناع الشاه إسماعيل الأول عن تهنئة السلطان سليم بمناسبة اعتلائه العرش، دفع الطرفين إلى الدخول في حرب. والمعروف أن الشاه الصفوي عدَّ سليماً مغتصباً للسلطة وساند شقيقه أحمد بوصفه الخليفة الشرعي لأبيه، لأن السلطان بايزيد الثاني عيّنه ولياً لعهده.

وعقد السلطان سليم مجلساً للحرب في مدينة أدرنة في (١٩ محرم ٩٢٠هـ/ ١٦ آذار ١٥١٤م)، ووضع قادة جيشه والأعيان في جو الصدام، لأن إسماعيل الأول وحكومته الشيعية في إيران تشكل خطراً كبيراً على العالم الإسلامي، وأن الجهاد ضد الزنادقة القزلباش واجب ديني على جميع المسلمين[٢].

وخرج السلطان سليم يوم الاثنين (٢٢ محرم/ ١٩ آذار) من أدرنة إلى إستانبول، ومنها ذهب إلى إسكودار، الجزء الشرقي من العاصمة، في طريقه إلى إيران، وعيَّن ابنه سليمان حاكماً على إستانبول. وعندما وصل إلى إذميد أرسل رسالة تهديد إلى الشاه إسماعيل الأول في (٢٧ صفر/ ٢٣ نيسان)، وكتب إلى محمد بك بن فروخ شاه حاكم منطقة كردستان، وهو من بقايا الآق قوينلو، يحثه على الاشتراك في الحملة ضده[٣].

كان الشاه إسماعيل الأول منهمكاً في ذلك الوقت بصدِّ الأوزبك، ودفعهم عن خراسان، وحتى يعرقل سير الحملة ويؤخرها، أمر محمد خان استاجلو، وهو أحد قادة القزلباش وحاكم ديار بكر، بتخريب الطرق والقرى وإحراق المزروعات على طول طريق زحف الحملة العثمانية، ثم يتراجع إلى أذربيجان[٤]. وقد أنجز هذا القائد مهمته بنجاح، ما أعاق زحف الحملة. وعلى الرغم من ذلك واصل الجيش

---

(١) ابن زنبل، الرمال، أحمد بن علي: **تاريخ السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد مع قانصوه الغوري سلطان مصر وأعمالها** ص٨. شيباني: ص١٧٩. مؤرخ مجهول: ص٤٧٣.

(٢) شيباني: ص١٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ص١٧٧، ١٧٨. فريدون بك: جـ١ ص٣٧٩ ـ ٣٨١.

(٤) مؤرخ مجهول: ص١٧٩.

العثماني السير إلى إيران، فوصل إلى قيصرية عن طريق قونية، وحتى يُؤمِّن على مؤخرة جيشه ويضمن الأمن في الأناضول أثناء غيابه؛ بعث برسول إلى علاء الدولة ذي القدر حاكم مرعش والبستان يطلب منه المساهمة في حرب الصفويين، فتعلَّل بالأعذار، كما ذكرنا، فاضطر السلطان أن ينشر أربعين ألف جندي بين سيواس وقيصرية من أجل ذلك، وقبض في الطريق على جاسوس صفوي، فحمَّله رسالة إلى الشاه تضمَّنت في حيثياتها تهديداً وإعلاناً للحرب(١).

وصل الجيش العثماني إلى الحدود الإيرانية في (٢٠ جمادى الأولى/١٣ تموز) عن طريق نهر چاي صوفي، ودخل أرزنجان وعسكر في صحراء ياسي چمن القريبة منها، بانتظار وصول الشاه إسماعيل الأول الذي ظل قابعاً في الداخل الإيراني. وأبلغ الجواسيس العثمانيون السلطان، بأن الشاه لا يفكر بالحرب، وأنه وضع خطة عسكرية تقضي بعرقلة تقدم الجيش العثماني وتأخير دخوله الأراضي الإيرانية حتى يحل فصل الشتاء فيهلكه البرد والجوع. وأكد محمد بك بن فروخ الآق قوينلي هذه النية لدى الشاه في رسالته التي أرسلها إلى السلطان سليم، وقد كتبها بماء البصل خشية من أن ينكشف أمره فيقتله الشاه(٢).

ويبدو أن الشاه خشي الدخول في معركة سافرة مع الجيش العثماني بعد أن علم بواسطة جواسيسه بضخامة تجهيزاته وفعالية أسلحته، وبخاصة المدفعية، بالمقارنة مع أسلحة القزلباش الخفيفة. وقام السلطان سليم بإلقاء جواسيسه في السجن خشية أن تنتشر هذه الأخبار بين جنوده فيصابون بالذعر وتهن عزيمتهم ويتفرقون(٣).

لكن السلطان سليم راح يحثُّ الشاه إسماعيل الأول ويدفعه دفعاً إلى الحرب. فأرسل إليه رسالة باللغة التركية في (٢٦ جمادى الأولى/١٩ تموز) حملت مضامين تأنيب وتهديد وهدايا تخص الدراويش هي عبارة عن عصا وخرقة ومسبحة(٤)، استهزاء به بسبب إحجامه عن الحرب الذي هو من شيم الجبناء، وأن عليه أن يركن إلى هذه الأشياء كما كان يفعل أجداده رؤساء فرق الدراويش(٥).

وعندما وصل السلطان إلى كماخ على بُعد يوم واحد من أرزنجان، استقبل رسولاً يحمل رسالة جوابية صيغت بلهجة معتدلة وتضمنت طلباً للمهادنة وتجديد علاقات

---

(١) فريدون بك: جـ١ ص٣٨٣، ٣٨٤. صباغ: ١٣٠.

(٢) شيباني: ص١٨٣. فريدون بك: جـ١ ص٣٨٣.

(٣) شيباني: ص١٨٣.

(٤) هامر، ف.ب: **تاريخ امبراطوري عثماني** جـ٢ ص٨٣٦.

(٥) فريدون بك: جـ١ ص٣٨٤، ٣٨٥. صباغ: ص١٣٠.

الصداقة بينهما، وذيلها بأنه على استعداد للدخول في الحرب إذا أصرَّ سليم على ذلك، وأبلغه بأنه مشغول عن الحرب في الصيد في نواحي أصفهان، ما ضايق السلطان العثماني وأزعجه، وأرفق الرسالة بعلبة مملوءة بالأفيون كناية على أن السلطان سليم يحلم بالقضاء على دولة الشاه بحكم تعاطيه الأفيون، فأمر بقتل مبعوث الشاه الذي حمل إليه الرسالة[١].

وردَّ السلطان سليم على الشاه إسماعيل الأول برسالة رابعة مؤرخة في أواخر (جمادى الآخرة/آب) يصفه فيها بالخوف من المواجهة، وأعلن الحرب عليه بشكل رسمي، وأرفقها بمجموعة من الألبسة النسائية والعطور وأدوات الزينة استهزاء بشخصه لتقاعسه عن المسير إليه، وإشعاراً بأن تصرفاته ليست من شيم الرجال، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى عبيد الله خان الأوزبكي يحثه على افتعال القلاقل من جانبه، وأخرى إلى قانصوه الغوري في مصر يخبره فيها أن أيام الدولة الصفوية باتت معدودة، في إشارة إلى موقف الغوري الحيادي من الصراع، وعندما وصل إلى خوي، استقبل مبعوثاً من الشاه سلمه رسالة يستجيب فيها الشاه لدعوى الحرب في سهل تشالديران[٢]. وهكذا تقرَّرت الحرب بين العاهلين.

أحداث المعركة: تحرك السلطان سليم صوب تشالديران في (٢ رجب/٢٣ آب) وعسكر في هضابها واستعد لملاقاة الجيش الصفوي الذي عسكر في مقابل الجيش العثماني. ووجد الشاه نفسه وحيداً يواجه السلطان سليم القوي بعد فشله في حمل البندقية والدول الأوروبية الدخول معه في تحالف لضرب العثمانيين، لأن البندقية كانت خارجة من حرب خاسرة مع الدولة العثمانية جلبت لها الهزيمة والانهيار الاقتصادي، في حين كانت الدول الأوروبية الأخرى منهمكة في مشكلاتها الداخلية.

والتقى الخصمان في صحراء تشالديران في أذربيجان قرب ماكو شرقي تبريز، ودارت بينها رحى معركة عنيفة أسفرت عن انتصار واضح للعثمانيين، وقُتل الآلاف من القزلباش، كما جُرح الشاه في المعركة وفرَّ مع من بقي من جنوده إلى المناطق الداخلية من إيران، بعد أن تبين له استحالة الدفاع عن عاصمته تبريز، ووقع كثير من قادته في الأسر، وسقط أقوى قادته محمد خان استاجلو صريعاً في أرض المعركة، كما أُسرت إحدى زوجاته، وتدعى تاج لي خانم، ولم يردها السلطان العثماني بل

---

(١) شيباني: ص١٨٨.

(٢) هامر: جـ٢ ص٨٣٩. فريدون بك: جـ١ ص٣٨٥، ٣٨٦.

Pitcher, D.E: **A Historical-Geography of the Ottoman Empire**, p102.

زوَّجها لأحد كتّابه انتقاماً[1]. وأمر السلطان الصدر الأعظم أحمد باشا دوقاقين بتعقب الفارين والاستيلاء على تبريز التي هجرها الشاه إلى أذربيجان. وفتحت المدينة أبوابها للمنتصرين، ودخلها السلطان في (١٥ رجب/ ٥ أيلول)، فأعطى الأمان لسكانها، واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى إستانبول، ثم عزم على الإقامة في المدينة لتدبير شؤون الأقاليم المفتوحة وإعادة تنظيم صفوف جيشه تمهيداً لاستئناف عملية التوسع في الأراضي الإيرانية.

تعقيب على معركة تشالديران

- لم تكن قوة الجيشين العثماني والصفوي متكافئة، لا من حيث العدد ولا من حيث التجهيز والتسليح. فقد بلغ عدد أفراد الجيش العثماني أكثر من مائة ألف في حين لم يتعدَّ عدد أفراد الجيش الصفوي العشرين ألفاً. وكان الجيش العثماني مجهزاً بقوات الفرسان والمشاة والمدفعية وتسانده قوة بحرية كبيرة، في حين افتقد الجيش الصفوي إلى وسائل التسليح المتطورة كالمدفعية، وكان في جهل تام بالسلاح الناري الذي استخدمه العثمانيون.

- سقط من الطرفين عدد كبير من القتلى، وفاق عدد القتلى العثمانيين عدد قتلى الصفويين، ويمكن أن يُردَّ ذلك إلى الطبيعة العقائدية التي كان يتصف بها الجندي الصفوي وما كان يتمتع به من راحة تامة قبل المعركة، في حين كان الجنود العثمانيون قد أعلنوا التمرد مراراً تعبيراً عن تذمرهم، وعانوا من المشقة من واقع السير الطويل.

- كان السلطان العثماني ينوي الإقامة في تبريز طيلة فصل الشتاء ليستأنف العمليات العسكرية في فصل الربيع، وقد وضع نصب عينيه الاستيلاء على أذربيجان والعراق وفارس وأصفهان، لكن لم يطل المقام به فيها بفعل أن الشاه عمد إلى إحراق ما لديه من حبوب ومؤن أثناء انسحابه، وقطع إمدادات التموين عن العاصمة، لكي تساهم المجاعة في إحداث تمرد الجنود العثمانيين ضد السلطان، وبخاصة أنه أمرهم بمعاملة أهل تبريز بالحسنى وعدم الاعتداء على الحرمات بخلاف رغباتهم، كما خسر الجيش العثماني في تشالديران بعض قادته.

نتائج معركة تشالديران

ترتب على معركة تشالديران نتائج عدة أهمها:

---

(١) صولاق زادة: ص٣٦٩، ٣٧٠. مؤرخ مجهول: ص٤٩٠. نصر الله فلسفي: **جنك چالديران.** فريدون بك: جـ١ ص٣٨٥، ٣٨٦.

ـ أسفرت المعركة عن سيطرة العثمانيين على الأناضول الشرقية والجنوبية باستثناء القسم الواقع تحت السيطرة المملوكية.

ـ أخذ الأمراء الأكراد السنّة، الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الصفوي الشيعي، ينضمُّون إلى العثمانيين.

ـ خمود المشكلة الصفوية مدة عشرين عاماً تقريباً، ذلك أن الضربة التي تلقتها الدولة الصفوية لم تكن قاضية، وتعذَّر على العثمانيين أن يُسقطوا الحكم الصفوي، وظلت إيران على تشيعها.

ـ إن نتائج تشالديران كانت مخيبة لآمال الإنشكارية الذين اقترحوا على السلطان بعد المعركة أن يقضي الشتاء في كراباغ بفعل الحال الصعبة التي كانوا يمرون بها.

وهكذا بدأت حلقة جديدة من تطورات الموقف بعد السيطرة على تبريز والانتصار على قوات الشاه، وإن امتدادات السلطان سليم اللاحقة إنما انطلقت كنتائج عامة حفلت بها هذه الحرب.

الأحداث العسكرية بعد معركة تشالديران

استغل السلطان سليم انتصاره في تشالديران، فنظَّم حملة مطاردة، بعد ثمانية أيام من الاستراحة، مقتفياً أثر الشاه إسماعيل الأول حتى وصل إلى نهر الرس في أذربيجان، وعند هذه النقطة توقف الإنكشارية عن التقدم بحجة اشتداد البرد وتناقص المؤنة، وكان قاضي عسكر الإنكشارية جعفر شلبي المحرض الأول لهم، الأمر الذي أجبر السلطان على ترك تبريز والعودة إلى بلاده، حيث قضى فصل الشتاء في مدينة أماسيا، وستصبح هذه المدينة منذ الآن، وخلال المدة التي أعقبت تشالديران، قاعدة للتحركات العسكرية ومركزاً للسلطان.

والحقيقة أن السلطان سليم عزم على التوغل في عمق الأراضي الإيرانية إلا أنه لم يفلح، فبالإضافة إلى المعارضة التي أبداها الإنكشارية، فإن ظروفه بشكل عام والحال التي كان يمر بها جيشه كانت صعبة وبخاصة بعد أن خسر في تشالديران بعض قادته، وأخذت المؤنة في النفاد، واشتد الغلاء بفعل إقدام قانصوه الغوري على منع مرور المؤن والذخيرة عن طريق حلب، وإحراق الشاه إسماعيل الأول ما لديه من حبوب ومؤن قبل انسحابه.

نتيجة لهذه الظروف التي وجد نفسه فيها، بدَّل السلطان خطته السياسية والعسكرية، وربما أدرك أن الانهيار الصفوي سيأتي بعد فرض حصار اقتصادي شديد على إيران، ولتحقيق ذلك لا بد من ضمِّ إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وسدِّ مسالك المشرق العربي بوجه الصادرات الإيرانية ووارداتها مع أوروبا.

وهكذا بدأت مرحلة أخرى من الصراع مع الصفويين بعد تشالديران تقضي بضم أرمينيا والكرج وكردستان وإقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، إلى الدولة العثمانية، لتنفيذ إحكام الطوق على الشاه إسماعيل الأول من الشمال والغرب والجنوب.

وعاد السلطان في (أوائل ٩٢١هـ/ ربيع ١٥١٥م) إلى إيران عن طريق الأناضول الشرقية وكردستان، ففتح أذربيجان ودخل إيروان العاصمة الأرمنية وأطلَّ على شمالي العراق، وندب في الوقت نفسه الشيخ إدريس البدليسي لإثارة الأمراء الأكراد ورؤساء العشائر وحكام المقاطعات، على حكم الشاه[١].

نجح البدليسي في مهمته بفعل الاستياء من الحكم الصفوي، وتطلُّع سكان العراق وإقليم الجزيرة الفراتية إلى من يُخلِّصهم من الحكم الصفوي، بالإضافة إلى الولاية الدينية التي كان يحمل الشاه لواءها والأساليب السياسية التي نفَّذها مع الأقطاب الاجتماعية، بدأت المدن في تلك النواحي، تثور على الحكم الصفوي مثل ديار بكر وبدليس وأرزن وبالو وأناق وميافارقين وغيرها، وامتدت الانتفاضة إلى مدينتي كركوك وأربيل[٢].

وجدَّد السلطان حملته على المناطق الصفوية، ففتح قلعة كماخ الواقعة في جنوب شرقي الأناضول بما فيها حصني مرعش والبستان اللذين انتزعهما من علاء الدولة ذي القدر والذي لقي مصرعه في المعركة[٣]، ثم عاد إلى إستانبول تاركاً قادته ليتموا فتح الولايات الإيرانية الغربية، ولما وصل إليها أمر بقتل عدد من ضباط الإنكشارية الذين امتنعوا عن التوغل في إيران، ومن بينهم جعفر شلبي[٤].

وتوغَّلت الجيوش العثمانية في عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) في شمالي العراق، وسيطرت على ديار بكر والرها وماردين وحصن كيفا والرقة والموصل، وبذلك أضحت مفاتيح العراق الشمالية في أيدي العثمانيين، كما أضحى السلطان سليم، سلطان العراقيْن، عندما أعلن صاحب بغداد الولاء له.

وبتلك الحرب الناجحة دخل السكان العرب القاطنون في الفرات الأوسط، في المجال العثماني، وأضحى للدولة العثمانية موطئ قدم في المشرق العربي.

وعندما التقطت الدولة الصفوية أنفاسها بعد الضربة التي تلقَّتها في تشالديران حاولت استعادة ما فقدته، فهاجم قزاخان استاجلو، شقيق محمد خان حاكم ديار بكر

---

(١) **دائرة المعارف الإسلامية**: جـ٣ ص٤٦٤، ٤٦٥. الجميل: ص٣٢٦.

(٢) Pitcher: p102.

(٣) سعد الدين، محمد: **تاج التواريخ** جـ٢ ص٣٢١، ٣٢٢.

(٤) فريد بك، محمد: ص١٩١.

السابق، هذا الإقليم بعد أن جمع قوات من ماردين والرها، لكن السكان الذين استاءوا من الحكم الصفوي، تصَدَّوْا للصفويين، وساندهم الجيش العثماني، فأبعدوهم عن ديارهم، وفي المعركة التي جرت بين الطرفين قرب ماردين سقط قزاخان صريعاً[١].

وعلى الرغم من إحكام الطوق العثماني على الشاه، والقضاء على القوى المحلية التي أقامها في وجه العثمانيين، فإنه استطاع أن يستعيد قوته ويعيد بناء جيشه ودولته ما سيكون له انعكاسات على العلاقة العثمانية الصفوية في المستقبل.

علاقات الصفويين مع دول أوروبا الغربية

تمهيد

ساعد الخطر العثماني الذي كان يُهدِّد الصفويين على التقارب بين إيران ودول أوروبا الغربية مثل البندقية وإسبانيا والبرتغال، ومع ظهور الدولة الصفوية في فاتحة القرن السادس عشر الميلادي خفَّ الضغط العثماني نسبياً عن صدر هذه الدول الأوروبية بفعل تحول العثمانيين في عهد السلطان سليم إلى الجبهة الشرقية. وسعت دول أوروبا إلى تثبيت عرى صداقتها مع الشاه إسماعيل عبر اتفاقيات سياسية واقتصادية، ومن جهته حاول الزعيم الصفوي استغلال العلاقات الجيدة مع الغرب الأوروبي وتوظيفها لصالحه من واقع التوسع في المناطق الغربية لإيران.

وكان المماليك في بلاد الشام ومصر قد سيطروا على طريق التجارة الجنوبي مع الهند وفرضوا رسوماً جمركية فادحة على السلع الشرقية عند مرورها في أراضيهم، فتحكَّموا بذلك بالتجارة الشرقية عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط، وبات لزاماً على الأوروبيين اكتشاف طريق آخر يوصلهم إلى الهند. وبفعل ما حقَّقوه من اختراعات متقدمة في علم الملاحة، ساعدهم على اكتشاف الطريق البحري من أوروبا إلى الهند مباشرة بالالتفاف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) والذي كان رائده فاسكو دي غاما. وبفعل استيلاء السلطان سليم العثماني على تبريز والأناضول الشرقي؛ سيطر العثمانيون على الطريق التجاري الشمالي وراحوا يضايقون التجارة الإيرانية، واضطر التجار الإيرانيون إلى تحويل طريقهم إلى الجنوب عبر الخليج العربي، واعتقد الأوروبيون أن إيران تمثل نقطة حراسة ومراقبة للطرق البحرية التي تؤدي إلى الهند، يضاف إلى ذلك، أن سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن مكّنتهم من منافسة البرتغاليين على التجارة الشرقية في

---

(١) مؤرخ مجهول: **تاريخ قزلباشان** ص٤٥.

الجنوب؛ فتلاقت مصالحهم مع مصالح الإيرانيين التي تدعَّمت بالاتفاقيات الثنائية.

العلاقة مع البرتغاليين

كانت البرتغال رائدة الدول الأوروبية التي حاولت أن تستفيد من الطريق البحري الجديد الذي يصل آسيا بأوروبا والبعيد عن الخطر العثماني، وحتى تحكم قبضتها عليه وتغلق الطريق القديم الذي يمر في البحر الأحمر؛ أسست مستعمرات لها في الخليج العربي وبخاصة في جزيرة هرمز في عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، ثم احتلَّت كمبرون وجعلتها مركزاً للتجارة مع إيران، وبنت حصوناً عديدة في الجزيرة المذكورة والجزر المحيطة بها مثل قشم، وحاولت التقرب من السكان عن طريق بيع البضائع بأسعار زهيدة.

والواقع أن المشكلات التي واجهها الشاه إسماعيل الأول في إيران قد أتاحت للبرتغاليين إنماء تجارتهم في الخليج العربي وسواحل إيران الغربية، ولما حاول التدخل في هرمز وطلب من حاكمها إعطاءه الخراج المتأخر كدليل على تبعيته له، لجأ الأخير إلى حاكم الهند البرتغالي آلبوكرك الذي منعه من ذلك، وأخبر الشاه بأنه لا يحق لأمير هرمز أن يدفع الخراج لملك آخر غير الملك البرتغالي.

وبدا الشاه إسماعيل الأول ضعيفاً أمام قوة البرتغاليين الطاغية، فركن إلى الهدوء وأرسل مبعوثاً إلى الهند لعقد اتفاقية تفاهم معهم في الوقت الذي كان يستعد لمهاجمة البحرين والقطيف، وقد تضمَّنت الاتفاقية البنود التالية:

- ترافق قوة بحرية برتغالية حملة الشاه على البحرين والقطيف.
- تتعاون الدولتان البرتغالية والصفوية في إخماد حركات التمرد في مكران وبلوجستان، وفي مواجهة العثمانيين.
- تصرف الحكومة الصفوية النظر عن المطالبة بجزيرة هرمز وتعترف بتبعيتها للبرتغال[١].

العلاقة مع البندقية

شكَّل فتح القسطنطينية والقرم واليونان، على يد السلطان محمد الفاتح العثماني، ضربة قاسية لتجارة البندقية مع بلدان البحر الأسود، وتحكَّم العثمانيون بالمضائق والطرق التجارية، فأقامت علاقات ودية مع أوزون حسن زعيم أسرة الآق قوينلو ونسَّقت معه لحرب العثمانيين ووعدته بإمداده بالسلاح الذي كان بحاجة إليه، إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها واضطرت إلى عقد اتفاقية سلام مع العثمانيين في عام

(١) شيباني: ص٢٣١. جمعة والخولي: جـ١ ص٩٧.

(٨٨٣هـ/١٤٧٨م) بعد حرب استمرت ستة عشر عاماً، ما أدَّى إلى فتور العلاقة بينها وبين إيران. وعندما اعتلى الشاه إسماعيل الأول العرش الصفوي في إيران، حاول العمل على إحياء العلاقة الجيدة مع البندقية بهدف الوقوف في وجه العثمانيين. فأجرى مباحثات مع البنادقة من أجل ذلك وعرض عليهم أن تهاجم البندقية الأراضي العثمانية من الغرب في الوقت الذي يهاجمها هو من الشرق، على أن تسترد البندقية قواعدها التي فقدتها في اليونان وجزر الأرخبيل، غير أن البندقية لم تتجاوب مع مشروع الشاه لأنها كانت منهمكة في نزاع مع البابوية وحلفائها، وترتبط مع العثمانيين بمعاهدة ليس من مصلحتها أن تنقضها، وأعلمت الشاه إسماعيل الأول أنها لم تنس صداقتها القديمة مع إيران ولكنها لا تستطيع التعهد بالتزامات جديدة(١).

العلاقة مع إسبانيا

يُعدُّ فقدان الدولة الصفوية لولاياتها الغربية مع العثمانيين في أيام السلطان سليم، ضربة سياسية وعسكرية شديدة للشاه إسماعيل الأول الصفوي، وحتى يُقوي موقفه، التفت إلى الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين للتحالف معها ضد هؤلاء. ولما فشلت محاولاته للتحالف مع البندقية، توجَّه إلى المجر التي شكَّلت خط الدفاع الأول عن القارة الأوروبية في وجه الوثبة العثمانية، وإلى إسبانيا، فارسل رسالتين في (شوال ٩٢٩هـ/آب ١٥٢٣م) إلى كل من لويس الثاني ملك المجر وشارل الخامس ملك إسبانيا والذي جمع أيضاً حكم صقلية ونابولي والبلاد المنخفضة والنمسا وألمانيا والقسم الأكبر من إيطاليا، طلب فيهما عقد معاهدة صداقة وتعاون ضد الأتراك العثمانيين. ويبدو أن شارل الخامس وافق على طلبه وأرسل رسالة جوابية بهذا المعنى، ولكن لدى وصول المبعوث الإسباني كان الشاه إسماعيل الأول قد توفي(٢).

والواقع أن اتصالات الشاه إسماعيل الأول مع الدول الأوروبية بعامة لم تؤد إلى نتيجة إيجابية بفعل صعوبة المواصلات من جهة، ولأن سفراء الطرفين غالباً ما كانوا يقعون اسرى في أيدي العثمانيين أو يُقتلون، من ناحية أخرى(٣).

وفاة الشاه إسماعيل الأول

تركت هزيمة تشالديران في نفس الشاه إسماعيل الأول أثراً كبيراً وبخاصة أنه لم يُهزم في معركة من قبل، ولم يُجرح في معركة خاضها حتى ذلك الوقت، ولم تعن خسارته المعركة فقدانه لبعض الأراضي فقط، بل إن قداسته التي لا تُقهر قد اهتزت

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٩٨، ٩٩.
(٢) شيباني: ص٢٤٠.
(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٩٩، ١٠٠.

بنظر أتباعه على الأقل أيضاً؛ لذلك نحا نحو العزلة ولبس السواد ووضع عمامة على رأسه وأدمن على شرب الخمر، ولم يقم بعمل يستحق الذكر، فامتنع عن قمع المرتدين عن المذهب الشيعي، وعهد إلى رؤساء القزلباش بإخماد الفتن التي كانت تندلع بين الحين والآخر، وربما كان هذا المنحى السلوكي أتاح للعثمانيين ضم ديار بكر، وساعد الأوزبك على إخضاع بلخ وقندهار ومحاولة دخول خراسان(١).
وقضى سنوات حكمه الأخيرة، وهي عشر، في التنقل والصيد وإدارة شؤون الحكم. وفي عام (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) رحل إلى ناحية شَروان ثم توجَّه إلى شكى، فمرض فيها بالسل، فقرَّر العودة إلى تبريز عن طريق أردبيل، إلا أنه توفي أثناء انتقاله في صائن كدوكي قرب مدينة سراب في أذربيجان، في (١٩ رجب/ ٢٣ أيار) عن عمر يناهز السابعة والثلاثين عاماً، حكم منها أربعة وعشرين عاماً، ونُقل جثمانه إلى أردبيل ودُفن فيها بجوار أجداده(٢).

أهمية الشاه إسماعيل الأول

تكمن أهمية الشاه إسماعيل الأول في أنه وضع أسس دولة ارتكزت على قواعد سياسية واقتصادية وإدارية متينة عمَّرت أكثر من مائتي عام، وأوصل حدود إيران إلى ما كانت عليه أيام الساسانيين، فشملت بالإضافة إلى إيران: العراق، خوزستان، كرمان، خراسان، وقسماً من بلاد ما وراء النهر، وضمَّت في وقت من الأوقات ديار بكر ومرو وبلخ وقندهار، وفرض المذهب الشيعي الاثني عشري في البلاد، وصبغ حضارة إيران بصبغة خاصة لا تزال آثارها إلى يومنا هذا.

تمتَّع الشاه إسماعيل الأول بصفات رجل الدولة، فإرادته قوية، وذكاؤه حاد، يصبر على الشدائد، وكان شجاعاً مع خشونة متزايدة، قاسياً مع أعدائه حتى بعد وفاتهم، وقد ذكرنا ما فعل بجثة محمد شيباني خان، كريماً، استقطبت عطاياه الكثير من رجال القزلباش، ومثَّل عالماً تركياً شبه بدوي هو عالم القزلباش الذين رفعوه إلى سدة الحكم، وإذا كان لا يجهل الفارسية، فإنه يفكر تفكيراً تركياً وبالتركية، وإذا كان جهازه الإداري قد استند على الكتبة الإيرانيين من الولايات التركية السابقة التابعة لإيران، فإن قوته العسكرية استندت على القبائل التركية المؤيدة لعقيدته المذهبية التي يدعو إليها، وقد خلق في أذربيجان دولة تركية مثالية..

كان الشاه يهوى الصيد كثيراً، وينظم الشعر باللغات التركية والفارسية والعربية،

---

(١) شيباني: ص٢٤١.

(٢) روملو، حسن: **أحسن التواريخ** ص١٨١. الأسترآبادي: ص٥٢. القزويني: ص١٢.

وتُمثل أشعاره باللغة التركية أهم آثاره الشعرية، وهو يتخلَّص في شعره بـ «خطائي».

أدمن الشاه إسماعيل على شرب الخمر وبخاصة بعد هزيمته في معركة تشالديران، كما نحا نحو الإفراط في حياته الزوجية والخاصة، وربما كان ذلك من بين أسباب وفاته في سن مبكرة.

هل لنا أن نصدر حكماً على الشاه إسماعيل الأول ونضعه في المرتبة التي يستحقها؟ إن المصادر الإيرانية ـ الصفوية لا تُزودنا بصورة كاملة عن شخصيته، لأنها تنظر إليه بعين واحدة قلَّما نصادف فيها شيئاً إلا الإغراق في مدحه والثناء عليه، أما المصادر الأخرى فهي وإن كانت أكثر نقداً إلا أنها أقل مادة تاريخية. لكن الواقع أن عصره شكَّل انعطافة مهمة في تاريخ إيران بما اشتمل عليه من أحداث. فقد حقَّق وحدة إيران الوطنية والسياسية، وفرض نفسه كشخصية مهمة في الخارج، غير أنه ألحق ضرراً كبيراً بالإسلام من واقع المواجهة المسلحة مع كل من الأوزبك والعثمانيين مجسداً الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة.

لقد نجح الشاه إسماعيل الأول في توظيف الشعور الوطني لدى الإيرانيين من واقع بعث القومية الإيرانية، على الرغم من أنه كان تركياً، وفضَّل التعامل مع القزلباش التركمان على الإيرانيين، واتخذ اللغة التركية لغة رسمية في دوائره، ونظم الشعر في أغلبه بهذه اللغة؛ إذ إن المذهب الشيعي الذي أضحى مذهباً قومياً، شكَّل أساس الوحدة الوطنية الإيرانية، وطاقة أثارت الشعور الوطني، وقد ساعدت الإيرانيين على تجاوز النكبات التي حلَّت بهم في القرن التاسع عشر الميلادي والسير قدماً نحو الدولة القومية ثم الإسلامية على أثر قيام الثورة الإسلامية في (٣ ربيع الأول ١٣٩٨هـ/ ١١ شباط ١٩٧٨م).

الفصل الرابع

طهماسب الأول ـ إسماعيل الثاني ـ محمد خدابندة

الشاه طهماسب الأول
٩٣٠ ـ ٩٨٤هـ/ ١٥٢٤ ـ ١٥٧٦م

الصراع الداخلي في إيران

ترك الشاه إسماعيل الأول بعد وفاته أربعة أولاد هم: طهماسب، ولي عهده وخليفته، ألقاص، سام وبهرام، وخمس بنات هن: خانيش خانم، بريخان خانم، مهين بانو سلطانوم، فرنگيس خانم وزينب خانم[١].

إذن، خلف طهماسب أباه إسماعيل وله من العمر عشر سنوات، وجلس على العرش في اليوم الذي توفي فيه والده. ونظراً لصغر سنه كان طبيعياً أن يتولى زعماء القزلباش مهمة إدارة الدولة، وفي مثل هذه الظروف تتضارب المصالح وتتعدَّد الآراء، ويجري التنافس بين الأمراء على التفرد بالسلطة.

وقد ساهم الشاه إسماعيل الأول في نشوء هذه الظاهرة بفعل اعتماده كلياً على قبائل القزلباش في فتوحه وإدارة شؤونه ما جعلهم أكثر قوة، فامتلكوا الإقطاعات وأغدق عليهم الشاه الألقاب الشرفية حتى أضحت إيران تُعرف بمملكة القزلباش[٢].

ونتيجة لتعاظم نفوذهم تحوَّل الحكم في إيران من حكم يقوم على الولاء للدولة الصفوية والمذهب الشيعي إلى حكم يقوم على التنازع على السلطة، وتبدَّل الامتثال لنفوذ الشيخ المرشد إلى تنازع من أجل الاحتفاظ بالمناصب. وشبَّ الشاه طهماسب الأول في هذا الجو المشبع بالنزاعات[٣].

وبرز من القزلباش زعماء تكلو واستاجلو وقد تقاسموا المناصب، ثم دب النزاع بينهم ما دفع الشاه طهماسب الأول إلى عزلهم وعيَّن حسين خان شاملو في منصب

---

(١) الأسترآبادي: ص٣٣.

(٢) البدليسي، أمين شرف خان: **شرف نامه** جـ١ ص٥٤٠. Sykes, p: **A History of Persia,** p164.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص١١٣.

أمير الأمراء، وقد عدَّ زعماء هذه القبيلة أنفسهم شركاء في الحكم بفعل علاقتهم العائلية بالأسرة الحاكمة عن طريق المصاهرة، فوضعوا أيديهم على الأراضي الخصبة والنقاط الاستراتيجية، ما أثار القبائل القزلباشية الأخرى.

وتفاقم التنافس بين القبائل ووصل إلى حد الصراع المسلح، فقد هزمت تكلو استاجلو في عام (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م) وكبدتها خسائر فادحة، ثم انقلبت على روملو وهزمتها، كما اصطدمت بشاملو في عام (٩٣٧هـ/ ١٥٣٠ ـ ١٥٣١م)، وقاد زعيمها آلامة سلطان من أذربيجان ثورة مسلحة ضد حكم الشاه طهماسب الأول مدعياً أن له الحق في نيابة السلطنة، لكنه هُزم على يد القوات الصفوية وفرَّ إلى إستانبول ملتجئاً إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦ ـ ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) وحرَّضه على غزو إيران. وعندما توجَّه السلطان العثماني إلى إيران، انسلخ عدد كبير من زعماء القزلباش عن تبعيتهم للصفويين وانضموا إلى العثمانيين، والتحقوا بمعسكر السلطان سليمان القانوني[١] مبرهنين عن ضعف عقيدتهم وولائهم للعائلة الصفوية والاهتمام بمصالحهم الشخصية.

وفي عام (٩٤٠هـ/ ١٥٣٣ ـ ١٥٣٤م) حاول أمير الأمراء حسين خان شاملو أن يتخلَّص من الشاه طهماسب الأول بدس السم له في الطعام بمساعدة أحد ندمائه وتنصيب أخيه سام مكانه[٢]. وعلى الرغم من ذلك، كان الشاه يتجاهل مثل هذه المؤامرات حيناً ويقف منها موقف المتفرج أحياناً، بحجة أنها تحمي دولته من شر المتنازعين عليها بفعل تصفية بعضهم للبعض الآخر[٣].

العلاقات الخارجية

العلاقة مع الأوزبك

يُعدُّ عهد الشاه طهماسب الأول امتداداً لعهد والده من حيث الصراع مع المعسكر السني، وكانت حملته ضد الأوزبك من أولى حملاته خارج إيران لاعتقاده بأنهم يُشكلون الخطر المباشر الذي يُهدِّد دولته، في الوقت الذي أخذ رجاله الملتفون حوله يتنافسون في إثبات مدى إخلاصهم له عن طريق حملة كبيرة ناجحة. وشجَّع صغر سن الشاه القائد الأوزبكي عبيد الله على مهاجمة الأراضي الصفوية في خراسان، فاشتبك مع الصفويين في حروب متقاربة ومتباعدة زمنياً لم يُهزم إلا في واحدة منها.

---

(١) نصر الله، فلسفي: **زندگاني شاه عباس الأول** جـ١ ص٢٢٢.

(٢) المرجع نفسه: ص١٧٥.

(٣) طهماسب صفوي: **تذكرة طهماسب** ص٧٣. حسن روملو: ص٢٣٧.

وحشد عبيد الله جيوشاً ضخمة لمواجهة الغزو الصفوي المنتظر، لكنه استبق الصفويين بالهجوم على خراسان في عام (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م)، فاستولى على مرو والعديد من مناطق هراة، ولئن عجز عن تثبيت أقدامه فيها إلا أنه نجح في المناطق الواقعة شرقي مرغاب، واستولى في العام التالي على مشهد وأسترآباد، وعهد بهذه الأخيرة إلى ابنه عبد العزيز، ثم توجَّه من أسترآباد إلى هراة لمحاصرتها، غير أن الشاه طهماسب الأول نجح في طرده من المناطق التي استولى عليها[١]. وجدَّد هجومه على خراسان في عام (٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م) في حملة اختلفت عن الحملات السابقة من حيث ضخامة الحشود التي جنَّدها والتي اشتركت فيها معظم عشائر الأوزبك، وزحفت هذه الحشود إلى المنطقة الفاصلة بين أفغانستان وإيران، أي بين هراة وخراسان، لتلتقي بالجيش الصفوي في سهل جام وزور أباد في (١٠ محرم ٩٣٥هـ/ ٢٩ أيلول ١٥٢٨م). ودارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة أسفرت عن انتصار الشاه طهماسب الأول وهزيمة الأوزبك الذين فروا هاربين باتجاه تركستان[٢]. وعزا الشاه الصفوي انتصاره إلى رؤيا[٣]، فقد رأى علياً بن أبي طالب في منامه يُبشره بالنصر ويقول له: «إن فتحاً كبيراً قد يسر لك»[٤]. لكن الواقع أن تجهيزات الجيش الصفوي المتطورة كانت السبب المباشر للانتصار، ذلك أن الصفويين أدركوا بعد هزيمتهم في تشالديران أهمية تطوير قدراتهم العسكرية إن أرادوا الحفاظ على دولتهم ومتابعة سياستهم التوسعية، باستخدامهم الأسلحة النارية، وفعلاً زوَّد القادة الصفويون جيوشهم بهذه الأسلحة واستعملوها ضد الأوزبك. صحيح أن جموع الأوزبك قاتلوا بحماس، وانقضوا على الجيش الصفوي يفتكون به، لكن الأسلحة النارية كانت تحصد المهاجمين، كما تعرَّضت مؤخرتهم للنار من البنادق والمدفعية، فأبيدت ودبَّت الفوضى في صفوفهم، وهذا تكتيك اقتبسه الصفويون عن العثمانيين وحقَّقوا نصراً مؤزراً وحاسماً، لكن الشاه طهماسب الأول لم يكن قادراً على الرغم من انتصاره أن يطارد الأوزبك حتى تركستان ويستولي على بلاد ما وراء النهر، لأن تنفيذ ذلك يتطلب نفقات باهظة وجهوداً جبارة لا يكسب من ورائها إلا أرضاً معادية، مرهقة لقواته، في حين كانت آماله متوجهة بقوة إلى استرداد العراق، لذلك توجَّه بعد المعركة إلى قزوين وقم قبل أن يُنفِّذ مشروعه العراقي[٥].

---

(١) بازوكي: ص٢٩٢. (٢) المصدر نفسه.

(٣) كان الشاه طهماسب كثير الاعتقاد في الرؤى المنامية.

(٤) طهماسب صفوي: ص١٥. القزويني: ص١٩.

(٥) نوار: ص٤٥.

وما جرى من تغيير في رأس السلطة في الدولة الشيبانية، بعد وفاة كجوكونجي في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م) باعتلاء عبيد الله سدة الرئاسة في خانية بخارى (٩٤١ ـ ٩٤٧هـ/ ١٥٣٤ ـ ١٥٤٠م)، أن انتهز هذا الخان غياب الشاه طهماسب في العراق وشنَّ غزوة أخرى على أقاليم شرقي إيران مبتدئاً بهراة ومشهد وأستراباد، وأخذت قواته تجوس في أرجاء خراسان أكثر من عام، تُدمِّر وتُخرِّب، ولم يستطع الشاه طهماسب الأول أن يلتفت إلى أقاليمه الشرقية إلا بعد أن توقف القتال بينه وبين العثمانيين على الجبهة الغربية.

وعاد الشاه طهماسب الأول من الجبهة الغربية إلى أذربيجان في عالم (٩٣٩هـ/ ١٥٣٣م) ليعيد تنظيم صفوف قواته ويجري تشكيلات في المناصب الإدارية والعسكرية بهدف تأمين الاستقرار والقضاء على أعدائه، وثبَّت أخاه سام ميرزا أميراً على هراة[١].

كانت هراة المدينة الأكثر تعرضاً لغارات الأوزبك، ففي (جمادى الآخرة ٩٤٣هـ/ تشرين الثاني ١٥٣٦م) عيَّن الشاه طهماسب الأول صوفيان خليفة روملو حاكماً على مشهد، وأمره بصدِّ غارات الأوزبك على المدن الخراسانية. فهاجم هؤلاء هراة وقتلوا حاكمها[٢]، فاستدعى سكانها صوفيان خليفة ومنحوه صلاحيات مطلقة لرد غاراتهم، وحاصر عبيد الله خان المدينة وجرى قتال مع حاميتها تكبد خلاله الزعيم الأوزبكي خسارة بعض قادته، ما أعطى صوفيان خليفة الأمل في الانتصار. واضطر عبيد الله خان إلى فك الحصار عن المدينة وانتقل إلى عبدل أباد نيشابور، فأعاد تنظيم صفوف قواته وكرَّ على القوات الصفوية وانتصر عليها، وقُتل صوفيان خليفة في المعركة، وزحف بعد انتصاره إلى هراة وحاصرها مدة خمسة أشهر ودخلها، وبقي فيها مدة سنة ونصف تقريباً[٣].

نتيجة لتدهور الأوضاع في خراسان الناجمة عن غارات الأوزبك، توجَّه الشاه طهماسب الأول إليها على رأس جيش جرار، فغادر عبيد الله خان هراة وعاد إلى بلاد ما وراء النهر. ويبدو أنه وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه الحشود الصفوية الضخمة[٤]، فاستغل الشاه هذه الفرصة واستولى على قندهار، ووصلت إليه وهو فيها رسالة غير متوقعة من عبيد الله خان يهنئه فيها بفتح المدينة، واستقبل الشاه رسوله استقبالاً طيباً.

ويبدو أن عبيد الله خان استسلم أخيراً للواقع العسكري على الأرض عندما فشل

---

(١) الأسترآبادي: ص٦٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) پازوكي: ص٢٩٤.
(٤) القزويني: ص٢٠.

في انتزاع خراسان على الرغم من محاولاته المتكررة، وبدأت هذه الولاية تشهد مرحلة من الهدوء استمرت حتى وفاة الزعيم الأوزبكي.

وجدَّد الأوزبك غاراتهم على هراة بعد وفاة عبيد الله خان، غير أن الشاه طهماسب الأول ردَّهم على أعقابهم، لكنهم أغاروا على حدود سرخس وجام في عام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) بقيادة أوزبك خان، حفيد جاني بك، وأعملوا القتل في أندخوند وشيرغان على الرغم من الجهود التي بذلها زينل خان حاكم منطقة جام لردهم[١].

تعقيب على العلاقة الصفوية ـ الأوزبكية

إن نظرة متأنية على علاقة الصفويين بالأوزبك في عهد الشاه طهماسب الأول تُطلعنا على الأمور التالية[٢]:

ـ تحوَّل الأوزبك بعد وفاة محمد شيباني خان من سياسة الهجوم والتوسع إلى سياسة الدفاع والحفاظ على مكتسبات الدولة في بلاد ما وراء النهر، وكانت هجماتهم على خراسان أشبه بالغارات من أجل السلب والنهب، وليس من أجل الاستقرار.

ـ تجاوز الصفويون في عهد الشاه طهماسب الأول كارثة تشالديران وانتقلوا إلى مرحلة جديدة من التوسع بفضل استخدامهم الأسلحة النارية، وأضحى الجيش الصفوي قادراً على أن يُسهم في منع تعدي وعبث القوات الأوزبكية في الأقاليم الشرقية، ونقل القتال أحياناً إلى داخل مناطق الأوزبك.

ـ بعد أن عقد الشاه طهماسب الأول الصلح مع العثمانيين في عام (٩٦١هـ/ ١٥٥٤م) لم تعد إيران مُهدَّدة بخطر الحرب على جبهتين في آن واحد، وأضحى الأوزبك مُهدَّدين بأن يجدوا أنفسهم فجأة معرضين لغزوات من الشرق والغرب في ظل حكام ضعاف بعد وفاة عبيد الله خان. ففي الشرق، برز توروز أحمد (براق خان) كزعيم عشائري من طراز محمد شيباني خان وعبيد الله خان، فاجتاح معظم مناطق الأوزبك وخرَّبها بشكل رهيب وذلك في عام (٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م). لكن ظهر في صفوف الأوزبك زعيم صلب العود من أسرة محمد شيباني خان أخذ على عاتقه إنقاذ البلاد من التردي، هو عبد الله خان، وقد نجح في عملياته الأولى، وأتاحت له وفاة براق خان المبكرة في عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م) فرصة كبيرة لاستعادة ملك الشيبانيين على الرغم من تحالف الصفويين مع الخوارزميين ضده، وظل مسيطراً على

(١) بازوكي: ص٢٩٩.
(٢) نوار: ص٤٦ ـ ٤٨.

البلاد خلال الأعوام الأخيرة من حكم الشاه طهماسب الأول وخلال معظم عهد الشاه عباس الأول الكبير.

العلاقة مع العثمانيين

اعتلاء سليمان الأول القانوني سدة الحكم

خلف السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ـ ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) أباه السلطان سليم، وشهدت الأعوام الأولى من حكمه أحداثاً كبرى وبخاصة في أوروبا. والواضح أن أبرز سمة في شخصية هذا السلطان الذي كان بطبعه محباً للسلام، هي أنه اشترك شخصياً في ثلاث عشرة حملة عسكرية كبرى، عشر منها في أوروبا وثلاث في آسيا، وكانت هذه الحروب مراحل متعددة من أجل توسع الدولة العثمانية في رقعتها ونفوذها وسلطانها.

والواقع أنه يمكن النظر إلى القرن السادس عشر الميلادي على أنه مفترق تاريخي سيتقرر انطلاقاً منه، شكْل توزيع القوى على طرفي العالم الإسلامي الشرقي والنصراني الأوروبي في الغرب، وستقع فيه أشد المعارك البرية والبحرية هولاً والتي ستتوقف على نتائجها مواقع الطرفين المتحاربين، الدولة العثمانية وكلّاً من الصفويين والامبراطورية الرومانية المقدسة.

وما إن استقر السلطان سليمان القانوني على عرش السلطنة حتى عادت السياسة العثمانية تتجه نحو الغرب، ولكن إلى حين، لتبدأ مرحلة أخرى من العلاقات المتجددة مع أوروبا اتسمت بالتوسع في البلقان والبحر الأبيض المتوسط، لكن السلطان العثماني ترك أوروبا في عام (٩٣٩هـ/ ١٥٣٣م) بعد أن عقد اتفاق سلام مع آل هابسبورغ حكام النمسا، وانطلق يحارب الصفويين في إيران والعراق ضمن الصراع المتنامي بين الطرفين.

دوافع استئناف العمليات العسكرية

كان هناك من الدوافع ما نشَّط استئناف العمليات العسكرية بين الدولتين الصفوية والعثمانية، لعل أهمها:

ـ أثناء انهماك العثمانيين بالحرب مع النمسا، جرى اتصال سري بين الصفويين والمجريين، أسفر عن تعاون الطرفين ضد العثمانيين، العدو المتكافئ لكليهما[1].

ـ إن حوادث الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية، الناجمة عن تحركات

---

(١) رافق، عبد الكريم: **العرب والعثمانيون** ١٥١٦ ـ ١٩١٦م ص٦٦، ٦٧.

Hammer. J: **Histoire de L'Empire Ottoman**: II, p19.

القبائل الكردية كانت أحد الأسباب المباشرة لإذكاء الحرب بينهما، بالإضافة إلى الأوضاع الشاذة التي تحكم الأقاليم الصغيرة الواقعة على الحدود بين الطرفين والسياسة المتقلبة لحكامها[١].

ـ هدَّدت سيطرة الصفويين على بغداد في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م) الطرق التجارية بين الشرق وأوروبا بشكل خطر، بفعل أن العراق كان يربط هذه الطرق.

ـ استاء العثمانيون من محاولات الشاه طهماسب الأول إثارة القزلباش في الأناضول، مقتفياً بذلك خطى والده الشاه إسماعيل الأول.

وبشكل عام، كانت الأهداف الحقيقية للحرب في عام (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م) شبيهة بالأهداف التي أدَّت إلى قيام السلطان سليم بغزو إيران قبل ذلك بعشرين عاماً. إنها حرب وقائية وتجارية وسياسية ومذهبية.

التوغل العثماني في أذربيجان

تحرك الصفويون باتجاه الأراضي العثمانية، واندفعوا نحو بغداد بعد أن استقطبوا شرف خان حاكم بدليس الواقعة قرب خلاط جنوبي بحيرة وان على الحدود العثمانية ـ الصفوية، واستولوا عليها في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م)[٢].

وحتى لا يستفحل الأمر، أرسل السلطان جيشاً في (صفر ٩٤٠هـ/ أيلول ١٥٣٣م) تعداده مائة وأربعون ألف جندي بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا لمحاربة الصفويين وشرف خان معاً، وأثناء وصول الجيش إلى قونية انضم إليه حاكم أذربيجان، وحتى يُبرهن هذا الحاكم عن حسن نيته تجاه العثمانيين قتل شرف خان وأرسل رأسه إلى السلطان[٣]. وتمكَّن الجيش العثماني قبل حلول فصل الشتاء، من استعادة بدليس والمناطق الواقعة بين أرضروم وبحيرة وان. وتابع إبراهيم باشا تقدمه قاصداً مدينة تبريز، وفتح في طريقه جميع القلاع المجاورة لبحيرة وان في خط أفقي، ما جعل الطريق أمامه مفتوحاً إليها[٤].

تراجع الصفويون أمام الزحف العثماني، وتخلَّى الشاه طهماسب الأول عن الأرض على أمل الاحتفاظ بالجيش والدولة، ودخل الصدر الأعظم مدينة تبريز من دون

---

(١) كان هناك حكام يدينون بالولاء تارة للصفويين وأخرى للعثمانيين، أمثال: حكام الپازوكي في مناطق كيفا وأرغيش وعدلجواز وألشكرد في أرمينيا، وحكام دنبلي في سكمن آباد وحكام بدليس، وحكام سهران، وحكام المحمودية في آشوت وغيرهم.

(٢) إيفانوف، نيقولاي: **الفتح العثماني للأقطار العربية** ص٨٨.

(٣) محمد فريد بك: ص٢٢٢.

(٤) كلو، أندري: **سليمان القانوني** ص١٥٤. أوزتونا: جـ١ ص٢٣٩.

مقاومة في (الأول من محرم ٩٤١هـ/ ١٣ تموز ١٥٣٤م) وفرَّ الشاه إلى قزوين[١].

وخرج السلطان العثماني من إستانبول في (٢٩ ذي القعدة ٩٤٠هـ/ ١١ حزيران ١٥٣٤م) وانضمَّ إلى قواته المتقدمة، وزحف بها إلى همدان، ومنها اتخذ طريقه نحو المساكن الشتوية للعراق، وتوقف فيها قبل أن يصل إلى تبريز[٢].

ونظَّم السلطان شؤون المدينة الداخلية، فعيَّن ابن أمير شَروان قائداً لحامية تبريز، واستقبل مظفر خان أمير جيلان وغيره من الأمراء الذين انسلخوا عن الشاه طهماسب الأول، وقدَّموا له فروض الولاء والطاعة[٣].

وعزم السلطان سليمان القانوني على مطاردة الشاه، فسار بجيوشه في (ربيع الآخر ٩٤١هـ/ تشرين الأول ١٥٣٤م) إلى مدينة زانجان ثم إلى مدينة السلطانية الواقعة إلى الشرق من جيلان، وقد تقهقر الشاه متجنباً الاصطدام بالقوات العثمانية، لكن قسوة المناخ في المنطقة، وصعوبة الطرق، واستحالة مرور المدافع الضخمة وعربات النقل عليها، بفعل كثرة الأمطار والأوحال؛ أجبره على التخلي عن فكرة المطاردة، فترك المنطقة قاصداً مدينة بغداد[٤].

الصراع على العراق

استمر الصراع الصفوي ـ العثماني على العراق في عهد الشاه طهماسب الأول، وكانت المناطق الوسطى والجنوبية تحت حكم الصفويين، في حين سيطر العثمانيون على الشمال. وتعاقب حكام بغداد ذوو الميول الصفوية على السلطة وقد انتهجوا سياسة التطرف المذهبي، فكانت أعمال الاضطهاد والملاحقة والابتزاز تُنمِّي تعاطف السكان مع العثمانيين، وكان هؤلاء من جهتهم يؤكدون عدم استعدادهم لعقد أي سلام أو صلح مع الصفويين، وتميزت الرسائل التي بعث بها السلطان سليمان القانوني في عام (٩٣١هـ/ ١٥٢٥م) إلى الشاه طهماسب الأول بشهرة واسعة حيث اختلط فيها التهديد بالسخرية[٥].

أما في الجنوب، فقد كان الحنين إلى العثمانيين يتخذ في البصرة وشرقي شبه جزيرة العرب، مظهراً أقوى، فنظر السكان هناك إلى العثمانيين على أنهم منقذين من عسف البرتغاليين الذين تعاونوا مع الصفويين، وأخضعوا الإمارات والمدن الساحلية، وعزَّزوا سيطرتهم على مضيق هرمز، وزادوا الضرائب المفروضة على عُمان والقطيف

---

(١) القزويني: ص٢٠. الأسترآبادي: ص٦٣.
(٢) Hammer: II, p21.
(٣) Ibid.
(٤) Ibid: pp21, 22.
(٥) Ibid: p18.

والبحرين ومسقط، وفرضوا رقابة على الجمارك، وظهروا في البصرة[١].

ونتيجة إحجام الشاه طهماسب الأول عن مواجهة العثمانيين، وسيطرة هؤلاء على الطرق التجارية التي استخدمها الأمراء المحليون في تنمية ثروتهم من تجارة الحرير، بدأ هؤلاء الحكام يتوجهون إلى إستانبول طالبين دعمها ومساعدتها، كما وصلت رسائل استغاثة من البصرة وبغداد[٢].

وحصلت في عام (٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م) انتفاضة في العراق الأوسط ضد الحكم الصفوي بقيادة ذي الفقار بك، رئيس قبيلة الموصلو الكردية. لقد استغل هذا الزعيم الكردي وفاة الشاه إسماعيل الأول وصغر سن الشاه طهماسب الأول، فزحف إلى بغداد وقتل حاكمها إبراهيم سلطان وطرد الصفويين، ودخل المدينة وسط تأييد السكان، وأقام سلطته على العراق الأوسط بكامله، ثم أعلن قطع كل علاقة مع الصفويين، وأرسل مفتاح بغداد إلى السلطان سليمان القانوني، ودعا له على المنابر ونقش اسمه على النقود العراقية[٣].

نتيجة لهذه الأوضاع قرَّر الشاه طهماسب الأول أن يستعيد سيطرة الصفويين على العراق، ما يضعه في مواجهة مباشرة مع السلطان العثماني سليمان القانوني، مدركاً في الوقت نفسه أنه لا يستطيع خوض هذه المواجهة منفرداً، لذلك التفت إلى أوروبا وبخاصة الامبراطورية الرومانية المقدسة والمجر، فبعث برسائل إلى ملكيهما شارل الخامس وفرديناند[٤]، يدعوهما إلى التحالف معه، وبذلك يُجبر السلطان العثماني على القتال على جبهتين ما يعطيه فرصة أفضل للانتصار عليه.

كان من الممكن أن ينجح هذا التحالف بين الطرفين الصفوي والأوروبي، إلا أن التنسيق بينهما بشأن القتال يبقى أمراً متعذراً نظراً:

- لبُعد المسافة بين إيران وأوروبا ووجود الحاجز العثماني.
- لعدم وجود سفارات منتظمة بين إيران والدول الأوروبية.
- لعدم إدراك أي من الحليفين حقيقة قدرات الطرف الآخر العسكرية.
- لانهماك الامبراطورية الرومانية المقدسة بالحرب مع فرنسا، وانشغال شارل

---

(١) إيڤانوف: ص٨٦، ٨٧.

(٢) العزاوي، عباس: **تاريخ العراق بين الاحتلالين ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦م** جـ٤ ص٨٧.

(٣) Longrigg. Stephen. H: **Four Centuries of Modern Iraq,** p23.

(٤) الواقع أن الأرشيدوق فرديناند قد انتُخب ملكاً على بوهيميا وكانت جزءاً من المجر، كما انتُخب في (ربيع الأول ٩٣٣هـ/ كانون الأول ١٥٢٦م) ملكاً على ما تبقى من المجر، فاجتمعت في قبضته ثلاث دول هي: النمسا، والمجر وبوهيميا.

الخامس بالمشكلات التي كان يواجهها من جانب البروتستانت.

استغل الشاه طهماسب الأول انهماك السلطان سليمان القانوني بحصار ڤيينا في عام (٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م)، فأعد قوة عسكرية هاجمت تبريز ودخلتها، وفرَّ حاكمها آلامة تكلو إلى إستانبول، ثم تحركت هذه القوة باتجاه العراق. ولم يتمكَّن ذو الفقار بك من الاحتفاظ بالسلطة حتى وصول الجيش العثماني، فاجتاحت البلاد، وسيطرت على بغداد بعد مقتل ذي الفقار بك على يد أشقائه الذين خانوه وذلك في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م). وعيَّن الشاه طهماسب الأول والياً جديداً على بغداد هو محمد خان تكلو سليل أسرة قبيلة القزلباش الذي أعاد بناء سلطة الصفويين هناك[١].

توجَّه السلطان سليمان القانوني إلى بغداد بعد انتصاره على الصفويين، وقد صرَّح بأن المدينة ملكه بفعل أن حاكمها ذو الفقار قد بعث إليه بمفاتيحها، وأن احتلالها من قِبَل الشاه طهماسب الأول هو تحدٍّ له.

استقبل السكان الجيش العثماني بالترحاب والسرور، وحصلت في بغداد انتفاضة ضد الحكم الصفوي تزعَّمها رجال الدين. أما الحاكم الصفوي محمد تكلو، فقد هرب من المدينة إلى إيران بطريق الحيلة في (٢١ جمادى الأولى ٩٤١هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١٥٣٤م)، ثم دخلها السلطان ظافراً[٢]. وأخذت المدن العراقية تُعلن انضمامها إلى سلطة الباب العالي، فدخل العراق الجنوبي في طاعة السلطان، وضمَّ العثمانيون البصرة والقطيف والبحرين[٣]، فسيطروا بذلك على إحدى الطرق التجارية المهمة التي تربط الشرق الأقصى بأوروبا بواسطة الخليج العربي، وبغداد والموصل وحلب أو بواسطة بغداد، دمشق وصيدا، وترتَّب على العثمانيين، نتيجة ذلك، مسؤوليات دفاعية جديدة، وبخاصة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي.

أقام السلطان في بغداد مدة أربعة أشهر رتَّب خلالها الإدارة الداخلية وأعاد للسنة نفوذهم القيادي السابق، كما أعاد بناء الأماكن السنية المقدسة، وعيَّن سليمان باشا، حاكم ديار بكر، والياً على بغداد[٤].

ولا بد من التأكيد أن تجديد الزعامة السنية لم يصاحبها اضطهاد ديني أو مذهبي، بل على العكس، فقد انتهج العثمانيون سياسة التسامح، وقدَّموا الحماية للشيعة من سكان بغداد كما قدَّموها لليهود والنصارى، وسرعان ما عرفت بغداد في ظل السلم

---

(١) إيڤانوف: ص٨٨.

(٢) بجوي، إبراهيم: **تاريخ بجوي** جـ١ ص١٧٣، ١٧٨، ١٧٩. الأسترآبادي: ص٦٤.

(٣) دخلت هذه البلاد تحت الحكم العثماني اعتباراً من عام (٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م) باستثناء الموصل.

(٤) رافق: ص٦٨.

العثماني ازدهاراً واضحاً، وأضحت البصرة بعد ذلك بسنوات، عثمانية، وأشرفت الدولة العثمانية على المحيط الهندي.

استغلَّ الشاه طهماسب الأول وجود السلطان سليمان الأول القانوني في بغداد، فاستعاد مدينة تبريز في (٢ جمادى الآخرة ٩٤١هـ/ ٩ كانون الأول ١٥٣٤م)، فاضطر السلطان للقيام بحملة أخرى استعاد خلالها المدينة، وخرج الشاه منها وأظهر جهاراً عدم رغبته الدخول في صراع مُسلَّح مع السلطان، ودخل هذا المدينة في (٤ محرم ٩٤٢هـ/ ٥ تموز ١٥٣٥م)، وبعد أن مكث فيها مدة خمسة عشر يوماً غادرها عائداً إلى إستانبول، فاستعادها الشاه مرة أخرى وقتل ألوند خان أفشار جزاء تقصيره في دفع العثمانيين عنها، وأقام الاحتفالات بهذه المناسبة[1].

تكتسب أهمية الحملة العثمانية في أنها ضمَّت العراق إلى الدولة العثمانية، وأبعدت الصفويين عن العالم العربي بصورة نهائية، وتأسست ولاية أرضروم، وتمَّ تأمين حدود الدولة مع القوقاز.

والواقع أن الضمَّ العثماني للعراق لم يقض نهائياً على الصراع الصفوي ـ العثماني، وظل الجانبان يتنافسان من أجل السيطرة النهائية على هذا البلد، وأضحى الصراع بينهما ظاهرة سائدة في القرن السادس عشر الميلادي.

الصراع على مناطق الأطراف

شكَّل التحرك الصفوي النشط باتجاه الأناضول دافعاً للسلطان سليمان القانوني للالتفات مُجدَّداً نحو الشرق، ذلك أن السلم كان مستتباً على الحدود الشرقية منذ حملة عامي (٩٤١ ـ ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥ ـ ١٥٣٦م)، لكن الدعاية الصفوية استمرت ناشطة لبث المذهب الشيعي في شرقي الأناضول. ولم تضع إجراءات السلطان الأمور في نصابها، ولهذا فإن خطر انحلال نفوذ الباب العالي في هذه المنطقة ظل قائماً. وأتاح صراع داخل العائلة الصفوية للسلطان فرصة للتحرك، فشنَّ الحرب بهدف دعم النفوذ العثماني.

وتأكدت ضرورة القيام بحملة أخرى ضد الصفويين عندما بدأ هؤلاء تنفيذ نشر مذهبهم بالقوة في شَروان شمالي أذربيجان وفي داغستان شرقي القوقاز. والمعروف أن الشاه طهماسب الأول بسط سيطرته على شَروان في عام (٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م) بعد

---

(١) الأسترآبادي: ص٦٦. محمد فريد بك: ص٢٢٣. كلو: ص١٥٨.

تذكر بعض المراجع أن السلطان عقد صلحاً مع الشاه بناء على طلب الأخير، فأخلى له مدينة تبريز لقاء تقديم الشاه الطاعة له. حليم: ص٩١. رافق: ص٦٨.

أن قضى على حاكمها شاه روخ الذي تمرد عليه وتوقف عن دفع الأموال المقرَّرة، وعيَّن أخاه القاص ميرزا حاكماً عليها. وقد تميزت هذه الولاية بميزتين:

الأولى: أنها إحدى أهم البلاد المنتجة للحرير.

الثانية: أنها تشكل عقدة المواصلات بين القوقاز وإيران.

كان القاص ميرزا رجلاً طموحاً، فتطلع إلى اعتلاء العرش الصفوي، لذلك نشبت الخلافات بينه وبين أخيه، وأعلن استقلاله في هذا الإقليم المهم ما دفع أخوه الشاه إلى تجريد حملة عسكرية ضده، لكنه استطاع أن يمتص نقمة أخيه بالعاطفة. فقد أرسل أمه وابنه يستعطفانه لثنيه عن الصدام به، فعفا الشاه عنه، لكن ما إن غادر المنطقة حتى أعلن القاص ميرزا استقلاله عن دولة أخيه وخطب لنفسه على المنابر وسكَّ النقود باسمه دلالة على هذا الاستقلال. فجهَّز الشاه جيشاً اصطدم به وألحق به الهزيمة، ففرَّ إلى بلاد العثمانيين والتحق بخدمة السلطان سليمان القانوني، وطلب منه المساعدة على غزو إيران، وعيَّن الشاه ابنه إسماعيل حاكماً على شَروان[1].

استغل السلطان سليمان القانوني هذه الفرصة التي سعت إليه، فأخذ يُعد العدة لإتمام مشروعه القاضي بالتوسع في عمق الأراضي الإيرانية بعد انقسام الأسرة الحاكمة في إيران، معتقداً بأنه امتلك مفاتيحها هذه المرة بوجود القاص ميرزا إلى جانبه، فأعدَّ حملة قادها بنفسه وسار بها إلى شَروان مصطحباً معه القاص ميرزا وعلي سلطان بن خليل، حاكم شَروان السابق، فدخلها منتصراً وعيَّن علي سلطان بن خليل حاكماً عليها، ثم توجَّه إلى تبريز بناء على إلحاح القاص ميرزا فدخلها مرة أخرى في (جمادى الآخرة ٩٥٤هـ/ تموز ١٥٤٧م) بعد أن انسحب الشاه طهماسب الأول منها، واستعاد قلعة وان الشهيرة، وفتح بلاد داغستان إلا أنه لم يصطدم بالشاه الذي انسحب بقواته باتجاه قزوين التي اتخذها عاصمة له بدلاً من تبريز لبُعدها عن مسرح العمليات العسكرية. وكلَّف السلطان القاص ميرزا بالاستيلاء على المدن الواقعة في عمق الأراضي الإيرانية، فاستولى على أصفهان والأهواز وشوشتر إلا أنه فشل في دخول دزفول، ثم عاد إلى بغداد، ويبدو أنه اغتر بهذه الفتوح، كما قام بسلسلة من الأعمال في بغداد، نفَّرت منه السلطان فساءت علاقته به، فأصدر السلطان أوامره بمحاربته، فباغته الجيش العثماني وانتصر عليه، فهام على وجهه في البلاد إلى أن وقع أسيراً بيد مجموعة من القزلباش حملته إلى أخيه الذي أمر بسجنه، ثم قتله في عام (٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م)[2]. وعلى الرغم

---

(١) پازوكي: ص٢٩٦. **تاريخ بجوي**: جـ١ ص٢٦٩، ٢٧٠. القزويني: ص٢٨.

(٢) پازوكي: المصدر نفسه. **تاريخ بجوي**: ص٢٧٦. الأسترآبادي: ص٧٢ ـ ٧٤. البدليسي: جـ٢ ص١٧٦، ١٧٧.

من انتهاء قضية القاص ميرزا على هذا الشكل، إلا أن قضية تمرده، أشعلت الحروب بين الجانبين قرابة عشرين شهراً. والجدير ذكره أن السلطان لم يتقدم إلى عمق الأراضي الإيرانية لأن الشاه لجأ مرة أخرى، قبل أن يغادر تبريز، إلى إحراق الغلال والأشجار على الطريق التي سلكها جيشه الأمر الذي أربكه وجعله عُرضة للهجمات المباغتة من الجانب الصفوي(١).

ثبَّتت هذه الحملة سلطة الباب العالي في شرق الأناضول، إلا أنها لم تؤد إلى الهدف الحقيقي وهو مواجهة الشاه في معركة سافرة والقضاء على الصفويين، لذلك استؤنفت الحرب في عام (٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م).

وكان الشاه قد أعاد تنظيم صفوف قواته مستفيداً من الوعي الشعبي المذهبي لدى الناس داخل إيران، وقد تدفق عليه الآلاف منهم للدفاع عن المذهب الشيعي الاثني عشري، وعهد إلى كل من: عبد الله خان استاجلو وبدرخان استاجلو وحسين قولي بك حاكم چخور سعد ومحمد خان موصلو تركماني وشاه وردي خان وزياد أوغلي حاكم قراباغ؛ بقيادة الجيوش(٢).

وبدأت العمليات العسكرية في (أواسط ٩٦٠هـ/ربيع ١٥٥٣م)، ففتح العثمانيون مدينتي روان ونهجوان التي تقع على الساحل الشمالي لنهر الرس وكانت مركز الولاية، وتمَّ تدمير إيروان وقراباغ. واجتاز العثمانيون بعد ذلك نهر الرس إلى جنوبي أذربيجان وضيَّقوا على الشاه. واستعاد الصفويون من جهتهم شَروان وأجزاء من أرمينيا مثل خلاط وأرغيش، واصطدموا مع إسكندر باشا حاكم ولاية أرزن العثمانية وتغلَّبوا عليه؛ وكانوا بقيادة إسماعيل ميرزا، أخو الشاه(٣).

وكان من الممكن أن تدوم هذه الحرب إلى ما لا نهاية وليس لها من نتيجة سوى إحداث الخراب، وقد أدرك الشاه ذلك فكان مستعداً لعقد الصلح، فأرسل رسالة إلى السلطان طلب فيها عقد صلح بين الجانبين لإنهاء حال الحرب التي طال أمدها، فرفض السلطان طلب الشاه لأن الصلح يتعارض مع مخططاته في استعادة مناطق الأطراف التي كانت بحوزة العثمانيين مؤخراً، وأعدَّ كتاباً شديد اللهجة للشاه ضمَّنه تهديداً وإعلاناً للحرب، وشرع في الزحف إلى أذربيجان.

صلح أماسيا

لم يكن السلطان سليمان القانوني بأفضل من قائده إسكندر باشا، فقد واجه

(١) الأسترآبادي: ص٧٢. صباغ: ص١٨٠، ١٨١.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٧.

(٣) **تاريخ بجوي**: جـ١ ص٢٧٥ ـ ٢٧٧. الأسترآبادي: ص٧٧.

صعوبات عدة، وأُسر قائده سنان باشا في إحدى المواجهات مع الصفويين، عندئذ عرض الصدر الأعظم محمد باشا على السلطان مسألة عقد الصلح مع الشاه مقابل الإفراج عن سنان باشا. وعندما عُرض أمر الصلح على الشاه وافق على شروط السلطان وأرسل مبعوثه شاه قولي، من زعماء قبيلة قاجار القزلباشية، إلى أماسيا حيث كان يعسكر السلطان، للتداول في أمر الصلح.

والواقع أن الطرفين كانا يرغبان في تحقيق نوع من الهدوء بينهما لمواجهة المشكلات الخاصة التي برزت في وجه كل منهما، فكانت الظروف مهيأة لعقد صلح أماسيا في (٨ رجب ٩٦٢هـ/ ٢٩ أيار ١٥٥٥م) وهو يكشف عن نية الجانبين وآمالهما، وقد نص الاتفاق على ما يلي:

- توضع ولايات أذربيجان الشرقية وأرمينيا الشرقية وكرجستان الشرقية تحت تصرف الدولة الصفوية، في حين توضع أرمينيا الغربية وكرجستان الغربية والعراق تحت تصرف الدولة العثمانية، وتكون ولاية قارص حداً فاصلاً بين الدولتين مع تبعيتها للدولة العثمانية.
- تُخطط حدود ولاية شهرزور، منعاً لوقوع الحوادث المعكِّرة لصفو السلام.
- تأمين سلامة الحجاج الإيرانيين الذاهبين إلى زيارة العتبات المقدسة الشيعية في العراق، وإلى الأراضي الإسلامية المقدسة في الحجاز.
- يعمل الطرفان على عدم إيواء كلٍّ من رجال الدولتين أو أفراد البيوت المالكة، وفي حال لجوئهم يعمل الطرف الآخر على تسليمهم إلى حكومات بلادهم(١).

يكشف لنا هذا الصلح على قِلَّة بنوده عن بعض الأسباب التي أدت إلى النزاعات بين الدولتين وهي:

- إن الدولة العثمانية كانت تسعى إلى تأمين وضع مستقر على حدودها شرقي الأناضول، وكانت قارص من القلاع الحصينة التي تعطي العثمانيين فرصاً أفضل لصدِّ الغزوات على حدودها الشرقية.
- إن مشكلة الحدود بين الدولتين كانت مثار أزمات متطاولة، وكانت أعقد هذه الأزمات، في بادئ الأمر، تخطيط الحدود الشمالية بين الجانبين في المناطق التي يسكنها الأكراد حيث ظهرت رغبة كل منهما في معرفة حدوده منعاً للتجاوز الذي يؤدي إلى إثارة الحرب مع قناعة الدولة العثمانية في استحالة القضاء على الدولة الصفوية كهدف استراتيجي، وقناعة الدولة الصفوية في عدم جدوى الاستمرار في

---

(١) **تاريخ بجوي**: جـ١ ص٢٧٧. ذبيح الله ثابتيان: ص١٢٤. بارسا دوست، منوچهر: **زمنية تاريخي اختلافات إيران وعراق**: ص٢٦، ٢٧.

معاداة العثمانيين، فكان أن خُطِّطت الحدود الفاصلة بين الجانبين.

- أدَّى توزيع مناطق الأطراف أن حصل الصفويون على الجهات القريبة منهم، فأمَّنوا بذلك حدود دولتهم، كما حصلوا على جزء من هذه المناطق ذات الوفرة في إنتاج الحرير لتغذية خزانتهم التي أرهقتها الحروب. وفي المقابل حصل العثمانيون على مركز تجمُّع الحرير، تبريز، بالإضافة إلى المناطق الاستراتيجية، وأضحى لهم موطئ قدم في مناطقِ إنتاج الحرير الإيراني بعد أن اتسع نفوذهم في تجارة المحيط الهندي إثر ضمِّ العراق إلى أملاكهم في عام (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م).

- تناول الصلح الجانب العقائدي الذي سمح فيه العثمانيون للصفويين بالحج إلى العتبات المقدسة وإلى مكة. والمعروف أن تأمين سلامة الحجاج الإيرانيين كانت من أسباب النزاع بين الطرفين، نظراً لاتهام الإيرانيين السلطات العثمانية الحاكمة، والسلطات المحلية في العراق، والعشائر العراقية، بابتزاز أموال هؤلاء الحجاج ومعاملتهم معاملة سيئة، مع أن العثمانيين كانوا يعاملونهم معاملة حسنة نظراً للاستفادة المادية التي كانت تُغذي الخزينة العثمانية، إلا أن أوضاع العراق العشائرية كانت تضايق قوافل الحجاج والقوافل التجارية من دون تمييز، وكان هذا يُحدث أثراً سيئاً لدى الإيرانيين.

وهكذا دخلت الدولتان الصفوية والعثمانية في مرحلة هدوء استمرت ثلاثاً وعشرين سنة.

التنازع الأسري في بلاد العثمانيين وأثره على صلح أماسيا

اتسمت العلاقة بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانوني بعد صلح أماسيا بالهدوء، وكان الطرفان ينشدان هذا الهدوء ليتفرغ كل منهما لمواجهة مشكلاته الكبرى المسؤول عنها، غير أن صلح أماسيا تعرَّض لأول اختبار جدِّي، وكان لذلك علاقة بالتنازع الأسري في بلاد العثمانيين. فقد أقدم السلطان سليمان القانوني في عام (٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م) على إجراء تشكيلات أميرية بين ولديه بايزيد وسليم، فعزل الأول عن حاكمية أماسيا وعيَّنه حاكماً على قونية، كما عزل الثاني عن حاكمية قونية وعيَّنه حاكماً على أماسيا، غير أن هذا التبديل في المناصب لم يوافق هوى بايزيد، فهاجم أخاه لمنعه من الوصول إلى مقر عمله الجديد، إلا أنه تعرَّض للهزيمة، وقد ساند الأب ابنه سليماً في هذا النزاع، واضطر بايزيد إلى الفرار إلى إيران عن طريق أرمينيا مع جنده البالغ عددهم عشرة آلاف وأربعة من أبنائه[1].

---

(١) البدليسي: جـ٢ ص١٨٨.

ويبدو أن الشاه طهماسب الأول أدّى دوراً في إذكاء حدة الخلاف بين الأخوين ليحقق غاية في نفسه وهي تعديل بنود صلح أماسيا بدليل:
- أنه استقبل بايزيد بالترحاب وبالغ في ذلك.
- وعد بايزيد بألا يسلمه إلى والده.
- عندما أرسل السلطان إلى الشاه يطلب منه تسليم ابنه، أبدى موافقة مشروطة وهي تعديل صلح أماسيا من واقع هدم قلعة قارص الاستراتيجية الواقعة بين ولاية أرضروم التركية وولاية أرمينيا الإيرانية.

كان بايزيد يتوقع أن يمده الشاه بقوة عسكرية تساعده على محاربة أبيه إلا أن الشاه لم ير في طلبه مصلحة لإيران، وقد أراد الاحتفاظ به لاتخاذه ورقة مساومة، فأرسل مبعوثاً إلى السلطان هو علي آغا المحارب كي يشفع لبايزيد، لكن سفارته فشلت، ما دفعه إلى اعتقاله كي لا تتوتر العلاقة بين الجانبين. ثم جرت مفاوضات بين الطرفين بشأن هذه المسألة استغرقت مدة عامين من عام (٩٦٨/ ١٥٦٠م) إلى عام (٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م)، أرسل السلطان خلالها مبعوثَيْه علي باشا حاكم مرعش وحسن آغا چاشني گرباجي مع هدية إلى قزوين تحت عنوان المحافظة على صلح أماسيا وتجنُّب وقوع حرب بين الجانبين. فرد الشاه بسفارة تحمل كتاباً يتضمن طلباً بحكومة بغداد مقابل ذلك، لكن السلطان رفض طلبه. وأرسل الشاه سفارة أخرى في السنة التالية حمَّلها رسالة طلب فيها أن توضع إمارتا النجف وكربلاء تحت إدارة أولاده، فرفض السلطان أيضاً هذا الطلب، فأردفها بسفارة ثالثة حملت كتاباً يطلب فيه الشاه تعديل صلح أماسيا أو إجراء صلح جديد، فلم يتلق إلا الرفض. وفي عام (٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م) وصل إلى قزوين وفد عثماني يحمل رسالة إلى الشاه تتضمَّن ثلاثة بنود هي:
- يقوم الشاه بتسليم بايزيد إلى أبيه.
- هدم قلعة قارص، بناء على طلبه.
- الإبقاء على صلح أماسيا.

وافق الشاه على هذا المخرج، فأمر بإطلاق سراح بايزيد وأولاده الأربعة وسلَّمهم إلى مندوبي السلطان الذين قتلوهم على مقربة من قزوين، ثم حملوا جثثهم إلى سيواس[(١)].

وهكذا تجاوز صلح أماسيا مأزق النقض، ومرَّت هذه القضية من دون أن تؤثر

---

(١) البدليسي: جـ٢ ص١٩٢، ١٩٣. البكري الصديقي، محمد بن أبي سرور: **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية**، وذيله: **اللطائف الربانية على المنح الرحمانية** ص١٠٧ - ١٠٩. الضابط، شاكر صابر: **العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وإيران** ص٢٠.

على العلاقة بين الطرفين، وكان لتصرف السلطان على هذا النحو أن تخطّى الأزمة التي كادت أن تعصف بالعلاقة السلمية بينهما.

ولا شك بأن الشاه طهماسب الأول سعد باستقرار العلاقة بينه وبين العثمانيين وبخاصة أن دولتهم كانت آنذاك شديدة البأس يخطب ودها ملوك وأمراء أوروبا، وتمتلك القدرة على المناورة في المعارك العسكرية بما تمتلكه من أسلحة متطورة، كالمدفعية والسفن العسكرية وفن الهندسة العسكرية، في حين كانت الدولة الصفوية لا تمتلك غير سلاح بدائي بالمقارنة مع أسلحة العثمانيين، وما تزال تُرسي دعائم المذهب الشيعي في أراضيها وتتعرض لأخطار داخلية وخارجية.

استمرار العلاقة الجيدة بين الصفويين والعثمانيين حتى وفاة الشاه طهماسب الأول

توفي السلطان سليمان القانوني في (محرم ٩٧٣هـ/آب ١٥٦٦م) وهو يحاصر مدينة سيجتوار في بلاد المجر على الحدود مع النمسا، وقد ترك دولة قوية واسعة الأرجاء، ثابتة الأركان، مهيبة الجانب، ويُعدُّ عهده من أزهى عهود الدولة العثمانية، وخلفه ابنه سليم الثاني (٩٧٣ ـ ٩٨٢/ ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م). وما إن اعتلى العرش حتى جاءته الوفود المهنئة من الغرب ومن الشرق تخطب وده. وأرسل الشاه طهماسب الأول وفداً كبيراً ضمَّ ثمانمائة رجل برئاسة شاه قولي خان مع هدايا نفيسة، فاستقبلهم وفد عثماني في أرضروم ضمَّ ثمانية آلاف فارس ورافقهم حتى أدرنة حيث يقيم السلطان الذي استقبلهم بدوره بأبهة ملفتة، وقدَّم رئيس الوفد الهدايا للسلطان بعد أن هنَّأه بجلوسه على العرش[١].

وبعد أن أقام سفير الشاه مدة في ضيافة الصدر الأعظم التقى السلطان مرة ثانية وتسلَّم منه رسالة ودية وهدايا إلى الشاه، وقبل أن يغادر الأراضي العثمانية عائداً إلى بلاده حصل من الحكومة العثمانية على تجديد المصادقة على صلح أماسيا، فحملها السفير وقدَّمها إلى مولاه في قزوين[٢].

وما جرى من فتح العثمانيين جزيرة قبرص في عام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) التابعة للبنادقة؛ توجَّه هؤلاء إلى الصفويين للتحالف معهم ضد العثمانيين، فأرسلوا سفيراً إلى قزوين من أجل ذلك، إلا أن الشاه رفض فكرة التحالف مع الغرب الأوروبي لضرب العثمانيين احتراماً منه لصلح أماسيا والصداقة التي تربطه بالسلطان العثماني.

---

(١) ثابتيان: ص١٤١، ١٤٢.

(٢) هامر: جـ٢ ص١٣٧٠ ـ ١٣٧٢. الأستراَبادي: ص٩٠. الضابط: ص٢١.

وفي عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م) توفي السلطان سليم الثاني وخلفه ابنه مراد الثالث (٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م). وما إن علم الشاه طهماسب الأول بذلك حتى أعدَّ وفداً رفيع المستوى برئاسة تقماق خان استاجلو ورافقه مائتان وخمسون رجلاً مع هدايا كثيرة حُملت على خمسمائة جمل، فقدَّمها إلى السلطان الجديد، وسلَّمه رسالة الشاه التي تضمَّنت تعازيه بوفاة والده وتهانيه بمناسبة جلوسه على العرش، كما تضمَّنت طلباً للشاه رجا فيه السلطان مراد الثالث أن يساند ابنه وولي عهده حيدر ميرزا، بعد وفاته، ويبدو أن التنازع الأسري اشتد في أواخر أيامه، فأراد أن يضمن له السلطة، فوافق السلطان على ذلك[١].

وبوفاة الشاه طهماسب الأول أسدل الستار على مرحلة الهدوء التي سادت بين الطرفين منذ صلح أماسيا.

التعاون الصفوي ـ المغولي في الصراع على أفغانستان والهند

خلال الصراع على الهند بين المغول بقيادة همايون بن بابر والأفغان بقيادة شيرشاه، تعرَّض الأول لهزيمة قاسية على يد خصمه في معركة قنَّوج في (١٠ محرم ٩٤٧هـ/ ١٧ أيار ١٥٤٠م) واضطر أن يخرج من الهند، فالتجأ إلى إيران ونزل ضيفاً على الشاه طهماسب الأول الذي أكرمه وأحسن ضيافته[٢].

الواقع أن همايون ذهب بعد هزيمته إلى أكرا في طريقه إلى كشمير، فاعترضه أخوه كمران حاكم بلاد الأفغان، فتحول إلى السند وهو في حال بائسة لا يجد من يأويه، وإخوته ما زالوا يأتمرون به، كما تخلَّى عنه معظم رجاله، ولم ينقذه سوى أمير جهكر الذي قدَّم له ثلاثين قارباً وعشرة آلاف مثقال وألفي حمل من الغلال وثلاثمائة جمل[٣].

وتقدم همايون نحو قندهار، ولما وصل إليها علم بأن أخاه كمران خرج إليه ليأسره، فراح يفكر عن ملجأ آخر يأوي إليه، فغادر قندهار ميمماً وجهه صوب إيران بعد أن أعلم الشاه طهماسب الأول بنيته لزيارته، وترك زوجته وابنه في قندهار، وصحبه مستشاره بيرم خان[٤].

وصل همايون إلى سيستان في طريقه إلى قزوين فاستقبله نائب الشاه طهماسب

---

(١) مهدوي: ص٤١، ٤٢.

(٢) بداوني، عبد القادر ملوك شاه: **منتخب التواريخ** جـ١ ص٣٥٥. بخشي، نظام الدين أحمد: **المسلمون في الهند** جـ١ ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) بخشي: جـ١ ص٣٠٨، ٣٠٩.

(٤) المصدر نفسه: ص٣١٥ ـ ٣١٧.

الأول مرحباً، وعندما وصل إلى هراة رحَّب به محمود ميرزا، أكبر أولاد العاهل تيمورلنك، وبقي نواب الشاه على المدن يبالغون في الحفاوة به على طول الطريق بأمر من الشاه حتى بلغ نواحي قزوين، فاجتمع بالشاه الذي عرض عليه المساعدة مقابل أن يتحول إلى المذهب الشيعي ويعطيه قندهار عندما يستولي عليها(١).

امتعض همايون في بادئ الأمر من العرض الصفوي، ولكنه نزل عند نصيحة مستشاره بيرم خان الشيعي المذهب، وقَبِل أن يُغيِّر مذهبه، والراجح أنه تظاهر بالتشيع طمعاً في تلقي المساعدة من الشاه، كما وافق على منحه قندهار. وقد أفاض همايون أمام الشاه ما لاقاه من إخوته الذين تنكروا له حتى خشي بهرام أخو الشاه أن يُقدم أخوه على التخلص من إخوته اقتداء به، فحرَّض أخاه على قتله بحجة الانتقام من تقاعس والده بابر عن مساعدة الصفويين في قتالهم الأوزبك عند نخشب أيام الشاه إسماعيل الأول، فتدخلت أخت الشاه سلطان بيكم في هذا الأمر، واستطاعت بحكمتها أن تُحبط هذا التدبير(٢).

وأقام الشاه احتفالات ضخمة احتفاء بهذه المناسبة خلَّد ذكرها على صورة جدران نُقشت في جوسق چهل في أصفهان تجمعه وهمايون(٣).

ظل همايون في إيران يراقب تطور الأوضاع في الهند وأفغانستان حيث خلفاء شير شاه يتنازعون الملك فيما بينهم، ويحكم إخوته في أفغانستان، فقرَّر أن يستعيد حكمه، وبدأ بأفغانستان، فأمدَّه الشاه طهماسب الأول بأربعة عشر ألف جندي من القزلباش، زحف بهم إلى قندهار، فاستعادها من أخيه كمران، وسلَّمها إلى مراد خان ابن الشاه طهماسب الأول وفقاً للاتفاق المسبق، كما قتل أخاه هندال(٤).

وطلب همايون من مراد خان أن يقضي الشتاء في قندهار، فرفض، ويبدو أنه خشي من بقائه في المدينة ما دفع همايون إلى اقتحامها عنوة، وتعهد لمراد خان بردها إليه ثانية إذا ما نجح في الاستيلاء على كابل وبدخشان. وما لبث الأمير الصفوي أن وافته منيته فبقيت المدينة بأيدي همايون، واستطاع أن يقضي نهائياً على المتاعب التي أثارها إخوته بتخليهم عن مساعدته ومداومتهم على التآمر ضده والتي أدَّت إلى خروجه من الهند، وتفرَّغ لاستعادة ملكه في هذا البلد، وأدَّى مستشاره بيرم خان دوراً رئيساً في ذلك، فدخل دلهي وأكرا، وأنعم عليه بلقب خان خانان أي

---

(١) بخشي: جـ١ ص٣١٧، ٣١٨. Ferista: II, pp95, 96.

(٢) المصدر نفسه: ص٣١٨، ٣١٩. بداوني: جـ١ ص٤٤٤.

(٣) بخش: أحمد تاج: **إيران درزمان صفوية ص٤٠.**

(٤) بخشي: جـ١ ص٣١٨، ٣١٩. Ferista: II, p96.

أمير الأمراء وعيَّنه مستشاراً لابنه أكبر[1].

وهكذا حقَّق التعاون المثمر بين الصفويين والمغول بقيادة همايون إلى تحقيق آمال هذا الأخير في استعادة ملكه.

العلاقات مع الدول الأوروبية

نتيجة لتغير الظروف السياسية، كان الشاه طهماسب الأول أقل رغبة من أبيه إسماعيل الأول في تدعيم علاقاته مع الدول الأوروبية. فقد انتهى الصراع بينه وبين السلطان سليمان القانوني بعقد صلح أماسيا وساد الهدوء ساحة الدولتين الصفوية والعثمانية، وبدأت الرسائل المتبادلة بين العاهلين تتخذ منحى سلمياً قائماً على الاحترام المتبادل. لكن الشاه استثنى البرتغال، فاستمر في تحسين العلاقة معها حتى قبل وفاته بقليل، وهي القابعة على حدوده الجنوبية. وفي عام (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) أرسل ملك البرتغال سباستيان سفارة إلى الشاه من أجل التنسيق التجاري بينهما، فاستقبل أعضاءها بحفاوة بالغة، ثم اقتضى التطور السياسي والتجاري في الخليج العربي، من واقع مقاومة سكان هرمز للوجود البرتغالي في بلادهم وبداية التدخل الإنكليزي والروسي في التجارة الشرقية الجنوبية؛ إرسال سفارة ثانية في عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م). كذلك، أرسلت الملكة أليزابيت ملكة بريطانيا بالاتفاق مع روسيا وفداً يمثل شركة التجارة الإنكليزية برئاسة أنطوني جانكسون إلى إيران بهدف التعاون التجاري بين الجانبين، ولكن الشاه الذي كان يُفضل التعامل مع البرتغاليين واقتباس الحضارة الأوروبية بواسطتهم، رفض العرض الإنكليزي ـ الروسي، واستقبل أعضاء السفارة بفتور[2].

وفاة الشاه طهماسب الأول

دخلت إيران في أواخر عهد الشاه طهماسب الأول في فوضى الصراع الأسري على العرش[3]، وانقسم قادة القزلباش إلى فريقين، ضمَّ الأول قادة روملو وأفشار وتكلو وشركس، وقد ساندوا إسماعيل ميرزا، في حين ضمَّ الثاني قادة استاجلو الذين تربطهم علاقة سيئة بإسماعيل، وقد خشوا من بطشه بهم إذا تولى العرش، لذلك ساندوا حيدر ميرزا، الابن الثالث للشاه[4].

---

(١) بخشي: جـ١ ص٣٣٢ ـ ٣٣٥.

(٢) حسن روملو: ص٤٥٥ ـ ٤٥٩. بازوكي: ص٣٠٢.

(٣) أنجب الشاه طهماسب الأول اثني عشر ولداً أكبرهم محمد ميرزا وسبع بنات.

(٤) كان بين قبائل روملو وأفشار وتركمان وتكلو وبين قبائل استاجلو وقاجار، عداوة قديمة، =

كان رئيس الاستاجلو آنذاك حسين بك يوزباشي وهو الوصي على مصطفى ميرزا أحد أبناء الشاه، وكان الشاه يثق به ويشركه في إدارة شؤون الدولة، فقرَّر ترشيح حيدر ميرزا ولياً للعهد. وحتى يُقوي موقفه اتصل بكل من صدر الدين خان الصفوي رئيس طائفة شيخاوند، وحكام الكرج أقرباء حيدر ميرزا من ناحية الأم[١] وأمراء طائفة قاجار الذين يملكون إقطاعات في هذا البلد، وطلب منهم توحيد الجهود من أجل ترشيح حيدر ميرزا ولياً للعهد[٢].

وفي المقابل، رأى رؤساء روملو وأفشار وتركمان وتكلو وشركس برئاسة حسين قولي نائب الشاه، أن ولاية العهد حق لإسماعيل ميرزا الابن الثاني للشاه طهماسب الأول بفعل أن شقيقه الأكبر محمد ميرزا كان قد كُفَّ بصره ولم يعد صالحاً لتولي الملك[٣].

وظل الفريقان يعملان سراً لتحقيق غايتيهما. وفي عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٦م) مرض الشاه طهماسب الأول مرضاً شديداً، فأسرع كل فريق إلى الجهر بموقفه من ولاية العهد من دون الالتفات إلى رأي الشاه الذي رأى بعد إبلاله من مرضه اختيار ابنه حيدر ميرزا لهذا المنصب، لكن پريخان خانم الابنة الثانية للشاه، وكانت أثيرة عند والدها، عارضت هذا التوجه وأقنعت والدها بتعيين شقيقها سليمان ميرزا. ويبدو أن الشاه تأثر برأي ابنته فأحضره إلى قزوين وشرع يدربه على الأعمال الحكومية، وأبعد أنصار حيدر ميرزا وعلى رأسهم حسين بك يوزباشي[٤].

وتوفي الشاه طهماسب الأول في هذا الجو السياسي المضطرب يوم الثلاثاء (١٥ صفر ٩٨٤هـ/ ١٤ أيار ١٥٧٦م) عن عمر يناهز الأربع والستين عاماً، وقد حكم ثلاثاً وخمسين عاماً[٥].

أهمية الشاه طهماسب الأول

حكم الشاه طهماسب الأول مدة أطول من أي حاكم صفوي، ومع أنه لا يُقارن

= ولذلك خالفت مجموعة القبائل الأولى ترشيح حيدر ميرزا ولياً للعهد. وقد أيَّد هذه المعارضة الأمراء الشراكسة الذين يرتبطون بصلة القرابة مع پريخان خانم من ناحية الأم، واتفقوا معها على تأييد ترشيح إسماعيل ولياً للعهد. جمعة والخولي: جـ١ ص١٤٢ هامش رقم ١.

(١) أمه سلطان زادة خانم الكرجية.
(٢) الأسترآبادي: ص٩١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) هناك روايتان في سبب موت الشاه طهماسب، تذكر الأولى أن جزءاً من أعضائه السفلية قد جرح بفعل الماس المطحون الذي خلطه أحد أطبائه، واسمه أبو نصر الجيلاني، بالمحك الذي يستخدمه الشاه في الاستحمام، فزادت الآلام عليه وأدت إلى وفاته. وتذكر الثانية أن الشاه توفي مسموماً بتحريض من زوجته سلطان زادة خانم الكرجية ووالدة حيدر ميرزا. الأسترآبادي: ص٩٣.

من ناحية كفاءته وإدارته وفتوحه بوالده الشاه إسماعيل الأول، إلا أنه حافظ على مكتسبات الدولة من الضياع، وصدَّ هجمات أعدائها.

اتصف الشاه بالصبر على الشدائد وتحمُّل المشاق، استقطب طوائف القزلباش لكبح جماحهم والاستفادة منهم في الدفاع عن مملكته، وكان هؤلاء قد بدأوا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية وهو ليس من اختصاصهم، فأنعم عليهم بالمناصب وأغدق عليهم الأموال والممتلكات، وكان يُشتتهم في أنحاء البلاد لإضعافهم ويسجنهم ويقتلهم حيناً، ويتجاهل تصرفاتهم أو يقف منها موقف المتفرج حيناً آخر.

تقرَّب الشاه من الرعية، وحسَّن أوضاعها وهي التي كانت تسانده في الدفاع عن المذهب الشيعي ضد الخطر المتمثل بالمعسكر السني، العثماني والأوزبكي، فخفَّض عنها الضرائب التي كانت تتحملها منفردة.

ورعى الشاه الناحية المذهبية، فاتخذ إجراءات عدة تخدم القضية الصفوية وتُذكي الحماس الديني في نفوس أتباعه وتُثبِّت فيهم العقيدة الدينية، نذكر منها:

- جمع حوله صفوة مختارة من رجال الدين الذين تفقَّهوا في الفكر الشيعي، مثل الشيخ علي المنشار وعبد الله الشوشتري وميرزا خان الشيرازي وغيرهم[(١)].

- أمر أبا الفتح الحسيني بإعادة تنقيح كتاب صفوة الصفا لابن بزاز الذي كتبه في عهد الشيخ صدر الدين موسى، مع التصرف فيه من واقع الإشارة إلى سيادة الشيخ صفي الدين الأردبيلي واتصال نَسَبه بالحسين بن علي بن أبي طالب.

- ادعى السيادة بصفة رسمية، فقد أطلق على نفسه طهماسب الصفوي الحسيني الموسوي، وذلك بهدف ترويج المذهب الشيعي، ومدح الأئمة الذين يسمون فوق كل اعتبار، والبعيدون عن الشبهات، ونهى عن مدح الحكام والمبالغة في تصوير مكانتهم[(٢)].

كان الشاه بعيد النظر من الناحية السياسية بدليل أنه استقبل في بلاطه، خلال مراحل حياته، الفارين من بلادهم لاستخدامهم ورقة ضغط، مثل بايزيد ابن السلطان سليمان القانوني الذي حقَّق من خلاله الصلح مع العثمانيين وتجنَّب بأسهم الشديد، وهمايون الذي حقَّق من خلال مساعدته أمرين:

الأول: مدَّ نفوذ الصفويين المعنوي إلى بلاد الهند الأمر الذي ساهم في تدعيم الكيان الصفوي.

الثاني: جعل هذا النفوذ قبائل الأوزبك، التي وقعت بين شقي الرحى المغولي في الهند والصفوي في إيران وخراسان؛ تُحجم عن شن هجمات واسعة على الأراضي الصفوية.

---

(١) منشي: ص١٥٤ ـ ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ص١٧٨.

كانت علاقات الشاه بالأوروبيين جيدة إلا أنه لم يحاول أن يتحالف معهم ضد العثمانيين كما فعل أبوه من قبل، وقد فضَّل حل خلافاته معهم بطريق التفاهم والحوار، ولم يشهد عهده أي وجود لهؤلاء في بلاده.

اتصف الشاه بالحرص والوسوسة، من ذلك أنه لم يكن يسمح لوزير أن يصرف مالاً من دون إذنه، كما كان يَعدُّ أكثر الأشياء نجسة، ولم يكن يأكل طعاماً في مجلس، وعلى الرغم من كثرة الحروب التي خاضها، فإنه كان يخشى ويلاتها وآثارها[1].

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٣٣.

الشاه إسماعيل الثاني

٩٨٤ ـ ٩٨٥هـ/ ١٥٧٦ ـ ١٥٧٧م

ظروف اعتلاء الشاه إسماعيل الثاني العرش الصفوي

في الوقت الذي توفي فيه الشاه طهماسب الأول، دخل عليه ابنه حيدر ووضع التاج على رأسه بناء لأمر منه أو نتيجة لنصيحة والدته أو أعوانه من قبيلة استاجلو وأعلن نفسه ملكاً على إيران، وأبرز بعد ذلك وصية ممهورة بخاتم والده المتوفى تُثبت أنه اختاره ولياً لعهده[١]، لكن تعذَّر عليه الخروج من القصر أو الاتصال بأتباعه لأن الحرس كانوا من طوائف روملو وأفشار وبيات القزلباشية المؤيدة لأخيه إسماعيل، فتزيا بزي امرأة وحاول الهرب متخلياً عن حلمه بالملك، لكن اكتُشف أمره وقُتل. وبذلك انتهى هذا الأمير كمنافس قوي لإسماعيل في الصراع على العرش، وقوي في المقابل، موقف الأخير الذي كان لا يزال مسجوناً في قلعة قهقهة الحصينة، والمعروف أن والده سجنه فيها لإبعاده عن ممارسة الحكم مبكراً بسبب قسوته وعناده، وما إن علم بالتطورات المستجدة في قزوين حتى سيطر على القلعة بمساعدة أنصاره مستغلاً غياب حاكمها خليفة أنصار قراداغلو في رحلة صيد، ثم غادرها في (٢٢ صفر ٩٨٤هـ/ ٢١ أيار ١٥٧٦م) قاصداً أردبيل لزيارة مقابر أجداده، ثم توجَّه إلى العاصمة قزوين فوصل إليها في (١٧ ربيع الأول/ ١٤ حزيران) إلا أنه لم يدخل إلى القصر الملكي وذلك بناء على رأي المنجمين الذين حدَّدوا موعد تتويجه في (٢٧ جمادى الأولى/ ٢٢ آب)، وأقام في منزل حسين قولي، خليفة الخلفاء، نائب السلطنة، ومنزل أخته پريخان خانم، وكانا من مناصريه. وعندما حان الموعد الذي حدَّده المنجمون، تُوِّج إسماعيل ملكاً على إيران في قاعة چهل ستون بالقصر الملكي بقزوين تحت اسم إسماعيل الثاني[٢].

---

(١) القزويني: ص٣٣.

(٢) الأسترآبادي: ص٩٥، ٩٦. روملو: ص٤٧٧. فلسفي: جـ١ ص٤٢.

ويبدو أن المدة الطويلة التي قضاها الشاه في السجن والبالغة عشرين عاماً، أثَّرت على نفسيته وانعكست على أفعاله، فزادته قسوة وعناداً، أو أنه تأثَّر بما كان يجري في بلاد العثمانيين من إقدام السلطان الحاكم على التخلص من إخوته حتى لا ينافسوه على السلطة، وما حقَّقته هذه الظاهرة من الاستقرار السياسي؛ فما إن تحقَّق أمله باعتلاء العرش، لم يُبق على أخ أو صديق خشية على نفسه، وأطاح بكل من وقف في طريقه، فقتل إخوته مصطفى المؤيد لحيدر، وسليمان شقيق پريخان خانم، وقولي وأحمد، وأولادهم، وأغلب الأمراء الصفويين ممن لهم الحق بادعاء السلطنة، ولم يُبق على قيد الحياة سوى شقيقه الأكبر محمد خدابندة الكفيف البصر وأولاده. ولكن سرعان ما تغلَّبت عليه طبيعته القاسية، فقتل حسين، الابن الأكبر لمحمد خدابندة، وهدَّد هذا الأخير مع أولاده. وما جرى في (رجب ٩٨٥هـ/ أيلول ١٥٧٧م) من إنجابه لولد سمَّاه محمداً، أن ازداد تعطشه إلى سفك الدماء من واقع التخلص ممن تبقَّى من الأمراء الصفويين خشية أن ينافس أحدهم ابنه على العرش في المستقبل، فأمر علي قولي بك كوركان، أحد قادة طائفة شاملو القزلباشية، بقتل عباس ابن أخيه محمد خدابندة[(١)].

وراح الشاه يُسيئ الظن حتى بأقرب المقربين إليه، فقبض على حسين قولي ووضعه في الإقامة الجبرية، وسمل عينيه، ومنع أخته پريخان خانم من التدخل في شؤون الحكم، وقتل كل الذين ساندوا أخاه حيدر، وطال القتل طائفة الصوفية التي كان أفرادها متمسكين بالتعاليم الروحية التي خلَّفها الآباء الأوائل، بحجة أنهم:

- عدُّوا الملك الصفوي مرشداً كاملاً ولم ينظروا إليه كملك مُتوَّج.
- ارتبطوا بحسين قولي الموضوع في الإقامة الجبرية.

كما قتل ما يقارب من ثلاثين ألفاً من قادة أبيه ورجال حاشيته.

تمَّت كل هذه المذابح في مدة لا تزيد عن ثمانية عشر شهراً وهي مدة حكمه الدموي، والملفت أن الشاه كان يُعدُّ نفسه عادلاً ورؤوفاً، فكان يوقع أوامره بالعادل ويتخلَّص في شعره بعادلي.

نزعات الشاه إسماعيل الثاني الدينية

مال الشاه إسماعيل الثاني خلال حياته السياسية إلى اعتناق المذهب السني، ولا تزال هذه الخطوة غامضة على الرغم من أنه لم يجاهر باعتناق هذا المذهب، إلا أن نشاطه والتدابير التي اتخذها تدل على ذلك، إذ شرع في الحد من سطوة علماء

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٤٣، ٤٤، ٥٣.

الدين الشيعة، ومنع الشعارات المناهضة للمذهب السني التي كانت سبباً في اختلاف الطرفين ودافعاً إلى إراقة الدماء[1]، وانتقد في مجالسه العداء المذهبي بين السنَّة والشيعة، ولعْن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أبي بكر وعمر وعثمان بالإضافة إلى عائشة، وعمد إلى إبعاد عدد من علماء الشيعة المتشددين عن بلاطه وقرَّب في المقابل عدداً من علماء السنة وعلى رأسهم مخدوم شريفي، واتخذهم مستشارين، ثم أمر بوقف لعن هؤلاء الخلفاء في المساجد والطرقات والمجتمعات، وتوعَّد كل مخالف بالعقاب، وخصَّص مبلغاً من المال لمن يمتنع عن لعنهم، كما أمر بإزالة الشعارات والعبارات التي تتضمَّن سباً للخلفاء أو مدحاً لعلي من سائر الأماكن[2]، غير أنه لم يفرض هذا المذهب على شعبه وإنما ترك الحرية ليتصرف كل شخص حسب سنيته أو شيعيته من دون أن يتعرَّض أحدهم للآخر في العقيدة.

أثارت هذه المحاولة في التغيير المذهبي، الشيعة في إيران وبخاصة رؤوساء تركمان وتكلو، وكانوا يسيطرون على أهم مناصب الدولة، فاجتمعوا وناقشوا توجُّه الشاه الجديد وقرَّروا خلعه عن الحكم وتنصيب ابن شقيقه محمد ويُدعى حسن ميرزا على العرش إذا لم يتراجع عن خطوته، واختاروا وفداً ليبلِّغوه هذا القرار تألَّف من أمير خان موصلو تركماني وحسيب خان تكلو[3]، غير أن أحد الذين اشتركوا في الاجتماع، والراجح أنه خليفة أنصار قراداغلو حاكم قلعة قهقهة، حذَّر الشاه من مؤامرة يحيكها قادة هاتين الطائفتين، وقد أراد أن يُعوِّض ما ارتكبه في حقه أثناء سجنه في القلعة، ويُثبت له إخلاصه ووفاءه.

غضب الشاه إسماعيل الثاني عندما سمع بهذا الخبر، فاستدعاهم وهدَّدهم، فأنكروا ما نُسب إليهم، وأمر بقتل حسن، فقُتل خنقاً في طهران وهو لم يزل صبياً في التاسعة عشرة من عمره[4].

والراجح أن اختيار حسن بن محمد لتنصيبه ملكاً من جانب رؤساء الطائفتين لم يكن ناتجاً عن تشدُّد هؤلاء للمذهب الشيعي بقدر ما نشأ عن رغبة مادية في استعادة نفوذهم الذي أطاح به الشاه إسماعيل الثاني، والمعروف أن بعض زعماء القزلباش قد تخلوا في أكثر من مناسبة عن مذهبهم الشيعي طمعاً في الحياة المادية، وانسلخوا عن تبعيتهم للمرشد الكامل، أي الشاه الصفوي، وانضموا إلى المعسكر العثماني[5].

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٤٩.
(٢) البدليسي: جـ١ ص٥٨١. الأسترآبادي: ص٩٨.
(٣) فلسفي: جـ١ ص٤٩، ٥٠. (٤) المصدر نفسه.
(٥) جمعة والخولي: جـ١ ص١٥٦.

وفَقَدَ الشاه إسماعيل الثاني ثقته في زعماء الطائفتين وعاد إلى الاعتماد على أعدائه القدامى رؤساء طائفة استاجلو، فعيَّنهم في المناصب الرئيسة في الدولة وبدأ يتراجع عن اندفاعه في المجاهرة بالمذهب السني، إرضاء لرغبة رجال القزلباش وتخفيفاً من تململ شعبه، فأبعد علماء السنة من البلاط كي لا يتعرَّضوا لخطر الاعتداء عليهم من جانب المتشددين الشيعة. وأضاف إلى السكة هذا البيت من الشعر:

زمشرق تابه مغرب گر إمامست علي وآل أو مارا تمامست[1]

وعلى هذا الشكل تجاوز الشاه إسماعيل الثاني مأزق الخلع والقتل، وتُعد خطوته ومضة في تاريخ الصفويين.

وفاة الشاه إسماعيل الثاني

كان طبيعياً أن لا ينج الشاه إسماعيل الثاني من مؤامرات القزلباش بسبب سوء سيرته وإدمانه على الشرب وتعاطيه الأفيون، ودخلت أخته پريخان على خط التخلص منه، وقد أساءها أن يعاملها بقسوة وهي صاحبة الفضل في تنصيبه على العرش. فقد جرَّدها من ثروتها وأبعد عنها غلمانها وجواريها، ومنعها من مقابلة زعماء المملكة، وفرض عليها العزلة التامة، ولم يتوان عن قتل شقيقها سليمان، فاتفقت مع أمير خان وعدد آخر من قادة القزلباش، مثل حسيب خان ومحمد خان وخليل خان وخالها شمخال خان، على أن يتخلَّصوا منه وأقسموا على ذلك، فسموه في حبات الأفيون بواسطة امرأة كان قد ضمَّها إلى عشيقاته بعد مقتل زوجها، ثم دخلوا عليه وقتلوه في (١٣ رمضان ٩٨٥هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ١٥٧٧م)، فمات عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين عاماً قضى منها ما يناهز العشرين عاماً سجيناً في قلعة قهقهة وحكم ثمانية عشر شهراً[2].

---

(١) الأسترآبادي: ص١٠٠. وتعريب البيت: إذا كان لنا من إمام من المشرق حتى المغرب فهو علي وآله بالتمام.

(٢) الأسترآبادي: ص١٠٠، ١٠١. فلسفي: جـ١ ص٥١ ـ ٥٤.

الشاه محمد خدابندة

٩٨٥ ـ ٩٩٦هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٥٨٨م

اعتلاء الشاه محمد خدابندة العرش الصفوي

اجتمع أركان الدولة بعد وفاة الشاه إسماعيل الثاني للتشاور فيمن يختارونه لتولي العرش الصفوي، وقد تعدَّدت الاقتراحات، فرشح سلطان قلخانجي أوغلي ذو القدر حاكم إقليم فارس، أبا الفوارس شجاع، الابن الرضيع للشاه المتوفي، وكان وصياً عليه، على أن تتولَّى پريخان خانم البالغة من العمر ثلاثين عاماً، إدارة شؤون الدولة حتى يبلغ سن الرشد، وأن تُضرب السكة باسمه ويُخطب له على المنابر، ويحصل هو على نائب السلطنة، أي خليفة الخلفاء. الواقع أن هذا الاقتراح لم يحظ بالموافقة المطلوبة، فقد عارضه معظم قادة القزلباش الذين رشَّحوا محمد خدابندة الابن الأكبر للسلطان طهماسب الأول، ولما كان هذا كفيفاً، رأى بعض القادة اختيار أحد أبنائه.

وتغلَّب الرأي الثاني، فاختير محمد خدابندة لتولي العرش الصفوي، وأقسم الجميع على ذلك. ووافقت پريخان خانم على هذا الاختيار لكنها اشترطت أن تدير هي الأمور وأن يكتفي محمد خدابندة بالاسم واللقب، فوافق القادة على ذلك، وتم الاتفاق.

كان محمد خدابندة يعيش آنذاك في شيراز، فجلس على العرش في (٤ ذي الحجة ٩٨٥هـ/ ١٢ شباط ١٥٧٨م)[١] ثم ذهب إلى قزوين، وعُرف باسم خدابندة واشتهر به[٢].

الأوضاع الداخلية

تمهيد

لم يكن الشاه محمد خدابندة جديراً بتولي مسؤولية الحكم في الدولة الصفوية

---

(١) القزويني: ص٣٥. الأسترآبادي: ص١٠٢.

(٢) خدابندة: يعني عبد الله، ويبدو أن محمداً هذا كان ضعيف العقيدة الدينية، ولم يتمسك بقِيَمه التي عُرفت عنه كعابد لله.

التي كانت بحاجة إلى رجل قدير يُدعم كيانها ويُدعِّم أركانها وينتشلها من الفوضى التي ألمت بها نتيجة المجازر التي ارتكبها الشاه إسماعيل الثاني بحق إخوته وسائر الأمراء، فقد شهدت الأوضاع الداخلية مزيداً من التفكُّك في ظل حكم هذا الشاه بسبب سوء إدارته وتدخل النساء في شؤون الدولة، وعانت من التنازع الأسري وصراعات طوائف القزلباش بسبب التنافس على تبوُّؤ المناصب القيادية، وبدا مستقبل إيران كئيباً، وتعرَّضت البلاد لغزو خارجي عثماني أسفر عن توسع العثمانيين في أرمينيا وأذربيجان.

تدخل زوجة الشاه في الشؤون العامة

استغلت مهد عليا خير النساء بيكم، زوجة الشاه محمد خدابندة، فرصة ضعف نظر زوجها حتى الكفاف، فراحت تتدخل في شؤون الدولة، وشرعت تعزل وتُنصِّب الحكام والولاة والقادة العسكريين حتى قبل أن يصل زوجها إلى العاصمة قزوين قادماً من شيراز، وقد أثار ذلك پريخان خانم بما لها من نفوذ بين القزلباش. وشهدت البلاد صراعاً من نوع آخر، بين السيدتين، وراحت كل منهما تتربص بالأخرى الدوائر. وكانت مهد عليا السباقة إلى ذلك، فقد اتفقت مع زوجها على التخلص منها، وكلَّفا خليل خان أفشار، الوصي عليها منذ أيام الشاه طهماسب الأول، بقتلها مقابل الحصول على ثروتها المقدرة بعشرة آلاف تومان، فخنقها في منزلها[1].

وتمادت السيدة الأولى في عمليات القتل من واقع التخلُّص من كل شخص يمت بصلة إلى پريخان خانم وإبعاد أي منافس لأسرتها على السلطة. فقتلت شمخال سلطان شركس، خال پريخان خانم، وتخلَّصت من أبي الفوارس شجاع بن إسماعيل الثاني بالقتل ولم يكن قد تجاوز السنة من عمره[2]، وعيَّنت ابنها الأكبر حمزة ميرزا ولياً للعهد[3]، وأمرت أن يُصدَّق بخاتمه على سائر الفرمانات السلطانية[4]، ثم وزَّعت مناصب الدولة على مناصريها، فعيَّنت صهرها أمير خان موصلو تركمان، الذي ساهم في قتل الشاه إسماعيل الثاني، حاكماً على تبريز، وسلطان حسين شاملو حاكماً على قزوين وابنه علي قولي خان شاملو وصياً على ابنها عباس في حكم هراة

(١) الأسترآبادي: ص١٠٣. فلسفي: جـ١ ص٦٤.
(٢) المصدران نفساهما.
(٣) أنجب الشاه محمد أربعة أولاد هم: حمزة وعباس وأبو طالب وطهماسب. وقد قتل الأول في حياة أبيه وأضحى الثاني الشاه عباس الكبير وسمُلت أعين الثالث والرابع بأمر من أخيهما الشاه عباس الكبير بعد أن تولى الحكم.
(٤) بخش: **إيران در زمان صفوية** ص٤٣.

وشرقي خراسان، ومرشد قولي سلطان استاجلو ابن شاه قولي خان حاكماً على الخزر وخواف وغربي خراسان، وقسَّمت أذربيجان بين إسماعيل خان وشاه قولي، أخوي أمير خان، وابنه مراد خان، وإبراهيم تركمان[1].

ومما زاد الأوضاع تفاقماً سوء إدارة الشاه محمد خدابندة وهو الذي رضي بأن يكون أداة طيعة في يد زوجته، وكان يسترضي طائفة من القزلباش على حساب طائفة أخرى، ويوزع الأموال بغير حساب، ويُصدر أوامر سلطانية متناقضة، ما أدى إلى ضعف الحكومة المركزية وتفشي الفوضى في البلاد وطمع جيرانها بها.

اتصفت السيدة مهد عليا زوجة الشاه، بالطموح السياسي المقترن بالعناد والحقد والغيرة، فاستاء منها قادة القزلباش[2] الذين لم يرضوا أن تحكمهم امرأة، فشكوا أمرهم إلى الشاه، وحذَّروه بأن سلوك زوجته سيؤدي إلى وقوع أحداث داخلية جسيمة تؤثر على قوة الدولة وتُعرضها للضعف والزوال، فأبدى الشاه استعداده بالتخلي عن الحكم مقابل عدم المساس بزوجته.

ويبدو أن هؤلاء لم يقتنعوا بجوابه وأصرُّوا على قتل الملكة، فدخل عليها كل من صدر الدين خان شيخاوند وقولي ميرزا موصلو، ظهر يوم الأحد في (أول جمادى الآخرة ٩٨٧هـ/ ٢٦ تموز ١٥٧٩م) وقتلوها وهي نائمة، كما قتلوا أمها العجوز وأغلب حاشيتها المازندرانيين[3] ونهبا مقتنياتهم. وما إن علم سكان قزوين بذلك حتى قامت جماعة منهم بقتل المازندرانيين في المدينة التي ظلت الفوضى تسودها حتى المساء، وألقى القاتلان جثتها خارج المدينة، فأمر الشاه بالبحث عنها ودفنها في ضريح إمام زادة بقزوين[4].

استاء الشاه محمد خدابندة من عملية القتل فاحتجب في قصره احتجاجاً، فجاءه قادة القزلباش يعتذرون وأقسموا بأنهم سيُخلصون له ولولي عهده حمزة. وآلت سلطات الدولة بعد مقتل الملكة إلى الوزير سلمان وزعماء القزلباش الذين دبَّروا مقتلها، ووزَّعوا الولايات عليهم[5].

استقلال خراسان عن الإدارة المركزية

نتج عن مقتل مهد عليا ازدياد الفوضى في البلاد وتفكُّك الأسرة الحاكمة. فقد

---

(١) الأستراَبادي: ص١٠٤.

(٢) منهم: محمد خان تركمان، قولي بك أفشار، قورجي باشي، فو خمس خان شاملو، شاه روخ خان ذو القدر مهرداد، حسيب خان شرف الدين أعلى تكلو، پير محمد خان استاجلو.

(٣) كانت مهد عليا من مازندران.

(٤) الأستراَبادي: ص١٠٩، ١١٠.

(٥) مير خواند: روضة الصفا جـ٨ ص١٩٦ ـ ١٩٨.

انتهز حكام خراسان من قبيلة شاملو هذه الفرصة، فاستقلوا بولايتهم عن الحكومة المركزية في قزوين، واختاروا عباساً، ابن الشاه محمد خدابندة، أميراً عليهم في (ربيع الأول ٩٨٩هـ/ نيسان ١٥٨١م)، وكان يعيش بينهم ولم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره فعيَّنوا علي قولي خان وصياً عليه(١).

كان الشاه محمد خدابندة يُجري في هذه الأثناء مفاوضات مع العثمانيين بشأن عقد صلح بينهما، فلما سمع بأحداث خراسان، ترك الجبهة الغربية وعاد إلى قزوين من مصيف قراباغ ليتفرغ لإخماد حركة التمرد، فجهَّز حملة عسكرية من أجل هذه الغاية عهد بقيادتها إلى ولي العهد حمزة ميرزا بإيعاز من الوزير سلمان المتحكم بزمام الأمور وصهر حمزة ميرزا.

وهكذا تعرَّضت إيران لخطرين في الوقت نفسه، خطر الانقسام الداخلي وخطر التهديد الخارجي، وانقسم الأمراء وفقاً لمصالحهم الشخصية، بين مؤيد لتوجيه الجيش إلى خراسان لإخماد حركة التمرد وبين معارض لهذا الطرح، وتوجيه الحملة إلى الجبهة الغربية للتصدي للخطر العثماني. وكان الوزير سلمان من أصحاب الرأي الأول، وقد فرضه على الشاه. وذهب الجيش إلى خراسان وحاصر قلعة هراة التي تحصَّن بها عباس وأنصاره. ووردت في غضون ذلك، الأخبار من أذربيجان تفيد بتقدم عثماني باتجاه إيران، فتجاوز، عندئذ، أركان الدولة خلافاتهم وعقدوا الصلح مع عباس من أجل التفرغ للعثمانيين، وكان هذا قد تحرَّج موقفه من شدة الحصار، فجنح إلى الموادعة، وتمَّ الصلح باعتذار الجانب الخراساني واعترافه بحمزة ميرزا ولياً للعهد مقابل الاحتفاظ بحكم خراسان(٢).

مقتل حمزة ميرزا

اتصف ولي العهد حمزة ميرزا بالغرور والأنانية وسرعة الغضب، يُفرط في الشراب ويتربص بقتلة والدته للانتقام منهم، ولكنه مع ذلك كان شجاعاً دافع عن تبريز أكثر من مرة أمام هجمات العثمانيين. وحاول خصومه من طوائف تركمان وتكلو وذي القدر تنصيب أخاه طهماسب ملكاً على العراق العجمي والاستقلال بجزء كبير من إيران أسوة بما حدث في خراسان.

والواقع أن الخلافات بين الجانبين بدأت عندما رفض هؤلاء الاشتراك في الجيش الصفوي من أجل التصدي للعثمانيين. وتفاقمت الأحداث باعتقال أمير خان تركمان

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٩١، ٩٢.

(٢) المرجع نفسه ص١٠٤، ١٠٥. بخش: ص٤٩.

حاكم أذربيجان، وتعقَّدت باعتماد حمزة ميرزا على طوائف استاجلو وشاملو. وشاع في الأوساط الحاكمة بأن هذا العمل تمَّ بموافقة الشاه محمد خدابندة الذي لم يرض عن تصرفات ابنه حمزة ميرزا الطائشة، الأمر الذي أدى إلى وقوع الجفاء بين الأب وولي عهده. وحاول حمزة ميرزا استرداد أخيه طهماسب من أيدي خصومه بالقوة، فاصطدم بهم في صحراء مصيف چكچكي وانتصر عليهم، واسترد أخاه.

والواقع أن تصرفات ولي العهد المتناقضة وعداوته لقادة القزلباش وتربُّصه بقتلة والدته، أدوا إلى التخلص منه، فقُتل وهو نائم، في قرية أبي شحمة بالقرب من گنجة في أذربيجان يوم الخميس (٢٤ ذو الحجة ٩٩٤هـ/ ٦ كانون الأول ١٥٨٦م) على يد دلّاكه الخاص خداوردي الأرمني الأصل والمعروف بـ«خودي». وأمر الشاه محمد خدابندة بدفنه في أردبيل بجوار جده الشيخ صفي وأصرَّ على قتل الجاني بيده. وكان لحمزة ميرزا عند وفاته ولدان من جاريات بلاطه هما إسماعيل المولود في (٢٦ جمادى الآخرة ٩٩٢هـ/ ٥ تموز ١٥٨٤م) وحيدر المولود في (٢ ربيع الأول ٩٩٣هـ/ ٤ آذار ١٥٨٥م)[١].

اعتزال الشاه محمد خدابندة الحكم

قرَّر الشاه محمد خدابندة بعد مقتل ابنه حمزة ميرزا أن يمارس الحكم بنفسه، فلم يُعيِّن أحداً من أولاده الثلاثة الباقين، لولاية العهد مدركاً في الوقت نفسه أن ذلك سيؤدي إلى حروب أهلية تُنهي ما تبقَّى من الكيان الوهِن، بفعل انقسام القزلباش وتوزع ولاءاتهم بين الإخوة. فقد أيَّد فريق منهم عباساً في خراسان، وساند فريق آخر وفيهم قتلة حمزة ميرزا أبا طالب المقيم في قزوين، ليحكموا من خلاله لأنه كان طفلاً، وأصرُّوا على أن يخلع الشاه محمد خدابندة نفسه ويعتزل الحكم، واختاروا مستوفي الممالك[٢]، محمد، وزيراً له. وما إن شاع هذا التدبير الجديد في البلاد حتى أعلنت طائفتا شاملو واستاجلو، أنصار عباس، الثورة في قاشان وأصفهان وفارس، فاضطر الشاه محمد خدابندة إلى قمع الثورة، فتفاهم مع حاكم قاشان وسيطر على أصفهان.

وحظي عباس بتأييد بعض رؤساء طائفتي تركمان وتكلو بفعل أحقيته بولاية العهد، وزحف الجميع إلى العاصمة قزوين عن طريق دامغان ودخلوها في (١٠ ذي الحجة ٩٩٦هـ/ ٣١ تشرين الأول ١٥٨٨م) من دون مقاومة، وأعلن حاكمها الولاء

(١) القزويني: ص٣٧. الأسترآبادي ص١٣١. فلسفي: جـ١ ص١٤٣ .Roemer: p261

(٢) عمل المستوفي: ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته واستخراج أمواله، ونحو ذلك.

لهم، ثم دعا مرشد قولي خان الوصي على عباس إلى عقد اجتماع في القصر الملكي حضره الشاه محمد خدابندة، وتقرَّر أن يخلع هذا نفسه لصالح ابنه عباس، فنزع التاج عن رأسه ووضعه على رأس ابنه، فانتهى بذلك حكم الشاه محمد خدابندة في ظروف مأساوية من الحروب الأهلية والعصيان، ليبدأ عهد جديد من الانطلاقة الصفوية في عهد الشاه عباس الملقب بالكبير[١].

العلاقة مع العثمانيين

اتسمت العلاقة الصفوية ـ العثمانية، في عهد الشاه محمد خدابندة، بالعدائية على الرغم من وجود معاهدة صلح بينهما، وقد تزامن اعتلاؤه العرش الصفوي مع قيام الفوضى في أنحاء إيران كافة، نتيجة التنازع الأسري وصراعات القزلباش المنقسمين على أنفسهم، وتسارعت الأحداث في المنطقة نحو الحرب بفعل عوامل عدة أهمها:

ـ انهيار السلطة المركزية في الدولة بفعل ضعف الشاه محمد خدابندة الذي سمح لبعض الأمراء في تسيير الأمور مع زوجته خير النساء مهد عليا، الأمر الذي أحدث انقساماً حاداً بين قادة القزلباش، فدبَّت الفوضى في البلاد وأُفرغت مناطق الأطراف ممن يحميها[٢].

ـ شجَّع انهيار السلطة المركزية في إيران الجانب العثماني للقيام باجتياح آخر لولايات الأطراف والاستيلاء على المراكز المنتجة للحرير، بعد أن أخذت التحولات الاقتصادية العالمية تنعكس سلباً على الاقتصاد العثماني[٣] بعد فشل العثمانيين في السيطرة على الطريق التجاري الجنوبي، طريق البهار.

ـ دفع فقدان العثمانيين سيطرتهم على البحار، بعد معركة ليبانت البحرية عام (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م)، إلى التفكير في اجتياح إيران لتأمين مورد إضافي للدولة يُعوِّضها عن الخسائر التي تكبدتها إثر المعركة المذكورة.

وكان يكفي أن تتعرض إحدى القوافل التجارية العثمانية للنهب في زنجان لإشعال فتيل الحرب، وتحركت الدولة العثمانية على محورين:

الأول: أقفلت الحدود مع إيران وفرضت حصاراً على طول طرق القوافل.

الثاني: أوعزت إلى الأكراد السنة بشن عمليات عسكرية ضد الأراضي الإيرانية.

وفعلاً، تمكَّن أكراد ولايتي وان وأذربيجان من دخول سلماس وأُرومية وخوي

---

(١) القزويني: ص٣٧. الأسترآبادي: ص١٣٠ ـ ١٣٣. إقبال: ص٦٥٥.

(٢) مير أحمدي: **تاريخ سياسي واجتماعي إيران در عصر صفوي** ص٦٨. Sykes: p171. صباغ: ص١٨٥.

(٣) صباغ: المرجع نفسه.

حيث أعملوا فيها السلب والنهب، وقتلوا العديد من سكانها، ثم توجَّهوا نحو الحدود الغربية لأذربيجان وشرعوا يغيرون عليها.

لم يكن أمير خان موصلو تركمان، حاكم أذربيجان وصهر الشاه محمد خدابندة، قد وصل إلى مقر عمله للتصدي للأكراد، وعندما وصل لم يفعل شيئاً[١].

شجَّعت هذه الغارات فريقاً آخر من الأكراد، فهاجموا مراغة، وطلب سكان شَروان من السلطان العثماني مراد الثالث (٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م) الذي خلف أباه السلطان سليم الثاني، تخليصهم من ظلم حكام القزلباش، ما أعطى السلطان العثماني فرصة ذهبية للتوسع على حساب الصفويين، فأرسل حملة عسكرية بقيادة لالا مصطفى باشا في (٢٦ صفر ٩٨٦هـ/ ٤ أيار ١٥٧٨م)، مُجهَّزة بالفرسان والمدفعية ومُدعَّمة بسبع سفن انطلقت من ميناء طرابزون. ومهَّد السلطان العثماني لهذه الحملة بالكتابة إلى محمد كراي الثاني حاكم القرم والمؤيد للعثمانيين، يأمره بدخول إقليم شَروان من ناحية صحراء الخزر ودربند لمساندة لالا مصطفى باشا.

وما إن وصلت أنباء الحملة العثمانية إلى قزوين حتى بعث الشاه محمد خدابندة برسالة إلى السلطان العثماني يستفسر فيها عن سبب نقض اتفاق الصلح المبرم بين الدولتين، لكن الرسالة لم تصل إلى السلطان لأن حرس الحدود قبضوا على السفير الذي يحملها ومنعوه من العبور إلى الأراضي العثمانية[٢].

تقدم الجيش العثماني حتى وصل إلى مناطق الحدود واصطدم بقوة صفوية بجوار قلعة جلدير في (٦ جمادى الآخرة/ ١٠ آب)، وتكبَّد القزلباش عدداً كبيراً من القتلى بحيث أقام القائد العثماني برجين من القتلى، ثم واصل تقدمه حتى وصل إلى بلاد الكرج فسيطر على شَروان وعيَّن عليها والياً عثمانياً هو عثمان باشا، واستولى على شماخي وبادكوبه والرس ودخل العاصمة تفليس، ثم عاد إلى ولاية أرضروم لقضاء فصل الشتاء[٣].

وحاول الصفويون في غمرة انقساماتهم وقف التمدد العثماني، فأرسلوا أربع فرق عسكرية بإمرة حمزة ميرزا هاجمت شَروان، فاضطر عثمان باشا إلى إخلائها واحتمى بمدينة دربند، واستعادت شماخي، وأسرت عادل كراي شقيق محمد كراي الثاني وقتلته[٤].

واستؤنفت العمليات العسكرية في الربيع، فقاد الشاه محمد خدابندة جيشاً صفوياً لاستعادة الأقاليم التي استولى عليها العثمانيون، واتخذ من تبريز قاعدة

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٧٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أوزتونا: جـ١ ص٣٩٨.

(٤) فلسفي: جـ١ ص٨٧.

لعملياته العسكرية، وفي المقابل توجَّه القائد التركي بهرام باشا إلى بلاد الكرج على رأس جيش يُقدَّر بثلاثين ألف جندي، كما قاد حسن باشا أربعين ألفاً آخرين للاستيلاء على بقية أذربيجان واستعادة شَروان من قبضة الصفويين، وهاجم عثمان باشا داغستان[1].

وعندما وصل الشاه إلى تبريز علم بأن جيشاً من بلاد القرم يزحف إلى شَروان للانتقام من مقتل عادل كراي، فأرسل الوزير سلمان وأمير خان تركمان حاكم أذربيجان وبعض قادة القزلباش إلى شَروان لوقف زحف جيش القرم ومنعه من الاستيلاء على شَروان، لكن محمد كراي سبق الجيش الصفوي، فدخل المدينة وأعمل فيها السلب والنهب والقتل، فعاد الوزير ورفاقه إلى تبريز، وكان الخلاف قد تفشَّى بينهم، فاستغل عثمان باشا الفرصة وتابع أعماله التوسعية، فسار على رأس جيش مؤلف من مائتين وستين ألف جندي قاصداً أذربيجان فاخترقها، ثم قصد مدينة تبريز فدخلها في (٢٩ رمضان ٩٩٣هـ/ ٢٥ أيلول ١٥٨٥م) بعد أن انتصر على حمزة ميرزا، وترك فيها حامية عسكرية وعاد إلى بلاده[2].

واستمرت الحرب بين الدولتين الصفوية والعثمانية ست سنوات أخرى، عُزل خلالها الشاه محمد خدابندة وخلفه ابنه عباس، ونتج عنها تخريب المزارع في أذربيجان، فحلَّ القحط وارتفعت الأسعار ومات عدد كبير من الفقراء.

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٨٨، ٨٩.

(٢) محمد فريد بك: ص٢٦٤.

الفصل الخامس

الشاه عباس الأول

٩٩٦ ـ ١٠٣٨هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩م

الأوضاع الداخلية

ظروف اعتلاء الشاه عباس الأول العرش الصفوي

سنَّ الشاه إسماعيل الأول تقليداً يقضي بتولي الابن الأكبر للشاه الحاكم حكومة خراسان، فتولاها في حياته ابنه الأكبر طهماسب الأول ثم تولَّاها محمد خدابندة الابن الأكبر للشاه طهماسب الأول، لكن حدث في أواخر عهد هذا الشاه أن دبَّ الخلاف بين محمد خدابندة وقائد الجند هناك، فحرص الشاه على تغيير هذا التقليد حفاظاً على مصلحة الدولة، فأصدر فرماناً ولَّى بموجبه محمد خدابندة حكم فارس ومقره شيراز، وعيَّن ابنه حمزة ميرزا حاكماً على إقليم خراسان ومركزه هراة، وكان له من العمر آنذاك ثماني سنوات، ثم عزله وعيَّن عباساً بن محمد خدابندة مكانه، وكان طفلاً رضيعاً له من العمر سنة ونصف، وذلك بعد تدخل محمد خدابندة وزوجته بفعل تعلق حمزة ميرزا بوالديه، وأمر الشاه طهماسب الأول بأن يتولى شاه قولي سلطان الوصاية عليه(١).

وهكذا بدأ اسم عباس يتردد على ألسنة الناس بوصفه حاكماً على خراسان وهو ما يزال طفلاً رضيعاً، وأضحت الولاية كلها تحت إمرته الاسمية. واستمرت الأمور على هذا الشكل بعد وفاة الشاه طهماسب الأول واعتلاء ابنه إسماعيل الثاني العرش الصفوي. وفي ظل الأوضاع المضطربة التي نشبت في عهد هذا الشاه، والدسائس التي تفشَّت داخل الأسرة الحاكمة؛ أقدم الشاه على قتل عدد كبير من أمراء البيت الصفوي، واستثنى أخاه الأكبر محمد خدابندة وأولاده. وعندما أنجب طفلاً خشي أن ينافسه هؤلاء على الحكم في المستقبل، فأمر بقتلهم جميعاً وكلَّف علي قولي خان شاملو بقتل عباس، فتوجَّه إلى هراة في (٢٦ رمضان ٩٨٥هـ/ ٧ كانون الأول

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٧٠.

١٥٧٧م)، وكان من المفروض أن ينفذ مهمته فوراً، لكنه رأى أن يؤخر ذلك إلى ما بعد عيد الفطر تعظيماً لحرمة شهر الصوم، ولكن بريداً وصل قبل تنفيذ مهمته يُبشِّر بوفاة الشاه إسماعيل الثاني واعتلاء محمد خدابندة العرش الصفوي، فتوقف عن تنفيذ المهمة المكلف بها إرضاء لوالده الشاه من جهة، واحتمال استخدامه ورقة مساومة قد تفيده في تدعيم نفوذه من جهة أخرى. وهكذا شاء القدر أن ينجو عباس من القتل، وتولى علي قولي خان الوصاية عليه وحكم باسمه في هراة[1].

ويبدو أن الشاه محمد خدابندة حرص على أن يعيش ابنه معه في قزوين فاستدعاه من أجل ذلك، غير أن الوصي رفض إعادته خشية من اضطراب الأمور في الولايات الشرقية، لأن وجود أمير حاكم فيها يوحي بالثقة ويجنبها النزاعات الداخلية ويدفع عنها الأوزبك.

والواقع أن علي قولي خان تصرف وفقاً لمصلحته الشخصية، فقد طمع بحكم الولايات الشرقية والانفصال عن الإدارة المركزية في قزوين، وحتى يحقق غايته جمع أمراء خراسان حوله وانضم إليه جميع زعماء وقادة طائفته شاملو، وسانده أمراء طائفة استاجلو برئاسة مرشد قولي خان حاكم خواف وباخرز، واتفق الجميع على الوقوف في وجه طوائف القزلباش المسيطرة على السلطة في العاصمة قزوين، واختاروا علي قولي خان زعيماً لهم ولقَّبوه بـ«خانلر خاني» أي رئيس الخانات[2].

وأمام هذا الرفض من جانب علي قولي خان ومرشد قولي خان ازدادت مخاوف الشاه وزوجته على مصير ابنهما وصمَّما على استعادته بأي وسيلة، فكلَّفا رسولاً آخر بالتوجه فوراً إلى هراة وإحضار عباس وتهديد علي قولي خان ومؤيديه، لكن الرجلين علي قولي خان ومرشد قولي خان رفضا تنفيذ أمر الشاه وزوجته، وكانت النتيجة أن أصدرت مهد عليا أمراً بعزل علي قولي خان عن حكم هراة وإسنادها إلى مرتضى قولي خان حاكم مشهد والمؤيد لعودة عباس إلى والديه، وكان هذا على عداء مع علي قولي خان بفعل انتمائه إلى طوائف القزلباش المتمركزة في العاصمة قزوين، ووقوفه على أهدافه بالاستقلال بخراسان. ونشبت الحرب بين الجانبين، وكان لها صدى في العاصمة، فأقدم الشاه بإيعاز من طوائف القزلباش على قتل والد علي قولي خان، ويُدعى سلطان حسين خان مع والدته، الأمر الذي زاد الوضع تأزماً، فجاهر علي قولي خان بعدائه السافر للبلاط وأمراء القزلباش بالعاصمة، وأقدم على تنفيذ خطوة جريئة وهي إعلان تنصيب عباس ملكاً على خراسان كلها، وذلك في

---

(١) بازوكي: ص٣٦. فلسفي: جـ١ ص٧٠. براون: ص٩٥.

(٢) فلسفي: جـ١ ص٩١.

عام (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م)، وأطلق عليه اسم شاه، وخطب باسمه[١].

الواضح أن عوامل عدة دفعت علي قولي خان إلى اتخاذ هذا القرار أهمها:

- مقتل والديه.
- ضعف الشاه محمد خدابندة وبخاصة بعد مقتل زوجته مهد عليا.
- انغماس ولي العهد حمزة ميرزا في اللهو والعبث وعدم اكتراثه بأمور الدولة.
- كان هدف علي قولي خان منذ وصوله إلى هراة، يتمثل في محاولة التسلط وفرض نفوذه على المنطقة كلها، وجمع الأعيان حوله، وقد توضّح هَدفه من واقع احتجازه لعباس[٢].

انقسمت الدولة الصفوية لأول مرة في تاريخها، بعد إعلان عباس ملكاً، بين ملك في الشرق، عباس، وعاصمته هراة، وملك في الغرب، محمد خدابندة، وعاصمته قزوين وهو الحاكم الشرعي، فكان طبيعياً أن تندلع الحرب بينهما.

زحف الشاه محمد خدابندة على رأس جيشه إلى خراسان لقمع الفتنة، وفي المقابل استعد كل من علي قولي خان ومرشد قولي خان ومؤيدوهما للمقاومة، ويبدو أن جيوش خراسان عجزت عن الوقوف في وجه جيش الشاه الذي يفوقها عدداً وعدة، فتراجع مرشد قولي خان إلى تربة في حين عاد علي قولي خان إلى هراة وتحصَّن بها.

وتقدم جيش قزوين أولاً إلى تربة وحاصرها، لكنه عجز عن اقتحامها، فتوسط بعض الأمراء بين الشاه وبين مرشد قولي خان حتى تمَّ الصلح بينهما على القاعدة التالية:

- يسحب مرشد قولي خان اعترافه بعباس ويُعلن خضوعه للشاه محمد خدابندة ويمثل أمامه تذليلاً على موافقته. وعندما فعل ذلك أمَّنه الشاه وأعاده إلى حكم منطقته.

وتقدم جيش الشاه بعد ذلك صوب هراة، وتغلَّب على المقاومة التي أبدتها القوى المحلية، وحاصر القلعة. وما جرى في غضون ذلك من تقدم الجيوش العثمانية صوب أذربيجان واستيلائها على أجزاء منها، دفع الشاه إلى فك الحصار عن هراة وعاد إلى عاصمته لصد الهجوم العثماني، فبدت عندئذ في الأفق السياسي بوادر صلح بين الجانبين، وفعلاً تم الصلح على الأسس التالية:

- يُثبِّت الشاه ابنه عباس على حكم خراسان كلها.
- يظل علي قولي خان وصياً على عباس.
- يُعيد علي قولي خان اسم الشاه في الخطبة بخراسان ويسك النقود باسمه.

---

(١) قليخان: **ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري** جـ٨ ص١٩٥. پازوكي: ص٣٠٨.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٢٦، ٢٢٧.

ـ يعترف علي قولي خان وعباس ميرزا بولاية العهد لحمزة ميرزا[١].

وأمر الشاه بعزل مرتضى قولي خان عن حكم مشهد حتى تتجدَّد الاضطرابات في خراسان.

ما إن عاد الشاه محمد خدابندة إلى قزوين حتى شقَّ مرشد قولي خان عصا الطاعة، وقد طمع في نقل عباس ميرزا من هراة إلى مشهد لتكون له الوصاية عليه ويسيطر من خلاله على خراسان كلها، فتقدم صوب مشهد وطرد حاكمها سلمان خان كما سيطر على بعض المناطق المجاورة لمنطقة نفوذه الأصلية في خواف وباخرز، ووزَّع المناصب على أقربائه من أمراء طائفة استاجلو. وبعد أن شعر باتساع نفوذه راح يُخطط لنقل عباس ميرزا من هراة إلى مشهد، وقد وقف علي قولي خان على أهدافه من خلال دعواته المتكررة له ولعباس ميرزا لزيارة مشهد، فحاول اغتياله، وتطور النزاع بينهما حتى وصل إلى الحرب. وجرت المعركة بينهما عند بلدة سوسفيد بين هراة ومشهد، تمكَّن خلالها مرشد قولي خان من القبض على عباس ميرزا وأرسله إلى مشهد ليكون تحت وصايته، فأعاد تنصيبه ملكاً على خراسان، وخطب له، وسك النقود باسمه، وأطلق على نفسه نائب السلطنة، فأضحى بذلك أكبر أمراء خراسان نفوذاً. وضاعت آمال علي قولي خان في استخدام عباس ميرزا ورقة رابحة تصل بينه وبين الحكومة المركزية في قزوين، وانتقلت تلك الآمال إلى مرشد قولي خان[٢].

كانت الأوضاع السياسية في العاصمة آنذاك مضطربة، ما أدى إلى مزيد من الاغتيالات. فقد قُتلت مهد عليا زوجة الشاه محمد خدابندة، كما قُتل ولي العهد حمزة ميرزا، فازداد الجدل حول هوية ولي العهد الجديد. وكان الشاه ينوي أن يباشر الحكم بنفسه وألا يولي أحداً من أبنائه الباقين على قيد الحياة، وهم: عباس وأبو طالب وطهماسب، بسبب توزع ولاءات القزلباش واختلافهم، لكن هؤلاء لم يوافقوا على رأيه، وضغطوا عليه لتعيين ولي للعهد بفعل أنه ضرير لا يستطيع النهوض بأعباء الحكم، وانقسموا إلى ثلاث فئات:

ـ ساندت الفئة الأولى عباساً المقيم في خراسان.

ـ أيَّدت الفئة الثانية أبا طالب المقيم في قزوين.

ـ قالت الفئة الثالثة بالازدواجية في ولاية العهد بين الأخوين، فتُقسم أراضي الدولة إلى قسمين يتولى كل أمير ولاية عهد كلٍّ منهما.

والواضح أن كل فئة سعت إلى فرض نفوذها على الشؤون العامة للدولة[٣].

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٢١٦. فلسفي: جـ١ ص٩١، ٩٢. Sykes: II, p173.

(٢) فلسفي: جـ١ ص٩١، ٩٢.

(٣) المرجع نفسه: ص١٣٥. پازوكي: ص٣٠٩. بخش: ص٥١.

وضغطت الفئة الثانية على الشاه فعيَّن ابنه أبا طالب ولياً لعهده متجاوزاً حق ابنه الأكبر عباس. وكان لهذا القرار أثره في زيادة حدة الاضطرابات في البلاد، فتوجَّه مرشد قولي خان ومعه عباس إلى العاصمة قزوين عن طريق دامغان وسمنان، ولقي تأييداً من حكام المدن على طول الطريق المؤدي إليها، وانضم إليه مرتضى قولي خان، فقوي موقفه ودخلها من دون مقاومة بعد أن انضم إليه حاكمها، وأعلن تنصيب عباس ملكاً على الدولة الصفوية ونصَّب نفسه نائباً للسلطنة ووكيلاً للشاه عباس، وكان الشاه محمد خدابندة قد قرَّر استباق موكب ابنه إلى العاصمة، وكان آنذاك في أصفهان، لكن مرشد قولي خان سبقه إليها، إلا أنه واصل الزحف للتصدي له، لكن هذا استقطب جنوده فانفضوا من حوله. وللخروج من هذا المأزق، وجد الشاه محمد خدابندة نفسه مضطراً للاعتراف بالواقع السياسي، فأعلن تنازله عن العرش لصالح ابنه عباس، ثم دخل إلى العاصمة وسط ترحيب ابنه به. واجتمع أركان الدولة في چهل ستون حيث تنازل الشاه محمد خدابندة عن الحكم لصالح ابنه عباس، فوضع التاج على رأسه وجلس على العرش، كما قام بتسليمه ودائع الأسرة الصفوية ونفائسها، كما تنص على ذلك قوانين الوراثة ونظام انتقال السلطة في الدولة الصفوية[(١)].

وهكذا أضحى الشاه عباس ملكاً متوَّجاً بطريقة شرعية في (١٥ ذي القعدة ٩٩٦هـ/ ٦ تشرين الأول ١٥٨٨م) وله من العمر ثمانية عشر عاماً وشهران ونصف[(٢)].

التحديات التي واجهت الشاه عباس الأول

التخلص من مرشد قولي خان

وضع الشاه عباس الأول نصب عينيه بعد أن تولى الحكم العودة بالبلاد إلى مجدها السابق الذي شهدته في عهد الشاه إسماعيل الأول، ولا يتحقق ذلك إلا بالسيطرة على مقدرات الدولة والتفرد بالإمساك بمقاليد الأمور، ويبدو أنه أدرك مدى ما يُشكِّله وصيُّه مرشد قولي خان من خطر على حكمه بسبب منعه من ممارسة السلطة وإدارة الدولة، واستئثاره بالأمور من دونه على الرغم من بلوغه الثامنة عشرة من عمره ما يضعف مركزه ويحدّ من صلاحياته، ذلك أن نفوذ وصيِّه كان كبيراً، ولا بد بأنه راغب في الاحتفاظ بصلاحياته وبمركزه الممتاز من خلال القبض على زمام الأمور.

وأخذ الوصي يُوزِّع المناصب على أتباعه، ما أدى إلى نفوره منه، لكن الشاه لم

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٢٣٤. فلسفي: جـ١ ص١٧١، ١٧٢. جمعة: ص٤٢ ـ ٤٤.

(٢) فلسفي: المرجع نفسه. جمعة: ص٤٥، وقارن بإقبال: ص٦٥٥.

يكن على أي حال حريصاً على التخلص منه مبكراً وذلك لسببين:

الأول: أنه افتقر إلى الخبرة الضرورية لتصريف أعمال الدولة، فكان بحاجة إلى التمرس على أساليب الحكم قبل أن يستقل بتصريف الأمور.

الثاني: أراد أن يتخلَّص بواسطته من عدد من قادة القزلباش المناوئين له، لذلك راح يدافع عنه عندما ثار هؤلاء ضده بفعل أنه عيَّن نفسه حاكماً على منطقة أصفهان وضمَّ الأملاك السلطانية إلى أملاكه، والتي كانت قد مُنحت لحمزة ميرزا ثم لأبي طالب ميرزا بعد مقتل الأول، فأخذ يُنكل بهم ويضرب أعناقهم وعلَّقهم من أقدامهم بالحبال من فوق القصر السلطاني[1].

وما جرى من تمادي مرشد قولي خان في أعماله المنفِّرة وارتكابه الحماقات، أن ازداد تصميم الشاه على التخلص منه، من ذلك:

- أراد مرشد قولي خان أن يتقرَّب من الأسرة الصفوية بالزواج حتى يُثبِّت مكانته ويحافظ على نفوذه، فطلب من الشاه الموافقة على زواجه من إحدى أميرات البيت الصفوي، فرفض الشاه هذا الطلب، وأدى ذلك إلى بداية الصدام بينهما[2].

- نُمي إلى مرشد قولي خان أن الشاه سيتخلَّص منه عاجلاً أو آجلاً، ونصحه أتباعه باستباق التخلص منه، فأحضر الشاه محمد خدابندة المعزول وأبناءه من قلعة أَلَمُوتْ، حيث سُجنوا بعد تتويج الشاه عباس الأول بحجة أن المنطقة قريبة من جيلان الثائرة، وقد ينتهز البعض فرصة انهماك الشاه في حرب الأوزبك ويفرج عن السجناء ويولي أحدهم عرش الدولة الصفوية، لكن الشاه أدرك مرامي وصيه وأهدافه، وأنه باستطاعته عزله وتولية أي فرد من الأسرة الصفوية، فصمَّم على الإطاحة به[3].

- تباطأ مرشد قولي خان في إرسال تعزيزات عسكرية إلى هراة لمساعدة علي قولي خان الذي حاصره الأوزبك فيها، على الرغم من أمر الشاه له الإسراع بالقيام بذلك، وقد أمل بأن يتخلَّص من غريمه وبخاصة أن الشاه عباس الأول كان يتوق دائماً للقائه بوصفه مربيه، كما لم ينس المعاملة الطيبة التي عامله بها خلال مدة الوصاية. وظل مرشد قولي خان يماطل في إرسال المدد حتى اقتحم الأوزبك المدينة وقتلوا علي خان قولي وعدداً من جنود القزلباش، فصمَّم الشاه عندئذ على الفتك به قبل أن يستفحل خطره[4].

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٢٣٧.

(٢) منشي: جـ٢ ص٤٠٠. الأسترآبادي: ص١٤٤.

(٣) الأسترآبادي: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص١٤٣. بازوكي: ص٣١٢..

وسنحت للشاه عباس الأول فرصة التخلص من وصيه عندما تحرك الجيش الصفوي في عام (٩٩٧هـ/١٥٨٩م) باتجاه خراسان للتصدي لهجوم الأوزبك وطردهم، وعندما وصل إلى بسطام عسكر الجيش في شاهرود، فاتفق الشاه مع أربعة من قادته المخلصين على قتله وهو نائم، فأجهزوا عليه[١].

وبذلك تخلَّص الشاه عباس الأول من ضغط الوصاية عليه وأضحى مطلق الصلاحية، فحكم حكماً مطلقاً وراح يبطش بكل من يخالف أمره، حتى أفراد أسرته، فخشيه رجال الدولة، واضطروا إلى الخضوع لأوامره ونواهيه من دون نقاش[٢].

وبفضل هذه السلطة المطلقة اتهمه المؤرخون بأنه وصل إلى درجة جعلت مواطنيه يقدسونه ويؤلهونه خوفاً من بطشه وتجنباً لشره، وبخاصة أنه أطلق على نفسه «ظل الله»[٣].

التخلص من أفراد أسرته

كان الشاه عباس الأول قاسياً في معاملة أفراد أسرته وبخاصة أبنائه، وكانت هذه القساوة سمة العصر في القرن السادس عشر في الدولتين المغولية في الهند والعثمانية في آسيا الصغرى، وحجته في ذلك أنه كان يخشى أن يظهر مِنْ أفراد أسرته مَنْ يفرض نفسه عليه وينتزع العرش منه كما فعل هو بوالده، وكانت سياسته تلك من الشدة لدرجة أعمته عن الكوارث التي ستحل بدولته من بعده حيث لن تجد من هو كفئاً ليتولى الحكم، وهذا ما حدث فعلاً، فساهم بذلك في إضعاف الدولة ومن ثَمَّ زوالها.

عندما اعتلى الشاه عباس الأول العرش الصفوي لم يكن من الأسرة الصفوية على قيد الحياة سوى خمسة أشخاص، هم: والده الشاه محمد خدابندة وأخواه، أبو طالب وطهماسب وابنا أخيه حمزة ميرزا، إسماعيل وحيدر، فقبض عليهم وسجنهم في قلعة أَلَمُوتْ، وعندما هدَّده مرشد قولي خان بإطلاق سراحهم، نقلهم إلى قلعة ورامين وشدَّد الحراسة عليهم[٤]. وعندما عاد إلى العاصمة قزوين بعد طرد الأوزبك من هراة أمر بإحضار والده إليها ليعيش تحت رقابته، فحجبه عن العامة ومنعه من الخروج أو الاختلاط بقادة القزلباش، وكان إذا سافر اصطحبه معه. وظل الوضع على هذا الحال حتى توفي الشاه محمد خدابندة في عام (١٠٠٤هـ/١٥٩٦م)[٥]. وأمر بسمل عيون الأمراء الأربعة حتى يحول بينهم وبين تولي أحدهم الحكم،

---

(١) الأسترآبادي: ص١٤٤.
(٢) براون: جـ٤ ص٩٩.
(٣) بخش: ص٣٧٤.
(٤) الأسترآبادي: ص١٢٥. فلسفي: جـ٢ ص٥١٥.
(٥) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٣٠.

وأعادهم إلى قلعة أَلَمُوتْ حيث بقوا فيها إلى أن توفوا[1]، وأرسل حيدر إلى بلاد العثمانيين كرهينة في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) وظل هناك حتى أصيب بالطاعون ومات في عام (١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م)[2].

وتمادى الشاه عباس الأول في قساوته حتى طالت أولاده الخمسة: محمد باقر، المعروف بصفي، وحسين وخدابندة وإسماعيل ومقلي. وقد توفي كل من حسين وإسماعيل في صغرهما، وقتل ابنه الأكبر محمد باقر في (٣ محرم ١٠٢٤هـ/ ٢ شباط ١٦١٥م)، وقد خشي أن يؤدي الدور نفسه الذي أدَّاه هو ضد أبيه وبخاصة أنه اكتسب شعبية بوصفه ولي العهد المرتقب والوريث الشرعي لأبيه[3].

واكتسب ابنه خدابندة شعبية كبيرة، وحاز على مكانة مرموقة بين أفراد الحاشية والقزلباش الذين نظروا إليه على أنه الحاكم الموعود بعد أبيه، ما أثار والده فقتل مربيه وسمل عيني ابنه الذي انتحر بعد ذلك بشرب السم[4].

ولم يكن مصير الابن الخامس مقلي بأفضل من مصير أخويه، فقد أمر الشاه بسمل عينيه في عام (١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م) حتى يحرمه من ولاية العهد[5].

ونتيجة للتخلص من أبنائه على هذا الشكل، واجه الشاه عباس الأول في أواخر حياته مشكلة اختيار ولي للعهد، فلم يجد إلا سام ميرزا بن محمد باقر، صفي، الذي أنقذته أمه من القتل بأن أبعدته عن مجلس الشاه وعن رجال بلاطه، وهو الذي خلفه بعد وفاته.

القضاء على هيمنة القزلباش السياسية

شهد عهد الشاه عباس الأول بداية النهاية لطوائف القزلباش وزوال تأثيرهم السياسي والاجتماعي، والمعروف أن هؤلاء بسطوا هيمنة على الجيش والإدارة في الدولة الصفوية منذ عهد الشاه إسماعيل الثاني بفعل الاضطراب الذي ساد أجهزتها آنذاك، ودعَّموا نفوذهم في عهد الشاه محمد خدابندة الكفيف البصر، وسلكوا في سبيل ذلك شتى الطرق منها الاغتيال، فقد اغتالوا والدة الشاه عباس، مهد عليا، وأخاه حمزة ميرزا، وقد ترك ذلك أثراً قاتماً في نفس الشاه تجاههم، فعقد العزم على التخلص منهم، وقد تجاوز عدد طوائفهم اثنتين وثلاثين طائفة، بلغ عدد أفرادها ستين ألفاً، كانوا يتقاضون رواتبهم من خزانة الدولة مشكلين عبئاً ثقيلاً عليها،

---

(١) فلسفي: جـ٢ ص٥١٥.
(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٣٠، ٢٣١.
(٣) الأسترآبادي: ص٢٠٧.
(٤) فلسفي: جـ٢ ص٥٢٥.
(٥) بخش: ص٣٧٥، ٣٧٦.

وانتشروا في أنحاء البلاد كافة، وامتلكوا الأراضي والإقطاعات، وحكموا الولايات حكماً مباشراً مستقلاً عن الحكومة المركزية، وعدُّوا أنفسهم أعلى قدراً من الشعب الإيراني، وأحاطوا بالشاه عباس الأول الذي وجد نفسه مكبلاً وفاقداً لحرية الحركة، فأدرك أنه لا يستطيع التفرد بالحكم إلا إذا قضى عليهم، وهذا ما أقدم عليه بعد تتويجه مباشرة، فألقى القبض على زعمائهم الذين شاركوا في اغتيال أخيه حمزة ميرزا ومنهم علي قولي خان وإسماعيل قولي خان وآخرون غيرهما وأعدمهم. ويبدو أن القرار اتُّخذ بالمشاركة مع وصيِّه مرشد قولي خان، كما قتل كل من اشترك في قتل والدته منهم: قور خمس خان، أحد مدبري جريمة الاغتيال، وقد قتله الشاه بيده ثأراً لوالدته[١].

واستغل الشاه فرصة ثورة بعض رؤساء القزلباش ضد وصيِّه مرشد قولي خان عندما ضمَّ أصفهان إلى أملاكه، فجرَّدهم من قلنسوة القزلباش وقتلهم، وصادر أموالهم وممتلكاتهم ووزَّعها على أنصاره ومؤيديه، وما لبث أن تخلَّص من وصيِّه وقتل مؤيديه[٢].

وعمد الشاه، إلى جانب التلُّخص من بعض رؤساء القزلباش، إلى تجريد بعضهم الآخر من مناصبهم العسكرية والإدارية بهدف القضاء على نفوذهم، والمعروف أن الجيش الصفوي كان يعتمد اعتماداً كلياً على طوائف القزلباش قبل عهد الشاه عباس الأول، فأنشأ جيشين جديدين، تألف أحدهما من الأرمن والشركس والكرجيين التابعين للدولة الصفوية، وتألف الآخر من خاصيته من المواطنين، بغض النظر عن الطوائف التي ينتمون إليها، وأطلق على هذا الجيش اسم شاهسون، أي محبي الملك، ويتلقى الجيشان أوامرهما من الشاه مباشرة[٣]. وعلى هذا الشكل تخلَّص الشاه من هيمنة القزلباش على مقدرات الجيش.

وجرَّد الشاه رؤساء القزلباش من مناصبهم الإدارية الهامة في الدولة لا سيما حكم الولايات، وأسندها إلى أشخاص يثق بهم، ويتوسم فيهم التفاني في خدمته، ومع ذلك كان إذا شعر من أحدهم رغبة في التسلط تخلَّص فوراً منه.

وأحكم الشاه عباس الأول قبضته على الولايات من واقع تحويل النظام اللامركزي، الذي كان سائداً من قبله، إلى نظام مركزي، والمعروف أن حكام الولايات كانوا يتمتعون بالاستقلال بولاياتهم ولا يربطهم بالإدارة المركزية سوى إرسال بعض الهدايا وقدر معين من الغلال والمال إلى الشاه في قزوين[٤]. وأضحى

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٢٣٤، ٢٥٩.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٣٥.

(٣) Sykes: II, p171, 175.

(٤) بازوكي: ص٣٣٩.

باستطاعته أن يعزل أو يُعين من يشاء، ولا يحق لأي منهم أن يمتنع عن تنفيذ الأمر الذي يصدر إليه. وهكذا ربط الشاه حكام الولايات به، ويتوقف بقاؤهم في مناصبهم على رضاه عنهم أو غضبه عليهم، بعد أن كانت هذه حكراً على طوائف القزلباش.

ونتيجة لهذه السياسة المتشدِّدة، استطاع الشاه عباس الأول أن يقضي على هيمنة القزلباش وسطوتهم وتدخُّلهم في شؤون الدولة الداخلية وهي ليست من اختصاصاتهم، ويُجبر رجالهم على الالتفاف حوله رغبة أو رهبة، وأن يعيد للدولة وحدتها السياسية والإدارية، وأن يحكم بشكل مطلق وفقاً لأعراف العصر.

تطوير القوة العسكرية

ذكرنا أن الجيش الصفوي كان يعتمد في الدرجة الأولى، قبل عصر الشاه عباس الأول، على طوائف القزلباش الذين يأتمرون بأمر رؤسائهم، ولا يحق للشاه الصفوي إصدار الأوامر إليهم مباشرة، بل عليه أن يصدر الأمر إلى رؤساء الطوائف ومن ثَمَّ يقوم كل رئيس بتبليغها لأتباعه من الجنود، ما جعل قبضته على القوى المسلحة ضعيفة لأن رؤساء الطوائف كانوا يكتمون ما لا يتوافق مع مصالحهم من أوامر ولا يبلغونها لأتباعهم، كما كان باستطاعتهم تأليبهم ضده أيضاً، وما فعله كل من علي قولي خان ومرشد قولي خان في خراسان، عندما كان الشاه عباس الأول موجوداً هناك، خير شاهد على سطوة رؤساء القزلباش وتحديهم لأوامر الشاه الصفوي[1].

وعندما تولى الشاه عباس الأول الحكم، أدرك مدى ما يُشكِّله رؤساء القزلباش من خطر على النظام، فاتخذ خطوة أولى تمهيدية لإضعافهم تمثَّلت في تخفيض عدد جنودهم إلى النصف بحيث أصبح ثلاثين ألفاً[2].

والتفت الشاه عباس الأول إلى جماعة أخرى لتحجيمها وكان لها نفوذ وسطوة على الدولة، تلك هي جماعة الصوفيين التي تكونت منذ قيام الدولة، وقد ادعى أفرادها أنهم أنصار البيت الصفوي والمدافعون عنه، فانتهزوا فرصة ضعف الدولة أيام حكم الشاه محمد خدابندة وازدادوا تدخلاً في شؤونها، وحاولوا إثارة القلاقل في بداية حكم الشاه عباس الأول بهدف إعادة الشاه المعزول إلى الحكم، فواجههم الشاه عباس الأول وأبعدهم عن المشاركة في الدفاع عن الدولة، ما أضعف نفوذهم وشلَّ حركتهم، ولم يُسند إليهم سوى الأعمال الوضيعة، كتنظيف قصور الدولة

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٣٨. Roemer: pp264, 265.

(٢) Sykes: II, p175.

ومنصب الجلاد وغير ذلك من الوظائف الدنيا[١].

وشعر الشاه عباس الأول، بعد أن أضعف قوة رجال القزلباش وسطوة جماعة الصوفيين، أنه بحاجة إلى تطوير القوة العسكرية ليواجه أعداءه المحيطين به، الأوزبك والعثمانيين من جهة، وتأمين الاستقرار الداخلي من جهة أخرى، فأنشأ جيشين يدينان له بالولاء ويتلقيان الأوامر منه مباشرة كما ذكرنا، واعتنى بتسليحهما بأسلحة حديثة من البنادق والمدافع مدركاً في الوقت نفسه بأن تفوُّق الجيش العثماني مرده إلى استعمال الأسلحة النوعية، فزوَّده بخمسمائة عربة مدفع وستين ألف بندقية[٢]، وأنشأ مصنعاً لإنتاج السلاح والذخيرة بمساعدة بريطانيا، وشارك أفراد البعثات البريطانية في وضع الخطط العسكرية والقتال ضد العثمانيين، من ذلك أن روبرت شيرلي، أحد أفراد البعثة البريطانية، تسلَّم قيادة إحدى الفِرَق العسكرية الصفوية في الحرب ضد العثمانيين بين عامي (١٠١٣ ـ ١٠١٤هـ/ ١٦٠٤ ـ ١٦٠٥م)[٣].

وهكذا نجحت جهود الشاه عباس الأول في تطوير القوة الميدانية للجيش الصفوي، نجاحاً ملحوظاً ما مكَّنه من تحقيق انتصارات ملفتة على الأوزبك والعثمانيين وإخماد الحركات الثورية في الداخل[٤].

ويبدو أن الشاه عباس الأول ركَّز جهوده العسكرية على تطوير القوات البرية فقط بدليل أن بحريته لم تستطع مواجهة البحرية البرتغالية في مياه الخليج العربي، وعندما حاول أن يطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز وبعض موانئ إيران، استعان ببحرية شركة الهند الشرقية الإنكليزية، وقد توافقت مصلحة الجانبين في إخراج البرتغاليين من ميدان التنافس التجاري في منطقة الشرق بعامة والهند بخاصة، وأدَّى هذا القصور إلى ضعف الدفاع عن المنطقة الأمر الذي دفع البريطانيين إلى ملء الفراغ والحلول مكان القوات البرتغالية، وقد بسطوا نفوذهم بعد ذلك على منطقة الخليج العربي.

القضاء على حركات التمرد

حركة يعقوب خان ذي القدر في فارس

تطلع الشاه عباس الأول بعد تتويجه إلى أن يكون حاكماً مطلقاً على جميع الأراضي الإيرانية، لكنه واجه معارضة من بعض حكام الولايات الذين استقلوا بولاياتهم، فقرَّر مواجهتهم وإخضاعهم قبل أن يستفحل خطرهم.

---

(١) فلسفي: جـ١ ص٢٣٩، ٢٤٠. جمعة والخولي: جـ١ ص٢٣٨.

(٢) بازوكي: ص٣٢١.

(٣) Reomer: p265.

(٤) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٤١.

وحدثت المواجهة الأولى مع يعقوب خان ذي القدر حاكم فارس، وكان الشاه قد عيَّنه حاكماً على هذه الولاية، فاستقل بها وتوسَّع باتجاه يزد وكرمان، وراح يتصرف بما تحت يديه من دون العودة إلى الحكومة المركزية، وأنشأ جيشاً خاصاً به. ونهض الشاه عباس الأول للقضاء على خطر هذا الوالي، فتقدم باتجاه أصفهان في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م)، ولما وصل إليها استدعى يعقوب خان للمثول بين يديه وتقديم الولاء والطاعة له ووعده بالعفو عنه وأقسم على ذلك، فألقى يعقوب خان، عندئذ، السلاح ودخل على الشاه وهو مطمئن. وحافظ الشاه على قسمه مدة ثلاثة أيام حتى اطمأن يعقوب خان، وفي اليوم الرابع دخل على الشاه في مجلسه، فأمر رجاله باعتقاله وقتله، ثم استدعى أفراد أسرته وأعوانه إلى القصر وتقبيل قدميه لكي يعفو عنهم، وقد فعلوا ذلك، إلا أن الشاه غدر بهم بعد ذلك وقتلهم[١].

حركة خان أحمد خان، حاكم جيلان

كان خان أحمد خان يتولى حكم جيلان من قِبل الشاه طهماسب الأول ولكنه حاول أن يستقل بها، فقبض عليه الشاه وسجنه في قلعة إصطخر، وظل في السجن مدة عشر سنوات إلى أن تولى الشاه محمد خدابندة الحكم، فعفا عنه وأعاده إلى حكم جيلان وزوَّجه أخته مريم سلطان بيكم[٢]، وقد أمل أن تكون العلاقة الأسرية دافعاً له لعدم الخروج على الدولة، ولكن خان أحمد خان، الذي اتصف بالطموح السياسي، استغل ضُعف الشاه محمد خدابندة وراح يُوسِّع دائرة نفوذه، ويسير بشكل متسارع نحو الاستقلال بما تحت يديه، وبقي على هذا الحال حتى تولى الشاه عباس الأول مقاليد الحكم، وقد انتهج سياسة إخضاع حكام الولايات، ولكن خان أحمد خان رفض محاولات التفاهم، بل إنه استقبل في جيلان القزلباش الفارين من وجه الشاه، ولما طلب منه هذا تسليمهم له، رفض الطلب، ما زاد العلاقة بينهما تأزماً[٣].

واتخذت حركة خان أحمد خان بُعداً إقليمياً حين أجرى مباحثات مع العثمانيين وطلب منهم مهاجمة الأراضي الإيرانية بدءاً من لاهيجان، ثم يتقدمون باتجاه قزوين وباقي المناطق الإيرانية، وأبدى استعداده للتعاون معهم[٤].

وعلم الشاه عباس الأول بأمر هذه المباحثات بعد أن عقد اتفاق صلح مع العثمانيين، فصمَّم على القضاء عليه، ولما كان منهمكاً في إخضاع حركة يعقوب

---

(١) الأسترآبادي: ص١٤٨. فلسفي: جـ٣ ص١٠١١، ١٠١٢.

(٢) الأسترآبادي: ص١٠٤.

(٣) فلسفي: جـ٣ ص١٠١٩، ١٠٢٠.

(٤) قليخان: جـ٨ ص٢٦١ ـ ٢٦٢.

خان ودفْع الأوزبك عن خراسان، فقد مال إلى التفاهم معه ريثما ينتهي من هاتين المشكلتين، فطلب منه أن يُرسل زوجته، عمة الشاه، وابنته إلى قزوين لتقدما فروض الولاء والطاعة، إثباتاً على حسن نيته، ولكن خان أحمد خان رفض الطلب[١].

وفي رواية أن الشاه عباس الأول لجأ إلى رباط المصاهرة للقضاء على حركة خان أحمد خان، فعرض عليه أن يخطب ابنته إلى ابنه صفي ميرزا، ولكن خان أحمد خان رفض الطلب بحجة أن ابنته لا زالت صغيرة، إذ لها أربع سنوات من العمر[٢].

نتيجة لرفض عروض التفاهم، قرَّر الشاه القضاء على تمرد واليه، فأرسل جيشاً بقيادة فرهاد خان اصطدم به في جيلان وانتصر عليه، ففرَّ إلى بلاد العثمانيين عن طريق شَروان، وتعذَّر عليه أن يصطحب زوجته وابنته، فاستقدمهما الشاه إلى قزوين حيث عاشا في كنفه، فتوفيت الزوجة في عام (١٠١٧هـ/١٦٠٨م)، وعندما بلغت الابنة سن الزواج طلب الشاه من ابنه صفي ميرزا أن يتزوجها فرفض ما دفع الشاه إلى أن يتزوجها هو. وحاول خان أحمد خان العودة إلى جيلان والتفاهم مع الشاه إلا أن هذا الأخير رفض عودته[٣].

حركة شاه وردي خان

كان شاه وردي خان حاكماً على لورستان، فطمع في توسيع رقعة ولايته، فهاجم قلعة صد مرة[٤] واحتلها، وحتى يُقوي موقفه دعا جميع أمراء لورستان إلى تشكيل حلف مناهض للشاه عباس الأول، فارسل إليه الشاه حملة عسكرية بقيادة مهدي قولي خان شاملو اصطدمت به وطردته من المنطقة، فذهب إلى بغداد[٥]، وظلَّ يترقب الفرصة للعودة إلى لورستان. وما جرى من خروج الشاه عباس الأول إلى خراسان لدفع خطر الأوزبك، أتاح تنفيذ ما يصبو إليه، فهاجم لورستان واحتلها، فاضطر الشاه أن يرسل حملة أخرى للقضاء على حركته، فقبض قائدها عليه وقتله، كما قتل الكثير من أتباعه، وأمر الشاه بسجن ولديه في قلعة أَلْمُوت[٦].

---

(١) فلسفي: جـ٣ ص١٠٢١.

(٢) نوائي، عبد الحسين: **شاه طهماسب صفوي، مجموعة إسناد ومكاتبات تاريخي**، ص١٣.

(٣) الأسترآبادي: ص١٥٣، ١٥٤. قليخان: جـ٨ ص٢٦٣. نوائي: ص١٣.

(٤) ورد عند الحموي: سبسر بلد متاخم لهمذان، بينها وبين أذربيجان، وكانت تُدعى صدخانية أي ثلاثون رأساً لأنها تقع في منخفض من الأرض بين ثلاثين من رؤوس آكام، ثم لكثرة عيونها وينابيعها. **معجم البلدان**: جـ٣ ص٢٩٧.

(٥) الأسترآبادي: ص١٥٩.

(٦) فلسفي: جـ٣ ص١٠٦٢، ١٠٦٣.

القضاء على استقلال لار[1]

كانت مدينة لار ومنطقتها في فارس جزءاً من إيران وتتمتع بحكم ذاتي منذ ما قبل الصفويين، ويتهادن حكامها مع الحكومات التي تسيطر على إيران ويدفعون لهم مبلغاً من المال مقابل الاحتفاظ بهذا الاستقلال. وبقي الحال كذلك حتى قيام الدولة الصفوية، فتعهدوا للشاه إسماعيل الأول بدفع المال المقرر عليهم مقابل استمرار وضعهم الاستقلالي، فوافق الشاه على ذلك. وانتهج الشاه طهماسب الأول سياسة والده الشاه إسماعيل الأول فيما يتعلق بالعلاقة مع حكام لار[2]، لكن ما جرى من الاضطرابات في عهد كل من الشاه إسماعيل الثاني والشاه محمد خدابندة، دفع حكام لار إلى التوقف عن دفع الأموال المقررة عليهم. وعندما تولى الشاه عباس الأول مقاليد الحكم حاول إقناعهم بإعادة دفع ما يتوجب عليهم وهدَّدهم بضم بلادهم إلى ممتلكاته، ويبدو أن هؤلاء لم يستجيبوا لندائه، فراح يبحث عن ذريعة لتأديبهم. وتأزم الموقف بين الجانبين عندما أقدم حاكم لار إبراهيم خان على الاعتداء على أحد التجار الأجانب الوافدين إلى إيران، واستولى على أمواله، وأموال زوجته، وحرص الشاه على استرضاء التاجر الأجنبي، فطلب من إبراهيم خان رد الأموال التي استولى عليها، فتباطأ في تنفيذ الطلب، فأمر عندئذ حاكم فارس وردي خان[3] أن يتقدم باتجاه لار ويُخضع إبراهيم خان ويُعيد أموال التاجر إليه. ونفَّذ وردي خان أمر الشاه، فألقى القبض على إبراهيم خان وأرسله مكبلاً إلى مقر الشاه في أصفهان، وذلك في عام (١٠١٠هـ/ ١٦٠١م)، كما فرض ضرائب باهظة على سكان لار تعويضاً عن السنوات السابقة التي امتنعوا فيها عن الدفع[4]، واستولى على الخزائن[5].

وهكذا قضى الشاه عباس الأول على استقلال لار وضمَّها إلى أملاك الدولة الصفوية، وقد ساءه أن يكون جزء من إيران خارج عن سلطته.

---

(١) لار: اسم مدينة في فارس تقع على البحر، أغلب أهلها من التجار الذين يجوبون البحر، وينمو فيها القمح والقطن والتمر، كثيرة البساتين والعيون والمياه المطردة، وكانت تُضرب فيها النقود في أيام التيموريين ما يدل على أنها كانت على شيء من الأهمية. لسترنج: ص٣٢٩.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٤٥، ٢٤٦.

(٣) اسمه في الأصل: الله وردي خان، ولما كان لا يصح إسلاماً أن يُسمى عبد من عباد الله باسم الله، فقد سميناه وردي خان.

(٤) الأسترآبادي: ص١٧٢. منشي: ص٤٢٥ ـ ٤٢٧.

(٥) كان من موجودات الخزائن تاج مرصع بالياقوت والدر، قيل بأنه تاج كيخسرو الساساني، وقد احتفظ به حكام لار منذ العهد الساساني، وكانوا يتوارثونه بينهم، وقد أرسل وردي خان هذا التاج إلى الشاه عباس.

ونشبت إلى جانب هذه الفتن، فتن أخرى أقل أهمية استطاع الشاه عباس الأول أن يقضي عليها بسهولة، لعل أهمها فتنة شاه ملك في جيلان، وفتنة الجماعة التي عُرفت باسم سياه پوش في استرآباد[1]. وقد أدّى نجاح الشاه في القضاء على هذه الفتن إلى استتباب الأمن في ربوع الدولة الصفوية، وأضحى حكام الأقاليم يخشون سطوته ويمتنعون عن الخروج على حكمه، ما أتاح له الاهتمام بالشؤون الإدارية والاقتصادية.

الإدارة في عهد الشاه عباس الأول

كان الشاه عباس الأول حاكماً مطلقاً، بحكم العرف الذي كان سائداً في الدول المشرقية، وهذا يعني هيمنته على الأجهزة الإدارية، لكن كثرة مشاغله في الحروب بشكل خاص وإخضاع الثائرين، دفعه إلى الاستعانة ببعض الوزراء والكتَّاب لتسيير دفة الحكم، وأهم هؤلاء وفقاً لأهمية مناصبهم:

١ ـ اعتماد الدولة، وهو الوزير الأعظم والشخص الثاني في التراتبية الإدارية بعد الشاه، يتولى رئاسة أركان الدولة، وهو المشرف على الشؤون المالية والمتصرف في جميع النفقات، ويجلس إلى يمين الشاه في المجالس والمناسبات الرسمية، لذلك دُعي بوزير الميمنة، يوقع القرارات قبل أن يرفعها إلى الشاه للمصادقة عليها واعتمادها[2].

تولى هذا المنصب خلال عهد الشاه عباس الأول سبعة أشخاص هم:

ـ ميرزا شاه ولي، وقد رشَّحه مرشد قولي خان لتولي هذا المنصب بعد تتويج الشاه عباس الأول، وظل يشغله حتى قُتل مرشد قولي خان، فأُبعد عندئذ عن منصب الوزارة[3].

ـ ميرزا محمد كرماني، تولى منصب الوزير الأعظم بعد مقتل مرشد قولي خان بفعل إسهامه في عملية القتل، وكان ذلك بمثابة مكافأة له. ويبدو أن هذا الرجل كان طموحاً، فقد حاول انتهاج سياسة سلفه في التفرد بأمور الدولة من دون العودة إلى الشاه، كما أدَّى ابنه دوراً في تأليب الشاه ضده من واقع تصرفاته السيئة، الأمر الذي أدَّى إلى إثارة الشاه الذي عزله وقتله بعد ستة أشهر من توليه هذا المنصب وذلك في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م)[4].

ـ ميرزا لطف الله الشيرازي، تقلَّد منصب الوزير الأعظم مدة عامين إلى أن تَمَّ

---

(١) بازوكي: ص٣١٩. جمعة والخولي: جـ١ ص٢٤٧.

(٢) فلسفي: جـ٢ ص٨٠٦، ٨٠٧. أحمدي: ص١١٥، ١١٦.

(٣) فلسفي: المرجع نفسه ص٨٠٧. الأسترآبادي: ص١٤٢.

(٤) قليخان: جـ٨ ص٢٥٨. فلسفي: جـ٢ ص٨٠٨.

عزله في عام (١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م)[١].

ـ حاتم بك الأردوباري، تولى الوزارة مدة عشرين عاماً (١٠٠٠ ـ ١٠١٩هـ/ ١٥٩٠ ـ ١٦١٠م)، وكان قبل ذلك يشغل وظيفة مستوفي الممالك، ويبدو أنه كان كفئاً ما لفت أنظار الشاه عباس الأول فعيَّنه وزيراً أعظم، واستمر طيلة المدة المذكورة[٢].

ـ ميرزا أبو طالب خان بن حاتم بك، شجَّع نجاح حاتم بك في أعماله الإدارية، الشاه عباس الأول على تعيين ابنه في منصب الوزارة العظمى، وقد شغل هذا المنصب مدة عشر سنوات حيث عزله الشاه في عام (١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م) لسوء خلقه وإدمانه الشرب، والتفاف ندماء السوء من حوله[٣].

ـ سلمان خان استاجلو، شغل منصب الوزارة العظمى مدة خمس سنوات (١٠٣٠ ـ ١٠٣٤هـ/ ١٦٢١ ـ ١٦٢٥م) وقد توفي في ذلك العام الأخير بالمرض[٤].

ـ سلطان العلماء خليفة سلطان، تولى الوزارة العظمى عام (١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م)، وبقي في منصبه حتى وفاة الشاه عباس الأول في عام (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٩م)، فاستوزره الشاه صفي حتى عام (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)[٥].

٢ ـ ركن السلطنة، رئيس طوائف القزلباش، ويتولى إدارة الحرس الخاص بالشاه، ويُوقع جداول مرتباتهم، من الذين تولوا هذا المنصب في عهد الشاه عباس الأول عيسى خان الصفوي رئيس طائفة شيخاوند وصهر الشاه[٦].

٣ ـ ركن الدولة، هو قائد الجيش الذي شكَّله الشاه عباس الأول من الغلمان. وأول من تولى هذا المنصب شاه وردي خان[٧].

٤ ـ كبير الياوران، هو المسؤول عن التشريفات وتنظيم مجلس الشاه وتحديد المكان الذي سيجلس فيه كل عضو وتحديد عدد الواقفين، ويساعده أربعون شخصاً[٨].

٥ ـ قائد حملة البنادق، هو قائد الجيش الذي شكَّله الشاه عباس الأول من الفلاحين ورعايا الولايات وأعراب خوزستان، وقد سلَّحه بالبنادق. ويُشرف هذا القائد على تدريب عناصر الجيش وإعداده للمهمات التي يكلفه الشاه بها[٩].

٦ ـ رئيس الديوان، هو المشرف على قصور الشاه وخزائنه وأملاكه الخاصة،

---

(١) الأسترآبادي: ص١٤٤، ١٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص١٤٩، ١٧٥.
(٣) فلسفي: جـ٢ ص٨٠٨.
(٤) المرجع نفسه: جـ٢ ص٨٠٩.
(٥) الأسترآبادي: ص٢٣٥، ٢٤٤.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٢٢. فلسفي: جـ٢ ص٨٠٩.
(٧) فلسفي: جـ٢ ص٨١٠.
(٨) المرجع نفسه.
(٩) المرجع نفسه: ص٨١١.

ويؤمِّن أرديته والخِلع التي يُنعم بها، وينظم الميزانية الخاصة لهذه القصور ويُرسلها إلى اعتماد الدولة كي يُوقِّعها لتصبح سارية المفعول(١).

٧ ـ كاتب مجلس الشاه، هو أكثر الناس احتراماً في البلاط بعد الوزير الأعظم، لأنه يطَّلع، بحكم وظيفته، على أسرار الدولة، ويجلس إلى يسار الشاه في المجالس الخاصة والعامة ويخط بيده جميع أوامره ويُبلِّغها إلى أصحابها، كما يتولى عرض رسائل حكام الولايات على الشاه، لذا كان يُسمى «عاليجاه مقرَّب الخاقان»(٢).

كانت عمة الشاه عباس الأول زينب بيكم تحضر بعض المجالس الرسمية، وهي المرأة الوحيدة التي كان يُسمح لها بالحضور وإبداء الرأي حيث كان الشاه يأخذ برأيها أحياناً.

وعلى الرغم من وجود هذا العدد من الوزراء والكتَّاب إلا أن آراءهم تبقى استشارية، ويعود للشاه وحده اتخاذ القرار بفعل الحكم المطلق الذي كان سائداً، ورأيه ملزم للجميع من دون مناقشة.

ويستند حكم الشاه عباس الأول على شبكة من الجواسيس والمخابرات، كان يبثهم في جميع أنحاء الدولة ليوافوه بما يجري من أحداث، كما كان يُكلفهم بالتنصت على أوضاع الناس وسماع شكاياتهم من الأمراء والحكام، وقد وصل هذا النظام إلى درجة متقدمة بحيث أن أحداً لم يجرؤ على التحدث عن عيوب الشاه(٣).

الواقع أن الشاه عباس الأول حقَّق نجاحاً ملحوظاً في إدارته على الرغم من قسوته، بدليل أن وضع الدولة الصفوية قبل عهده، من واقع الاضطراب وعدم الاستقرار الداخلي، هو غير وضعها في عهده حيث وحدة الأقاليم والاستقرار مع الأمن والتوسع والحروب الناجمة(٤).

الحياة الاقتصادية

واردات الدولة

اهتم الشاه عباس الأول بتنمية الحياة الاقتصادية نظراً لما كانت تُحققه من ازدهار وتوفير الأموال اللازمة لإنفاقها في مجالات مختلفة تصب في مصلحة البلاد.

واستعمل الإيرانيون في عهد هذا الشاه العملة الفضية في التعامل، وأشهر وحداتها: «العباسي» وتساوي مائتي دينار، و«نيم عباسي» أي نصف عباسي، وتساوي مائة دينار، و«شاهي» وتساوي خمسين دينار، و«بيستي» أي عشرين، وتساوي عشرين ديناراً(٥).

---

(١) فلسفي: جـ٢ ص٨١١.
(٢) المرجع نفسه: ص٨١٢.
(٣) فلسفي: جـ٣ ص١٠٧٦.
(٤) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٥٣.
(٥) فلسفي: جـ٣ ص١١٨٧.

وتعدَّدت مصادر واردات الدولة في عهد الشاه عباس الأول نذكر منها:

ـ الرسوم المفروضة على الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى ما يفرضه الشاه على حكام الولايات من نِسَب على إنتاجهم الزراعي والحيواني والبشري. فكانت كردستان ملزمة بتوريد جزء من زيوتها إلى العاصمة أصفهان، وفُرض على بلاد الكرج توريد بعض الغلمان والجواري، في حين تُرسل خوزستان عدداً معيناً من الخيول العربية، وتُورِّد جيلان جزءاً من إنتاجها من الحرير[١].

ـ الرسوم التي تُحصَّل من أملاك الشاه الخاصة.

ـ الضرائب المفروضة على المداخيل المرتفعة، وعلى الملَّاك، كأصحاب قطعان الماشية بالإضافة إلى الحرفيين، ومنتجي الحرير الذين فُرض عليهم تقديم ثلث إنتاجهم للدولة.

ـ الجزية المفروضة على غير المسلمين مثل: الشركس والأرمن والكرجيين وغيرهم ممن يدينون بالديانات اليهودية والنصرانية والمجوسية.

ـ حصيلة مداخيل الجمارك في الموانئ الإيرانية المطلة على الخليج العربي وتعادل عشرة في المائة من أثمان الواردات إلى إيران، مع العلم بأن التجارة البرية مع العراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى كانت معطلة بفعل العداء المستحكم بين الدولتين الصفوية والعثمانية.

ـ ضريبة التبغ، وكانت تدر مبالغ طائلة على الخزينة بفعل كثرة استعمال التبغ من قِبل الإيرانيين، وقد أثار ذلك خشية الشاه عباس الأول على الصحة العامة، فأصدر في عام (١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م) قراراً بتحريمه، فتناقصت مداخيل الخزينة، الأمر الذي دفعه إلى السماح باستعماله مجدداً.

بلغ الدخل القومي في إيران في عهد الشاه عباس الأول ألف ومائتي تومان يومياً، وفي المقابل بلغ إجمالي الإنفاق حوالي ألف تومان، فكان هناك فائض قدره مائتي تومان[٢] استغله الشاه في:

أ ـ الحركة العمرانية.

ب ـ القيام بحروب متواصلة في الشرق والغرب.

جـ ـ تبادل التحف والهدايا مع ملوك أوروبا والهند[٣].

---

(١) فلسفي: جـ٣ ص١١٩٧، ١١٩٨. جمعة والخولي: جـ١ ص٢٥٤.

(٢) فلسفي: المرجع نفسه ص١١٩٧.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٥٥.

الأنشطة الاقتصادية

انحصرت الأنشطة الاقتصادية في إيران في عهد الشاه عباس الأول بثلاثة، هي: النشاط التجاري والنشاط الزراعي والنشاط الصناعي.

فيما يتعلق بالنشاط التجاري، فقد حرص الشاه على الانفتاح التجاري على الشرق، الصين والهند، والغرب مع الدول الأوروبية، وجعل العاصمة أصفهان مركزاً تجارياً عالمياً ورئيساً للتجارة الشرقية، يقصدها التجار من جميع أنحاء العالم، فشجَّع التجارة ودعا تجار العالم لزيارة إيران، وسهَّل لهم السُبل والإقامة، وقدَّم لهم الضمانات التي من بينها:

- منْع حكام الأقاليم من التعرض لهم، والسماح لهم بحرية التنقل في جميع أرجاء إيران، وقد ذكرنا أن من بين أسباب قضائه على حكومة لار المستقلة ذاتياً كان اعتداء حاكمها إبراهيم خان على أحد التجار الأجانب وسلبه أمواله.

- السماح للتجار الأجانب بممارسة عاداتهم وتقاليدهم من دون إلزامهم بمراعاة العادات والتقاليد الإيرانية.

- تحذير رجال الدين الشيعة وبخاصة المتشددين منهم بعدم التعرض للتجار الأجانب والتغاضي عن السماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية، وتشدَّد في ذلك.

- كانت بعثاته إلى الدول الأوروبية تُرَكِّز في مفاوضاتها مع الأوروبيين على الناحيتين السياسية والتجارية معاً. فعندما سافر أنطوني شيرلي وحسين علي بك إلى أوروبا، عقدا معاهدات تجارية لبيع الحرير الإيراني إلى الدول التي زاراها، والمعروف أن البريطانيين كانوا يشترون الحرير الإيراني من حلب بأسعار مرتفعة، غير أن اتصالهم المباشر بإيران وتعاملهم التجاري معها، مكَّنهم من شرائه بنصف ثمنه، فضلاً عن أنه يمكن بيع الصوف الإنكليزي في أسواق إيران وشراء الحرير بثمنه.

- تطلَّب تسهيل سبل التجارة، تمهيد الطرق التي تسلكها القوافل التجارية وتعبيدها وتحقيق الأمن عليها. فاهتم الشاه بذلك كله، فأنشأ الخانات على طول الطرق التجارية لتقديم حاجات التجار والمسافرين من طعام وجياد وأماكن للمبيت، وزوَّدها بالحاميات العسكرية والحراسة المشدَّدة، وسيَّر دوريات متنقلة لتأمين القوافل ضد اللصوص وقطاع الطرق.

- اهتم بموانئ إيران المطلة على الخليج العربي، وبنى ميناء بندر عباس ليحل محل ميناء كمبرون الذي فَقَدَ أهميته بعد طرد البرتغاليين منه. فازدهرت الموانئ في عهده، وأقامت الشركات التجارية الأجنبية فيها دوراً تجارية لها، نذكر من هذه

الشركات، شركة الهند الشرقية الإنكليزية وشركة الهند الشرقية الهولاندية[١].

اعتمدت التجارة الصفوية بشكل رئيس على مادة الحرير التي اشتهرت المدن الإيرانية بإنتاجه، واحتكر الشاه عباس الأول هذه التجارة لنفسه بفعل ما تدره من أرباح، فكان يشرف على عمليات تسويقه، وهو حريص على تصديره عبر موانئ الخليج بفعل معاداته للدولة العثمانية التي تمر طرق التجارة عبر أراضيها، العراق والشام، وكثرة حروبه معها، وعدم رغبته في دفع رسوم العبور إلى دولة معادية. فكان الحرير يُرسل إلى ميناء هرمز في جنوبي الخليج فتحمله السفن الأوروبية إما إلى الهند أو إلى أوروبا عبر طريق رأس الرجاء الصالح، وهناك طريق آخر تسلكه القوافل التجارية براً عبر الأراضي الروسية ومنها إلى أوروبا[٢].

كان ميناء هرمز آنذاك تحت السيطرة البرتغالية، واحتكر البرتغاليون حركة التجارة الجنوبية، منذ أيام الشاه إسماعيل الأول، فكان الحرير يُنقل بواسطتهم، وأدّى مسلكهم هذا إلى استياء الشاه عباس الأول، فحاول التخلص منهم عن طريق التآمر مع مندوبي شركة الهند الشرقية الإنكليزية، وخلْق منافسة بين التجار؛ ما يؤدي إلى رفع قيمة الحرير الإيراني، وقد نجح في ذلك.

شكّل الانفتاح التجاري في عهد الشاه عباس الأول النافذة التي أطلّت منها إيران على العالم الخارجي، وجعل أصفهان تعج بالتجار الأجانب. وقد وفّر هذا الانفتاح رخاء اقتصادياً نرى أثره في النهضة العمرانية التي لم تشهد إيران مثيلاً لها قبل عهد الشاه وبعده، ونتيجة لذلك نُعتت أصفهان في الأمثال الفارسية بنصف الدنيا[٣]. لكن هذا الانفتاح جلب إلى المنطقة الإيرانية ـ العربية المطلة على الخليج العربي الكوارث من خلال اندفاع الشركات الأجنبية ومن ورائها الحكومات الأوروبية إلى إيجاد موطئ قدم والتحكم بسياسة المنطقة، فيما سمي في العصر الحديث بالاستعمار الأوروبي، في ظل افتقار المنطقة إلى رجل قدير يوقف هذا الاندفاع الاستعماري.

وفيما يتعلق بالنشاط الزراعي، فقد كانت الأراضي الزراعية مقسمة في عهد الشاه عباس الأول إلى أربعة أقسام هي[٤]:

١ ـ أراضي الولايات التي يُشرف عليها حكام الأقاليم وتشغل القسم الأكبر بين أراضي إيران الزراعية.

---

(١) ليكهارت، لورانس: **انقراض سلسلة صفوية وأيام استيلاي أفاغنة در إيران** ص٤١٤.

(٢) Sykes: II, p189.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٦٠. **دائرة المعارف الإسلامية**: جـ٢ ص٢٦٠.

(٤) فلسفي: جـ٣ ص١١٩٩، ١٢٠٠.

٢ ـ الأملاك الخاصة بالشاه عباس الأول ويعود ريعها إلى خزائنه الخاصة.
٣ ـ أراضي الأوقاف الخيرية، وهي التي أوقفها أصحابها على المؤسسات الدينية.
٤ ـ أراضي عامة الشعب، وهي التي كان الشاه عباس الأول يمنحها للسكان على شكل إيجار رمزي مدته تسع وتسعين سنة، وتعود بعد انتهاء المدة إلى حاكم الإقليم الذي يعيد إجارتها إما إلى المستفيد السابق أو إلى منتفع جديد، ونسبة هذه الأراضي ضئيلة.

وبناء عليه، فإن الفلاحين الإيرانيين حُرموا من ملكية الأراضي التي يزرعونها، إلا أن الشاه كان يمنح الذين جار عليهم الزمن الأراضي والماشية، ويوقف بعض أراضيه لصالحهم، وقد حدث هذا بعد انتصاره على العثمانيين في معركة شماخي في عام (١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م)[١]، ويفوق عدد العاملين في الزراعة عدد الذين يعملون في مهن أخرى.

يلاحظ من خلال هذا التقسيم للأراضي أن الشاه كان يملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية، كما أن أطماعه في هذا الأمر غير محدودة ولا مقيدة، فكان باستطاعته أن يضم أراضٍ إلى ملكيته الخاصة، وقد حدث هذا على سبيل المثال عندما تخلَّص من قادة القزلباش وضمَّ أراضيهم إلى أملاكه، كما ضمَّ جميع أراضي الشاه طهماسب في منطقة أصفهان، وكانت في حوزة أخيه حمزة ميرزا وأخيه أبي طالب من بعده[٢].

وفيما يتعلق بالنشاط الصناعي، فقد تعدَّدت الصناعات في عهد الشاه عباس الأول نذكر منها:

صناعة الأسلحة: قامت صناعة الأسلحة بالتعاون مع الشركات الإنكليزية، فأُنشئت المصانع الخاصة بصناعة البنادق وعربات المدافع، وقد ساعدت هذه المعدات الشاه على التصدي للعثمانيين.

صناعة الفنون: أسس الشاه عباس الأول في أصفهان مدرسة للرسم، وكان مطلوباً من الطلاب أن ينسخوا أشهر المنمنمات، حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص قبل أن تتحوَّل عن التقليد الإسلامي بفعل التأثير الغربي من واقع رسم منمنمات يبرز فيها الإنسان على أنه الفكرة الرئيسة، والمعروف أن رسوم الأشخاص كانت مستبعدة في أول الأمر ثم أُبيحت على أنها شيء ثانوي عارض، في المراحل المتأخرة ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة، مثل «مدرب الباز» و«شاعر يجلس في الحديقة» وتكشف هذه الرسوم كل التفاصيل عن الرشاقة الإيرانية المتميزة. وثمة إبداع آخر في الرسوم الحائطية في چهل ستون. وبرز التخصص في زخرفة القرآن الكريم وفي تذهيب الآثار الأدبية القديمة، مثل

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٩٠. (٢) فلسفي: جـ٣ ص١٢٠٠.

الشاهنامة للفردوسي أو گلستان لسعدي التي ذهَّبها حسن البغدادي بماء الذهب، وتفوّق رضا العباسي في الرسم في هذه المرحلة[١].

وتدهور هذا النوع من الفن بعد وفاة الشاه عباس الأول بفعل انحطاط الدولة الصفوية، إذ إن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته انتهيا إلى إفراط مُخَنَّث، لكن هذا الفن الإيراني أثَّر بدوره في رسم المنمنمات في دولة المغول في الهند، وفي عمارتهم، ولم يكن تاج محل إلا فصلاً جديداً في فن أصفهان[٢].

وبقي الخط فناً رئيساً في إيران الصفوية، وكاد مير عماد يحظى بعناية فائقة من جانب الشاه عباس الأول بفضل نسخه الدقيق للمخطوطات القديمة، وكانت الكتب في ذلك الوقت موضع إعزاز وحب بفضل محتوياتها وتجليدها الفني المذهب.

واشتهرت المدن الإيرانية بصناعة الأواني الخزفية المحلاة بالرسوم، والتي يثير فن صناعتها الدهشة نظراً لطول بقاء بريقها وإطالة عمر اللون بسبب تزجيجها بالنار، ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الإيرانيين لصنع التربيعات في كنيستهم في جلفا وهي تبلغ في دقتها دقة المنمنمات[٣].

واستمر الخزافون في أصفهان وقاشان وغيرهما يُبدعون أشكالاً من الخزف مثل: القناني والأباريق، والأطباق، والفناجين، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة. وأضحى الخزف المزخرف الفسيفسائي مادة لتغطية الجدران في المساجد والقصور. واستورد الشاه عباس الأول الخزف الصيني، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل لكن أعوزتهم الطينة والمهارة. وتفوّق صنّاع الأشغال المعدنية في نقش النحاس وتطعيمه[٤].

وازدهرت صناعة النسيج في عهد الشاه عباس الأول، وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزاً كبيراً في أصفهان، وكانوا يعدون بالآلاف، وكان إنتاجهم هو السلعة الرئيسة في تجارة الصادرات. وقد خصَّص الشاه مصانع العاصمة لإنتاج المنسوجات التي كان يهديها إلى ملوك أوروبا وأمرائها، وأدى ذلك إلى خلق عنصر المنافسة بين هذه المصانع لتقديم الأجود، ثم إن الثياب الحريرية التي كان يرتديها الشاه ورجال حاشيته، والأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد يفوق الملابس في أي بلاط أوروبي[٥]، ولم يكن لمخمل قاشان نظير في أي مكان آخر.

---

(١) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**: م٧ جـ٣ ص١٦٠، ١٦١ .

(٢) Pope, A.U: **Survey of Persian Art**. I, p7n.

(٣) Pope: II, p549.

(٤) ديورانت: م٧ جـ٣ ص١٦٢.

(٥) بخش: ص٢٨٥.

Chardin, John: **Travels in Persia,** pp134-136.

وبلغ النسيج الإيراني ذروته في الرسم وصناعة الجلد، وشهد عصر الشاه عباس الأول قمة مجد هذا الفن في إيران. وكاد السجاد أن يكون ضرورياً للإيراني قدر حاجته إلى الملابس الصوفية، واحتوت منازل الإيرانيين على قليل من الأثاث والأدوات المنزلية وكثير من السجاجيد وبعض أشغال النحاس، وليس ثمة منزل مهما قلَّ شأن ساكنيه إلا جلسوا على سجادة ثمينة أو غير ثمينة، وتغطي السجاجيد كل الدار أو الغرفة(١).

وساد آنذاك اللون القرمزي القاتم أو الأحمر الخمري الداكن ولكن الرسم كان هادئاً مريحاً للنظر، وكثيراً ما قام على الأزهار المنسقة تنسيقاً جميلاً مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك في رشاقة، وأدخل الصناع الإيرانيون الخيوط الذهبية والفضية والحريرية في صناعتها، وأمر الشاه بصناعة سجاجيد من الحرير، ونالت هذه الصناعة شهرة فائقة في أوروبا حتى أن ملك بولندة، المعاصر للشاه عباس الأول، أرسل بعض التجار ليشتروا له سجاجيد إيرانية حريرية ليزين بها قصره(٢).

استلزمت الصناعة بعامة بناء مصانع جديدة وتدريب العمال على الصناعات المختلفة ما ساعد على ارتقاء طبقة الصناعيين والحرفيين وازدياد مداخيلهم، وقد شكَّلوا نقابات تتولى المحافظة على حقوقهم والدفاع عن مصالحهم(٣).

وهكذا نجح الشاه عباس الأول، بعد أن أعاد الاستقرار إلى ربوع بلاده، في تحقيق نهضة اقتصادية استفاد منها خلفاؤه على الرغم من أنهم لم يرتقوا إلى مصافه أو يصلوا إلى درجة الازدهار التي وصل إليها.

علاقة الشاه عباس الأول مع العامة

على الرغم من قسوة الشاه عباس الأول وشدته على طوائف القزلباش وحكام الولايات والقادة؛ فإنه كان رحيماً في علاقته مع العامة، وهو حريص على مساعدتهم والتخفيف من ضائقتهم ومناصرتهم ضد أي والٍ يحاول أن يفرض سلطانه عليهم، بل إنه شكَّل شبكة من العيون كانت تتحرَّى عن معاملة الحكام للأهالي وترفع تقريراً عنها إليه، وكان إذا تنقَّل بين الولايات والمدن يسأل السكان عن مسلك حاكمهم، فإذا اشتكوا منه عزله وأمر بمحاكمته. ثم إن الاستقرار السياسي الذي نعمت به إيران في عهده أتاح الفرصة لقيام نهضة اقتصادية استفاد منها العامة،

---

(١) Pope: **Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets,** p17.

(٢) ديورانت: م٧ جـ٣ ص١٦٣. بخش: ص٢٩٦. جمعة والخولي: جـ١ ص٣٦٢.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٦٥.

وتعاطفاً مع هؤلاء لم يكن يُحمِّلهم نفقات الحروب، ويُعوِّض على الذين تُصيبهم ويلاتها، ما دفعهم إلى التفاني في الحروب وتأييد سياسته العسكرية.

وحرص الشاه على تقديم الطعام لزائري الأماكن المقدسة والمزارات الشيعية، وبخاصة زائري مشهد الإمام علي الرضا وقبر الشيخ صفي الدين في أردبيل، وكان يمنح المحتاجين منهم نقوداً.

وكان الشاه يشعر مع أفراد الطبقة العاملة ويجتهد في مساعدتهم ضد العوز ومصائب الدهر، ما دفع البعض للقول بأنه في عطفه هذا وعدله في الرعية، يُعدُّ أنو شروان الثاني[١].

والراجح أن هذا التقرب من العامة والتعاطف معها كان سياسة مقصودة من قِبَل الشاه عباس الأول خدمت أهدافه وخلقت جبهة داخلية صلبة استند عليها وآزرته، وشكَّلت عماد جيشه بعد أن تخلَّص من سطوة القزلباش[٢].

نزعات الشاه عباس الأول الدينية

تعصبه الشديد للمذهب الشيعي: اشتهر الشاه عباس الأول بتعصبه الشديد للمذهب الشيعي الاثني عشري، وهو كأسلافه بذل جهداً كبيراً في ترويجه ونشره. ومن مظاهر اهتمامه بهذا المذهب أنه كان يحتفل بالمناسبات الشيعية كافة، مثل ميلاد جميع الأئمة الشيعة وإقامة العزاء في ذكرى وفاتهم أو استشهادهم، وكذلك في اليوم التاسع عشر حتى السابع والعشرين من شهر رمضان بمناسبة استشهاد الإمام علي بن أبي طالب، بالإضافة إلى إقامة مراسم العزاء في الأيام العشرة الأولى من محرم وفي ليلة عاشوراء بمناسبة استشهاد الإمام الحسين بن علي[٣].

وأبقى الشاه عباس الأول على صيغة الآذان التي استنها جده الشاه إسماعيل الأول بإضافة عبارة «أشهد أن علياً ولي الله» إلى جانب الصيغة التي كانت سائدة منذ أيام الفاطميين وهي عبارة «حي على خير العمل»، وذلك إلى الصيغة الإسلامية المألوفة. واستكثر من زيارة أضرحة مشايخ الشيعة وأئمتهم، والقيام بخدمتها، وقد زار ضريح الإمام علي الرضا في مشهد، مرة، سيراً على الأقدام وحافي القدمين[٤]، ومكث هناك ثلاثة أشهر يقوم بالخدمة[٥]. وعندما استولى على بغداد في عام

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٦٦.
(٢) المرجع نفسه: ص٢٦٦، ٢٦٧.
(٣) فلسفي: جـ٣ ص٨٤٧، ٨٤٨.
(٤) انطلق الشاه عباس من عاصمته أصفهان إلى مشهد وتبلغ المسافة حوالي ١٣٣٣كلم.
(٥) قليخان: جـ٨ ص٣٣١.

(١٠٣٢هـ/١٦٢٣م)، وسيطر على العتبات المقدسة لدى الشيعة الموجودة في كربلاء والنجف والكوفة، سارع بزيارتها، وقضى مدة عشرة أيام في ضريح الإمام علي بن أبي طالب في النجف حيث قام بخدمة زواره، وكنْس أرض المقبرة[١].

وعلى الرغم من تعصبه الشديد، فقد تصدَّى لنفوذ رجال الدين الشيعة، ولم يسمح لهم بالتدخل في الشؤون السياسية والعسكرية للدولة، وكفَّ أيديهم عن ذلك. والمعروف أن هؤلاء كانوا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية بعد وفاة الشاه إسماعيل الأول بفعل الفوضى التي اجتاحت البلاد، وبخاصة خلال حكم الشاه محمد خدابندة الضعيف، حيث أهمل رجال الدين الاهتمام بالأمور الدينية، والتفتوا إلى النواحي المادية بهدف الكسب والتسلط، ويتعارض ذلك مع المبادئ الدينية والحكم المطلق الذي طبع عهد الشاه عباس الأول[٢].

موقفه من المذاهب الإلحادية: إن تعصب الشاه عباس الأول للمذهب الشيعي الاثني عشري، دفعه إلى محاربة المذاهب الإلحادية الخارجة على الدين الإسلامي والتي انتشرت في إيران، وشكَّلت خطراً على المذهب الشيعي، ومن بينها المذهب النقطوي[٣].

تعرَّضت الدعوة النقطوية للملاحقة والتنكيل في عهد الشاه طهماسب الأول، ولكن اضطراب الأوضاع أثناء حكم الشاه إسماعيل الثاني والشاه محمد خدابندة، أتاح لها أن تنمو وتزدهر، وشكَّلت في إحدى مراحلها خطراً مباشراً على المذهب الاثني عشري. وعندما اعتلى الشاه عباس الأول مقاليد الحكم ووقف على مبادئها قرَّر القضاء عليها والتخلُّص من أتباعها، فقبض على زعمائها، كان من بينهم درويش خسرو قزويني ويوسف تركشي دوز، وبطش بأتباعها[٤]، واضطر من نجا منهم إلى الرحيل إلى الهند حيث عاشوا في كنف حاكمها جلال الدين محمد أكبر الذي اتسم عهده بالتسامح الديني والمساواة بين جميع الأديان والمذاهب[٥].

وقضى الشاه عباس الأول على الفتنة التي أثارها سيد محمد في جيلان، الذي ادعى بأنه نائب إمام الزمان والمهدي المنتظر، وقد تنامت دعوته بمن التف حوله من

---

(١) بازوكي: ص٣٣٦. فلسفي: جـ٣ ص٨٧٢. جمعة والخولي: جـ١ ص٢٧٢.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٣) يُنسب هذا المذهب إلى محمود نامي الجيلاني، بدأ دعوته في عام ٨٠٠هـ، وهي تقوم على أن التراب الذي هو أصل المخلوقات ليس إلا نقطة، ولذا عُرفت دعوته باسم النقطوية. قليخان: جـ٨ ص٢٧٣ ـ ٢٧٥. فلسفي: جـ٣ ص٩٠١، ٩٠٢.

(٤) القزويني: ص٤٠ ـ ٤١.

(٥) فلسفي: جـ٣ ص٩٠٩.

أهل جيلان الذين كانوا على علاقة سيئة مع الأسرة الصفوية الحاكمة. ويبدو أن دعوته كانت من سعة الانتشار والقوة إلى درجة دفعت الشاه إلى استعمال الحيلة للقضاء عليها والبطش بأتباعها، فأظهر استعداده لاعتناق مبادئها ولكن بعد أن يجتمع بمؤسسها ويتعرف عليه، ويقف منه على مبادئ دعوته، فاستدعاه إلى مازندران حيث كان يقيم في ذلك الوقت، وبعد مثوله أمامه ألقى القبض عليه وعلى أعوانه وقتلهم جميعاً[١].

موقفه من أهل السنَّة: دفع تشدُّد الشاه عباس الأول المذهبي إلى الانتقام من أهل السنة، وزادت المعارك المتواصلة بينه وبين كل من الأوزبك والعثمانيين السنَّة حدة الخصام المذهبي الذي وصل إلى حدٍّ دفعه إلى محاولة إقناع الإيرانيين بالتخلي عن الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج والاكتفاء بزيارة قبر الإمام الثامن علي الرضا في مشهده، بحجة أن الواجب القومي يحتم عدم سفر الإيرانيين عبر أراضي الدولة العثمانية المعادية ودفع رسوم العبور لها، وراح يُكثر من زيارة مشهد كي يُرغِّب الإيرانيين بالذهاب إليها. ونذكر من الأدلة الواضحة على نزعته المذهبية المتشدِّدة ومعاملته القاسية لأهل السنة، الحوادث التالية:

- أوقع الشاه عباس الأول بالأكراد الإيرانيين السُنَّة، ذلك أن القبائل الكردية السُنَّة، التي كانت تقطن المناطق الشمالية الغربية من أذربيجان ومنطقة كردستان، أعلنت تعاطفها مع العثمانيين عندما استولوا على أجزاء واسعة من أذربيجان، وعندما طردهم الشاه من المناطق التي سيطروا عليها، صمَّم على الانتقام من الأكراد وتشريدهم. وما حدث في عام (١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م) من ثورة قامت بها قبيلة مكري الكردية ضد الحكم الصفوي؛ أن أمر الشاه جيشه بالتحرك صوب المنطقة الثائرة والاستيلاء على القلاع التي تحصَّن بها الأكراد ومنها قلعتي بسك وماكو، والفتك بالثائرين، فنفَّذ الجيش الصفوي عمليات عسكرية ضد القلاع الثائرة، وأجرى فيها مذابح جماعية، وشرَّد الكثير من الأكراد وسبى النساء والأولاد[٢] وتمادى حين هجَّر قسراً عدداً كبيراً من الأكراد إلى مناطق أخرى، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية من كردستان إلى شرقي خراسان، واتخذ منهم حاجزاً يفصل بينه وبين الأوزبك، ويتلقون ضرباتهم الأولى، فيتخلَّص بذلك من كليهما معاً، كما فرض عليهم ضرائب باهظة، ووضعهم تحت رقابة صارمة حتى لا يتيح لهم أي فرصة للخروج عليه مجدداً[٣].

---

(١) فلسفي: جـ٣ ص٩١٧، ٩١٨.

(٢) قليخان: جـ٨ ص٣٧٢، ٣٧٣. منشي: ص٥٧٥. Sykes: II, p181.

(٣) Ibid: p174.

ـ عامل الشاه عباس الأول سكان أَنْدَخود في بلاد ما وراء النهر معاملة قاسية بما أجراه من مذابح عامة بحق السكان، فعلى إثر استيلائه على هذه المدينة في عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م)، منح أهلها السنة الأمان على أنفسهم وممتلكاتهم وطمأنهم بأنه لن يتعرَّض لهم بضرر بسبب اعتناقهم المذهب السني، ولكن حدث في العام التالي أن مرَّ على هذه المدينة، خلال عودته من حصار مدينة بلخ، وفجأة ومن دون سبب ظاهر أمر جنوده بالإجهاز على أهلها بالقتل والأسر، فأسر أعيانها وعظماءها وقاضيها، وساق كل جندي صفوي أمامه أسيراً من أهلها[١].

ـ اتصف الشاه عباس الأول بالقسوة والخشونة في معاملة أسرى الأوزبك والعثمانيين وكان سمل عيونهم أدنى ما أوقعه بهم، ولم يكن يصفح عن أسير إلا إذا تخلَّى عن مذهبه السني واعتنق المذهب الشيعي، ومن بين الذين فعلوا ذلك، شريف بك، حاكم وان بمنطقة أذربيجان[٢].

ـ عندما نزل الشاه عباس الأول في عام (١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩ ـ ١٦٠٠م) بمدينة سِمنان، رفض حاكمها الخضوع لأوامره، فاعتقل عدداً كبيراً من سكانها السنة انتقاماً، وانتزع منهم ثلاثمائة تومان تكفيراً عن ذنوبهم[٣].

ـ بلغ الشاه عباس الأول في عام (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م) أن حاكم مدينة همدان محمود الدباغ وهو سني المذهب، يظلم الشيعة فيها، فأمر بإلقاء القبض عليه وقتله، ولكن محموداً تمكَّن من الفرار، فأنذر الشاه سكان المدينة من السنة بقتلهم جميعاً والاستيلاء على ممتلكاتهم وأموالهم إذا لم يُسلِّم محمود الدباغ نفسه خلال ثلاثة أيام، وعندما ظهر قبض عليه وقتله[٤].

وكان الشاه عباس الأول يتجاوز مؤقتاً عداءه المذهبي لأهل السنة، عندما يرى في ذلك مصلحة له ولبلاده، من ذلك أنه كان يستقبل التجار السنة القادمين إلى إيران من بلدان أخرى، بحفاوة ويُكرِّمهم، مقابل ما يجنيه منهم من منفعة مادية[٥].

الواضح أن عداء الشاه عباس الأول لأهل السنة بعامة وللدولتين اللتين تمثلانهم بخاصة، دفعه إلى التقرب من الدول الأوروبية ومحاولته عقد معاهدات مع ملوك أوروبا النصارى من أجل تقويض الدولة العثمانية السنية المذهب[٦].

موقفه من النصارى: عامل الشاه عباس الأول النصارى بعامة على النقيض من

---

(١) منشي: ص٣٣٤، ٣٣٥.
(٢) فلسفي: جـ٣ ص٨٩٨.
(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٧٨.
(٤) المرجع نفسه: ص٢٧٩.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) المرجع نفسه.

معاملة أهل السنة، فتغاضى عن نشاط المبشرين الأوروبيين الذين يفدون إلى إيران للتبشير بالدين النصراني، وقد ذكرنا أنه شكَّل جيشاً خاصاً من النصارى القاطنين في إيران والمناطق الخاضعة لها، ويتودَّد إليهم براً بهم، وعمد إلى نقل ستين ألفاً من سكان أرمينيا من ديارهم، لحمايتهم من العثمانيين الذين هاجموا أذربيجان في عام (١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م)، ووزَّعهم على ولايات إيران المختلفة، وأنزل بعضهم في ضاحية جديدة بناها خصيصاً لهم بجوار العاصمة أصفهان، عُرفت باسم جلفا وهو اسم عاصمتهم التي هُجِّروا منها في أذربيجان، وبنى لهم فيها كنيسة كبيرة حتى لا يشعروا بتغير المناخ الجديد الذي يعيشون فيه، وحصر الإقامة فيها بالنصارى فقط.

وبالغ الشاه عباس الأول في تعاطفه مع النصارى القاطنين في إيران، كما أحسن استقبال النصارى الأوروبيين الوافدين إلى قصره. ولعل هذه المعاملة الجيدة من ضمن سياسته التجارية والعسكرية من خلال:

- استقطاب عطف الدول الأوروبية النصرانية والتحالف معها ضد العدو المشترك، وهو الدولة العثمانية.
- الإفادة من خبرة النصارى في بلاده، ولا سيما الأرمن، في تنشيط الحركة التجارية وبخاصة تجارة الحرير.

وأضحت جلفا الجديدة مركزاً نصرانياً نشطاً في إيران، وقد أدَّت دوراً فاعلاً في المحافظة على الوجود النصراني فيها والتبشير بالتعاليم النصرانية، وبقي هذا المركز حتى وقت متأخر يعج بالبعثات النصرانية والتجار الأوروبيين[١]. وأصدر أوامره في عام (١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م) بعدم التعرض لهم، والسماح لهم بحرية التنقل في أراضي الدولة الصفوية. وقد شجعت هذه السياسة، هؤلاء على زيارة إيران أملاً في عقد صفقات تجارية معها.

ويبدو أن الشاه عباس الأول لم يكتف بالمعاملة الجيدة مع النصارى، وحرص على مشاركتهم في احتفالاتهم الدينية. ففي عام (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م) أحضر من بلد الكرج عدداً من الخنازير ليقدمها هدية لنصارى جلفا في عيدهم، ثم زارهم ليهنئهم بالعيد، وشاركهم في احتساء الخمر، وأمر جميع مرافقيه بالمشاركة في ذلك على الرغم من وقوع ذلك العيد في الخامس عشر من رمضان، غير عابئ بحرمته[٢].

وحاول النصارى من جانبهم الإفادة من هذا التقارب، فعمَّقوا صلاتهم بالشاه، وطلبوا منه السماح لهم بالتبشير بالديانة النصرانية في إيران، وبناء الكنائس في أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية، فوافق على طلبهم، وأمر ببناء كنيسة في جلفا

---

(١) الأسترآبادي: ص١٨١. Sykes: II, p181. (٢) فلسفي: جـ٢ ص٦٣٨.

الجديدة على نفقته الخاصة[1].

ومن مظاهر تعاطفه مع النصارى أنه أقدم على زيارة الكنائس والاستماع إلى عظات رجال الدين وترانيمهم ومشاهدة مراسمهم الدينية، والتباحث معهم في الشؤون الدينية حتى أضحى ملماً بتعاليم الديانة النصرانية، ما شجع رجال الدين النصارى على دعوته لاعتناق النصرانية، ولكنه اعتذر بلطف وأجّل الكلام في هذا الموضوع إلى وقت آخر.

واتُّهم الشاه عباس الأول، نتيجة مغالاته في تعاطفه مع النصارى، بأنه ضعيف الإيمان بالدين الإسلامي وبالمذهب الشيعي، ويبرر المؤرخون الفرس[2] سلوكه هذا بأنه ضرورة سياسية اقتضتها ظروف الصراع مع العثمانيين، ويستدلون على ذلك بأنه تعرَّض للكرجيين وهم نصارى بالتنكيل، وخرَّب بلادهم، وحوَّل كنائسهم إلى مساجد، وعندما كان يُقرض التجار النصارى أموالاً، يشترط على من يتعذَّر عليه السداد أن يعفيه مقابل اعتناقه الإسلام.

والواقع أن هذه المعاملة السيئة مع بعض النصارى كانت استثناءً والقاعدة أنه كان يُحسن معاملتهم. أما مهاجمته للكرجيين وتخريب بلادهم وتحويل كنائسهم إلى مساجد؛ فكان بمثابة عقاب لهم على ثورتهم ضد الحكم، ولم نجد مثيلاً لهذا المسلك في أي عهد حاكم صفوي سبقه[3].

إنجازات الشاه عباس الأول الإنشائية

نقل العاصمة إلى أصفهان: اتخذ الشاه إسماعيل الأول مدينة تبريز عاصمة له، ولكن قربها من مناطق الحدود مع الدولة العثمانية جعلها عُرضة لهجمات العثمانيين الذين دخولها أكثر من مرة، واضطر الشاه إلى الفرار منها إلى عمق الأراضي الإيرانية، لذلك اختار الشاه طهماسب الأول مدينة قزوين، الموغلة في الداخل الإيراني، عاصمة له بدلاً من تبريز، وظلت كذلك طيلة حكم الشاه إسماعيل الثاني والشاه محمد خدابندة والسنوات العشر الأولى من حكم الشاه عباس الأول، والتي تُغطي المدة الزمنية من عام (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م) إلى عام (١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م). وقد شعر هذا الشاه بأن منطقة قزوين ضيقة لا تستوعب التزايد المتنامي لحاشيته

(١) بخش: ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) الرازي الهمداني، عبد الله: **تاريخ إيران أز أزمنه باستاني تاسال ١٣١٦ش** ص٥٥٧. بازوكي: ص٣٤٠. فلسفي: جـ٢ ص٦٣٨.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٢٨٣.

وجيوشه، كما أن مصادر مياهها قليلة ما جعل أعمال الزراعة ومحاصيلها لا تكفي سكانها[١]، لذلك راح يبحث عن مدينة مناسبة لاختيارها عاصمة له، فوقع اختياره على مدينة أصفهان التي تتمتع بصحة الهواء ونقاوة الجو وخلوها من الهوام، لا تتغيَّر فيها رائحة اللحم ولو بقيت في القدر بعد أن تُطبخ، شهراً، وتربتها أصح تراب الأرض، ويبقى التفاح فيها غضّاً سبع سنين، ولا تُسوَّس الحنطة كما تُسوَّس في غيرها، وبها موضع مخصوص لا تُبلى الموتى في تربته[٢]، وتقع على نهر زايندة رود ما يُساعد على الزراعة الكثيفة التي تكفي لإطعام الأعداد الكبيرة من الحاشية والجند بالإضافة إلى السكان، كما أنها تقع أيضاً في عمق الأراضي الإيرانية ما يجعلها بمنجاة من هجمات العثمانيين، وبذلك لا تكون مهدَّدة بالاحتلال كما كانت تبريز، كما أنها تقع على طريق القوافل الضاربة بين الخليج العربي وطهران والتي كانت تتقاطع مع طريق الحرير التجاري الذي يربط الصين بأوروبا عبر بحر قزوين، وكان الشاه يستعد آنذاك لطرد العثمانيين من أذربيجان وأجزاء واسعة من العراق العجمي، ولهذا آثر أن ينقل العاصمة إلى الداخل الإيراني، وقد تمت هذه الخطوة في عام (١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م)[٣].

الإنشاءات المدنية في العاصمة

اهتم الشاه عباس الأول بعمارة عاصمته الجديدة وتزيينها، فشيَّد فيها العديد من المباني الضخمة والميادين والحدائق العامة، فبلغت من الرقي الفني والتقدم العمراني حداً لم تبلغه أي مدينة إيرانية أخرى حتى ضُرب بها المثل فقيل: «أصفهان نصف جهان»، أي أصفهان نصف العالم، كما ذكرنا، وأضحت عاصمة تعج بالسكان والزائرين، وبلغ عدد سكانها آنذاك حوالي ستمائة ألف نسمة[٤].

ولعل أهم الإنشاءات المدنية التي أقامها الشاه عباس في عاصمته هي:

ميدان نقش جهان أو ميدان الشاه: يقع هذا الميدان في وسط المدينة تقريباً، ويُعدُّ من أجمل الميادين في العالم. بُدئ ببنائه عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) وهو على شكل مستطيل طوله ألف وستمائه وأربعة وسبعين قدماً وعرضه خمسمائة وأربعين قدماً، تحيط به الأشجار، وعلى جانبيه منتزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس، وأُعِدَّ لإقامة مسابقات الصولجان وركوب الخيل والرمي بالسهام وحرب الديكة وبعض الحيوانات الأخرى. وكان الشاه يشاهد هذه المباريات وهو جالس في الشرفة الرئيسة بعمارة عالي قاپو، كما كان يشترك أحياناً في مسابقات الصولجان التي تقام في هذا

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٠٤.

(٢) الحموي: جـ١ ص٢٠٦ ـ ٢١٠.

(٣) Roemer: p270.

(٤) Ibid.

الميدان. وبعد مدة، غيَّر الشاه عباس الأول اسم هذا الميدان من نقش جهان إلى ميدان الشاه، وظل هذا الاسم متداولاً إلى اليوم(١).

عالي قابو: أقام الشاه عباس الأول، بعد أن انتقل إلى عاصمته الجديدة، في قصر قديم، لكن كان هناك بناء صغير يطل على ميدان نقش جهان من جهته الغربية، وهو من بقايا السلاجقة أو التيموريين، فاستحسن موقعه وبنى مقابله مجموعة من الأبنية اتخذها مقراً له وأطلق عليها اسم عالي قاپو، أي الباب العالي، ولعله أراد بذلك أن يقتدي بالعثمانيين. وبالغ الشاه في تزيين هذا المقر الملكي وأحضر عتبته من النجف الأمر الذي أكسبه شهرة، وكان الشاه يترجل عن حصانه عندما يقترب من هذه العتبة المقدسة ثم يدخل إلى القصر سيراً على الأقدام(٢).

يتألف هذا القصر من ثلاث طبقات رئيسة، تنقسم كل منها إلى طبقتين، فيصبح مجموع طبقاته ست يبلغ ارتفاعها ثمان وأربعين متراً، في حين يبلغ ارتفاع المدخل الرئيس ثمانية وعشرين متراً. وخُصِّصت الطوابق العليا لحياة الشاه الخاصة حيث كان يقضي معظم أيامه، ويُسيِّر منها أمور الدولة(٣).

ويتألف كل طابق من قاعة رئيسة وحجرات عدة صغيرة ودهاليز مختلفة، وجدران الحجرات مذهَّبة ومزدانة بألوان جميلة، وكذلك كان السقف مذهباً. وتقع القاعة الرئيسة الكبرى في واجهة القصر وهي تقوم على أعمدة خشبية، وخصَّصها الشاه لإقامة الاحتفالات العامة مثل: عيد النيروز، واستعراض الجيش، ومقابلة السفراء الأجانب، كما كان يُشاهد منها ما يدور بالميدان من مسابقات الصولجان والخيل وعراك الحيوانات المفترسة(٤).

وعلى الرغم من أهمية المبنى وما يتمتع به من جمال وفخامة، فقد أُهمل بعد زوال الدولة الصفوية كما أُهملت المعالم الصفوية الأخرى.

مسجد الشيخ لطف الله: يقع هذا المسجد في الجانب الشرقي من ميدان نقش جهان، وأُلحقت به مدرسة ليكونا مقراً لإقامة وإمامة الشيخ لطف الله العاملي، من جبل عامل في لبنان(٥). بُدئ في بناء هذا المسجد عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) وانتهى

(١) بخش: ص٢٦٦. أحمدي: ص٢٣٣ .Sykes: II, p198

(٢) مهر آبادي، أبو القاسم رفيعي: **آثار ملي أصفهان**: ص٢٦٢، ٢٦٨.

(٣) بخش: ص٢٦١.

(٤) Sykes: II, p199.

(٥) الشيخ لطف الله بن عبد الكريم بن إبراهيم من قرية ميس، إحدى قرى جبل عامل في لبنان، تربّى في أسرة اشتهرت بالفقه الإمامي الجعفري، ونظراً لاهتمام الصفويين بترويج المذهب الشيعي، رحل إلى إيران ودرس على مشايخها المشهورين، وعيَّنه الشاه عباس الأول في =

العمل به في عام (١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)، وازدان بالقاشاني الذي غطَّى قُبته من الداخل والخارج، وكُتبت على جدرانه الكثير من الآيات القرآنية والعبارات المختلفة التي تتسم بجمال إخراجها. ويُعدَّ هذا القاشاني من أجمل ما انتشر في العهد الصفوي، كما تُعد القبة من الإنجازات المعمارية الفريدة في الجودة في آسيا كلها[1]. وما زال المسجد قائماً إلى اليوم، وقد أُعيد تجديده وترميمه في عام (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠م) في عهد الشاه رضا پهلوي.

مسجد الشاه: يقع مسجد الشاه في الجهة الجنوبية من ميدان نقش جهان بين قصر عالي قاپو ومسجد الشيخ لطف الله. بُدِئَ في بنائه عام (١٠٢١هـ/ ١٦١٢م)، وتمَّ على مرحلتين: أُنجز في المرحلة الأولى بناء المدخل الرئيس للمسجد وهو الواجهة المطلة على ميدان نقش جهان، وانتهت هذه المرحلة في عام (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، وكان الشاه حريصاً على الانتهاء من هذه المرحلة بسرعة حتى تكتمل زينة الميدان. وتمَّ في المرحلة الثانية بناء المسجد الذي استغرق المدة إلى أواخر عهد الشاه وربما بعد وفاته بعامين، أي في عام (١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠ ـ ١٦٣١م).

يتألف المسجد من ثلاث قباب وأربعة أروقة، أكبرها الرواق الممتد باتجاه القبلة، وقبته أعلى من القبتين الأخريين، وترتفع على جانبي هذا الرواق أعلى مئذنتين في المسجد، وعلى مقربة من محراب هذا الرواق الكبير، بُني المنبر من حجر المرمر وقد نُحت من قطعة واحدة ونُصب بعد ذلك في مكانه. وقد تم استيراد المادة من رانغون بالهند، كما أن أعمدته المرتفعة محددة بتجاويف، ومزدانة بتجاويف داخلية مسقوفة بخزف مطلي بالمينا ومحاطة بإفريز من القرميد المكتوب عليه آيات قرآنية، ويوجد في ساحته الداخلية حوض من الرخام[2].

خيابان چهار باغ[3]: شقَّ الشاه عباس الأول طريقاً يربط ميدان نقش جهان

= مزار الإمام علي الرضا في مشهد، ثم ذهب إلى قزوين وعمل في التدريس، فأحضره الشاه منها إلى أصفهان، وأقام في عام (١٠١١هـ) مدرسة ومسجد يحملان اسمه لكي يتولى التدريس والإمامة بهما. وللشيخ فتاوى شرعية وعقائد خاصة به. وتنحصر تآليفه في الحواشي والتعليقات التي كان يكتبها رداً على الفتاوى الدينية التي يقدمها له معاصروه. انظر: جمعة والخولي: جـ١ ص٢٩٤ هامش رقم ٤.

(١) مهرآبادي: ص٦٩٤، ٧٠٢، ٧٠٣. بخش: ص٢٦٦. أحمدي: ص٢٣٤.

(٢) مهرآبادي: ص٦٥٩، ٦٦٤، ٦٦٥. بخش: ص٢٦٧. جمعة والخولي: جـ١ ص٢٩٨، ٢٩٩. القزويني: ص٤٧. أحمدي: ص٢٣٤، ٢٣٥. Sykes: II, p199.

(٣) طريق الحدائق الأربعة. انظر: مهرآبادي: ص١٦٤. منشي: ص٥٤٤، ٥٤٥. بخش: ص٢٦٤، ٢٦٥. جمعة والخولي: جـ١ ص٣٠١ ـ ٣٠٣.

والمباني المطلة عليه بنهر زايندة رود، وبنى على هذا النهر قنطرة للعبور عليها عُرفت باسم قنطرة وردي خان، وهو قائد جيوشه وحاكم فارس، ويمتد حتى أسفل الجبل الموجود في جنوبي أصفهان، وأمر بغرس أربعة صفوف من أشجار الدلب على جانبيه، ولهذا عُرف باسم الحدائق الأربع، وقد بلغ طوله أكثر من ثلاثة كيلومترات.

وأقيمت على مدخل الطريق عمارة صغيرة هي عبارة عن إيوان ذي نوافذ يستطيع الجالس فيه مشاهدة الطريق من مكان مرتفع، وقد عُرف باسم «جهان نما» أي الكاشف للدنيا. وعُرف القسم الذي يربط جهان نما بنهر زايندة رود باسم «طريق چهار باغ السفلى».

وأقيمت في نهاية الطريق حديقة واسعة ومتدرجة يصل ارتفاعها إلى تسع طبقات أُطلق عليها حديقة «عباس آباد»، وأُنشئ في وسطها قصر عظيم عُرف باسم «هزار جريب» أي البالغ مساحته ألف ألف متر، وعُرف هذا الجزء الممتد من نهر زايندة رود إلى قصر هزار جريب باسم «چهار باغ العليا».

وقد وزَّع الشاه عباس الأول هذا الشارع على أمراء الدولة وأعيانها وأمرهم بتجميله وتزيينه، وإنشاء حديقة خاصة في القسم التابع لكل منهم. وقد وصف السائحون الأوروبيون الذين زاروا أصفهان، هذا الطريق، بأنه غاية في الذوق والجمال. وكان الإيرانيون يخرجون للتنزه في حدائقه والتمتع بمناظره الجميلة وبرائحة الورود المنتشرة على جانبيه. وخصَّص الشاه أياماً في الأسبوع لخروج النساء للتنزه فيه.

إنجازات أخرى: ومن إنجازات الشاه عباس الإنشائية، بناء المساجد الجديدة وترميم القديم منها وكذلك الأضرحة، وتحسين المزارات، فقد عمَّر مرقد وقبة الإمام الرضا في مشهد عام (١٠١٠هـ/ ١٦٠١م) وقبر الإمام علي بن أبي طالب في النجف، وذلك بعد أن سيطر على بغداد في عام (١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م)، وأوصل مياه نهر الفرات إلى مسجد الكوفة، وغير ذلك من المزارات والمساجد التي شُيِّدت في مختلف أنحاء إيران.

وشيَّد الشاه العديد من القصور والمباني والحدائق العامة وخطَّط الميادين الفسيحة وأنشأ مناطق سكنية جديدة تحوَّلت بعد ذلك إلى مدن مستقلة، كمدينة نجف أشرف وجلفا الجديدة بجوار أصفهان.

واهتم الشاه بتعبيد الطرق وإصلاحها وتزويدها بالخانات والرباطات، لتشجيع الحركة التجارية، وأقام عدداً من مصانع الأسلحة النارية.

وبنى الشاه القناطر على الأنهر، مثل قنطرة وردي خان فوق نهر زايندة رود، وقد

ربطت بين قسمي طريق چهار باغ السفلى والعليا، وقنطرة جلفا التي ربطت مدينة أصفهان بضاحية جلفا الجديدة وهي ذات طابقين، وقد بلغ طولها مائتين وخمسة أمتار وعرضها ثلاثة عشر متراً وخمسة وسبعين سنتمتراً وتضم ستة طرق للعبور، منها ما هو مُخصَّص لعبور الفرسان وبعضها مُخصَّص لعبور المشاة، وخُصِّص البعض الآخر للتنزه، وعلى الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع فإنها تُعد إحدى أعظم القناطر في العالم، وهي ما زالت قائمة إلى اليوم.

ولا شك بأن ما أنجزه الشاه عباس الأول في أصفهان، بخاصة من إنشاءات معمارية ملفتة، وما جدَّده من مبان كانت قائمة، وما نفَّذه من تجميل وتزيين المدينة، يُبرِّر وصفها بأنها نصف الدنيا.

الفَصْلُ السَّادِسُ

الشاه عباس الأول

٩٩٦ ـ ١٠٣٨هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩م

العلاقات الخارجية مع العالم الإسلامي

الصراع مع الأوزبك على خراسان

تمهيد: ورث الشاه عباس الأول الصراع المذهبي مع العالم السني، وأعني بذلك الدولتين الأوزبكية والعثمانية، وأدَّت الزعامات الصفوية المتصارعة دوراً بارزاً في زيادة حدته، وهي التي كانت تتنازع باسم الحفاظ على عرش الشاه عباس الأول. وكان أشد المتنافسين مرشد قولي خان تكلو وعلي قولي خان زعيم الشاملو. وأدى هذا التنازع إلى إضعاف موقف كلٍّ منهما وأتاح للأوزبك أن يجتاحوا خراسان.

ونتيجة لانتصار مرشد قولي خان الذي انتزع الوصاية على عباس ميرزا من علي قولي خان؛ تطلع هذا إلى الاستعانة بالخارج لاستعادة نفوذه ومكانته في خراسان، فأجرى مراسلات مع عبد الله خان الثاني (٩٩١ ـ ١٠٠٦هـ/ ١٥٨٣ ـ ١٥٩٨م) زعيم الأوزبك ومن أشهر ملوكهم، حرَّضه فيها على مهاجمة خراسان ووعده:

- بأن يدخل في طاعته.
- بأن يسلمه مدينة هراة.
- بأن يساعده في الاستيلاء على همدان والعراق.

وكان مرشد قولي خان يتقدم في غضون ذلك ومعه عباس ميرزا باتجاه هراة لانتزاعها من يد خصمه، وما أن اقترب من المدينة حتى علم بأن جيشاً أوزبكياً، بقيادة عبد الله خان الثاني، يتقدم باتجاهها، فعاد أدراجه إلى مشهد ومنها واصل السير إلى قزوين للابتعاد عن الخطر الأوزبكي من جهة وانتزاع الحكم من الشاه محمد خدابندة لصالح وصيِّه من جهة أخرى.

سقوط هراة: عندما اقترب عبد الله خان الثاني من مدينة هراة، أرسل رسالة إلى

علي قولي خان يعلمه بأنه جاء بناء على طلبه وهو ينتظر منه أن يفي بوعده، فيخطب له على المنابر وينقش السكة باسمه، على أن يسلمه حكم المدينة أو أي مدينة أخرى في بلاد ما وراء النهر(١).

ويبدو أن علي قولي خان أدرك مدى الخطأ الذي ارتكبه ورفض أن يمضي أكثر من ذلك في تنفيذ المؤامرة، ولعله شعر بأن استيلاء عبد الله خان الثاني على هراة ومن بعدها على خراسان من شأنه أن يتيح له تهديد الدولة الصفوية التي قامت على أكتاف القبائل التركمانية ومنها قبيلته نفسها، فقرَّر التصدي للهجوم الأوزبكي.

لكن عبد الله خان الثاني نجح في اختراق خطوط الدفاع عن المدينة وضرب عليها حصاراً مُركَّزاً استمر أحد عشر شهراً. ودافع علي قولي خان وأتباعه بقوة عن المدينة والذود عنها، وكان يأمل في تلقي المساعدة من العاصمة قزوين، ويبدو أن أهل الحكم هناك كانوا منهمكين بالنزاع بين عباس ميرزا وأبيه الشاه محمد خدابندة، فلم يلتفتوا إلى الخطر المحيط بهراة.

وعندما حُسم الصراع في العاصمة لصالح الشاه عباس الأول كان حريصاً على إمداد مربيه الأول علي قولي خان بالقوة العسكرية اللازمة لمقاومة الحصار الأوزبكي، فكان يصدر أوامره كل يوم إلى مرشد قولي خان المسيطر الفعلي على مقدرات الدولة، بالإسراع في إرسال المساعدات العسكرية لإنقاذه، لكن مرشد قولي خان كان يتباطأ في تنفيذ أمر الشاه بسبب الضغائن التي كان يكنها لعلي قولي خان، وخشية من عودة العلاقة بينه وبين الشاه عباس الأول ما يُهدِّد مكانته وسيطرته على الشاه والدولة.

وظلَّ مرشد قولي خان يُسوِّف ويماطل في إرسال المدد حتى هُزم علي قولي خان بفعل نفاد المؤن وتفشي الأمراض بين جنده، واضطر إلى الفرار من المدينة إلى قلعة صغيرة مجاورة، فدخل الأوزبك إلى المدينة وعاثوا فيها، وقتلوا عدداً كبيراً من رجال القزلباش وأسروا عدداً كبيراً من نساء وصبية قبيلة شاملو تمَّ إرسالهم إلى بلاد ما وراء النهر(٢).

ويبدو أن علي قولي خان لم يتمكَّن من الصمود طويلاً أمام الضغط الأوزبكي فوقع أسيراً مع أتباعه بيد عبد الله خان الثاني الذي قتلهم جميعاً، وذلك في (ربيع الأول ٩٩٧هـ/ كانون الثاني ١٥٨٩م)(٣).

---

(١) فلسفي: جـ١ ص١٦٨.

(٢) الأسترآبادي: ص١٤٣. القزويني: ص٣٩.

(٣) فلسفي: جـ١ ص١٦٨، ١٦٩. قليخان: جـ٨ ص٢٣٨. القزويني: ص٣٩.

سقوط مشهد: ترامت أنباء سقوط هراة بيد الأوزبك ومقتل علي قولي خان، إلى العاصمة قزوين، فسارع مرشد قولي خان إلى إعداد جيش لطردهم بعد أن اطمأن على إزاحة منافس له إلى الأبد. وخرج الجيش الصفوي يتقدمه الشاه عباس الأول ووزيره وعدد كبير من قادة القزلباش باتجاه هراة، وقد حقد الشاه على وزيره الذي اتسم بالتراخي وأدى ذلك إلى سقوط هراة ومقتل مربيه الأول، فقرَّر التخلص منه انتقاماً، وما إن وصل الجيش الصفوي إلى مدينة بسطام حتى نفَّذ الشاه ما عزم عليه من اغتياله(١).

وواصل الجيش الصفوي تقدمه صوب خراسان لطرد الجيش الأوزبكي. وكان عبد الله خان الثاني قد استغل تباطؤ السلطات في قزوين، فتقدم باتجاه مشهد للاستيلاء عليها. وترامت الأنباء في هذه الأثناء من الجبهة الغربية عن تقدم عثماني باتجاه قراباغ وأذربيجان، وأن القائد فرهاد بك استولى على مدينة گنجة، كما تقدم القائد العثماني جغال أوغلي على رأس جيش آخر باتجاه همدان ونهاوند(٢). ويبدو أن الأوزبك نسَّقوا مع العثمانيين للقيام بهجوم ضد الأراضي الصفوية في الوقت نفسه. فتحرج موقف الشاه عباس الأول بسبب تعرُّض بلاده لهجوم أوزبكي من الشرق وغزو عثماني من الغرب بالإضافة إلى الفتن الداخلية، التي أثارها حكام الولايات من أجل المحافظة على مكتسباتهم، ولما كان لا يستطيع أن يحارب على ثلاث جبهات في وقت واحد؛ عقد صلحاً ذليلاً مع العثمانيين في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) تنازل لهم عن بعض الأراضي، كما تخلَّى مؤقتاً عن طرد الأوزبك من خراسان، وتفرَّغ لإخماد الفتن الداخلية(٣).

وعاد الشاه عباس الأول إلى قزوين ما أتاح الفرصة للأوزبك ليواصلوا توغلهم في خراسان، فتقدموا باتجاه الغرب بقيادة عبد المؤمن خان بن عبد الله بن خان الثاني، وكان قد تسلَّم القيادة إثر عودة والده إلى بلاد ما وراء النهر، واستولوا على المدن الواقعة بين هراة ومشهد وحاصروا هذه الأخيرة، فطلب حاكمها أمت الله خان استاجلو المساعدة من قزوين. وانتظر الشاه عباس الأول حتى قضى على الفتن الداخلية وأمَّن جبهته الغربية مع العثمانيين، فنهض للتصدي للخطر الأوزبكي. وما إن وصل الجيش الصفوي إلى الري حتى تفشَّى المرض بين جنوده، وأصيب الشاه نفسه بالوباء، فلم يعد باستطاعته مواصلة الزحف، ما أعطى فرصة ذهبية للأوزبك، فشدَّدوا حصارهم على المدينة التي سقطت بعد أربعة أشهر، فدخلوها وارتكبوا

---

(١) فلسفي: جـ١ ص١٥٦، ١٥٧.

(٢) قليخان: جـ٨ ص٢٥٢.

(٣) پازوكي: ص٣١٢.

المذابح بحق سكانها، ونهبوها، واستولوا على عائدات ضريح الإمام علي الرضا، وأخذوا المصابيح الذهبية والفضية الموجودة في المقام بالإضافة إلى عدد من المصاحف والمخطوطات التي قيل بأنها كُتبت بخط الأئمة أنفسهم(١). ولم يسلم الأموات في مقابرهم حيث أقدم الجنود الأوزبك على نبش قبر الشاه طهماسب، وكان مثواه بجوار مقام الإمام علي الرضا، وذروا في الهواء ما بقي من أشلائه مصحوباً باللعنات، ولعل ذلك جاء رداً على ما كان يقوم به الصفويون منذ عهد إسماعيل الأول من نبش قبور السنة في المدن التي يستولون عليها والعبث برُفات أصحابها(٢).

وواصل عبد المؤمن خان تقدمه باتجاه الغرب، فاستولى على خواف وباخرز ويوشنج وغوريان وإسفرايين، وأرسل رسالة إلى السلطان العثماني مراد الثالث يعلمه فيها بانتصاراته، ويخبره بأنه ينوي مواصلة التقدم حتى العراق ليقضي على أصحاب المذهب الشيعي. لكن هذه الخطة الجريئة لم تتحقق لأن العثمانيين أحجموا عن مساعدته، بل دخلوا في صلح مع الشاه عباس الأول ما مكَّنه من التفرغ لقتالهم.

استعادة مشهد: وسرعان ما برأ الشاه عباس الأول من مرضه وتحسَّنت صحته، فنهض لحرب الأوزبك وطردهم من خراسان، فتقدم في عام (١٠٠١هـ/ ١٥٩٣م) باتجاه مشهد على رأس جيش كبير، وما إن اقترب من المدينة حتى أرسل إليه عبد المؤمن خان يعرض عليه إحلال السلام بين الدولتين الأوزبكية والصفوية مقابل احتفاظ الأوزبك بخراسان(٣).

كان من الطبيعي أن يرفض الشاه عباس الأول عرض القائد الأوزبكي، وهدَّده باجتياح خراسان إذا لم يتخلَّ الأوزبك عن المنطقة وينسحبوا إلى بلاد ما وراء النهر.

تجاه فشل المفاوضات السلمية، عمد عبد المؤمن خان إلى إعادة تنظيم صفوف قواته ليواجه الشاه في معركة فاصلة، فدعا جميع وحدات الجيش الأوزبكي المنتشرين في مختلف أنحاء خراسان بالتجمع في مشهد، وانسحب هو من نيسابور وعسكر في مدينة جام، وأرسل منها رسالة أخرى إلى الشاه عباس الأول اتسمت بالرقة والأدب، وتضمَّنت المطلب نفسه، لكن الشاه لم يأبه بهذه الرسالة الودية وتقدم باتجاه نيسابور ودخلها من دون قتال كما دخل سبزوار وجاجرم، ثم واصل تقدمه حتى أضحى على مشارف مشهد، وهناك، داهمه الشتاء، فتساقط الثلج واشتدت البرودة وتعطلت الطرق بسبب الأوحال، ولم يعد المكان ملائماً لإقامته، فجمع جنده وعاد إلى قزوين تاركاً المنطقة تحت إشراف درويش محمد خان تسانده

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٢٥٣ ـ ٢٥٦.

(٢) فامبري: ص٣٤٥، ٣٤٦.

(٣) قليخان: جـ٨ ص٢٦٤.

حامية عسكرية[1].

وتعرَّض عبد الله خان الثاني الأوزبكي آنذاك إلى صعاب عدة لم يتمكَّن من تجاوزها وأثَّرت على قدرته القتالية لعل أهمها:

- تكبُّده خسائر فادحة أمام غزو عشائري من الشمال قام به القالموق.

- انضمام أمراء خوارزم إلى الشاه الصفوي، ذلك أنه حدث خلاف بين نور محمد خان، والي مرو وأوكنج، وبين حاجي محمد خان، حاكم خوارزم وابن عم عبد الله خان الثاني، فأراد الزعيم الأوزبكي استغلال النزاع لصالحه، فطردهما من أملاكهما واستولى عليها، فانضما إلى الشاه عباس الأول.

كان طبيعياً أن يرحب الشاه عباس الأول بهذا التحالف دفعاً للخطر الأوزبكي الذي يُهدِّد الدولة الصفوية. وبدأ عبد الله خان الثاني يفقد الكثير من أراضيه أمام الشاه الذي تقدم في عام (١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م) باتجاه خراسان، وعندما وصل إلى مشارف إسفرايين التي كانت تحت حكم الأوزبك، اضطر القائد الأوزبكي عبد المؤمن خان إلى الانسحاب منها، وأرسل رسالة أخرى إلى الشاه يعرض عليه التوسع باتجاه العراق العجمي وترك خراسان للأوزبك، إلا أن الشاه رفض العرض وردَّ عليه برسالة تهديد ووعيد، واستعاد إسفرايين، ثم توجَّه إلى استرآباد في طريق عودته إلى قزوين من دون سبب ظاهر ما شجع عبد المؤمن خان على تجديد هجومه على إسفرايين وارتكب المجازر بحق سكان سبزوار، فاضطر الشاه للعودة إلى هذه المدينة الأخيرة، فاستعادها وتقدم منها صوب نيسابور، ثم عاد إلى قزوين بسبب حلول فصل الشتاء[2].

بقي الوضع في خراسان على هذا الحال من التقدم والتراجع من كلا الجانبين حتى دخل عام (١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م)، فنشب خلاف بين عبد الله خان الثاني وبين ابنه عبد المؤمن خان كاد يؤدي إلى القتال لولا أن المنية وافت الأول، فخلفه ابنه في الحكم[3].

لا شك بأن الخلاف الذي نشب بين الأب وابنه، بالإضافة إلى ما ذكرنا من تعرض بلاد ما وراء النهر لغزو عشائري وانضمام بعض حكام خوارزم إلى الشاه عباس الأول؛ أضعف القدرة القتالية للأوزبك، وشجَّع الشاه على القيام بحملة شاملة لطردهم من خراسان، فاستدعى الجيوش من مختلف المناطق وحدَّد مدينة بسطام مكاناً للتجمع[4].

وتقدمت الجيوش الصفوية بقيادة فرهاد خان من بسطام باتجاه نيسابور واستعادتها

---

(١) بازوكي: ص٣١٥.
(٢) الأسترآبادي: ص١٦٢.
(٣) بازوكي: ص٣١٧. الأسترآبادي: ص١٦٦.
(٤) قليخان: جـ٨ ص٣٠٩.

من دون مقاومة تُذكر، وزحفت مقدمتها باتجاه مشهد، وهناك وصلت الأنباء إلى الشاه عن مقتل عبد المؤمن خان الذي اتصف بالظلم والطغيان على يد بعض رجال دولته الطامعين في الحكم، الأمر الذي أثار الحماسة في نفوس الجنود الصفويين، فتقدموا نحو مشهد ودخلوها في (٢٥ ذي الحجة ١٠٠٧هـ/ ١٩ تموز ١٥٩٩م)[١].

استعادة هراة: تقدم الشاه عباس الأول على رأس جيشه باتجاه هراة لاستعادتها، وكانت تحت حكم دين محمد خان الأوزبكي، ووضع خطة عسكرية تكفل له النجاح، فأمر قائده فرهاد خان باستدراج القوات الأوزبكية للقتال خارج أسوار المدينة حتى لا يصيبها الدمار، والمعروف أنها كانت عزيزة على قلبه بفعل أنه وُلِد وتربّى فيها. ونفَّذ فرهاد خان الخطة المرسومة، فاقترب من أسوار المدينة ثم انسحب مع قواته متظاهراً بالتراجع خشية الهزيمة، فخرج دين محمد خان مع قواته لمطاردته، فوقع في الكمين. وجرت المعركة الفاصلة بين الجيشين على بُعد أربعة فراسخ من المدينة وأسفرت عن انتصار واضح للقوات الصفوية بعد جولتين من القتال، أسفرت الأولى عن انهزام القوات الصفوية، وفرَّ فرهاد خان من أرض المعركة، فحمَّله الشاه مسؤولية الخسارة واتهمه بالتراخي وقتله، ثم أعاد تنظيم صفوف قواته وكرَّ على القوات الأوزبكية ودحرها، وقُتل القائد الأوزبكي في القتال. ودخل الشاه هراة بعد المعركة منتصراً[٢].

وهكذا نجح الشاه عباس الأول في استعادة معظم مدن خراسان، وأبعد الخطر الأوزبكي عنها بعد أن ظل الأوزبك يُهدِّدونها منذ أيام الشاه إسماعيل الأول، ثم زحف إلى بلخ لاستكمال السيطرة الكاملة على المنطقة، وحاصرها في عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م)، إلا أنه فشل في دخولها بسبب تفشي الوباء بين جنوده، كما تعرَّض لهجمات شرسة من بدو الأوزبك القاطنين في الصحارى المحيطة بالمدينة، واضطر إلى فك حصاره عنها وعاد من دون أن يُحقق هدفه من هذه الحملة.

نشوب الاضطرابات في بلاد ما وراء النهر: تعرَّضت بلاد ما وراء النهر بعد مقتل عبد المؤمن خان إلى نزاعات داخلية حادة على السلطة، وتنافس الأمراء للاستعانة بالدولة الصفوية لمساعدتهم على اعتلاء العرش. من ذلك أنه حدث في عام (١٠٢٠هـ/ ١٦١١م) أن فَقَدَ ولي خان الأوزبكي عرشه الذي تولاه في عام (١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م)، فلجأ إلى الشاه عباس الأول لكي يُعيده إلى عرشه ويقضي على منافسيه، فأحسن الشاه وفادته، ولما كان الصفويون آنذاك منهمكين بالحروب مع الدولة العثمانية، فقد اكتفى الشاه بإمداده بالمال فقط، وأمر أحد قادته بمرافقته

---

(١) الأسترآبادي: ص١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٦٨، ١٦٩.

حتى حدود خراسان، ومن هناك يتسلل إلى داخل ما وراء النهر لتنظيم أتباعه، ويحاول استرداد عرشه، ولكنه قُتل أثناء محاولته ذلك[١]. وشارفت دولة الأوزبك على الانهيار، وفقدت ذلك المجد الذي اشتهرت به في أيام محمد شيباني خان وعبيد الله خان.

وعلى الرغم من تراجع قوة الأوزبك وزوال خطرهم، إلا أن الشاه عباس الأول أراد أن يُؤمِّن حدوده المشتركة معهم حتى لا ينتهز أي أمير منهم فرصة انهماكه بالحرب مع العثمانيين، فيغير على أراضي خراسان، لذلك نقل أعداداً كبيرة من الأكراد السنة من كردستان إلى حدود خراسان الشرقية واتخذ منهم حاجزاً يقي المنطقة من ضربات الأوزبك في المستقبل[٢].

الصراع مع العثمانيين

مراحل الصراع

شابَ العلاقة بين الدولتين الصفوية والعثمانية التوتر خلال القرن السابع عشر الميلادي، وظهر في إيران الشاه عباس الأول كقائد ورجل دولة أخذ على عاتقه استعادة ما فقدته دولة الصفويين من أراضٍ على الجانب الغربي من حدودها بالقوة العسكرية[٣].

والواقع أن هذه العلاقة بين الدولتين مرَّت في عهد هذا الشاه بثلاث مراحل متميزة:

بدأت المرحلة الأولى منذ تولي الشاه الحكم وحتى عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م)، واتسمت بالتقدم العثماني والتراجع الصفوي واستسلام الصفويين.

وشكَّلت المرحلة الثانية الصراع المرير بينهما، واتسمت بالحروب داخل الأراضي الصفوية، وحرص الشاه خلالها على استعادة الأراضي التي كسبتها الدولة العثمانية، واستمرت بين عامي (١٠١١ ـ ١٠٣٢هـ/ ١٦٠٢ ـ ١٦٢٣م).

واتسمت المرحلة الثالثة بالتراجع العثماني الواضح والتقدم الصفوي الواضح، وتمكَّن الصفويون خلالها من احتلال أجزاء واسعة من الأراضي العراقية واقتطاعها من السيطرة العثمانية، وشغلت هذه المرحلة المدة الزمنية بين عامي (١٠٣٢ ـ ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٣ ـ ١٦٢٩م).

المرحلة الأولى: اتفاقية إستانبول الأولى

انتهز العثمانيون فرصة حدوث الاضطرابات في إيران خلال عهد كل من الشاه

---

(١) الأستراآبادي: ص٢٠١.

(٢) Sykes: II, p174.

(٣) أوزتونا: جـ١ ص٤٤٨.

إسماعيل الثاني والشاه محمد خدابندة، فهاجموا الأراضي الإيرانية واستولوا على مساحات شاسعة. فقد استولى فرهاد باشا على قراباغ وضمَّها إلى گنجة الخاضعة له، ومدَّ جعفر باشا حاكم تبريز سيطرته على جميع المناطق المجاورة للمدينة وحتى منطقة سراب، وتمكَّن جغال أوغلي من التوسع على الجبهة العراقية حتى مدينة نهاوند وحدود لورستان، وبنى قلعة كبيرة في نهاوند(١).

وعندما اعتلى الشاه عباس الأول سدة الحكم في إيران وجد نفسه يواجه عدوين شرسين هما الأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب، ولما كان لا يستطيع أن يحارب على جبهتين في وقت واحد، حاول تبريد الجبهة الغربية ليتفرغ للأوزبك، ويبدو أنه عدَّهم العدو الأخطر على الوجود الصفوي، فعاد إلى قزوين وسعى إلى عقد صلح مع العثمانيين.

وافق العثمانيون على مبدأ عقد الصلح، وجرت المفاوضات بين الجانبين في إستانبول استمرت ستة أشهر وتمخَّضت عن عقد معاهدة في (١٥ جمادى الأولى ٩٩٨هـ/ ٢٢ آذار ١٥٩٠م) تضمَّنت البنود التالية:

١ ـ تتنازل إيران للدولة العثمانية عن تبريز والقسم الغربي من أذربيجان وولايات أرمينيا: شكي، شماخي، تفليس، شَروان، الكرج وقراباغ وقسم من منطقة لورستان مع قلعة نهاوند.

٢ ـ يتعهد الصفويون بالتوقف عن سب الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، أبي بكر وعمر وعثمان وأم المؤمنين عائشة.

٣ ـ يبقى حيدر ميرزا، أخو الشاه عباس الأول، رهينة في إستانبول كدليل على حسن نية، وعدم خرق المعاهدة.

٤ ـ يتعهد الطرفان بالإفراج عن أسرى الحروب من كلا الجانبين.

٥ ـ يتعهد الطرفان بعدم إيواء الفارين من كلا الجانبين(٢).

إن قراءة متأنية لبنود المعاهدة تطلعنا على الملاحظات التالية:

ـ لقد فرض العثمانيون شروطهم على الشاه عباس الأول المغلوب على أمره، وكأنما أملتها دولة منتصرة على دولة مهزومة.

ـ آلت جميع مناطق إنتاج الحرير، بما فيها العاصمة القديمة تبريز، إلى العثمانيين، ويُعدُّ ذلك إنجازاً هاماً ونقلة نوعية سيطروا من خلالها على معظم طرق المواصلات التي تمر عبرها التجارة الشرقية إما إلى روسيا أو إلى بلاد العثمانيين،

---

(١) فلسفي: جـ٥ ص١٦٨٦.

(٢) قليخان: جـ٨ ص٢٥٨، ٢٥٩. الأسترآبادي: ص١٤٥.

ومنها إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط[١].

ـ تناولت المعاهدة الجانب العقائدي لدى الجانبين حيث تعهدت الدولة الصفوية بالكف عن سب الخلفاء الثلاثة الأوائل وأم المؤمنين عائشة، وجاء ذلك إرضاء للشعور الإسلامي العام وتبريراً للعثمانيين بزوال السبب الرئيس لهذه الحروب.

ـ مثَّلت المعاهدة تنازلاً معنوياً مخيفاً للدولة الصفوية وذلك حين نصَّت على أن يكون أحد أمراء البيت الصفوي المالك رهينة لدى العثمانيين، لحسن تنفيذ المعاهدة وعدم الإقدام على نقضها، وسيكون لهذه القضية وقع سيئ على الشاه عباس الأول في المستقبل، والمعروف أن حيدر ميرزا كان ضمن أعضاء الوفد الذي ذهب إلى إستانبول للتباحث بشأن عقد معاهدة الصلح.

ـ يرتبط البندان الأخيران بالعلاقات السياسية التي يمكن من خلالها فتح باب الحوار تمهيداً لعلاقة هادئة بين الجانبين، والمعروف أن الصفويين قد أسروا عدداً من القادة الأتراك العثمانيين من بينهم مراد باشا وسجنوهم في قلعة قهقهة في قراباغ، ففكَّ الشاه أسرهم على مضض. وفي المقابل، تم الإفراج عن الأسرى الإيرانيين المسجونين لدى العثمانيين ومنهم: شاه روخ سلطان مهردار ومهدي قولي خان شاملو وغيرهما[٢].

ويبدو أن العثمانيين قبلوا بهذا الصلح على الرغم من قدرتهم تحقيق المزيد من التوسع والتوغل في الأراضي الإيرانية؛ لأنهم حقَّقوا بهذه المعاهدة هدفين استراتيجيين:

أولهما: يتمثل في تأمين جبهتهم الشرقية حتى يتفرغوا لمشكلاتهم في أوروبا.

ثانيهما: يتمثل في إيقاف الحملات العدائية التي كانت الدولة الصفوية الشيعية المذهب تُذكيها ضد المذهب السني وضد الخلفاء الراشدين الأوائل وأم المؤمنين عائشة[٣].

ساد الهدوء مناطق الحدود المشتركة بين الصفويين والعثمانيين بعد توقيع اتفاق الصلح، فانتهت بذلك مرحلة من الحروب والمناوشات استمرت اثني عشر عاماً (٩٨٥ ـ ٩٩٨هـ/ ١٥٧٧ ـ ١٥٩٠م)[٤].

وكان الشاه عباس الأول حريصاً في ذلك الوقت على أن يستمر الهدوء مع الدولة العثمانية لكي يتفرغ لجبهة خراسان من جهة، ولعدم قدرته على طرد العثمانيين من المناطق التي استولوا عليها من جهة أخرى. فعندما ثار خان أحمد حاكم جيلان ضد حكمه ولجأ إلى الدولة العثمانية واستُقبل بترحاب من قِبل العثمانيين، لم يحتج

---

(١) صباغ: ص١٨٦ ـ ١٨٧.
(٢) قليخان: جـ٨ ص٢٥٨، ٢٥٩.
(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٢٣، ٣٢٤.
(٤) براون: جـ٤ ص٩٩.

على ذلك على الرغم من أن هذا يُعد انتهاكاً لأحد بنود المعاهدة، وكذلك ما حصل مع الثائر شاه وردي خان حاكم لورستان والذي فرَّ إلى بلاد العثمانيين[١]، كما لم يدع مناسبة إلا واستغلها للتقرب منهم وإظهار مودته لهم والتظاهر بأنه يعاضدهم في حروبهم ضد أوروبا، في الوقت الذي كان يجري مباحثات مع الدول الأوروبية للتعاون معها ضد السلطان العثماني. وعندما توفي السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه محمد الثالث (١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣م) أرسل وفداً للتعزية والتهنئة مؤلفاً من ثلاثمائة رجل برئاسة ذو الفقار خان قرمانلو حاكم أذربيجان، وعندما وصلوا إلى إستانبول كان السلطان يحارب في أوروبا، فظل أعضاء الوفد في العاصمة حتى عاد السلطان إليها، فقدَّموا إليه التعازي وهنَّؤوه بتوليه الحكم[٢].

المرحلة الثانية: الصراع على أرمينيا

تمهيد: بعد نجاحه في القضاء على الخطر الأوزبكي، التفت الشاه عباس الأول نحو العثمانيين وراح يُخطط للدخول في مواجهة سافرة معهم، وحتى يضمن النجاح أقدم على اتخاذ خطوات عدة لتقوية موقفه، نذكر منها:

ـ نقل العاصمة من قزوين إلى أصفهان نظراً لقرب الأولى من مناطق المواجهات العسكرية وبُعد الثانية عن هذه المناطق.

ـ بذل جهداً كبيراً في إعادة تكوين جيشه والتفاني في تدريبه وتزويده بالأسلحة النارية المتطورة استعداداً للاصطدام المرتقب، حتى أضحى الجيش الصفوي على متسوى عالٍ من الكفاءة القتالية ويضارع الجيش العثماني في التجهيز والتسليح، لكن فاقه في القدرة على نقد الذات وإصلاح العيوب، بفعل حال الاستعلاء المزمن الذي أصاب الجيش العثماني وقادته وجعلهم يتجنَّبون الاستعانة بالخبراء الأجانب لتطوير قدراتهم القتالية، في حين انتهز الشاه عباس الأول وجود ضباط بريطانيين في بلاده فاستفاد من خبرتهم وبخاصة أنطوني شيرلي، في تجديد قدرات الجيش الصفوي من واقع تدريب جنوده وتزويده بالأسلحة النارية والمدافع.

ـ أصدر مجموعة من القوانين المتعلقة بالحركة الاقتصادية جعلته في مأمن من خطر التطورات الاقتصادية التي كانت سائدة في عهده.

تراجع قوة العثمانيين في القرن السابع عشر: أُصيب البلاط العثماني والدوائر الحاكمة في الدولة بفساد شديد خلال القرن السابع عشر الميلادي. فقد حكم خلاله

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٧١.

(٢) الأسترآبادي: ص١٦١. فلسفي: جـ٥ ص١٦٨٧، ١٦٩١ ـ ١٦٩٣.

عدد من السلاطين لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم إلا بواسطة وزراء كانوا أحياناً مثالاً للفساد، وأحياناً أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار. وبالمقارنة مع مرحلة القرن السادس عشر الميلادي المجيدة فإن المدة الممتدة على مدار القرن السابع عشر تتخذ مظهراً أقل روعة، على الرغم من ظهور عدد من الشخصيات القيادية عملت على صون هيبة الدولة.

وكانت الانتكاسات التي لحقت بالعثمانيين، في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، في المجر والبلقان والكرج وأذربيجان، وحركات التمرد التي نشبت في الأناضول، وبخاصة الثورة التي قام بها أصحاب الطريقة الجلالية الذين سيطروا على بعض الأقاليم الشرقية في أذربيجان، وتلقوا مساعدة من الشاه عباس الأول؛ كل ذلك، كان بمثابة شواهد واضحة على ما أصاب الدولة من ضعف، وخلقت معركة ليبانت البحرية مناخاً جديداً في أوروبا تجاه العثمانيين[1].

والواقع أن ضعف الدولة العثمانية كان ظاهراً خلال تلك المدة، وهو عائد إلى أسباب منها ما يتعلَّق بالبيت العثماني ومنها ما يتصل بعلاقات الدولة الخارجية. وقد أثبتت أحداث القرن السادس عشر أن الدولة لا يمكنها أن تستمر إلا إذا داومت على الحرب، وفي الوقت نفسه كان عليها أن تتكيف مع الظروف الغربية المتطورة وأن تتهيأ لما يقتضيه السلم. ولم يكن سلاطين هذا القرن أهلاً لمواجهة هذه الظروف الجديدة، كما أن الشعور العثماني باحتقار كل ما هو غير إسلامي بفعل الآراء الدينية التقليدية الشائعة آنذاك من حيث أن كل ما هو أوروبي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكفر، ما هيَّأ لبروز قصور الدولة الظاهر بالاتصال الوثيق بالحياة الغربية والتجاوب مع متطلبات العصر الجديدة.

ويلاحظ في هذا القرن ضعف اهتمام السلاطين بمزاولة شؤون الدولة، وكان عدد منهم، قبل أن يتولوا الحكم، سجناء في أقبية مظلمة، ما انعكس سلباً على سلوكهم خلال توليهم الحكم، ومنهم من كان شديد الإسراف في الأبهة والقتل، فيما شُغِل البعض الآخر بالقنص والشراب والفساد والسطو على مالية الدولة وأخذ الرشوة وبيع المناصب، وكثيراً ما كان يصل إلى العرش صبية صغار.

وشهدت الدوائر الحاكمة لأول مرة ثورات الفرق الانكشارية وتدخُّلها في قتل وعزل السلاطين وتنصيبهم، وأُصيبت الهيئات الحاكمة بالفساد، وتولى المناصب

---

(١) نشبت معركة ليبانت البحرية في عام (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م) بين الأسطول العثماني وأسطول أوروبي مشترك بقيادة دون جوان النمساوي، ساهمت فيه البندقية وإسبانيا والإمارات الإيطالية بما فيها الإمارة البابوية، وأسفرت المعركة عن انتصار البحرية الأوروبية.

العليا من لا تجربة له، وأهمل السلاطين عقد الديوان، وأضحى القضاء لا يسير إلا بالرشوة، وفسدت الذمة في الإدارة.

ومن جهة أخرى، علا نجم رجال السياسة والقادة على حساب السلاطين. ولجأت الدولة في مجال الأرض والضرائب إلى نظام عقيم عُرف بنظام الالتزام، وتدهور التعليم، وتراجعت المؤسسات الدينية، وتناقص عدد السكان بفعل الأوبئة وغارات البدو على الأراضي الزراعية، ولم يعد التركيب الداخلي لفئات المجتمع، ولا أسلوب الحكم، ولا نمط الحياة؛ بقادر على الوقوف أمام الأعداء في الشرق والغرب، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الصفوية والدول الأوروبية تسير نحو إرساء قومية خاصة بها.

أما في مجال العلاقات الخارجية، فقد اعترضت العثمانيين عقبات عدة أدَّت إلى تراجعهم، أبرزها:

أ ـ عدم استطاعتهم فتح ڤيينا بغية مواصلة التقدم باتجاه أوروبا حيث اعترضتهم قوة النمسا والامبراطوية الرومانية المقدسة.

ب ـ تنامي الوضع الاقتصادي الأوروبي، إلى جانب تطوير الأسلحة، والمرونة السياسية التي تميز بها حكام أوروبا.

جـ ـ طرد السفن العثمانية من المحيط الهندي على الرغم من النجاح الجزئي الذي أحرزه العثمانيون في الحد من نمو النشاط البرتغالي في المياه الشرقية.

د ـ اصطدامهم بالقوة الروسية، التي شكَّلت حاجزاً أثناء محاولتهم وصل نهري الدون والڤولغا بغية الوصول إلى أواسط آسيا والهند لتقليص النفوذ البرتغالي والاستمرار في التوسع داخل القارة.

هـ ـ عدم استطاعتهم المشاركة في التجارة التي نمت في المحيطات بشكل خاص، واقتصر نشاطهم على البحر الأبيض المتوسط الذي بدأ يفقد أهميته التجارية تدريجاً بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حول إفريقيا في سفن شراعية كبيرة للوصول إلى الهند.

و ـ واجهت الدولة العثمانية عوائق عدة في الشرق لم تستطع تجاوزها على الرغم من الانتصارات التي حقَّقتها جيوشها، إذ إنها لم تستطع أن تتقدم في عمق الأراضي الإيرانية، وذلك بفعل قوة الصفويين المركزية ووجود الهضبة الإيرانية كعائق طبيعي لم تستطع الجيوش العثمانية اجتيازه، ما أعطى الصفويين الفرصة لنقض اتفاقية عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م).

تغيُّر سلوك الشاه عباس الأول تجاه العثمانيين: أتاح تراجع قوة الدولة العثمانية

وتنامي قوة الدولة الصفوية إلى تغير سلوك الشاه عباس الأول تجاه العثمانيين في خطوة تمهيدية لبدء المرحلة الثانية من الصراع المتنامي بين الدولتين والتي تميزت باستعادة الشاه معظم أذربيجان من العثمانيين، وأخذ الشاه يجهر بعدائه للعثمانيين ويُبين شعوره الحقيقي تجاههم.

ففي عام (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) أعلن أحمد خان جيلاني حاكم جيلان استقلاله عن التبعية الصفوية الأمر الذي دفع الشاه إلى إعداد حملة لتأديبه قادها بنفسه، فاجتاح جيلان وفرَّ حاكمها إلى البلاط العثماني، فسانده السلطان مراد الثالث، وكان يطمع في الاستيلاء على جيلان للاستفادة من حريرها، فأرسل رسالة إلى الشاه يطلب منه العفو عن أحمد خان، فرفض الشاه طلبه وهو يعلم نواياه الرامية للوصول إلى العمق الإيراني، فشكَّل بذلك أول تحد للدولة العثمانية.

وفي عام (١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥ ـ ١٥٩٦م) أرسل الشاه عباس الأول وفداً إلى إستانبول برئاسة ذي الفقار خان قرمانلو ـ كما ذكرنا ـ قدَّم للسلطان محمد الثالث تهاني الشاه بمناسبة اعتلائه العرش العثماني، وأعلمه بانتصاراته على الأوزبك في خراسان، ما شكَّل تحدياً آخر للسلطان العثماني ودفعه لإرسال سفارة مماثلة إلى الشاه برئاسة محمد آغا في عام (١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧ ـ ١٥٩٨م) يطلب منه:

ـ إعادة النظر باتفاقية عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) بهدف الحصول على مزيد من المكاسب.

ـ ترك خراسان للأوزبك.

ـ إرسال ابنه الأكبر إلى إستانبول ليكون رهينة، بدلاً من حيدر ميرزا الذي توفي في عام (١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م).

وصل السفير العثماني إلى إيران في الوقت الذي كان الشاه عباس الأول يتقدم باتجاه مشهد لاستردادها من أيدي الأوزبك، فاجتمع به وسلَّمه الرسالة. عدَّ الشاه الرسالة استعلاءً من جانب الدولة العثمانية لا يمكن احتماله، وبخاصة أن ظروفها السياسية والاقتصادية والعسكرية لا تسمح لها بهذا القدر من الكبرياء، فأمر بنتف لحية السفير العثماني وإرسالها على شكل هدية إلى السلطان العثماني مع رسالة قاسية اللهجة جاء فيها: «إن ابني هو ولي عهدي وسيكون ملكاً من بعدي، وليس من حقي أن أجعل الملك رهينة لدى أي سلطان. . .»[١]. وتمادياً منه في إظهار عداوته وتحديه، أرسل إلى السلطان مبعوثاً آخر قدَّم له مفاتيح ذهبية لأربع وعشرين مدينة استولى عليها في خراسان وتركستان وأفغانستان[٢]. وتجدر الإشارة في هذا المقام

(١) فلسفي: جـ١ ص١٩٣، جـ٥ ص١٦٩٥، ١٦٩٦.

(٢) مهدوي: ص٧٥.

إلى أن الرسائل الملكية يمكن أن تعكس أوضاع الدولة قوة وضعفاً.

استعادة تبريز: حدث في عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) نزاع بين علي باشا حاكم تبريز وغازي بك الكردي حاكم سلماس في أذربيجان، فهاجم الجيش العثماني المتمركز في تبريز المدينة ونهبها وقتل عدداً من سكانها، فطلب غازي بك المساعدة من الشاه عباس الأول، فاستغل هذا خلو تبريز ممن يحميها أو يدافع عنها، وهاجمها، وعمد إلى الحيلة كي يتمكَّن من استعادتها بأقل جهد عسكري وأدنى الخسائر، فأمر جماعة من جنده بارتداء الزي المدني ودخول المدينة على أنهم من سكانها، كما أمر جماعة أخرى بالتخفي بزي التجار، واتفق معهم على ساعة الصفر، وفي الموعد المحدد بدأ الهجوم على المدينة من الخارج ومن الداخل، فأُخِذَ الجنود العثمانيون فيها على حين غرَّة وأُسقط في أيديهم واستسلموا. ودخل الشاه المدينة من دون قتال يُذكر، فاستقبله السكان بالحفاوة. وهكذا استعاد المدينة التي ظلت تحت الحكم العثماني زهاء عشرين سنة[(١)].

وأرسل الشاه من يُعلم القائد العثماني علي باشا بدخوله المدينة، فسارع إلى عقد صلح مع غازي بك الكردي وعاد إليها مسرعاً وهو يمني النفس بطرده منها. وتشجَّعت بعض المدن بنجاح الشاه في استعادة تبريز مثل نخجوان وإيروان وأريڤان، فسحبت جنودها من جيش علي باشا، ما أضعف وضعه العسكري، ومع ذلك استمر في السير نحو تبريز، وعسكر على بُعد ستة فراسخ منها ليعيد تنظيم صفوف قواته، غير أن الشاه عاجله وهزمه وأسره وأبقى على حياته، وقتل عدداً كبيراً من جنوده[(٢)]. وتقدم الشاه بعد ذلك إلى قلعة المدينة فأمَّن الجنود العثمانيين فيها فاستسلموا ثم هدمها كرمز للقضاء على الوجود العثماني في أذربيجان كلها، وكان ذلك يوم الجمعة في (١٨ جمادى الأولى ١٠١٢هـ/ ٢٤ تشرين الأول ١٦٠٣م).

استعادة المدن الأرمنية: بعد نجاحه في استعادة تبريز، بدأ الشاه عباس الأول يعمل على استعادة مدن أذربيجان الواقعة تحت السيطرة العثمانية، فبدأ بالمدن الأرمنية نخجوان وإيروان، وكلَّف ذا الفقار خان، الذي ولَّاه حاكمية تبريز بعد استعادتها، بالتقدم نحو نخجوان وفرض حصار عليها، فسارع الجنود العثمانيون فيها إلى طلب الأمان بفعل وضعهم العسكري الضعيف، ونظراً لأن عددهم الضئيل لا يسمح لهم بخوض معركة سافرة مع الجيش الصفوي الذي يفوقهم في العدد، فأمَّنهم ذو الفقار خان على حياتهم وتسلَّم المدينة من دون قتال[(٣)].

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٤٦ ـ ٣٤٨. پازوكي: ص٣٢٥.

(٢) قليخان: جـ٨ ص٣٤٨.

(٣) الأسترآبادي: ص١٧٧.

تقدم الجيش الصفوي بعد ذلك بقيادة الشاه صوب إيروان، وكانت تتألف من ثلاث قلاع تضم اثني عشر ألف جندي بقيادة شريف باشا[1]، فحاصرهم الشاه وضرب تحصينات المدينة، وجرت قتال بين الجانبين تحت الأسوار. وما جرى في غضون احتدام المعارك من وفاة السلطان محمد الثالث وتولي ابنه أحمد الأول مقاليد الحكم (١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ/١٦٠٣ ـ ١٦١٧م)، ونشوب الاضطرابات في عاصمة العثمانيين؛ أضعف الروح القتالية لدى الجنود العثمانيين الذين فقدوا الأمل في تلقي المساعدة من إستانبول، في حين انتهز الشاه هذه الفرصة وشدَّد الضغط على المدينة واستولى على قلاعها الثلاث، وذلك يوم الجمعة في (٢٨ ذي الحجة ١٠١٢هـ/٢٨ أيار ١٦٠٤م)، وتكبَّد العثمانيون أربعة آلاف قتيل واستسلم من نجا منهم، فتمَّ أسرهم. وقد أحسن الشاه معاملة القائد العثماني بشكل لافت ما دفعه إلى أن يتحوَّل إلى المذهب الشيعي، واستأذن الشاه في الذهاب إلى مشهد للإقامة بقية حياته، فأذن له[2].

وأثناء وجوده في أذربيجان استدعى الشاه عباس الأول وردي خان حاكم فارس ليوافيه مع قواته لاستكمال استعادة المدن الأذربيجانية حيث تدور المعارك الرئيسة بين الجيش الصفوي وبين الحاميات العثمانية في المدن المختلفة.

رد الفعل العثماني: جاء رد الفعل العثماني على النشاط العسكري الصفوي سريعاً، فقد هال السلطان أحمد الأول استرداد الشاه عباس نهاوند وتبريز وبعض مدن أذربيجان، فأعدَّ جيشاً كثيفاً وعيَّن الصدر الأعظم سنان باشا المعروف باسم جغال أوغلي على قيادته وأرسله إلى أذربيجان ليسترجع ما استولى عليه الصفويون، ثم يمضي إلى عمق الأراضي الإيرانية للقضاء على الدولة الصفوية. تحرك الجيش العثماني باتجاه منطقة الحدود، فوصل إلى مدينة قارص وتوقف فيها لتنظيم صفوفه ووضع خطة لاسترجاع المدن.

كانت أخبار التقدم العثماني تصل إلى الشاه عباس الأول تباعاً من خلال الجواسيس الذين بثَّهم في العاصمة العثمانية، وعلم بأن وجهة العثمانيين نخجوان وإيروان في أرمينيا، فتحرَّج موقفه بفعل أنه كان قد منح معظم جنوده إجازة الشتاء، ولم يبق بحوزته غير عدد قليل لا يتمكَّن معهم من مواجهة الجيش العثماني الجرار، لذلك آثر الانسحاب إلى تبريز للتحصن فيها وإغراء جغال أوغلي بالتوغل داخل الأراضي الإيرانية ليبعده عن قواعده في مناطق الحدود، فيصعب إمداده بالمساعدات

---

(١) الأستراَبادي: ص١٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٧٧، ١٧٨. قليخان: جـ٨ ص٣٥٥.

العسكرية وبالتالي يصبح في موقف ضعيف، فيهاجمه وهو مطمئن، واتخذ إجراءات عدة تكفل له تقوية موقفه وتعرقل تقدم الجيش العثماني، منها:

ـ أقدم على حرق وإتلاف المزروعات وهدم الآبار على الطريق الذي سيسلكه الجيش العثماني، ما يحد من إمكاناته ويتكبد خسائر في الأرواح نتيجة الجوع والعطش.

ـ نقل سكان المدن الواقعة على هذا الطريق، إلى الداخل الإيراني حتى لا يتعرَّضوا للإبادة، إما بفعل تهديدات العثمانيين أو بفعل الجوع والعطش، فرحَّل عشرين ألفاً كان من بينهم عدد كبير من الأرمن.

ـ بنى قلعة جديدة في تبريز مكان القلعة التي هدمها، وسوَّرها بخندق وجهَّزها بمعدات ومؤن تكفي العسكريين فيها مدة ثلاث سنوات وذلك بهدف تقوية دفاعات المدينة.

تقدم الجيش العثماني من قارص باتجاه نخجوان وإيروان على الرغم من قساوة الأحوال الجوية وتساقط الثلوج وصعوبة السير على الطرق بسبب التدابير التي نفَّذها الشاه، إلا أنه لم يتمكَّن من التوغُّل بعيداً داخل الأراضي الإيرانية واضطر، تحت ضغط الظروف الطبيعية القاسية، إلى العودة إلى وان بعد أن تكبَّد كثيراً من الأرواح.

وهكذا نجحت خطة الشاه عباس الأول في استدراج جغال أوغلي وإنهاكه، فهاجمه في وان قبل أن يعيد تنظيم صفوف قواته، وقبل أن تصل إليه الإمدادات من العاصمة، فأمر قائده وردي خان بالتقدم على وجه السرعة صوب وان ومهاجمته على حين غرَّة. وفوجئ القائد العثماني بقوات القزلباش وهي تحيط بالمدينة، ففضَّل عدم الاصطدام بها نظراً لحراجة وضعه العسكري وعدم جهوزيته للقتال، واكتفى باتخاذ موقف الدفاع، وطلب إمدادات من العاصمة على وجه السرعة. وعلم القائد الصفوي في غضون ذلك بأن إمدادات عسكرية عثمانية في طريقها إلى وان، ففصل قوة عسكرية من جيشه وكلَّفها باعتراض قافلة الإمدادات العثمانية، فقضت عليها، وتعرَّض جغال أوغلي لضغط عسكري شديد في الوقت الذي شعر بأنه معزول عن محيطه الخارجي، ففقد الأمل بالانتصار وأضحى لا قِبل له بمواصلة القتال وبخاصة أنه تكبد كثيراً من القتلى، واضطر للفرار عبر بحيرة وان متوجهاً إلى الأراضي العثمانية وبرفقته عدد كبير من أركان حربه ومستشاريه، وأخذ يجمع حوله الجيوش من جديد ويستعد لجولة أخرى مع الصفويين، وعندما استكمل استعداداته، واستقطب بعض زعماء القبائل في المنطقة وانضوى تحت لوائه زهاء مائة ألف مقاتل؛ تقدم نحو أذربيجان وعسكر على مقربة من مدينة سلماس.

كان الشاه عباس الأول آنذاك في مدينة خوي، فترك المدينة وتوجَّه صوب مرند على رأس اثنين وستين ألف مقاتل، ليكون قريباً من القوات العثمانية، وأرسل

جواسيسه لاستطلاع أوضاعها القتالية. وعلى الرغم من ذلك، فإنه هاله ضخامتها وتوجَّس خيفة من الاشتباك معها، وفضَّل التراجع صوب تبريز وإحراق كل مظاهر الحياة بينها وبين مرند، حتى إذا وصلت القوات العثمانية إلى تبريز تكون منهوكة القوى، فيستطيع الانتصار عليها، لكن قادته رفضوا فكرة التراجع حتى لا يعطوا الفرصة للجيش العثماني بمهاجمتهم، كما رفضوا اقتراحاً قدَّمه وردي خان يقضي بالتزام خطة الدفاع.

وأمام إصرار القادة، أمر الشاه عباس الأول قواته ببدء الهجوم، وقاد وردي خان الهجوم الصفوي. ودارت بين الجيشين رحى معركة طاحنة يوم الثلاثاء (٢٤ جمادى الآخرة ١٠١٤هـ/٦ تشرين الثاني ١٦٠٥م)، وصلت إلى حد الالتحام بالسلاح الأبيض، وتكبَّد الطرفان عدداً كبيراً جداً من القتلى، وأسفرت عن انتصار واضح للجيش الصفوي. وتراجع جغال أوغلي في جو الهزيمة القاتم صوب ديار بكر، وتوفي بعد يومين كمداً أو أنه انتحر خشية من إعدامه على يد السلطان نتيجة هزائمه المتكررة[١].

التفاهم الصفوي ـ العثماني: اتفاقية إستانبول الثانية: استغل الشاه عباس الأول انتصاره الكبير على الجيش العثماني بقيادة جغال أوغلي فاستعاد گنجه في (صفر ١٠١٥هـ/ حزيران ١٦٠٦م) وتفليس. ونتيجة لانتصارات الصفويين وتساقط المدن والقلاع الأذربيجانية في أيديهم، رأى الصدر الأعظم درويش باشا أن من مصلحة الدولة العثمانية أن تدخل في مفاوضات مع الشاه عباس الأول لإحلال السلام بينهما بانتظار فرص أفضل لاستئناف الحرب، فأرسل رسالة إلى الشاه يقترح فيها أن يكتب رسالة إلى السلطان أحمد الأول بشأن عقد صلح بينهما، إذ إن الحكمة تقضي بنبذ الخلافات بين الدولتين. والواقع أن الحروب المتواصلة بينهما أنهكت قواهما واستنزفت مواردهما وجعلت الصلح ضرورة ملحة، لذلك استجاب الشاه لطلب الصدر الأعظم، وأرسل مبعوثاً إلى إستانبول هو غازي خان من أجل هذه الغاية، وحمَّله الهدايا ورسالة تتضمن اقتراح الشاه الدخول في مفاوضات الصلح بالشروط نفسها التي تضمنتها معاهدة عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م)[٢] الموقعة بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانوني[٣].

لم ينتظر الشاه عباس الأول رد السلطان العثماني وعمد إلى استعادة باقي مدن

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه الأحداث: قليخان جـ٨ ص٣٧٤، ٣٧٥. پازوكي: ص٢٣٨. الأسترآبادي: ص١٨٣ ـ ١٨٩.

(٢) الإشارة هنا إلى صلح أماسيا.

(٣) پازوكي: ص٣٢٨.

أذربيجان التي ما زالت تحت السيطرة العثمانية، فاستعاد بادكوبه ودربند بعد أن نبذ سكانهما ولاءهم للسلطان العثماني ودخلوا في طاعة الشاه، وكذلك فعل سكان قلعة باب الأبواب المتميزة بحصانتها ومناعتها، لكن بعض القلاع رفضت الاستسلام، ما دفع الشاه إلى استعادتها بالقوة، مثل قلعة شماخي عاصمة إقليم شَروان[١]. وإلى جانب استعادة المدن والقلاع الأذربيجانية أقدم الشاه على تأديب القبائل التي تعاونت أو تعاطفت مع العثمانيين وبخاصة الكردية السنية المذهب، فجهَّز حملات عدة ضدها، وانتهز فرصة لجوء آلاف عدة من الجلاليين الثائرين، فأسكنهم في المناطق الكردية لاستخدامهم في القضاء على أي تحرك كردي معادٍ للدولة، وضرْب الحركات الكردية المعارضة، مثل قباد خان المكري صاحب قلعة كاودولي، وأمير خان زعيم طائفة برادوست[٢].

وبهذه الانتصارات التي أحرزها الشاه عباس الأول أضحت منطقة أذربيجان كلها خاضعة لسلطانه، ولم يعد أي من الأمراء المحليين يجرؤ على الجهر بمعاداته للأسرة الصفوية.

أدرك الصدر الأعظم مراد باشا، الذي خلف درويش باشا، أن موازين القوى مالت بشكل ملحوظ لصالح الدولة الصفوية، ورأى أن المصلحة العثمانية العليا تقضي بالسعي الجاد لعقد اتفاقية صلح بين الدولتين الصفوية والعثمانية، بعد أن تعثَّرت محاولات الصدر الأعظم السابق[٣]، فأرسل مبعوثاً إلى الشاه عباس الأول طلب منه بأسلوب أقرب إلى الرجاء تكرار مراسلة السلطان أحمد الأول بشأن عقد صلح بينهما ونبذ الحرب.

ويبدو أن نوايا الجانب العثماني لم تكن صادقة في إحلال السلام، بدليل أن مراد باشا أرسل جيشاً كبيراً إلى إيران بقيادة أكرم، قائد جيش الشرق، متذرعاً الدخول في مفاوضات الصلح، ما جعل الشاه يخشى من كثرة عدد جنوده ويشك في نوايا العثمانيين السلمية، ونظراً لانعدام الثقة بين الجانبين، أمر الشاه بتجهيز جيوشه لمواجهة أي خطر محتمل من جانب العثمانيين[٤].

ترامت أنباء استعدادات الشاه إلى مسامع الوزير العثماني، فأرسل رسالة إلى

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٨٤. الأسترآبادي: ص١٨٥.

(٢) قليخان: جـ٨ ص٣٩٨ ـ ٤٠٠.

(٣) يبدو أن الدولة العثمانية رفضت التخلي عن القلاع التي فتحتها في عهد السلطان سليمان القانوني والتي أقرّتها معاهدة عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م) واعترفت بها الدولة الصفوية.

(٤) أوزنوتا: جـ١ ص٤٤٩.

الشاه يُعرب له فيها عن حسن نيته ورغبته في الصلح وموافقة السلطان العثماني على إبرام معاهدة بين الطرفين على غرار معاهدة عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م).

والواقع أن السلطان أحمد الأول كان يمر آنذاك بظروف اقتصادية صعبة، ورأى أنه لا قِبل له بالاستمرار في الحرب مع الضائقة المالية التي تخيم على سلطنته. وساهمت الرسائل المتبادلة بين والدته وبين عمة الشاه، وقناعة الأطراف كلها في عدم جدوى الحرب؛ في الإسراع في عقد الصلح[١].

أرسل الشاه عباس الأول مبعوثه قاسم بك قائد جيش مازندران إلى إستانبول فوقَّع معاهدة الصلح في (٢٦ رمضان ١٠٢١هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ١٦١٢م) والتي نصَّت على ما يلي:

١ ـ تعترف الدولة العثمانية بحدودها التي كانت في عهد السلطان سليمان القانوني، وتتعهد بعدم الاعتداء على الأراضي التي استولت عليها فيما بعد في عهد السلطانين مراد الثالث ومحمد الثالث. وبالمقابل، يتعهد الشاه عباس الأول بسحب القوات كافة التي وضعها في بلاد ما بين النهرين، ويُعيد كل ما استولى عليه منها إلى العثمانيين.

٢ ـ يتعهد الشاه عباس الأول بإرسال مائتي حمل حرير سنوياً إلى السلطان العثماني ومائة حمل من بضائع أخرى.

٣ ـ تقوم كل دولة باختيار ممثليها لتحديد الأراضي الخاصة بها.

٤ ـ تتعهد الدولة الصفوية بعدم القيام بأي عمل استفزازي عقائدي، كما التزمت به زمن الشاه طهماسب الأول.

٥ ـ تتعهد الدولة العثمانية بعدم منع المسافرين الإيرانيين من المرور بأراضيها، وتسمح للحجاج الإيرانيين بسلوك طريق حلب ـ دمشق، بالإضافة إلى طريق بغداد ـ البصرة.

٦ ـ تتعهد الدولة الصفوية بعدم حماية هلو خان حاكم شهرزور.

٧ ـ يتعهد الطرفان بعدم منع تجول قادة الجانبين في مناطق الحدود بغية تحديدها[٢].

تعقيب على معاهدة صلح عام ١٠٢١هـ/١٦١٢م[٣]

ـ اكتفى الشاه عباس الأول، على الرغم من طموحه، بالقدر الذي كان موضع خلاف مع العثمانيين على مناطق الحدود الاستراتيجية والغنية بالحرير والمتاجر

---

(١) صباغ: ص١٨٩، ١٩٠.

(٢) بازوكي: ص٣٢٨. مهدوي: ص٧٨. أوزتونا: جـ١ ص٤٤٩. جمعة والخولي: ص٣٤٥. Sykes: II, p179.

(٣) انظر: صباغ: ص١٩١.

المتنوعة، فطلب فور استيلائه عليها بعقد صلح لإدراكه بأنه لن يحصل على أكثر من ذلك ضمن حدود قوته، مع مراعاته بأن تكون معظم بنود الصلح لصالحه على عكس الصلح الذي عقده في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) في بداية عهده، فحصل على تثبيت رسمي للحدود كما أقرتها معاهدة أماسيا مع السعي لترسيم الحدود بشكل واضح.

ـ طرحت هذه المعاهدة قضية اقتصادية لم ترد في المعاهدات السابقة، فقد تعهد الشاه بإرسال مقدار من الحرير من دون تحديد ماهيتها، أهي على سبيل الهدية أو كخراج، وتباين الجانبان في تفسيرها كل حسب مصلحته، ففسَّرها العثمانيون بأنها جزية سنوية يدفعها الصفويون بشكل دائم، في حين فسَّرها الصفويون بأنها هدية تُرسل مرة واحدة. وقد فرض الصفويون وجهة نظرهم بحكم واقع القوة، ما دفع ذلك أحد المؤرخين إلى دمج البندين الأول والثاني ليقول: «يحتفظ الصفويون بتبريز تحت سيادتهم لقاء حصول العثمانين على مائتي حمل حرير ومائة حمل من البضائع الأخرى»[(١)]. ويُعد هذا التفسير منطقياً لأن تبريز كانت مركزاً مهماً لتجمع تجارة الحرير، ولا يمكن للعثمانيين أن يتنازلوا عنها من دون مقابل خاص، نظراً لحاجتهم إلى هذه المادة.

ـ أكدت المعاهدة تبعية منطقة شهرزور، الواقعة بين إربل وهمدان، للدولة العثمانية حين تعهد الشاه بعدم حماية حاكمها هلوخان، وهذا يعني أن الدولة العثمانية أرادت أن ترفع يد الدولة الصفوية عن هذه الولاية نظراً لأهميتها السياسية والاقتصادية.

ـ سمحت المعاهدة بسلوك الحجاج الإيرانيين لطرق داخل الأراضي العثمانية للذهاب إلى الحج، منها طريق حلب ـ دمشق الذي يتمتع بالسير الآمن عليه على خلاف طريق بغداد ـ البصرة الأقل استقراراً نظراً لتعديات القبائل على محاوره. وقد حرصت الدولة العثمانية من خلال سلوك هؤلاء الحجاج طريق حلب ـ دمشق، التأمين على حياتهم من دون النظر إلى الفوائد المادية من واقع الحصول على الضرائب ورسوم المرور.

اتفاقية سراب

اجتمعت اللجان المشتركة الخاصة بترسيم الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية في مدينة سلماس بأذربيجان، ونجحت في ترسيم الحدود في كل من أذربيجان وأرمينيا، واتفقت على تقسيم بلاد الكرج بين الدولتين، الأمر الذي عارضه طمهورث خان، حاكم كاخت الموالي للعثمانيين، والتي نصت الاتفاقية على تبعية

---

(١) أولسن، روبرت: **حصار الموصل ١٧١٨ ـ ١٧٣٤م** ص٦٧.

إمارته إلى إيران، فأعلن العصيان على الدولة الصفوية في عام (١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م)، وطرد حاكمها الصفوي[١].

تجاه هذا التطور السياسي، أسرع الشاه عباس الأول بالذهاب إلى بلاد الكرج لتأديب طهمورث خان، وعبر الجيش الصفوي نهر الرس في عام (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م) واشتبك مع قواته في معارك التحامية طاحنة، وارتكب جنود القزلباش مجازر عامة في المدينة، وحوَّل الشاه كنائسها إلى مساجد، وهجَّر عدداً كبيراً من الكرجيين إلى فرح آباد ومنطقة شرف في مازندران[٢].

واصل الجيش الصفوي توغله في بلاد الكرج بعد أن انتهى من إخضاع كاخت بهدف قمع جميع الثائرين على الحكم الصفوي. وتركَّزت العمليات العسكرية في المناطق الخاصة بالصفويين كما حدَّدتها اتفاقية إستانبول الثانية، ولكن الجيش الصفوي كان يضطر أحياناً إلى اجتياز الحدود لمطاردة الهاربين، وقد حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات لترسيم الحدود لا تزال جارية، الأمر الذي أدَّى إلى تعثرها حيث اتهم العثمانيون الصفويين بافتعال هذه الهجمات لإفشال المفاوضات، وحاولوا في غضون ذلك إعادة سيطرتهم على مدينة كاخت بهدف إيجاد جَيْب يصلهم بالمناطق المنتجة للحرير، لكن الشاه فوَّت عليهم هذه الفرصة، وحاول توضيح موقفه من الحرب الدائرة في بلاد الكرج، وتدليلاً على حسن نيته أفرج عن جميع الأسرى الأتراك الذين اعتُقلوا خلال الحروب مع العثمانيين[٣].

ويبدو أن الصدر الأعظم نصوح باشا اقتنع بوجهة نظر الشاه عباس الأول من هذه المسألة ما أثار عدداً من القادة العثمانيين المتشددين، فاتهموه بالتواطؤ مع العاهل الصفوي، وأقنعوا السلطان أحمد الأول بالتخلص منه، فأمر بإعدامه وعيَّن محمد باشا مكانه[٤]، وأمره بالتدخل في المسألة الكرجية، فجهَّز جيشاً كثيفاً بلغ تعداده مائة ألف جندي، وتقدم في (شعبان ١٠٢٥هـ/آب ١٦١٦م) باتجاه أذربيجان الإيرانية ووصل إلى مدينة إيروان وحاصرها. استمر الحصار مدة أربعة وخمسين يوماً لم يتمكَّن محمد باشا خلالها من اقتحام المدينة حتى إذا دخل فصل الشتاء وتساقط الثلج واشتد المطر والبرد وتناقصت المؤن وتعذَّر مواصلة الحصار، فك الحصار وعاد إلى وان. وكان الشاه موجوداً آنذاك في نخجوان التي تبعد مائة وخمسة عشر

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٤٦. پازوكي: ص٣٣١. الأسترآبادي: ص٢٠٥.
(٢) الأسترآبادي: ص٢٠٧. قليخان: جـ٨ ص٤١٦ ـ ٤٢٠.
(٣) فلسفي: جـ٥ ص١٧٩٤، ١٧٩٥.
(٤) أوزتونا: جـ١ ص٤٥٠.

كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي، يراقب الوضع[1].

ونتيجة لفشله، عزل السلطان الصدر الأعظم محمد باشا وعيَّن مكانه خليل باشا[2]، وراح هذا يُجهِّز جيشاً لاستئناف الحرب، وحتى يُموِّه على استعداداته العسكرية، تبادل السلطان الرسائل مع الشاه بشأن عقد صلح بين الجانبين.

وقاد الصدر الأعظم خليل باشا جيشاً جراراً باتجاه أذربيجان في (٢١ جمادى الآخرة ١٠٢٧هـ/ ١٦ أيار ١٦١٨م) متذرعاً بالرغبة في عقد الصلح، فبادر الشاه إلى إتلاف وحرق المزروعات ووسائل العيش في الطريق بين ديار بكر وتبريز وهو الذي سيسلكه الجيش العثماني، وأحرق المدينة الأخيرة وأخلاها من سكانها ووضع حامية على الطريق بينها وبين قزوين لصدِّه إذا ما حاول التقدم باتجاهها، وعسكر في أردبيل ليكون قريباً من ميدان المعارك.

تقدم الجيش العثماني باتجاه تبريز وانضم إليه عدد من أمراء الكرج من الذين تضرَّرت بلادهم بفعل الاجتياح الصفوي، وقدَّم خان القرم جاني بك كراي أربعين ألف فارس بقيادة ولي عهده شاهين كراي[3]، ونجح هذا الجيش في دخول تبريز من دون مقاومة، لكنه فوجئ بخلوها من السكان ومُقوِّمات الحياة، واضطر إلى مغادرتها بعد خمسة أيام وعسكر في ضواحيها[4].

وأرسل خليل باشا من معسكره رسالة إلى الشاه يعرض عليه الصلح الذي حدَّد شروطه التالية، ونصحه بقبولها حتى يتوقَّف عن التقدم وإسقاط الدولة الصفوية:

١ ـ يُرسل الشاه إلى السلطنة مقداراً من الحرير يتراوح بين مائتين إلى ثلاثمائة حمل كخراج سنوي.

٢ ـ يُعيد الشاه إلى الدولة العثمانية الأجزاء الغربية من أذربيجان وأرمينيا وشكي وشَروان وبلاد الكرج، وهي الولايات التي استعادها الشاه من الدولة العثمانية بموجب معاهدة إستانبول الثانية.

٣ ـ يُرسل الشاه أحد أبنائه إلى إستانبول كرهينة لحسن تنفيذ المعاهدة[5].

إن قراءة متأنية للشروط أعلاه تطلعنا على الملاحظات التالية:

ـ قدَّر الصدر الأعظم خليل باشا حين قدَّم شروطه المتشدِّدة، بأن الشاه عباس الأول لن يقوى على مواجهته، ولا مخرج له سوى الموافقة عليها.

ـ ركَّز الصدر الأعظم خليل باشا في الشرط الأول على الحرير الإيراني ذي

---

(١) أوزتونا: جـ١ ص٤٥٠.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) فلسفي: جـ٥ ص١٧٨٧، ١٧٨٨.
(٥) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٥٠. فلسفي: جـ٥ ص١٨٠٢ ـ ١٨٠٥.

الشهرة الواسعة والمطلوب أوروبياً، وطالب بزيادة مقدار ما يُرسله الشاه إلى العثمانيين وذلك بهدف تقليص الصادرات الإيرانية من هذه المادة إلى أوروبا، مع ما يؤدي ذلك إلى التأثير سلباً على العلاقات الصفوية ـ الأوروبية.

ـ لا يمكن للشاه عباس الأول، بموجب الشرط الثاني، أن يعيد مجدداً تلك المناطق إلى الدولة العثمانية وقد تكبَّد كثيراً من الأرواح في سبيل الاستيلاء عليها.

ـ سبق للدولة العثمانية أن طالبت في عام (١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧ ـ ١٥٩٨م)، بهذا التدبير الوارد في الشرط الثالث ورفضه الشاه.

لذلك كان من الطبيعي أن يرفض الشاه عباس الأول هذه الشروط التي عدَّها بمثابة استسلام وخضوع، ووافق فقط على إرسال مائة حمل من الحرير إلى السلطان مرة واحدة كهدية. فتأزم الموقف واستؤنفت العمليات العسكرية، فأجلى الشاه سكان أردبيل خشية من سقوطها في أيدي العثمانيين.

وباغت الجيش الصفوي، الجيش العثماني المعسكر في ضواحي تبريز واصطدم به على حين غرة، فتغلَّب عليه وكبده كثيراً من القتلى وصل إلى خمسة عشر ألفاً. وبذلك فشلت جهود الصدر الأعظم خليل باشا، ومُنِي بنكسة عسكرية شديدة الوطأة على الدولة العثمانية، لم يكن يتوقعها، ما جعل موازين القوى تميل بشكل ملحوظ لصالح الصفويين. وفَقَدَ العثمانيون القدرة على المناورة ومواجهة الجيش الصفوي المتمركز في أذربيجان، واضطروا للدخول في مفاوضات للصلح، فأرسل خليل باشا مبعوثاً إلى الشاه من أجل هذه الغاية، وعندما وافق على مبدأ الصلح، استُكملت المفاوضات في منطقة سراب شرقي تبريز على الطريق بين أردبيل وزنجان، ونتج عنها توقيع اتفاقية صلح في (٩ شوال ١٠٢٧هـ/ ٢٩ أيلول ١٦١٨م) وهي التي عُرفت باتفاقية سراب، وقد تضمّنت بندين فقط هما:

١ ـ تكون الحدود بين الدولتين كما نصت عليها اتفاقية أماسيا.

٢ ـ تبقى البنود: ٣، ٤، ٥، ٦ و٧ من معاهدة إستانبول الثانية سارية المفعول.

مع تعهد الشاه بالوفاء بتصدير مائة حمل من الحرير سنوياً[(١)].

تعقيب على اتفاقية سراب: مثَّلت اتفاقية سراب نقلة نوعية في العلاقة السياسية بين الدولتين الصفوية والعثمانية من واقع إجراء المفاوضات في منطقة سراب، أي في الأراضي الصفوية، على عكس ما كان يحصل قبل ذلك حيث كانت المفاوضات تجري داخل الأراضي العثمانية وتحديداً في العاصمة إستانبول، ويعكس ذلك الضعف الذي انتاب الدولة العثمانية في مقابل الوثبة الصفوية، وتجلَّى هذا الضعف

(١) إقبال: ص٦٦٢، ٦٦٣.

أيضاً في قبول الدولة العثمانية تخفيض مقدار أحمال الحرير إلى مائة بدلاً من مائتين، وتنازلها عن منطقتين استراتيجيتين هما: درنة ودرتنك الكرديتين، وستتخذهما القوات الصفوية في المستقبل مركزاً للتجمع والانطلاق نحو بغداد[1].

وأتاحت الاتفاقية للسلام أن يسود مدة خمس سنوات عادت خلالها الحياة الطبيعية على الطرق التجارية، وتدفَّق الحرير الإيراني على السلطنة العثمانية ما جعل الشاه عباس الأول يخلُّ بتعهداته لإنكلترا لتصدير الحرير الإيراني إليها بموجب اتفاقية وُقِّعت قبل أشهر من توقيع اتفاقية سراب، كما تبادل العاهلان الشاه عباس الأول والسلطان عثمان الثاني (١٠٢٧ ـ ١٠٣٢هـ/ ١٦١٨ ـ ١٦٢٣م)، الذي خلف السلطان مصطفى الأول (١٠٢٦ ـ ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧ ـ ١٦١٨م)، الرسائل.

المرحلة الثالثة: الصراع على بغداد

بدت العلاقة بين الدولتين الصفوية والعثمانية إثر توقيع اتفاقية سراب وكأنها تسير نحو الأحسن، لكن الشاه، الذي يبدو أنه اضطر إلى توقيع هذه الاتفاقية، ظل يتحين الفرص للانقضاض على الدولة العثمانية، وسرعان ما سنحت له الفرصة في عام (١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م) بفعل ما استجد من أحداث استغلها لصالحه نذكر منها:

ـ عاد الشاه إلى ممارساته القديمة في إضعاف الدولة العثمانية من خلال فرض حصار اقتصادي عليها ضمن مشروع اتفق على تنفيذه مع إنكلترا، ويقضي بضرب البرتغاليين في هرمز وطردهم من الخليج، وقد تمَّ ذلك في السنة المذكورة، فسيطر على هرمز وأخذ يُصدِّر الحرير منها إلى أوروبا على سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الإنكليزية ما حرم الدولة العثمانية من الاستفادة من ضريبة المرور (الترانزيت).

ـ حدوث فتن واضطرابات داخلية في بلاد العثمانيين بفعل ما جرى من اغتيال السلطان عثمان الثاني، وإعادة تنصيب السلطان مصطفى الأول مرة أخرى (١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م).

ـ وقوع اضطرابات في بغداد بفعل ثورة أحد القادة الكبار فيها ويدعى بكر الصوباشي ضد حاكمها يوسف باشا وقتله، وسيطر بكر على بغداد معلناً تحديه للحكومة المركزية في إستانبول. ولما كانت بغداد مدينة ذات أهمية استراتيجية في السياسة العثمانية العامة، فقد أمرت حافظ باشا حاكم ديار بكر،

---

(١) علي، شاكر علي: **تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ ـ ١٧٥٠م** ص٧٦.

بتأديبه والإطاحة به[1]، فاستنجد هذا بالشاه عباس الأول ووعده بتسليمه بغداد[2].

جهَّز الشاه جيشاً وتقدّم به إلى بغداد متذرعاً في زيارة العتبات الشيعية المقدسة في العراق ومخفياً الهدف الحقيقي للحملة، وعندما وصل إلى مشارفها عَسْكَرَ هناك وأرسل إلى بكر الصوباشي هدية هي عبارة عن عمامة القزلباش تدليلاً على أنه أضحى من رجاله المقربين، لكن حدث ما لم يكن يتوقعه، ذلك أن حافظ باشا وقف عاجزاً أمام المدينة الحصينة، فعمد إلى اتباع أسلوب التحايل لطرد الصفويين وإبعادهم عنها، فعقد صلحاً مع بكر الصوباشي وعيَّنه والياً عثمانياً عليها وترك المنطقة عائداً إلى ديار بكر[3].

وافق بكر الصوباشي على قرار تعيينه لأنه أدرك أنه لن يحتفظ بمكانته في ظل الحكم الصفوي في حين أن باستطاعته التفاهم مع العثمانيين، وعندما وصل رسل الشاه بهديته، قتلهم ووطئ عمامة القزلباش بقدميه[4].

نتيجة هذا الغدر الذي تعرَّض له الرسل الصفويون، أمر الشاه عباس الأول بشن هجوم عام على المدينة وحاصرها، وجرى اشتباك مع حاميتها. وأرسل بكر الصوباشي إلى حافظ باشا يطلب منه مساعدة عاجلة، فأرسل إليه قوة عسكرية، لكن الجيش الصفوي منعها من الدخول إلى المدينة ما جعل الأمور في داخلها تسوء. وعلى الرغم من ذلك واصل بكر الصوباشي مقاومته للحصار المضروب عليه ولم يستسلم، ما دفع الشاه إلى اللجوء للمكر والخديعة من واقع استقطابه لمحمد الصوباشي، ابن بكر، واتفق معه على التعاون المشترك فيما بينهما في الاستيلاء على بغداد مقابل أن يُعينه الشاه حاكماً عليها بعد إقصاء أبيه.

وفتح محمد الصوباشي أبواب المدينة للقوات الصفوية ليلة (٢٣ ربيع الأول ١٠٣٢هـ/ ٢٥ كانون الأول ١٦٢٣م)، فاندفع الجنود القزلباش إلى داخلها. وفوجئ جنود الحامية وقد باغتهم الصفويون بالقتل، ثم استولوا على المدينة وأسروا بكر الصوباشي، فأُحضر إلى مجلس الشاه عباس الأول فعنَّفه على قتله رسله، وأمر بوضعه في قارب مليء بالزيت والكبريت وأضرم فيه النار ليلتهب في دجلة أمام أعين الناس[5].

---

(١) دحلان، أحمد زين الدين: **الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية** جـ٢ ص١٣١.

(٢) قليخان: جـ٨ ص٤٣٢.

(٣) دحلان: جـ٢ ص١٣١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص١٣٢.

وتوقَّع محمد الصوباشي أن يفي الشاه بوعده ويُعينه حاكماً على بغداد، ولكن الشاه أمر باعتقاله وأرسله إلى خراسان وأمر بقتله هناك، وقد خشي أن ينقلب عليه كما انقلب على أبيه[1].

بعد أن سيطر على بغداد، أرسل الشاه عباس الأول بعض فِرَقه العسكرية فاستولت على الموصل وكركوك، فسيطر بذلك على معظم أجزاء العراق، وثم ذهب إلى النجف فمكث فيها مدة قبل أن يعود إلى عاصمته أصفهان.

لم تسكت الدولة العثمانية على خسارة بغداد، فأمر السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ - ١٠٥٠هـ/ ١٦٢٣ - ١٦٤٠م) الذي خلف السلطان مصطفى الأول، حافظ باشا باستعادة المدينة وطرد الصفويين من العراق، فاستولى على كربلاء والحلة ثم تقدم صوب بغداد في (٩ صفر ١٠٣٤هـ/ ٢١ تشرين الثاني ١٦٢٤م)، وأخذ يناوش حاميتها الصفوية، فسارع الشاه عباس الأول بإرسال مدد إلى جنوده المتمركزين في داخلها الأمر الذي أطال مدة المناوشات حتى سبعة أشهر من دون أن يحسم أي جانب المعركة لصالحه. وأرسل السلطان مراد الرابع مدداً لجيشه المتمركز حول بغداد غير أن القزلباش قطعوا الطريق على أفراده وحاصروا الجيش العثماني من الخلف. وتحتَّم على حافظ باشا أن يحارب على جبهتين في الوقت نفسه، فأدرك فوراً حراجة وضعه، ومال إلى الصلح على أساس الاعتراف بسيطرة الشاه عباس الأول على بغداد والأماكن الشيعية المقدسة في العراق، فوافق الشاه عباس الأول على ذلك، وهيَّأ للجنود العثمانيين عودة هادئة[2].

ويبدو أن العثمانيين أصرُّوا على استرجاع بغداد مهما أدى ذلك إلى نتائج، ويكمن إصرارهم هذا في عدم تمكين الشاه عباس الأول من تحقيق أهدافه وإنهاكه في حروب استنزاف تمنعه من اندفاعه باتجاه المناطق الاستراتيجية التي تخدم مصالحه العسكرية والتجارية[3]، وقد أدرك هو ذلك، فمال إلى التفاهم مع العثمانيين، فأرسل رسالة إلى السلطان مراد الرابع مع قاضي بغداد، يقترح فيها أن يتولى ابن الشاه حكومة بغداد على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني، ويدفع للسلطنة خمسين ألف دينار ذهب سنوياً مقابل ذلك، فرفض السلطان الاقتراح وأمر بقتل قاضي بغداد بتحريض من مقربيه[4].

وهكذا فشلت محاولات الدولة العثمانية في استعادة بغداد حيث ظلت تابعة للصفويين طوال المدة الباقية من حكم الشاه عباس الأول، ولمدة عشر سنوات أخرى بعد وفاته، كما سيمر معنا.

---

(١) دحلان: جـ٢ ص١٣٢.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٣) صباغ: ص١٩٤.

(٤) العرضي: ص٣٤٦.

العلاقة مع الدولة المغولية في الهند

الصراع على قندهار: اتسمت العلاقة بين الدولتين المغولية في الهند والصفوية في إيران بالجيدة إجمالاً، لكن ذلك لم يحجب الصراع بينهما على قندهار المتنازع عليها بينهما. والواقع أن هذه المدينة كانت مثار نزاع قديم بين الهند وإيران بسبب أهميتها التجارية، والمعروف أنها كانت محطة تجارية مهمة على طريق القوافل القادمة من الصين والهند، ومركزاً عسكرياً استراتيجياً عند الحدود الشمالية الغربية للهند، ما دفع بابر ملك الهند، وأولاده من بعده، على أن يحرصوا على الاحتفاظ بها. ولئن كان الصفويون في إيران قد اضطروا تحت ظروف سياسية وعسكرية معينة إلى التخلي عن مطالبتهم بها إلا أنهم لا يفتئون يتطلعون إلى اليوم الذي يستعيدونها فيه بوصفها حقاً ثابتاً لهم.

بدأت العلاقة الجيدة بين الجانبين منذ عهد الشاه إسماعيل الأول، وساعد على تمتينها العداء المشترك للأوزبك، وظلت قائمة إلى أن استولى الشاه طهماسب الأول على قندهار في عام (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م)، فعيَّن ابن أخيه حسين ميرزا بن بهرام ميرزا والياً عليها[١]. ولما كانت قندهار مدينة حيوية في سياسة ملوك الهند لأنها تشكل مفتاح الطريق إلى حدودهم الشمالية ـ الغربية؛ فقد ساءت العلاقة بينهم وبين الصفويين، وظلت كذلك طوال عهد الشاه طهماسب الأول، وخلال حكم كل من الشاه إسماعيل الثاني ومحمد خدابندة، لكن ذلك لم يؤد إلى نشوب حرب سافرة بينهما.

وعندما اعتلى جلال الدين محمد أكبر بن همايون (٩٦٣ ـ ١٠١٤هـ/ ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م) سدة الحكم في الهند، راح ينتهز الفرص لكي يسترد قندهار، فضمَّ السند والملتان ومنازل البطهان المطلة عليها تمهيداً لانتزاعها من أيدي الصفويين، وسنحت له الفرصة في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) عندما تعرَّضت الدولة الصفوية لغزو مزدوج من الشرق، الأوزبك، ومن الغرب، العثمانيين، فانهمك الشاه عباس الأول بصدهما وأهمل تدعيم صلاته بحكام قندهار الذين خشوا من تعرضهم لهجوم الأوزبك، فارتموا في أحضان الدولة المغولية في الهند.

وطلب حاكم قندهار الصفوي مظفر ميرزا وأخوه رستم ميرزا، ابنا حسين ميرزا، من أكبر إرسال أحد قادته لتسلم المدينة، فارسل شاهي بك،من أجل هذه الغاية.

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٦٣.

وعيَّن أكبر مظفر ميرزا في وظيفة منصب دار وحاكماً على سمبهال[١].

لم يستطع الشاه عباس الأول الرد على ما قام به أكبر لانهماكه بمحاربة الأوزبك والعثمانيين، وآثر التقرب منه لعله يساعده في حرب الأوزبك أو يرد إليه قندهار، لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ما دفعه إلى ترك مشكلة قندهار حتى يفرغ من أعدائه، وعمد في غضون ذلك إلى جمع المعلومات عن أوضاع مملكة المغول في الهند من خلال البعثات التي كان يُرسلها إلى هذا البلد[٢].

توفي أكبر في عام (١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م) وخلفه ابنه نور الدين جهانكير (١٠١٤ ـ ١٠٣٧هـ/ ١٦٠٥ ـ ١٦٢٧م)، فشهدت البلاد اضطرابات داخلية في البنغال وميوار والدكن، بالإضافة إلى نزاع أسري تمثل بتمرد ابنه شاه جهان، وقد شكَّلت فرصة استغلها الشاه عباس الأول، فهاجم بُست من أعمال قندهار واستولى عليها[٣].

وشُغِل الشاه عباس الأول بعد ذلك بالحروب في أذربيجان وشَروان، كما شُغِل جهانكير ببعض الأحداث الداخلية، ما أوجد نوعاً من الفتور في العلاقات، إلى أن حلَّ عام (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م)، فأرسل الشاه رسولاً إلى دلهي، هو ميرزا برخوردار خان، الملقب بخان عالم، مُحملاً بالهدايا ورسالة تعزية بوفاة أكبر وتهنئة بتولي جهانكير الحكم، فعادت الصلات الودية بين الدولتين مرة أخرى، وكثر تبادل السفراء وترددهم على العاصمتين، لدرجة أن إحدى البعثات الهندية تألَّفت من سبعمائة مبعوث يحملون الهدايا وذلك في عام (١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م)[٤].

وعلى الرغم من ذلك، لم تغب عن ذهن الشاه عباس الأول قضية استعادة قندهار سلماً أو حرباً، وحرص على ذكرها في كل رسائله إلى جهانكير الذي كان يتجاهل الإشارة إليها، لذلك أرسل في عام (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م) سفيراً إلى دلهي ليتباحث مع وزراء جهانكير بشأن استعادة قندهار، لكن محاولته باءت بالفشل[٥]. عندئذ قرَّر استعادتها بالقوة، وكان قد أبعد الخطرين الأوزبكي والعثماني عن بلاده، واستعاد جميع المناطق التي كان الأوزبك والعثمانيون قد استولوا عليها في بداية حكمه، وانتزع جزيرة هرمز من البرتغاليين؛ ما أعطاه الثقة بالنفس، فهاجم قندهار ودخلها بعد حصار دام خمسة وأربعين يوماً، وخطب فيها باسم الأئمة الاثني عشر[٦]، وساعدته الظروف السيئة التي كان يمر بها العاهل المغولي من واقع الخلافات بينه

---

(١) قليخان: جـ٨ ص٣٦٣.

(٢) بازوكي: ص٣٥١.

(٣) قليخان: جـ٨ ص٣٦٤.

(٤) فلسفي: جـ٤ ص١٣٨٧، ١٣٩٢.

(٥) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٦٥.

(٦) قليخان: جـ٨ ص٤٢٩. الأسترآبادي: ص١٨٣.

وبين ابنه شاه جهان ومحاولة إقصائه عن ولاية العهد لصالح أخيه الأصغر شهريار بتأثير السلطانة نور جهان، وهي حادثة أثَّرت سلباً على العلاقة بين الأب وابنه وزادت التباعد بينهما إلى حد أن الابن رفض أمر أبيه بقيادة الحملة العسكرية لطرد الشاه عباس من قندهار خشية من إقصائه عن ولاية العهد، واعتقد أن إبعاده إلى قندهار ما هو إلا جزء من المؤامرة، في الوقت الذي رفض فيه جهانكير الخروج على رأس الحملة حتى لا يستغل ابنه شاه جهان الفرصة ويستولي على السلطة.

وبادر الشاه عباس الأول بمراسلة جهانكير ليؤكد حقه المتوارث في هذه المدينة، ويبدو أنه اقتنع بوجهة نظره، أو أنه استحال عليه إعادتها، فأمر قواته بالعودة[١].

(١) **Memoirs of Jahangir:** pp233, 240-242, 245.

الفصل السابع

الشاه عباس الأول

٩٩٦ ـ ١٠٣٨هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩م

العلاقات الخارجية مع العالم الأوروبي

العلاقة الصفوية ـ الإسبانية والبرتغالية

تمهيد: لعل ما يلفت النظر في عهد الشاه عباس الأول، ذلك الانفتاح الواسع على الدول الأوروبية. وكان حكام إيران الصفويين من قبله يتحفظون على إجراء أي اتصال واسع مع الغرب الأوروبي، وإذا حدث أن زار مبعوث أوروبي العاصمة الصفوية، فإن الشاه يستقبله بفتور ظاهر، من ذلك أن ملكة إنكلترا اليزابيت أرسلت في عام (٩٦٩هـ/ ١٥٦٢م) السفير أنطوني جانكسين للاجتماع بالشاه طهماسب من أجل عقد معاهدة صداقة بين البلدين، ولكن الشاه استقبله بفتور ولم يمنحه الفرصة لتحقيق الهدف من زيارته[١]. والواقع أن محاولة الانفتاح الإنكليزي على الصفويين مرده إلى جهود إنكلترا للسيطرة على طرق التجارة الشرقية وإزاحة كل من البرتغال وإسبانيا عنها، نظراً لموقع إيران الاستراتيجي.

وتبدَّل الوضع في عهد الشاه عباس الأول الذي دفعه عداؤه للعثمانيين إلى الانفتاح على الدول الأوروبية للاستعانة بها على حربهم، في الوقت الذي أدرك أهمية موقع بلاده على طريق التجارة، آملاً بتحويل النشاط إلى الجنوب كي يتجنب المرور عبر الأراضي العثمانية ودفع رسوم العبور للعثمانيين.

وأرسل الشاه عباس الأول العديد من البعثات إلى أوروبا لتوطيد العلاقة مع دولها، ودعا الأوروبيين لزيارة إيران وعقد صفقات تجارية معها، كما استقبل العديد من السفارات الأوروبية. واحتشدت في أصفهان البعثات الأوروبية التجارية

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٦٩.

والتبشيرية، وحرص الشاه على توفير متطلبات الأمن والراحة لأفرادها.

البعثات الإسبانية إلى الدولة الصفوية: حاول الشاه عباس الأول، في غمرة الصراع الدائر آنذاك مع العثمانيين، التقارب مع الدول الأوروبية والتحالف معها لحربهم، وكان لدى الدول الأوروبية من الدوافع ما جعلها تتجاوب مع الجهود الصفوية بفعل:

- الصراع مع العثمانيين في أوروبا، العدو المشترك لكليهما.
- حسن معاملة النصارى في الدولة الصفوية.
- عقد معاهدات تجارية مع الصفويين.

وخطت إسبانيا الخطوة الأولى، فأرسل الملك فيليب الثاني (٩٦٢ ـ ١٠٠٧هـ/ ١٥٥٥ ـ ١٥٩٨م) بعثة إلى إيران في عام (١٠٠٧هـ/١٥٩٨م) برئاسة الراهبين البرتغاليين ألفونسو كردرو الفرنسيسكاني ونيقولا دي ملو الدومينيكاني، وهو المبعوث الخاص للقوات البرتغالية المرابطة في جزيرة هرمز[١]، فقدَّما الهدايا إلى الشاه وبلَّغاه تهنئة ملك إسبانيا على انتصاراته على الأوزبك في خراسان، ثم طلبا منه السماح لنصارى إيران ببناء الكنائس وإقامة شعائرهم الدينية[٢]، فشكرهما الشاه على التهنئة ووعدهما بحسن معاملة النصارى في إيران.

لم تمكث البعثة الإسبانية مدة طويلة في أصفهان حيث كان الشاه عباس يُجهز بعثة لإرسالها إلى أوروبا، فعادت البعثة الإسبانية معها عن طريق روسيا وألمانيا.

وأرسل ملك إسبانيا فيليب الثالث (١٠٠٧ ـ ١٠٣٠هـ/ ١٥٩٨ ـ ١٦٢١م) مبعوثاً إلى الشاه عباس في عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) هو أنطونيو دى جوڤيا، وقد اصطحب معه عدداً كبيراً من المبشرين، فاستقبله الشاه في مشهد، وتركزت المباحثات بينهما حول طلب ملك إسبانيا:

- إعادة البحرين إلى سيادته، والمعروف أن الشاه عباس استولى عليها في عام (١٠١٠هـ/ ١٦٠١م).
- فك الحصار عن ميناء كمبرون الذي حاصرته القوات الصفوية لتخفيف الضغط عن البحرين.
- السماح للمبشرين بالعمل في إيران وبناء كنيسة يؤدي فيها النصارى شعائرهم الدينية[٣].

---

(١) يُذكر في هذا المقام أن إسبانيا كانت قد أخضعت البرتغال لسلطانها في عام (٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م).

(٢) فلسفي، نصر الله: **تاريخ روابط إيران وأوروبا دوره صفوية** جـ١ ص١٩. أحمدي: ص١٦٨.

(٣) الأسترآبادي: ص١٧٥. إقبال، عباس: **قسمتي أز ماجراي خليج فارس، مجلة يادكار**، السنة الرابعة، العدد الثالث ص٢٩.

رفض الشاه عباس الأول التفاوض بشأن إعادة البحرين إلى إسبانيا في حين وافق على فك الحصار عن ميناء كمبرون، واشترط للسماح ببناء الكنيسة مساعدة إسبانيا لإيران في حربها ضد الدولة العثمانية[١].

وأرسل ملك إسبانيا فيليب الثالث سفارة ثانية في عام (١٠١٧هـ/١٦٠٨م) برئاسة أنطونيو دي جوڤيا أيضاً، وحمَّله رسالة تضمنت تكراراً للمطالب السابقة وهي:

- إعادة البحرين إلى السيادة الإسبانية.
- منح تسهيلات للنصارى في إيران.
- الترخيص لتجار إسبانيا والبرتغال باحتكار تجارة إيران في منطقة الخليج العربي.

وذلك، مقابل المزيد من الوعود بمساعدة إيران في حروبها ضد الدولة العثمانية.

ويبدو أن الشاه الذي تلقَّى وعوداً كثيرة بالمساعدة من ملك إسبانيا لم تُنفد على الأرض، لم ير فائدة في الاستمرار بهذه المباحثات حتى يتأكد من صحة العهود من ملك إسبانيا نفسه، لذا أمر بأن يصحب السفير الإسباني، لدى عودته، وفداً إيرانياً برئاسة دنكيز بك للاجتماع بفيليب الثالث[٢].

وأقدم دنكيز بك خلال رحلته إلى إسبانيا على ارتكاب بعض الممارسات التي ألَّبت الشاه عليه، منها:

- فضَّ رسالة الشاه عباس الأول إلى فيليب الثالث، بناء على رغبة المسؤول الإسباني في ميناء جوا.
- لم يراع النظام المتبع بالنسبة للسفراء حين ارتدى ملابس الحداد السوداء بدلاً من الملابس الإيرانية الرسمية، يوم وفاة ملكة إسبانيا.
- كان الشاه عباس الأول قد حمَّل سفيره رسالة إلى البابا، فباعها هذا إلى أحد التجار كي يستغلها في البلاط البابوي على أنه مبعوث الشاه، ويحقق مكاسب مادية.
- أساء دنكيز بك معاملة مرافقيه في الرحلة، فنفروا منه، ما دفع بعضهم إلى اعتناق النصرانية والبقاء في إسبانيا[٣].

ظلَّت بعثة دنكيز بك في إسبانيا حتى عام (١٠٢١هـ/١٦١٢م) عاد بعدها إلى إيران برفقة أنطونيو دي جوڤيا، وعندما اجتمعا بالشاه عباس الأول لاحظ المبعوث الإسباني أن الاستقبال كان فاتراً، ثم التفت الشاه إلى مبعوثه دنكيز بك، فعنَّفه على تصرفاته وأمر بقتله، فدب الخوف في نفس المبعوث الإسباني، فغادر البلاط

---

(١) بخش: ص١٠٩.

(٢) المرجع نفسه: ص١١٣. أحمدي: ص١٧١.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٧٦ هامش رقم ١. أحمدي: ص١٧١.

الصفوي بسرعة وتوجَّه إلى جزيرة هرمز حيث مركز قيادة القوات البرتغالية في منطقة الخليج العربي[1].

وأرسل الملك الإسباني بعثة أخرى وأخيرة إلى إيران برئاسة دون غارسيا دي سيلفا فيجورا، وصلت إلى أصفهان في (جمادى الأولى ١٠٢٧هـ/ آيار ١٦١٨م)[2] وهي تحمل رسالة تتضمن المطالب التالية:

- استعادة البحرين وكمبرون. والمعروف أن إيران استولت على هذا الميناء الأخير في عام (١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م).
- السماح للنصارى بإقامة شعائرهم الدينية في الأراضي الصفوية بحرية.
- النظر بعين العطف إلى مواطني إسبانيا والبرتغال الذين يفدون إلى إيران.
- عقد صفقات تجارية تعطي التجار الإسبان والبرتغاليين أفضلية الإشراف على تجارة إيران في منطقة الخليج العربي.
- عدم السماح للتجار الإنكليز بمنافسة التجار الإسبان والبرتغاليين.

وذلك مقابل، مساعدة إيران في حروبها مع الدولة العثمانية، وسترسل إسبانيا سفنها الحربية لمهاجمة البحرية العثمانية في البحر الأحمر وإغلاقه في وجه التجارة العثمانية[3].

الواقع أن وصول البعثة الإسبانية تزامن مع:

- توقيع الشاه عباس الأول اتفاقية صلح مع الدولة العثمانية.
- تعاون الشاه عباس الأول مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية للتصدي لمظالم القوات البرتغالية وتجاوزاتها في منطقة الخليج العربي.

وبناءً عليه، كُتب على مفاوضات البعثة الإسبانية أن تُمنى بالفشل حيث كان رد الشاه عنيفاً، فقد:

- رفض إعادة البحرين وميناء كمبرون.
- أعلن عن كسر احتكار التجار الإسبان والبرتغاليين لتجارة الحرير الإيراني، وأنه سيبيعه لأي تاجر يدفع أعلى ثمن.
- لم يسمح بمخاطبته بشأن أصدقائه الجدد، الإنكليز.
- لم يعد إرسال السفن الإسبانية والبرتغالية إلى البحر الأحمر لإغلاقه في وجه

---

(١) إقبال: **تاريخ إيران بعد الإسلام**: ص٦٦٤، ٦٦٥. جمعة والخولي: جـ١ ص٣٧٦. أحمدي: ص١٧١.

(٢) بازوكي: ص٣٣٤.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٧٧. أحمدي: ص١٧١، ١٧٢.

التجارة العثمانية؛ حيوياً في سياسته الخارجية بعد أن وقَّعت إيران اتفاقية صلح مع الدولة العثمانية، وخمدت الحروب بينهما(١).

وعندما أدرك دون غارسيا بأن مهمته لن تُحقق شيئاً عاد إلى هرمز من دون استئذان الشاه الذي عدَّ تصرفه هذا بمثابة قطع العلاقة الودية بين البلدين(٢).

البعثات الصفوية إلى إسبانيا: بدأ الشاه عباس الأول اتصالاته السياسية الأوروبية مع مملكة إسبانيا، نظراً لتواجدها العسكري في منطقة الخليج العربي وباستطاعتها عرقلة التجارة العثمانية في البحر الأحمر، وهو أحد أهداف الدولة الصفوية، فشكَّل بعثة برئاسة حسين علي بك بيات، كان أنطوني شيرلي أحد أعضائها البارزين، وضمَّ إليها عدداً من المرافقين من بينهم أحد رجال الدين الشيعة للإشراف على التوجيه الديني للبعثة، كما انضم إليها الراهبان البرتغاليان ألفونسو كردرو ونيقولا دي ملو(٣)، وحدَّد مهمتها في هدفين، سياسي وتجاري:

الأول: عقد معاهدات مع جميع الدول الأوروبية التي سيزورها أعضاء الوفد للعمل المشترك ضد الدولة العثمانية.

الثاني: تسويق الحرير الإيراني.

انطلقت البعثة من إيران في (١٥ ذي الحجة ١٠٠٧هـ/ ٩ تموز ١٥٩٩م)، وسلكت طريق مازندران إلى روسيا ومنها إلى أوروبا الوسطى وصولاً إلى روما. ويبدو أنه وقع خلاف بين حسين علي بك بيات وأنطوني شيرلي، ما دفع هذا الأخير إلى الانفصال عن البعثة، وقطع صلته بإيران(٤).

وتباينت الآراء حول سبب انفصال أنطوني شيرلي، فذكر البعض بأن أحد رفاقه سرق بعض رسائل الشاه عباس إلى ملوك أوروبا وسلَّمها إلى العثمانيين، فشعر أنه في خطر نتيجة هذه الخيانة، وخشي العاقبة إذا عاد إلى أصفهان، فغادر روما إلى البندقية ثم التحق بخدمة الملك الإسباني. وفي رواية أن أنطوني باع لبعض التجار الإنكليز في ميناء البلطيق، جزءاً من هدايا الشاه عباس الأول التي أرسلها مع البعثة لتقدم هدية إلى ملوك أوروبا، فكان هذا التصرف من بين الأسباب التي أدت إلى الخلاف بينه وبين حسين علي بك بيات(٥).

وصل أعضاء البعثة إلى إسبانيا في (أوائل ١٠١٠هـ/أواسط ١٦٠١م)، ومكثوا فيها مدة شهرين قبل أن يعودوا إلى إيران من دون أن يستكملوا مهمتهم في الدول

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٧٨.
(٢) إقبال: ص٦٦٥.
(٣) بازوكي: ص٣٤٣. أحمدي: ص١٦٩.
(٤) أحمدي: المرجع نفسه.
(٥) بخش: ص١٠٥، ١٠٦. جمعة والخولي: جـ١ ص٤٠٦.

الأوروبية الأخرى وبخاصة إنكلترا وفرنسا، وكان حسين علي بك بيات يحمل رسائل من الشاه إلى ملكيهما[١]. ولعل الذي دفع رئيس البعثة إلى إنهاء مهمته والعودة بسرعة إلى إيران هو اعتناق ثلاثة من مرافقيه النصرانية، وقد تعمَّدوا بحضور ملك وملكة إسبانيا[٢]. وقدَّم الملك الإسباني السفينة التي نقلت أعضاء البعثة إلى إيران، واستغرقت الرحلة أربعة أعوام[٣].

وتوقف الشاه عباس الأول عن إرسال بعثة أخرى إلى إسبانيا حتى عام (١٠١٦هـ/١٦٠٨م) حين اشتد النزاع بينه وبين الدولة العثمانية على أذربيجان، فكان بحاجة إلى مساعدة أوروبية.

ترأس البعثة روبرت شيرلي، أخو أنطوني، وخرجت من أصفهان في العام المذكور إلّا أنها لم تصل إلى إسبانيا إلا بعد عامين، فاجتمع أعضاؤها بفيليب الثالث، وسلَّمه روبرت رسالتين من الشاه يدعوه فيهما إلى التعاون للقضاء على عدوهما المشترك المتمثل في الدولة العثمانية مقابل تسهيلات تجارية يقدمها الشاه لتجار إسبانيا والبرتغال[٤].

ويبدو أن اللقاء كان فاتراً بدليل رد الملك الإسباني المقتضب بأنه سيدعو البابا وملوك أوروبا إلى محاربة العثمانيين وإرسال سفنهم لسدِّ مداخل البحر الأحمر أمام التجارة العثمانية مع الهند[٥]، ولعل لذلك علاقة برفض الشاه إعادة سيطرة القوات البرتغالية على البحرين. واضطر روبرت شيرلي إلى مغادرة إسبانيا إلى إنكلترا، ثم عاد إلى إيران في عام (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م).

وعلى الرغم من هذا الفشل، فقد أرسل الشاه عباس الأول بعثة أخرى إلى إسبانيا برئاسة روبرت شيرلي أيضاً، غادرت إيران في العام المذكور، ومكثت هناك مدة خمسة أعوام كانت العلاقة الصفوية ـ الإسبانية خلالها قد دخلت في طور التوتر بسبب اشتداد الصراع على منطقة الخليج العربي، فاضطر إلى مغادرة إسبانيا وتوجَّه إلى إنكلترا، ولم يعد إلى إيران إلا في عام (١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦ ـ ١٦٢٧م) خالي الوفاض[٦].

---

(١) إقبال: **قسمتي أز ماجراي خليج فارس** ص٣٤.

(٢) الثلاثة الذين اعتنقوا النصرانية هم: علي بك، ابن أخي حسين علي بك بيات، وأروج بك، السكرتير الأول في البعثة، وبنياد بك. أحمدي: ص١٦٩.

(٣) إقبال: **تاريخ إيران بعد الإسلام** ص٦٧٢.

(٤) فلسفي: **زندكاني شاه عباس** جـ٤ ص١٥٠١، ١٥٠٢. أحمدي: ص١٧٠.

(٥) المرجعان نفساهما.

(٦) إقبال: ص٦٧٤. جمعة والخولي: جـ١ ص٣٨٢.

وهكذا فشلت مساعي الشاه عباس الأول للتحالف مع إسبانيا في صراعه مع الدولة العثمانية، ولا شك بأن مرد هذا الفشل مع إسبانيا بشكل خاص هو الصراع الثنائي على منطقة الخليج العربي والذي انتهى بالقطيعة والحرب.

الصراع الصفوي ـ البرتغالي على الخليج العربي

سيطرة الصفويين على البحرين: كانت سواحل الخليج العربي تحت حكم أمراء محليين، يؤدون الجزية لسلاطين إيران، وبقي الوضع على هذا الحال حتى مجيء البرتغاليين إلى منطقة الخليج العربي في أوائل القرن العاشر الهجري/أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، فاستولوا على جزيرة هرمز في عام (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)، وأدخلوا أمراءها تحت سلطانهم، كما دخلوا البحرين في عام (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م)، ولم يتمكَّن الشاه عباس الأول أن يحول دون تحقيق ذلك لعدم توفر السفن البحرية لديه بالإضافة إلى المشكلات الداخلية التي كان يواجهها آنذاك[١]، ونظراً لأهمية البحرين أنشأت القوات البرتغالية فيها قاعدة عسكرية ومركزاً للتجارة.

وفي عام (١٠١٠هـ/ ١٦٠١ ـ ١٦٠٢م) توفي فروخ شاه حاكم جزيرة هرمز وخلفه ابنه فيروزشاه، فاستوزر شرف الدين لطف الله، فعيَّن هذا أخاه ركن الدين مسعود حاكماً على البحرين. وشعر هذا الحاكم بأن البرتغاليين يتحكَّمون بمقدراتها، فقرَّر التخلص منهم والاستقلال بالإمارة، وأبدى رغبته هذه أمام معين الدين فالي أحد وجهاء فارس الذي نقلها إلى وردي خان حاكم فارس، فرحب بالفكرة وأضمر الاستيلاء على البحرين وضمها إلى الممتلكات الصفوية، وأعدَّ جيشاً بقيادة معين الدين فالي تقدم نحو البحرين وتمكَّن من دخوله. وهاجم الجنود الصفويون منزل الحاكم ركن الدين مسعود وقتلوه وذلك في (رمضان ١٠١٠هـ/ آذار ١٦٠٢م)[٢].

وعندما ترامت أنباء سقوط البحرين ومقتل حاكمها إلى مسامع حاكم جزيرة هرمز البرتغالي، أعدَّ جيشين، أحدهما: بري بقيادة الوزير شرف الدين لطف الله، والآخر: بحري. وفرض الجيشان الحصار على البحرين. وعمد وردي خان إلى الحيلة لتخفيف الضغط عن البحرين، فأرسل فرقة من جنده إلى ميناء كمبرون وحاصرته، فاضطر البرتغاليون إلى فصل بعض سفنهم المحاصِرة للبحرين وأرسلوها إلى ميناء كمبرون ما أتاح للقوات الصفوية التغلب على القوات البرتغالية، وثبَّتت أقدامها في البحرين[٣].

---

(١) إقبال: ص٦٥٩، ٦٦٠.

(٢) الأسترآبادي: ص١٧٢.

(٣) إقبال: ص٦٦٠. فلسفي: جـ٤ ص١٥١٧. أحمدي: ص٧٩.

كانت البحرين أول إمارة من إمارات سواحل الخليج العربي تخرج من قبضة البرتغاليين بعد أن حكموها مدة قرن. وحاول فيليب الثالث ملك إسبانيا استردادها عن طريق المفاوضات والبعثات المتبادلة، ولكن الشاه كان يرفض في كل مرة. وبسيطرة الصفويين على البحرين، بسطوا هيمنة سياسية على الجنوب الشرقي لسواحل الخليج العربي.

سيطرة الصفويين على كمبرون: يقع ميناء كمبرون على مسافة فرسخين من جزيرة هرمز، وقد فرضت القوات البريطانية سيطرتها عليه فور قدومها إلى الخليج العربي، واستخدمته مرفأً لسفنها الكبيرة بفعل أن شواطئ جزيرة هرمز لم تكن تصلح لرسو مثل هذه السفن[(١)]، وشيَّدت فيه قلعة كبيرة لحمايته ثم اتخذته قاعدة بحرية ومركزاً لتحصيل الرسوم الجمركية من السفن التي تدخل إلى الخليج العربي[(٢)].

وقرَّر الشاه عباس الأول، بعد أن وضع يده على السواحل الجنوبية الغربية للخليج العربي، مدَّ سيطرته إلى الساحل الجنوبي الشرقي ليتحكم بمدخله، ومن أجل تحقيق ذلك، كان عليه أن يصطدم بالقوات البرتغالية، وبدأ بميناء كمبرون، فحاصره في عام (١٠١١هـ/١٦٠٢م)، ويبدو أنه استخدمه ورقة ضغط لحث ملك إسبانيا على تقديم المساعدة له ضد الدولة العثمانية، بدليل أنه لم يفك الحصار عنه إلا بناء على طلب السفير الإسباني أنطونيو دي جوڤيا. وعندما بدأت العلاقة بينه وبين ملك إسبانيا بالتأزم لعدم تلقيه المساعدة، وكان قد انتهى من إحدى مواجهاته مع العثمانيين، كلَّف قائده وردي خان حاكم فارس الاستيلاء على هذا الميناء، فأعدَّ جيشاً في عام (١٠٢٢هـ/١٦١٣م)، تولى ابنه إمام قولي خان قيادته، لكن الحملة فشلت، وتوفي وردي خان في غضون ذلك، فتولى ابنه حاكمية فارس مكانه، وكرَّر محاولته في العام التالي لانتزاع الميناء من البرتغاليين، ونجح في ذلك، فدخله وبنى على مقربة منه ميناء جديداً عُرف باسم بندر عباس، تيمناً بطرد البرتغاليين من الميناء القديم، وبناء ميناء جديد في عهد الشاه عباس[(٣)].

وهكذا كان ميناء كمبرون الميناء الثاني الذي يستولي عليه الصفويون، ويطردون منه البرتغاليين ما زاد في تأزم العلاقة بين إيران والقوات البرتغالية في منطقة الخليج العربي، وظل الوضع يزداد سوءاً حتى نجح الصفويون في انتزاع جزيرة هرمز.

---

(١) بخش: ص١٢٢.

(٢) فلسفي: جـ٤ ص١٥١٨، ١٥١٩. جمعة والخولي: جـ١ ص٣٨٧.

(٣) إقبال: ص٦٦٤. أحمدي: ص٧٩.

سيطرة الصفويين على جزيرة هرمز: ازدادت العلاقة سوءاً بين الصفويين والإسبان بعد انتزاع الصفويين البحرين وكمبرون من البرتغاليين، ووصلت إلى حد القطيعة عندما أرسل الملك الإسباني رسالة إلى الشاه عباس الأول بعد فشل مهمة دون غارسيا، تعرَّض فيها إلى ضرورة استعادة البحرين وكمبرون، وحذَّره من مهاجمة جزيرة هرمز.

وهكذا تفجَّر الموقف بين الدولتين، وأخذت كل دولة تستعد للحرب. فأمر فيليب الثالث قواته في هرمز بالتيقظ والحذر، والتصدي للقوات الصفوية إن لم تُخلِ الأماكن التي احتلتها مؤخراً. وشنَّت القوات البرتغالية في هرمز حملة دعائية، فأشاعت بأن الأسطول البرتغالي الموجود في ميناء جوا بالهند قد تحرك صوب الخليج العربي استعداداً للتصدي لكل من يحاول التعرض لجزيرة هرمز، وأن السفن الإنكليزية التي وعدت شركة الهند الشرقية بإرسالها إلى الجزيرة، لن تصل إلى ميناء جاسك المطل على بحر عُمان، مطلقاً[1].

وفي المقابل، بدأ الشاه عباس الأول يُعد جيشه لخوض معركة مع القوات البرتغالية في جزيرة هرمز، لكنه شعر أنه بحاجة إلى أسطول بحري لإحكام الحصار على الجزيرة، لذلك كلَّف إمام قولي خان حاكم فارس بإجراء مفاوضات مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية، المتوثبة للحلول مكان القوات البرتغالية في الخليج العربي، للاستعانة بسفنها لضرب الأسطول البرتغالي.

استمرت المفاوضات بين الجانبين مدة عام كامل بفعل:

- تردُّد الشركة الإنكليزية في قبول العرض نظراً للعلاقة الجيدة التي كانت تربط إنكلترا بإسبانيا في ذلك الوقت، ولا يمكن للشركة أن تُقدم على هذا الفعل من دون إذن مسبق من الملك الإنكليزي، ومن المؤكد أنه لن يوافق.
- خشيت الشركة الإنكليزية أن تُمنى محاولتها بالفشل ما يؤثر على تواجدها في المحيط الهندي.

ولم يقطع ذلك التردد سوى تهديد صفوي أطلقه إمام قولي خان باسم الشاه بأنه سيُلغي جميع الامتيازات التجارية الممنوحة للشركة الإنكليزية وسيمنع الحرير عن الإنكليز، ما يحرمهم من مصدر ربح وفير، ورأت الشركة أن التعاون مع الصفويين ضد البرتغاليين في هذه الظروف سيفيدها لو انتهى الأمر بهزيمة البرتغاليين.

واجتمع إمام قولي خان مع ممثلين عن الشركة في ميناء ميناب في (٢٤ صفر ١٠٣١هـ/ ٨ كانون الثاني ١٦٢٢م)، واتفقا على البنود التالية:

---

(١) فلسفي: جـ٤ ص١٥٥٨.

- يتقاسم الطرفان مناصفة تكاليف الحرب والغنائم والرسوم الجمركية.
- تخضع جزيرة هرمز بعد إخراج البرتغاليين منها لإشراف مشترك.
- تُعفى البضائع الإنكليزية التي ترد باسم الشاه عباس أو حاكم فارس من الرسوم الجمركية.
- تتسلم إيران جميع الأسرى المسلمين، كما تتسلم الشركة الإنكليزية جميع الأسرى النصارى(١).

استعد الجانبان بعد توقيع الاتفاق لخوض الحرب، فجهَّز الشاه عباس جيشاً قوامه خمسة عشر ألف جندي تقدم باتجاه جزيرة هرمز، وحتى يقطع الإمدادات عن القوات البرتغالية في الجزيرة، ألَّب عليهم قبائل العرب في رأس الخيمة، فطردوهم من هذه الإمارة، كما اتفق مع عرب الشارقة وعُمان على الثورة ضد الوجود البرتغالي في المنطقة والامتناع عن تزويد البرتغاليين في جزيرة هرمز بالمؤن، ما أثَّر على مقدرتهم القتالية، ويدل ذلك على النفور المشترك العربي والإيراني من الوجود البرتغالي المتسلط على مقدرات الخليج العربي.

وأرسلت الشركة الإنكليزية بعض سفنها إلى ميناء جاسك في جنوبي إيران والمطل على بحر عُمان لكي تكون على مقربة من منطقة المواجهات.

وأقدم الجانبان الإيراني والإنكليزي على مهاجمة جزيرة قشم القريبة من جزيرة هرمز والتي تمدها بالمياه العذبة، واستوليا عليها، واستسلمت حاميتها مقابل:
- التأمين على حياة البرتغاليين المرابطين فيها.
- تقوم السفن الإنكليزية بنقل هؤلاء إلى جزيرة هرمز مع أسلحتهم ومعداتهم.
- عدم التعرض للإيرانيين الذين كانوا يحاربون في صفوفهم.

إلا أنهما انتهكا هذه البنود، فقد أقدمت القوات الإيرانية على قتل جميع الإيرانيين المتعاونين مع البرتغاليين، وقبضت القوات الإنكليزية على قائد الحامية ونقلته إلى مركزها الرئيس في ميناء سورات الهندي، واستولت القوات المشتركة على أسلحة ومعدات القوات البرتغالية(٢).

وحقَّق الطرفان، الإيراني والإنكليزي، بتلك التدابير الخطوات التمهيدية للهجوم العام على الجزيرة الذي بدأ بفرض حصار بري وبحري في (٢٧ ربيع الأول ١٠٣١هـ/ ٩ شباط ١٦٢٢م).

واتخذت القوات البرتغالية في الجزيرة، من جهتها الاستعداد والتأهب لصدِّ أي هجوم عليها وجهَّزت مدافع القلعة من أجل هذه الغاية.

---

(١) پازوكي: ص٣٣٥. بخش: ص١٣٦. أحمدي: ص١٧٣. جمعة والخولي: جـ١ ص٣٩٣، ٣٩٤.
(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٩٦، ٣٩٧. أحمدي: ص١٧٣، ١٧٤.

وبعد أيام قليلة من بداية الحصار، نجحت البحرية الإنكليزية في إنزال ثلاثة آلاف جندي صفوي على أرض الجزيرة، فاستولوا عليها من دون مقاومة تُذكر لأن القوات البرتغالية كانت قد تخلَّت عنها وتحصَّنت داخل القلعة التي احتدم القتال حولها. وفشلت محاولات البرتغاليين استقطاب الصفويين وإخراجهم من الصراع وكذلك فشلوا مع الإنكليز.

وأحكم الجانبان، الصفوي والإنكليزي، حصارهما للقلعة، وحطَّما معظم أسوارها، واستوليا على بعض أبراجها، كما منعا دخول المواد الغذائية إليها، ما أشاع اليأس في نفوس المدافعين عنها، فطلبوا الاستسلام وذلك في (٢٩ جمادى الآخرة ١٠٣١هـ/الأول من أيار ١٦٢٢م)[١].

وبعد إتمام السيطرة على الجزيرة والقلعة، نقلت البحرية الإنكليزية ثلاثة آلاف برتغالي إلى مسقط وموانئ ساحل عُمان.

وهكذا انتهى الوجود البرتغالي في جزيرة هرمز بعد أن استمر أكثر من قرن.

تعقيب على سقوط هرمز

- يُعدُّ سقوط هرمز ضربة قاسية للوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي، فقد ضمَّت هذه الجزيرة أكبر تجمع للبرتغاليين في المنطقة بعد أن فَقَدَ هؤلاء البحرين وكمبرون وقشم.

- أنهى سقوط الجزيرة حكم الأمراء المحليين الذين حكموها قروناً عدة، وتم إرسال آخر حكامها، ويُدعى محمود شاه، أسيراً إلى أصفهان، وأضحى الإشراف عليها مشتركاً بين الصفويين والإنكليز.

- أدى سقوط هرمز إلى تحسين وضع الإنكليز في المنطقة الذي أخذ يتنامى في صورة شركة تجارية أولاً، ثم تحوَّل إلى وجود عسكري يفرض سلطانه على كل دول الخليج ويستنزف خيراتها، ويضايق شعوبها، طوال حقبة طويلة من الزمن[٢].

- شجَّع الوجود الإنكليزي في منطقة الخليج العربي قدوم الهولنديين ما جعلها تعج بالأساطيل الأوروبية، وقد نتج عن ذلك مرحلة من الصراع الطويل بين البرتغاليين والإنكليز والهولنديين، ظهر أثرها في أواخر عهد الشاه عباس الأول.

- نقل الشاه عباس الأول نشاطه التجاري إلى ميناء بندر عباس، ولعله أقدم على ذلك لأنه توقَّع أن تقوم القوات البرتغالية بمحاولة لاستعادة الجزيرة. وأمام هذا

(١) فلسفي: جـ٤ ص١٥٥١ ـ ١٥٥٩. إقبال: ص٦٦٦، ٦٦٧. أحمدي: ص١٧٣، ١٧٤.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٣٩٩ ـ ٤٠٣.

الإهمال المتعمد بدأت الجزيرة تفقد أهميتها كمركز تجاري، وبدأ ميناء بندر عباس يشغل مكانه كأكبر ميناء إيراني مطل على الخليج العربي، وما زال يحتفظ بهذه المكانة إلى اليوم.

ـ دعَّم البرتغاليون مركزهم التجاري في مسقط وعُمان، ولكنهم كانوا مهدَّدين دائماً من قِبَل العرب الذين نظروا إليهم باشمئزاز، لذلك حاولوا أكثر من مرةٍ استعادة جزيرة هرمز ولكنهم كانوا يُصدُّون عنها.

ـ بعد فشلهم في استعادة الجزيرة وأمام تنامي حركة التجارة الإنكليزية والهولندية في منطقة الخليج العربي، حاول البرتغاليون استعادة مكانتهم من واقع التقرب من الشاه عباس الأول فعرضوا عليه الدخول معهم في معاهدة صلح يتعهَّدون بموجبها بعدم مهاجمة الأراضي الإيرانية مقابل:

ـ السماح لهم بإنشاء قلعة ومركز تجاري في لنك، في شمال شرقي ميناء لنكه على ساحل لورستان.

ـ السماح بصيد اللؤلؤ في سواحل البحرين.

ـ إعفاء البضائع البرتغالية التي ترد إلى ميناء لنك من الضرائب.

ـ اقتسام عائدات الجمارك في هذا الميناء مناصفة.

وافق الشاه عباس الأول على هذه المطالب، وقد تكون رغبته في عدم قطع صلاته مع البرتغاليين والاستعانة بهم في حال ساءت العلاقة بينه وبين الإنكليز والهولنديين، هي الدافع لذلك.

العلاقة الصفوية ـ الإنكليزية

بعثة أنطوني شيرلي: بعد أن حقَّق الشاه عباس الأول الاستقرار الداخلي في إيران، وأحرز انتصارات حاسمة على المعسكر السني الأوزبكي في خراسان وما وراء النهر، كان الأسطول الإنكليزي يهزم الأسطول الإسباني، الأرمادا، في عام (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م)، ما فتح آفاق البحار أمام الإنكليز سواء في البحر الأبيض المتوسط أو الالتفاف حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح وصولاً إلى المياه الإسلامية الجنوبية وإلى الشرق الأقصى. وتألفت في أعقاب ذلك في عام (١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م) شركة الهند الشرقية الإنكليزية التي ستضطلع بدور لافت في بناء أكبر امبراطورية إنكليزية استعمارية في الشرقين الأوسط والأقصى.

وتعدَّدت في غضون ذلك رحلات المغامرين والتجار وأصحاب الأعمال إلى مختلف أنحاء المشرق بحثاً عن الأعمال التجارية المربحة، كان من بينهم الأخوان البريطانيان أنطوني وروبرت شيرلي اللذان رحلا إلى بلاط الشاه عباس الأول في عام

(١٠٠٧هـ/١٥٩٩م) ووصلا في الوقت الذي كان يحارب فيه الأوزبك، وعندما عاد إلى قزوين اجتمعا به وبحثا معه إمكان توقيع معاهدة تقوم على قاعدتين:

الأولى: عقد تحالف بينه وبين ملوك أوروبا ضد العدو المشترك المتمثل في الدولة العثمانية.

الثانية: الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية للتجار البريطانيين الراغبين في التعامل التجاري مع الصفويين[١].

كان الشاه عباس الأول على درجة من الذكاء تُمكِّنه من إدراك أن الأوروبيين أضحوا متفوقين في ميدان الحرب، وبخاصة في الأساطيل البحرية المدعمة بالمدافع، والجيوش التي تعتمد على سلاح المدفعية والأسلحة النارية، وكان أمامه سلسلة من الأدلة الواضحة التي تُثبت أن الجيش الذي يستخدم الأسلحة النارية هو الذي ينتصر في المعركة حتى ولو كان قليل العدد، مثل تشالديران، وهزيمة الأوزبك بفعل المدفعية، وتفوق البرتغال بفضل أساطيلها المدعمة بالمدفعية، وتفوُّق الزعيم المغولي أكبر حاكم الهند بفضل مدافعه[٢]. ولما كان بحاجة إلى خبراء يتولون إعادة بناء جيشه وتزويده بسلاح المدفعية ويُدربون رماة البنادق، ونظراً لأن معظم أفراد البعثة الذين رافقوا الآخرين والبالغ عددهم خمسة وعشرين؛ من الخبراء العسكريين؛ فقد أراد الاستفادة من خبراتهم وبخاصة الأخوين شيرلي، فأسند إليهما تنظيم سلاح الفرسان والمدفعية حسب التنظيمات الأوروبية الحديثة، وأشرف بعضهم على مصانع الأسلحة النارية في أصفهان وهي التي أمدَّت الجيش الصفوي بالمدافع والبنادق ومكَّنته من مواجهة الجيش العثماني في أذربيجان.

أدَّى نجاح أنطوني شيرلي في المهمة العسكرية إلى أن يُسند إليه الشاه عباس الأول مهمة سياسية هي الاتصال بملوك أوروبا وحثهم على عقد تحالف مع الشاه الصفوي ضد الدولة العثمانية، وضمَّه إلى البعثة التي أرسلها إلى أوروبا من أجل هذه الغاية برئاسة حسين علي بك بيات، والتي تحدثنا عنها.

والواقع أن خطة أنطوني شيرلي التجارية واجهت معارضة شديدة في بريطانيا من جانب شركة الشرق الإنكليزية، إذ كانت تعتقد أن جهوده السياسية والتجارية تهدف إلى فتح باب التجارة المباشرة بين إنكلترا وإيران بشكل يضر بتجارة الشركة في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. والواضح أن خططه التجارية كانت تُهدِّد فعلاً مصالح الشركة المذكورة لأنها تُحوِّل التجارة الشرقية من الشمال إلى الجنوب عبر الأراضي الصفوية إلى الخليج العربي.

---

(١) فلسفي: جـ٤ ص١٢٩٧. بازوكي: ٣٢٠. (٢) نوار: جـ١ ص٦٦.

وبفعل الخلاف الذي نَشب بينه وبين رئيس البعثة، حسين علي بك بيات، قطع أنطوني شيرلي علاقته بإيران ولم يعد مع البعثة ما أثَّر على وضع أخيه روبرت الذي فَقَدَ الشاه ثقته به وعامله بجفاء، ما دفعه إلى بذل جهده ليستعيد هذه الثقة، فشارك في تدريب الجيش الصفوي، واشترك معه في المعارك ضد العثمانيين، فتولى قيادة إحدى الفِرَق العسكرية، وقاتل بحماس، وجُرح ثلاث مرات، ما جعل الشاه يُعيد ثقته به ويكلفه بمهمة جديدة في أوروبا(١).

بعثة روبرت شيرلي الأولى إلى إنكلترا: غادر روبرت شيرلي إيران في عام (١٠١٦هـ/١٦٠٧م) ووصل إلى إسبانيا في عام (١٠٢٠هـ/١٦١١م)، ثم توجَّه إلى إنكلترا واجتمع بملكها جيمس الأول (١٠١٢ ـ ١٠٣٤هـ/١٦٠٣ ـ ١٦٢٥م) وسلَّمه رسالة الشاه عباس الأول التي تتضمن اعتماده سفيراً من قبله ومفوضاً بإجراء مباحثات سياسية وتجارية مع الملك.

وعرض روبرت شيرلي عقد معاهدة صداقة بينه وبين الشاه عباس الأول تتضمَّن الاقتراحات التالية:

ـ تقديم تسهيلات للرعايا البريطانيين.

ـ السماح بإنشاء مركزين تجاريين بريطانيين في ميناءين إيرانيين يُطلان على الخليج العربي.

ـ الموافقة على إقامة مبعوثين سياسيين إنجليزيين في هذين الميناءين.

ـ رغبة الشاه في شراء سفن إنجليزية بحيث تُحمل مفكَّكة إلى موانئ إيران، ويتم تركيبها هناك.

ـ استعداد الشاه عباس بمنح التجار الإنكليز احتكار بيع الحرير الإيراني ونقله إلى أوروبا على سفن إنكليزية، عن طريق رأس الرجاء الصالح من دون المرور بالأراضي العثمانية.

ـ الرغبة في عقد معاهدة عسكرية(٢).

أبدى الملك الإنكليزي اهتماماً جدياً بمقترحات الشاه عباس، فشكل لجنة رباعية من كبار موظفي شركة الهند الشرقية لدراستها وتقديم تقرير عنها، لكن التجار الإنكليز رفضوا الموافقة عليها بحجة:

ـ أن الطريق مع إيران عبر رأس الرجاء الصالح، طريق طويل.

ـ أن المنافع التجارية مع إيران غير محققة.

---

(١) Sykes: II, p181.

(٢) فلسفي: جـ٤ ص١٥٧٨ ـ ١٥٨٥. جمعة والخولي: جـ١ ص٤٠٧، ٤٠٨. أحمدي: ص١٩٢.

ـ أن للتجار الإنكليز تجارة ناشطة مع موانئ بلاد الشام، وأن قبول مثل هذه الاقتراحات قد تؤثر سلباً على تعاملهم التجاري مع ولايات الدولة العثمانية.

نتيجة لهذا الرفض، عاد روبرت شيرلي إلى إيران من دون أن يُحقق الهدف الأساس للبعثة، ووصل إلى أصفهان في عام (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م)(١).

بعثة روبرت شيرلي الثانية إلى إنكلترا: لم يمكث روبرت شيرلي في إيران أكثر من بضعة أشهر، فقد كلفه الشاه بالذهاب مرة أخرى إلى أوروبا، وكان بصدد إخراج البرتغاليين نهائياً من الخليج العربي، فغادر إيران في السنة نفسها متوجهاً إلى إسبانيا، فمكث فيها حتى عام (١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م) ثم غادرها متوجهاً إلى إنكلترا، فاجتمع بالملك جيمس الأول وعرض عليه عقد معاهدة تتضمن البندين التاليين:

ـ تتعهد إنكلترا بتسخير سفنها العاملة في منطقة الخليج العربي في مساعدة الإيرانيين ضد البرتغاليين المرابطين في موانئ الخليج العربي على أن تتحمل الخزينة الإيرانية تكاليف هذه السفن.

ـ تتعهد إيران بتقديم خمسة وعشرين ألف جندي إيراني للعمل على هذه السفن على أن يوضعوا تحت إمرة الحكومة الإنكليزية(٢).

ويبدو أن الملك الإنكليزي وافق على هذين الاقتراحين غير أنه توفي قبل أن يُوقع عليهما، وخلفه شارل الأول (١٠٣٨ ـ ١٠٥٠هـ/ ١٦٢٩ ـ ١٦٤٠م) الذي ماطل في التوقيع عليهما. ووصل في غضون ذلك، سفير إيراني إلى لندن، موفداً من قِبل الشاه لمساعدة روبرت شيرلي في مهمته، هو نقد علي بك. ويبدو أن التجار الإنكليز المعارضين لسياسة التعاون مع إيران، استقطبوه فطُعن، في صحة الرسائل التي يحملها المبعوث الإيراني، ما دفع الملك شارل الأول إلى وقف المفاوضات، وكلَّف مبعوثاً إنكليزياً هو ددمور كوتون بالتوجه إلى إيران، بصحبة روبرت شيرلي ونقد علي بك، للتأكد من صحة الرسائل التي قدمها الأول إليه والتحقق من ادعاءات الثاني، وأمره بتقديم التهاني للشاه عباس الأول على انتصاره على البرتغاليين وطردهم من جزيرة هرمز واستيلائه على العراق، وأن يعرض عليه خططاً جديدة لزيادة مجالات النشاط التجاري الإنكليزي في إيران(٣).

عادت البعثة إلى إيران عن طريق رأس الرجاء الصالح، ويبدو أن نقد علي بك

---

(١) أحمدي: ص١٩٢. جمعة والخولي: جـ١ ص٤٠٨.

(٢) فلسفي: **تاريخ روابط إيران وأوروبا در دوره صفوية** ص١٣٧ ـ ١٤٠.

(٣) فلسفي: **زندگاني، شاه عباس أول** جـ٤ ص١٥٩٥ ـ ١٥٩٧.

خشي سوء العاقبة، فانتحر بتناول السم. ووصلت البعثة إلى إيران في (ربيع الآخر ١٠٣٦هـ/ كانون الثاني ١٦٢٧م)[١].

أبدى الشاه عباس الأول تفهماً لرغبات الإنكليز في زيادة حجم تجارتهم من الحرير بالذات، ووعد ددمور كوتون بأن يسلم الإنكليز في مطلع كل سنة عشرة آلاف بالة حرير. وبعد مدة وجيزة من عودة روبرت شيرلي، أقدم بعض رجال الحاشية الصفوية، من أصدقاء نقد علي بك، على تشويه سمعة روبرت أمام الشاه الذي غضب عليه وأمر بإخراجه من إيران، فشعر هذا بالمرارة، فمرض في قزوين وتوفي من أثره في (شوال ١٠٣٦هـ/حزيران ١٦٢٧م)، ثم لحق به بعد شهر سير ددمور كوتون، ودُفن كلاهما في قزوين[٢].

وعلى الرغم من هذه الوشاية ضد روبرت شيرلي، إلا أن الشاه عباس قد استنفد خططه من استخدامه كمبعوث خاص له إلى أوروبا بفعل فشله في إثارة الأوروبيين ضد الدولة العثمانية، وبخاصة أنه عقد الآن صلحاً مع العثمانيين ولم يعد بحاجة إلى جهوده، ثم إن تحسين العلاقة السياسية والتجارية بينه وبين شركة الهند الشرقية الإنكليزية التي تتعارض توجهات رؤسائها ومندوبيها مع توجهات روبرت، شكّلت سبباً آخر للتخلص منه.

ولعلّ الخدمة الجليلة التي قدَّمها روبرت وأخوه أنطوني إلى الدولة الصفوية هي تطوير قدراتها العسكرية ما مكّنها من الصمود في وجه العثمانيين.

تعقيب على العلاقة الصفوية ـ الإنكليزية: الواقع أن العروض التجارية السخية التي قدَّمها الشاه عباس الأول للإنكليز إنما كانت لتحقيق الهدف السياسي والعسكري الذي كان يسعى إليه منذ زمن طويل وهو التحالف مع ملوك أوروبا ضد الدولة العثمانية. لقد أدرك أن مواجهاته مع العثمانيين لم تنته، وحتى يضعفهم ويخفف من وطأتهم على الجبهة العراقية، ينبغي أن يفتح عليهم جبهة جديدة، ولكن الدول الأوروبية لم تكن مستعدة لهذا التحالف باستثناء الإمارات الإيطالية الصغيرة وبخاصة إمارتي توسكانا والبابوية اللتين كانتا تضعان الآمال على تحالف يتم بينهم وبين الأمير اللبناني فخر الدين المعني والشاه عباس الأول الصفوي، لشن حرب كبرى ضد الدولة العثمانية، ولكن المخططات ظلت في حيز الآمال والمراسلات ولم تخرج إلى حيز التنفيذ[٣].

---

(١) أحمدي: ص١٩٤. جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٠.

(٢) پازوكي: ص٣٤٩. أحمدي: ص١٩٤.

(٣) نوار: جـ١ ص٧٤.

ومن ناحية أخرى، لم يكن الملك الإنكليزي مستعداً لأن يتحالف بشكل كامل مع الصفويين ضد جميع أعدائهم، وبخاصة أن للإنكليز مصالح تجارية حيوية في الدولة العثمانية ترتبط بنشاط شركة الشرق الإنكليزية، ولذلك فشل الشاه في تحقيق تحالف مع الإنكليز ضد العثمانيين، بل آثر الإنكليز، بعد أن طردوا البرتغاليين من جزيرة هرمز، أن يعيدوا الهدوء إلى المنطقة بفعل أن الازدهار التجاري لا يتحقَّق إلا في أوقات السلم، وأن استمرار العمليات العسكرية يؤدي إلى ضياع فرص التجارة مع إيران، وهو السبب الذي خاض من أجله الإنكليز الحرب ضد البرتغال.

العلاقة الصفوية مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية

بعثة ريتشارد أستيل: في الوقت الذي كان الشاه عباس الأول يُرسل مبعوثيه إلى العواصم الأوروبية لعقد تحالف سياسي وتجاري مع ملوكها؛ كان يُجري اتصالات مع الإنكليز عن طريق الجناح الإنكليزي في الهند. فقد اثبتت الشحنات التجارية الأولى التي قامت بها هذه الشركة، أن المنطقة تستطيع أن تستوعب الكثير من الإنتاج البريطاني، ولكن تقديراتهم الأولية لكمية البضائع الصوفية الإنكليزية اللازمة لأسواق الهند، كان مبالغ فيها، حتى لقد تراكمت في مخازنهم في موانئ الهند من دون تصريف، الأمر الذي جعل رجال الشركة يبحثون عن موانئ وأسواق جديدة لتصريف منتجاتهم من الصوف. وكان من بين أسباب قِلَّة إقبال أهالي الهند على البضائع الإنكليزية الصوفية، على الرغم من جودتها، مناخ البلاد الحار الذي يجعل الرواج للأقمشة القطنية البيضاء.

وفي الوقت الذي كانت فيه الشركة الإنكليزية تبحث عن أسواق جديدة، وصل إلى سورات في الهند شاب إنكليزي يدعى ريتشارد أستيل قادماً من إيران، وقد أدرك هذا الشاب مدى حاجة الإيرانيين للأصواف نظراً لشدة البرودة هناك، فعرض على مجلس إدارة الشركة الإنكليزية مشروع بيع الصوف المكدس، إلى الإيرانيين، فوافق المجلس على مشروعه، وأرسله إلى أصفهان مع جون كروكر لتفقد أسواق إيران ودراسة مدى احتياجها للبضائع الإنكليزية، ومحاولة مقابلة الشاه عباس الأول والحصول منه على تسهيلات تجارية للشركة الإنكليزية[١].

وصلت البعثة إلى أصفهان في عام (١٠٢٥هـ/١٦١٦م)، فاستقبل الشاه عباس الأول عضويها مرحباً بهما، وبالغ في إكرامهما، وتفاوض معهما بشأن التبادل

---

(١) فلسفي: جـ٤ ص١٥٩٠.

التجاري بين إيران والشركة الإنكليزية، وأصدر أوامره إلى رعاياه بحسن استقبال التجار الإنكليز، كما سمح للسفن الإنكليزية بالرسو في الموانئ الإيرانية الجنوبية لشراء الحرير الإيراني وبيع الصوف الإنكليزي، وأتاح للمندوبين الإنكليزيين، باختيار أحد المرافئ لرسو السفن الإنكليزية، فاختارا ميناء جاسك الذي يبعد تسعين كيلومتراً عن جزيرة هرمز إلى الشمال ليكون بعيداً عن متناول السفن البرتغالية[1]، والمعروف أن الجزيرة كانت آنذاك تحت الحكم البرتغالي.

بعثة إدوارد كنوك: عاد ريتشارد أستيل وجون كروكر إلى سورات بعد أن مهَّدا للتجارة الإنكليزية أن تغزو أسواق إيران، وقدَّما إلى مجلس الإدارة تقريراً يتضمن ترحيب الشاه عباس الأول بالتعامل التجاري مع الإنكليز، فسارعت الشركة بتجهيز البضائع التي ستصدرها إلى إيران. وترأس إدوارد كنوك قافلة التجارة البحرية هذه. ورست السفن الإنكليزية في ميناء جاسك في أوائل عام (١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م). وسافر أعضاء البعثة بعد ذلك إلى أصفهان ومنها إلى بلاد الكرج، فرحَّب الشاه عباس الأول بهم[2]، وسمح لهم بإقامة دور إنكليزية في كل من أصفهان وشيراز. واتفق إدوارد كنوك مع الشاه على أن تشتري الشركة الإنكليزية جزءاً من المحصول الإيراني من الحرير على أن تدفع ثلث ثمنه نقداً، ويتم مقايضة الباقي ببضائع إنكليزية تُصدرها الشركة إلى إيران، فوافق الشاه على ذلك، وسمح للتجار الإنكليز بأن يتاجروا مع جميع المدن الإيرانية وأن يحتفظوا بأسلحتهم كي يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم عند الحاجة[3].

وغادر إدوارد كنوك إيران بعد أن أمَّن على سلامة التجارة مع هذا البلد، وتوجَّه إلى جزيرة هرمز للتفاوض مع البرتغاليين حول منح السفن الإنكليزية بعض التسهيلات والسماح لها بدخول الخليج، ولكنه توفي هناك. وسرت إشاعة بأن البرتغاليين دسوا له السم لكي يتخلَّصوا منه نتيجة لضيقهم الشديد من التقارب الإيراني - الإنكليزي[4].

بعثة توماس باركر: عيَّنت شركة الهند الإنكليزية توماس باركر مندوباً لها في إيران بعد وفاة إدوار كنوك، فذهب إلى هناك، واجتمع بالشاه عباس الأول عارضاً عليه

---

(١) فلسفي: **تاريخ روابط إيران وأوروبا در دوره صفوية** ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) بازوكي: ص٣٤٧.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٤.

(٤) المرجع نفسه.

شراء المزيد من الحرير الإيراني مقابل بيع الملابس الصوفية الإنكليزية في الأسواق الإيرانية، فوافق الشاه على ذلك، إلا أنه اشترط أن تشتري الشركة الإنكليزية ستمائة حمل بالشروط نفسها التي سبق الاتفاق عليها مع إدوارد كنوك[١].

وأرسلت الشركة الإنكليزية مبعوثاً ثانياً هو غيلز هوبز، شارك في المباحثات التجارية مع الشاه، وطلب المندوبان الإنكليزيان منه منح الشركة حق احتكار شراء الحرير الإيراني كله، الأمر الذي ضايق التجار الأرمن في جلفا بأصفهان، بفعل أن مصالحهم التجارية ستصاب بالضرر إذا وافق الشاه على ذلك، والمعروف أنهم كانوا يشاركون في عملية تجارة الحرير الإيراني، ما اضطر الشاه إلى عرض بيع إنتاج الحرير بالمزاد، فامتنع مندوبو إسبانيا والشركة الإنكليزية عن الاشتراك فيه، تعبيراً عن عدم موافقتهم على ذلك. وعرض الأرمن سعراً أعلى يفوق سعره في الماضي، فحظوا بالصفقة كلها في عام (١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)، لكن الشاه اضطر إلى بيعه إلى الشركة الإنكليزية بأقل من السعر المقدم من الأرمن وذلك حفاظاً على علاقة الود معها، وأملاً في مساعدتها لقواته في طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز[٢].

ذيول التقارب الصفوي مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية: نتج عن التقارب الصفوي مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية أن ساءت العلاقة بين الصفويين والإسبان والبرتغال، وتطورت نحو العدائية عندما اتفق الجانبان الصفوي والإنكليزي في الهند على التعاون في طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز، وانتهى الأمر بنشوب الحرب كما ذكرنا. والملفت أن شركة الهند الشرقية الإنكليزية قد اتخذت قرار الحرب من دون العودة إلى الحكومة المركزية في لندن، ما دفع الحكومة البريطانية، التي كانت آنذاك على علاقة وفاق مع إسبانيا، إلى محاكمة رئيس الشركة الذي دافع عن نفسه وبرَّر تصرُّفه، في تنمية التجارة الإنكليزية لتتفوَّق على المنافسة الإسبانية - البرتغالية، كما اضطر أمام تهديد إمام قولي خان حاكم فارس بحرمان البريطانيين من التعامل التجاري مع إيران، وأصدرت المحكمة قراراً بإدانة الشركة وتغريمها مبلغ عشرين ألف جنيه إسترليني، ومنعها من الإقدام على عمل مماثل في المستقبل[٣].

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٤.

(٢) بخش: ص٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) المرجع نفسه: ص٢٠٥. جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٦.

وربما لجأت الحكومة البريطانية إلى هذه المحاكمة، الأقرب إلى الصورية، إرضاء للملك الإسباني، ومتظاهرة بأنها لا تؤيد تصرف الشركة، على الرغم من المكاسب الهائلة التي تحقَّقت لها على الأمد الطويل من طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز، وأهمها:

- لم يتجرأ الإنكليز قبل ذلك على مواجهة البرتغاليين في الخليج العربي.
- كانت المصالح البريطانية في الخليج العربي عُرضة باستمرار لتهديد القوات البرتغالية.
- كانت شركة الهند الشرقية عاجزة عن منافسة المركز الممتاز والنشط لإسبانيا والبرتغال في جزيرة هرمز.
- الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية كبيرة من الشاه عباس الأول.
- انتظام الوجود البريطاني البحري في مياه الخليج العربي.

وقد حرصت شركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية على التواجد الدائم بعد ذلك في منطقة الخليج العربي، ودعَّمتا وجودهما التجاري بقوات عسكرية بذريعة حماية مصالحهما، فأحكمتا بذلك السيطرة على كثير من موانئ هذه المنطقة وإماراتها، ما جعل شعوبها تعاني كثيراً من ويلات الاستعمار البريطاني الذي دخل إلى المنطقة بتشجيع من الشاه عباس الأول[(١)].

العلاقة الصفوية ـ الهولندية

دخل الهولنديون إلى منطقة الخليج العربي في ركب الإنكليز بحجة مساندتهم ضد البرتغاليين في جزيرة هرمز. وظهر الأسطول الهولندي في مياه الخليج العربي بعد هزيمة هؤلاء، لكن هذا التحالف كان قصير الأمد ومرتبطاً بالخطر البرتغالي الواقع على الطرفين، فلما ضعف البرتغاليون ونمت التجارة الهولندية في إيران أضحى الصدام بينهما أمراً لا مفر منه.

كان نشاط الهولنديين التجاري في إيران الصفوية، في بادئ أمره، على حساب البرتغاليين، ولكي يضمن هؤلاء بقاءهم في المنطقة، أرسلت شركة الهند الشرقية الهولندية، التي تأسست في عام (١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م)، مندوباً إلى إيران هو هيوبرت ڤينش، طلب من الشاه عباس الأول أن يأذن للهولنديين في بناء دار للتجارة في بندر عباس، فأذن لهم، وتمَّ بناء هذا الدار في عام (١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م)[(٢)] أي في العام التالي من إخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز.

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٦، ٤١٧. (٢) أحمدي: ص١٩٦، ١٩٧.

وبعد أن استقر الهولنديون في إيران طمعوا في القيام بدور مستقل في تجارتهم مع هذا البلد، فوافق الشاه على:

- بيعهم كمية من الحرير الإيراني كل عام.
- إعفائهم من دفع الرسوم الجمركية.
- السماح لهم ببناء دور تجارية في أصفهان ولار.

ويبدو أنه حرص على تأمين المنافسة بين أكبر عدد من المشترين ما يُحقق لإيران مكاسب كبيرة.

وأرسلت هولندا في عام (١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م) وفداً إلى إيران لعقد اتفاقية تجارية مع الشاه عباس الأول تُدعم وضعها التجاري. ونجح الوفد في مهمته، فقدَّم الشاه تسهيلات تجارية للرعايا الهولنديين، وسمح لهم بإقامة كنائس وأماكن عبادة خاصة بهم، ومحاكمة أي هولندي يعتنق الإسلام[١].

وهكذا تصاعد التفوق الهولندي بسرعة كبيرة في مجال التجارة مع إيران، وحوَّل الهولنديون حق المتاجرة إلى شبه احتكار لتجارة تصدير الحرير، ما دفع بريطانيا إلى التحرك لاستعادة قدراتها على العمل في مياه الخليج العربي وفي إيران، بعد تراجعها لأسباب داخلية.

ولعل الشاه عباس الأول أمل أن يساعده الهولنديون ضد القوات البرتغالية المتمركزة في مسقط والتي كانت تقوم بمحاولات لاستعادة جزيرة هرمز، لذا أرسل وفداً إلى هولندا ليتفاوض مع ملكها بشأن مطلبين هامين في سياسته الاستراتيجية:

الأول: قطع العلاقة التجارية بين هولندا والدولة العثمانية.

الثاني: مشاركة القوات البحرية التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية، للقوات الصفوية لطرد القوات البرتغالية من مسقط وعمان[٢].

ويبدو أن هولندا لم تكن على مستوى ما علَّقه عليها الشاه عباس الأول من آمال، فقد اعتذر ملكها عن تحقيق المطلبين، وحتى يحافظ على المصالح التجارية لبلاده في إيران ومنطقة الخليج العربي لجأ إلى المماطلة، فأرسل رسالة إلى الشاه يخبره بأنه يُرحِّب بالتعاون المشترك للقضاء على البرتغاليين في منطقة الخليج، وأنه سيرسل مبعوثاً من قِبله إلى إيران للتفاوض بشأن الشروط التي سيتم بمقتضاها إرسال

---

(١) فلسفي: **زندگاني شاه عباس**، جـ٥ ص١٨٧٧، ١٨٧٨.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٨، ٤١٩.

الحملة، وقد أفاد هذا الوعد شركة الهند الشرقية الهولندية، فدعَّمت وضعها التجاري في إيران، وزادت من عملياتها التجارية ومنافسة الشركة الإنكليزية، وأضحت تُشرف على القسم الأكبر من تجارة إيران الخارجية.

لكن ملك هولندا، الذي لجأ إلى سياسة التمويه وكسب الوقت، لم يُرسل مبعوثه إلى إيران، ما دفع الشاه عباس الأول إلى إرسال مبعوث من قِبله إلى هولندا ليستفسر عن سبب هذا التأخير، وقد تضمَّنت الرسالة التي حملها عتاباً وتلويحاً بقطع العلاقة بين البلدين، ما دفع الملك الهولندي إلى الإسراع بإرسال موفد إلى إيران، وأعلن عن استعداده للتعاون المشترك مع الشاه ضد البرتغاليين، إلا أنه وصل إلى أصفهان بعد وفاة الشاه عباس الأول بشهرين ونصف تقريباً[1].

العلاقة الصفوية ـ الروسية

كانت العلاقة الصفوية ـ الروسية جيدة في أيام الشاه عباس الأول، وتحوَّلت في أواخر عهده إلى فاترة، وارتبطت بتوتر العلاقة بين الصفويين والعثمانيين بالإضافة إلى التبادل التجاري.

فقد أرسل الشاه عباس الأول، في السنة الثانية لتتويجه، وفداً صفوياً برئاسة هادي بك وبوداق بك إلى موسكو لطلب المساعدة من روسيا في حروبه ضد الدولة العثمانية، ورحَّب بتقدم الروس صوب باكو ودربند، وتمنَّى أن يهاجموا أذربيجان وشَروان وبلاد الكرج لطرد العثمانيين من هذه المناطق[2].

ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع المراسلات بين البلدين، وقد ساعد على نموها أن البعثات الصفوية الذاهبة إلى أوروبا كانت تمر عبر الأراضي الروسية، فتتوجَّه أولاً إلى موسكو ثم تواصل رحلتها بعد ذلك صوب العواصم الأوروبية المختلفة[3].

وإلى جانب الهدف السياسي تبادل البلدان العمل التجاري، فقد شجَّع الشاه عباس الأول التجار الروس على المجيء إلى إيران والمشاركة في شراء الحرير الإيراني. ومما ضاعف النشاط التجاري أن جزءاً كبيراً من التجارة الإيرانية الذاهبة إلى أوروبا، كانت تُرسل عبر الأراضي الروسية بسبب إغلاق الدولة العثمانية الطرق التجارية المارة عبر العراق وبلاد الشام[4].

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٤١٩، ٤٢٠.

(٢) فلسفي: جـ٥ ص١٨٣١، ١٨٣٢.

(٣) جمعة والخولي: جـ١ ص٤٢٢.

(٤) Sykes: II, p77.

وعندما استعاد الشاه عباس الأول أذربيجان وشَروان وبلاد الكرج تجاورت أراضيه مع الأراضي الروسية، ما زاد الصلات الودية بين البلدين، وارتفع حجم التبادل التجاري بينهما، كما ازدادت العلاقة السياسة نمواً وازدهاراً، وتمَّ تبادل السفراء بينهما أيضاً.

لكن العلاقة الجيدة هذه فترت بفعل ما حدث في عام (١٠٢٧هـ/١٦١٨م) من اضطرابات في روسيا ما وضع البلاد في ضائقة مالية، فسارع القيصر الروسي ميخائيل رومانوف بطلب المساعدة المادية من الشاه عباس الأول لكن رسله فوجئوا بتجاهله لهذا الطلب، وعادوا إلى بلادهم خائبين، ونتيجة لهذا المسلك توقفت الاتصالات الودية بين البلدين[١].

العلاقات الصفوية مع دول أخرى

ارتبط الشاه عباس الأول بعلاقات سياسية مع بعض الدول الأوروبية الأخرى، مثل بولندا وبروسيا والبابوية والبندقية، تمحورت حول التحالف مع ملوك أوروبا لحرب العثمانيين بالإضافة إلى التبادل التجاري، غير أن الشاه تجنَّب الدخول في تحالف مع فرنسا، إذ لم تُسجَّل أي صلات بينه وبين ملوك فرنسا، ومرد ذلك يعود إلى التقارب الفرنسي ـ العثماني في القرن السادس عشر الذي وصل إلى حد التحالف.

وفاة الشاه عباس الأول

قضى الشاه عباس الأول، سنين حكمه المديدة البالغة اثنتين وأربعين سنة تقريباً، في صراع داخلي من أجل تثبيت حكمه، وصراع خارجي مع عدوين هما: الأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب، ولم يترك له هذان النوعان من الصراع فرصة للراحة، فكان في تنقُّل دائم من جبهة إلى جبهة أخرى ما أثر على وضعه الصحي، وبدأ الضعف يظهر على جسده تدريجاً، فأصيب بمرض الصفراء، وأخذت صحته تتدهور، فذهب إلى مازندران للاستشفاء والاستجمام لعله يبرأ من مرضه، وعمد قبل ذهابه إلى تعيين حفيده سام ميرزا بن صفي ميرزا خلفاً له، وأخذ له البيعة من جميع أمراء الأسرة الصفوية، وذلك حتى لا يفاجئه الموت من دون وجود وريث شرعي ما يُعرِّض البلاد للمؤامرات والفتن.

---

(١) جمعة والخولي: جـ١ ص٤٢٣.

وقضى الشاه مدة في مازندران، ازدادات صحته خلالها تدهوراً وتوفي صبيحة يوم الخميس (٢٤ جمادى الأولى ١٠٣٨هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٦٢٩م) في بلدة أشرف بمازندران عن عمر يناهز التاسعة والخمسين عاماً وثمانية أشهر، ونُقل جثمانه إلى مشهد بقاشان بصورة مؤقتة ريثما يُنقل بعد ذلك إلى أحد الأماكن المقدسة ليدفن فيها، ولكن لا يُعرف على وجه اليقين ما إذا كان قد نُقل من بهشت مشهد أم بقي فيها. ففي رواية أنه اتُخذت الترتيبات اللازمة لنقله إلى مدينة قم ليُدفن فيها، ولكن لم يتم نقله وبقي في بهشت مشهد بقاشان. وفي رواية أخرى، أن عباساً كان حريصاً على أن يكون مكان دفنه مجهولاً، لذا أمر أعوانه بإعداد ثلاثة توابيت أرسلوها إلى كل من مشهد وأردبيل والنجف، ولا يُعلم في أي واحد نُقل جثمانه بعد ذلك[١].

شخصية الشاه عباس الأول[٢]

كان الشاه عباس الأول حاكماً، عاقلاً، كريماً، ذا همة وسياسة وكياسة، مدبِّراً، تمكَّن من إنجاز أعمال عظيمة، وخلَّف اسماً لامعاً في سماء السياسة والإدارة والقوة العسكرية. اجتهد في نشر المذهب الشيعي بحماس بالغ لم يسبقه أحد من قبله ولن يسبقه أحد من بعده من الصفويين، عطوفاً على الضعفاء والمساكين والفقراء.

لا تعتمد شهرة الشاه على مقدرته العسكرية فقط، بل إنها قامت أيضاً على عبقريته الفذة في مجال الإدارة والحكومة. ويتفق المؤرخون على أن المملكة الصفوية وصلت في عهده، إلى درجة التكامل في العمران والقوة العسكرية والمهابة السياسية. وعندما يستعرض القارئ تاريخ إيران في عهده يتبين له مدى جَلده وحكمته التي أعادت الحياة إلى دولته بعد أن انتشلها من هوة الانحطاط السياسي، وارتقى بها مرة أخرى إلى مصاف الدول الكبرى القادرة على أن تشكل خطراً حقيقياً على الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي.

لقد تحقَّق في عهد الشاه الاستقلال السياسي لإيران، وعادت إليها وحدتها الوطنية بعد سقوط الدولة الساسانية. وسلكت إيران طريقاً جديداً بفضل رجاحة عقله

---

(١) إقبال: مجلة **يادكار**، مقالة بعنوان: **مباحث تاريخي أز ابتداي صفوية تا آخر قاجارية** ص١١، ١٣، السنة الثالثة، العدد الثاني، وقارن **بتاريخ إيران بعد الإسلام** ص٦٦٧ حيث يذكر إقبال أنه دُفن في قم.

(٢) جمعة والخولي: جـ١ ص٤٣٤ ـ ٤٤٦.

وحسن تدبيره في الناحيتين الداخلية والخارجية، وحقق لدولته الرفعة والقدرة والشهرة في ربوع العالم، ولا شك بأن ذلك لم يكن ليتحقق لولا استعداده الذاتي ونبوغه وحسن سياسته وسعة علمه ومكره وشجاعته.

ففي مجال السياسة الداخلية، فقد تسلَّم دفة الحكم وإيران تتهاوى أمام طغيان طوائف القزلباش وحكام الأقاليم، ومحاولة كل منهم الخروج على الحكومة المركزية وتكوين دولة خاصة به، فاستطاع أن يقضي على هيبة هؤلاء وأعاد للحكومة المركزية هيبتها، وتفرَّد بالحكم.

وفي مجال السياسة الخارجية، فقد ارتكز الشاه على جبهة داخلية صلبة ليواجه أعداء دولته، وسلك في ذلك سُبُل شتى أهمها تجديد القوة العسكرية والتحالف مع القوى الأوروبية. فقد كوَّن جيشاً مدرباً على أحدث النظم العسكرية المألوفة في ذلك الوقت، وزوَّده بأسلحة نارية حديثة، وربطه بشخصه، يتلقى الأوامر منه مباشرة بعد أن كان من قبل تحت إمرة رؤساء طوائف القزلباش، فحقَّق وحدة الجيش ووحدة القيادة. واتسم الشاه عباس الأول بالذكاء في وضع الخطط العسكرية حيث امتنع عن دخول الحرب على جبهتين في وقت واحد، حتى لا يُشتِّت جهوده. فعندما هاجمته القوات العثمانية والأوزبكية في وقت واحد، بعد توليه الحكم مباشرة، آثر عقد الصلح مع العثمانيين لتبريد جبهتهم حتى ينتهي من حروبه مع الأوزبك، فيتفرَّغ لقتالهم. ويتجلَّى ذكاؤه كذلك في استخدام أسلوب الانسحاب التكتيكي إلى عمق أراضيه إذا ما واجه عدواً يتفوق عليه في العدد والعدة مع تدمير مقومات الحياة في المدن والقرى وعلى الطرق التي ستسلكها الفِرَق العسكرية المعادية، ويترك الطبيعة القاسية تحاربه بدلاً من الجيش الصفوي، وبعد أن تُنهكه الطبيعة يكون من السهل على القوات الصفوية، مهما كان عددها أن تقضي عليه، وقد استخدم هذا التكتيك العسكري أكثر من مرة خلال معاركه العديدة مع العثمانيين. وحاول الشاه في مجال تقوية وضعه أمام العثمانيين، إلى التحالف مع القوى الأوروبية المختلفة، فتبادل البعثات والرسائل معها من أجل هذه الغاية، إلا أنه لم يلق إلا التسويف والمماطلة باستثناء ما جرى من تحالفه مع شركة الهند الشرقية الإنكليزية لطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز.

ونجح الشاه في خلق منافسة تجارية بين الدول الأوروبية لتحقيق ربح مادي من خلال رفع أسعار الحرير الإيراني الذي كانت جميع هذه الدول تتهافت على شرائه،

فتخلَّص من احتكار البرتغاليين لهذا المحصول الإيراني المهم، وحقَّق أرباحاً طائلة، أفادته في تعمير بلاده وتحديث جيشه.

وحقَّق الشاه نهضة عمرانية تجلَّت في إقامة العديد من المنشآت العمرانية الضخمة التي تفخر بها إيران، وما زال معظمها قائماً في عاصمته أصفهان.

وفي مقابل هذه الصورة الإيجابية، وعلى الرغم من الأعمال المجيدة التي اقترنت باسمه، فقد ارتكب الشاه عباس الأول أخطاء دفعت الصفويين في النهاية إلى هاوية الضعف من ذلك:

- اعتمد على نفسه فقط، وبدلاً من أن يحيط نفسه بأولاده وأفراد أسرته، ويعينهم في المناصب الإدارية، ويدربهم على فن الحكم، ويشركهم معه في حروبه؛ فقد أقدم على قتلهم أو حرمهم من نعمة البصر أو سجنهم، بسبب الخوف من منافستهم له على الحكم، فلم يمنحهم الفرصة لكي يتمتعوا بمباهج السلطنة، وتركهم يقاسون الشدة والمشقة والحرمان، فعُدَّ مسؤولاً عن سبب هام من أسباب انحطاط وزوال أسرته وبالتالي الدولة الصفوية.

- عقد معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية، مجحفة بحق إيران، راعى فيها مصالح التجار النصارى، وبدت كأنها بين دولتين إحداهما قوية والأخرى ضعيفة.

- اتصف بقصر النظر في تعامله مع الأوروبيين، فأدخل منطقة الخليج العربي في دائرة الصراع الدولي الاستعماري بين الدول المتنافسة على بسط سيطرتها على العالم ونهب ثرواته، وقد تأثرت إيران نفسها بعد ذلك بخطر وجود هذه القوى الاحتكارية والاستعمارية.

- على الرغم من اهتمامه بتنمية القوة العسكرية، إلا أنه أهمل بناء أسطول بحري يؤدي دوراً مهماً في بحر قزوين وفي الخليج العربي، واضطر أمام هذا العجز إلى الاستعانة بالبحريتين الإنكليزية والهولندية لتخلصاه من القوات البرتغالية المتمركزة في جزيرة هرمز.

- اتصف أحياناً بالظلم والاستبداد من دون سبب مقنع إلا الرغبة في سفك الدماء حتى خشيه ندماؤه وأفراد حاشيته، وكان يبادر بقتل أبناء من يقتلهم وكذلك من يعيشون معهم وفي كنفهم حتى لا يبقى أحد قد يثأر منه في المستقبل، كما فعل عندما قتل مرشد قولي خان. ومن مظاهر قسوته أيضاً إصداره الأوامر للآباء بقتل أولادهم وبالعكس، وما فعله مع الأكراد دليل واضح على قسوته وجبروته حيث نكَّل بهم في كردستان ثم هجَّرهم إلى خراسان.

ـ آمن بأقوال منجمه جلال الدين يزدي، فكان يستشيره بكل صغيرة وكبيرة، ولا يُقدم على عمل لا يتفق ورؤية هذا المنجم، وتستوقفنا في هذا المقام قصة تنازله عن العرش لمدة ثلاثة أيام لأحد أتباع المذهب النقطوي بناء على مشورته بسبب رؤيا رآها.

وهكذا كان الشاه عباس الأول مزيجاً من القوة والقسوة والانتصارات والتردي في بعض الأخطاء، وعلى الرغم من ذلك فإن الإيرانيين يعدونه بطلاً قومياً استطاع أن يرفع من شأن وطنه ويجسد آمال الإيرانيين ويُحقق أهدافهم.

الفصل الثامن

انحلال وسقوط الدولة الصفوية

الشاه صفي
١٠٣٨ ـ ١٠٥٢هـ/ ١٦٢٩ ـ ١٦٤٢م

اعتلاء الشاه صفي العرش الصفوي

عندما توفي الشاه عباس الأول لم يكن أحد من أولاده، ولا من إخوته، صالحاً ليخلفه، وكان خلال حياته السياسية يخشى أن يظهر من أسرته من يفرض نفسه عليه وينتزع الحكم منه، لذلك نكَّل بهم. وكانت هذه السياسة من الشدة بحيث لم يدرك ما ستجره من كوارث على أسرته ودولته من واقع افتقارها إلى رجل كفء يتولى الحكم من بعده، وهذا ما حدث فعلاً واضطر إلى اختيار حفيده سام ميرزا بن صفي ميرزا ليخلفه من بعده، ووافقه أركان دولته على ذلك، أمثال: الوزير الأكبر خليفة سلطان وقائد الحرس عيسى خان، وكتم هؤلاء وفاته ريثما تتخذ التدابير اللازمة بالتغيير. وما إن أُعلنت الوفاة حتى ارتقى سام ميرزا العرش في أصفهان وذلك ليلة الاثنين (٢٨ جمادى الآخرة ١٠٣٨هـ/ ١٤ شباط ١٦٢٩م)، وعمره ثمانية عشر عاماً، واتخذ لقب شاه صفي، ونقش على السكة «بنده شاه ولايت صفي»[١].

اقتدى الشاه صفي بجدِّه الشاه عباس الأول، فكان قاسي القلب، وبعد أن ثبَّت أقدامه في الحكم انهال بالسيف على أفراد أسرته وقتل معظم مستشاري جده وقادته، ولم تمر سنة من دون أن يقتل جماعة أو يحرمها من نعمة البصر، ولم تسلم المحارم والنساء من القتل، وتمادى في هذا الفعل القبيح إلى حد أن أكثر رجال دولته وأمراء الأسرة الحاكمة قد قُتلوا على يده.

ففي العام الأول من حكمه قتل عمه الأعمى إمام قولي ميرزا بحجة أن بعض الأمراء كانوا يُخططون لاختياره حاكماً على البلاد. وفي عام (١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م) قتل قائد الجيوش زينل خان شاملو بفعل تقصيره في الحرب مع العثمانيين، كما قتل

---

(١) الأسترآبادي: ص٢٣٦ Roemer: p279

عيسى خان قورجي باشي وأولاده وچراغ خان زاهدي[١]، وفي عام (١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) قتل الوزير الأعظم طالب أردوباري زاهدي وأوغورلو خان شاملو[٢]، كما قتل إمام قولي خان حاكم فارس والمخطط الحقيقي لطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز، وتخلَّص من أفراد أسرته حتى لا ينتقموا له[٣].

العلاقة مع الأوزبك

استمرت العلاقة العدائية بين الصفويين والأوزبك في عهد الشاه صفي على الرغم من محاولات بعض زعماء الأوزبك تلطيفها أحياناً. فقد تعرَّضت المناطق الشمالية الشرقية لغارات القبائل التركمانية المنطلقة من خوارزم وبخاصة مدن نسا وأبيورد ودرون وهراة. وقد اعتذر حاكم يادغاريد إسفنديار خان للشاه عن هذه الغارات وحمَّل أخاه أبو الغازي خان مسؤولية القيام بها، وتدليلاً على حسن نيته أرسله إلى البلاط الصفوي حيث مكث هناك عشرة أعوام، ثم خلف أخاه بعد وفاته في عام (١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م)[٤].

ومن جهتهم شنَّ الأوزبك بقيادة ندر خان، حاكم بلخ وأخو إمام قولي خان حاكم بخارى، غارة على قلعة ماروچاق، فصدَّهم القزلباش، كما هاجمت جماعة من القبجاق الخوارزميين مدينة هراة. وفي عام (١٠٥١هـ/ ١٦٤١م) أُصيب إمام قولي خان بالعمى، وكان رجلاً يحب العافية، فاعتزل الحكم واختار أخاه ندر خان حاكماً على بخارى. ويبدو أنه تعرَّض لمضايقات من جانب أخيه بسبب التباين السياسي من الموقف مع الصفويين، الأمر الذي دفعه إلى الفرار إلى إيران للاحتماء بالشاه صفي، وأعلن أنه ذاهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ليتخلَّص من عيون أخيه وملاحقتهم له، فاستقبله الشاه صفي بالترحاب بوصفه زعيماً بارزاً[٥].

الواقع أنه من الخطأ اعتبار الاستقبال الحسن للأمراء الأوزبكيين من جانب الشاه صفي دليلاً على أن العلاقة الصفوية ـ الأوزبكية كانت جيدة، بل العكس هو الصحيح. فقد وصلت غارات الأوزبك على مناطق الحدود في عهد الشاه صفي إلى الذروة، فقد شنَّ هؤلاء إحدى عشرة غارة على الأقل ضد الأراضي الإيرانية، لم تكن أغلبها إلا غارات من أجل السلب والنهب، واشترك فيها بين عشرين ألفاً وثلاثين ألف مقاتل[٦].

---

(١) الأسترآبادي: ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) Roemer: p280.

(٣) Ibid: p282.

(٤) الأسترآبادي: ص٢٣٧، ٢٣٨.

(٥) Roemer: p286.

(٦) Ibid: p287.

العلاقة مع العثمانيين

الحملة العثمانية الأولى على بغداد: تجدَّدت العلاقة العدائية بين الصفويين والعثمانيين في عهد الشاه صفي، وتركّز الصراع بينهما على بغداد وأرمينيا. فقد استغل السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ ـ ١٠٥٠هـ/ ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م) وفاة الشاه عباس الأول القوي وصغر سن خلفه، فنهض لاستعادة بغداد من الصفويين، وجهَّز جيشاً من أجل هذه الغاية عهد بقيادته إلى الصدر الأعظم خسرو باشا، غادر إستانبول في (١٩ ذي القعدة ١٠٣٨هـ/ ١٠ تموز ١٦٢٩م)، سالكاً المحور الجنوبي: قونية ـ أضنة ـ أنطاكية ـ حلب ـ الموصل وشهرزور، وفي هذه الأخيرة، أعاد بناء قلعة گل عنبر[١]. ويبدو أنه رأى أن استعادة العراق لا تتم إلا إذا عُزل عن إيران، ولا يتحقق ذلك إلا بالسيطرة على أذربيجان، لذلك ذهب إلى كركوك حيث أمضى فيها فصل الشتاء، واستقطب أكثر من عشرين عشيرة كردية من الذين كانوا تابعين في السابق للعثمانيين، وتحوَّلوا قسراً إلى الصفويين، ثم اجتاز الأراضي الكردية ودخل الأراضي الإيرانية في أذربيجان[٢].

وعندما علم الشاه صفي بتوغل خسرو باشا داخل الأراضي الإيرانية، أرسل قوة عسكرية مؤلفة من أربعين ألف مقاتل بقيادة زينل خان للتصدي له ووقف زحفه، وخرج هو بنفسه على رأس قوة عسكرية أخرى باتجاه بغداد. وتصدَّى زينل خان للقوات العثمانية عند قلعة مريڤان في (٢٢ رمضان ١٠٣٩هـ/ ٥ أيار ١٦٣٠م)، إلا أنه تعرَّض للهزيمة، ودفع حياته ثمناً لذلك بأمر من الشاه صفي[٣].

فتحت هذه المعركة طريق همدان أمام القوات العثمانية، فتقدم خسرو باشا إلى همدان وفتحها في (٢٧ شوال/ ٩ حزيران)، وواصل تقدمه باتجاه قزوين فتصدَّى له حسين خان حاكم لورستان عند درگزين على طريق همدان ـ قزوين، إلا أنه انهزم أمامه، وعندما علم الشاه صفي بنتيجة المعركة لاذ بالفرار إلى الداخل الإيراني[٤].

وبفعل هذا الاندفاع العثماني، استعاد العثمانيون إيران الغربية، أي إيالات كرمنشاه وكردستان ولورستان وخوزستان، كما استعادوا في الوقت نفسه جنوبي العراق عندما هاجم مصطفى باشا حاكم طرابلس الشام، الحلة وكربلاء والنجف والكوفة وانتزعها من أيدي الصفويين[٥].

وفي درگزين وصل كتاب من السلطان مراد الرابع إلى خسرو باشا يأمره بالتوجه

---

(١) هامر: جـ٣ ص١٩٢٨ ـ ١٩٣٠.
(٢) أوزتونا: جـ١ ص٤٧٧.
(٣) الأسترآبادي: ص٢٣٩.
(٤) القزويني: ص٥٠.
(٥) أوزتونا: جـ١ ص٤٧٧.

إلى بغداد، وأثناء عودته على المحور الجنوبي الغربي التقى بحملة صفوية بقيادة موراوي خان، اصطدم بها وتغلّب عليها، وأحرق مدينة نهاوند[١]، ثم اندفع صوب بغداد وحاصرها في (٢٧ صفر ١٠٤٠هـ/ ٥ تشرين الأول ١٦٣٠م) وضربها بالمدافع، غير أنه لم يتمكّن من اقتحامها، ويبدو أنه كان منهكاً بفعل ما بذل من جهود في الاستيلاء على غربي إيران.

كان الشاه صفي في غضون ذلك قد خرج من عاصمته صوب بغداد لمشاركة حاميتها في الدفاع عنها، وعندما علم خسرو باشا بقدومه رأى من الأفضل أن يفك الحصار عن المدينة ويعود أدراجه، وهذا ما حصل في (٨ ربيع الأخر/ ١٤ تشرين الثاني) بعد أربعين يوماً من الحصار، وقد سلك الطريق الجنوبي إلى إستانبول عبر حلب، وذلك لاستيلاء القوات الصفوية، بقيادة توختة خان، على درنة ودرتنگ وشهرزور. ووصل الشاه إلى بغداد، فاستعاد جنوبي العراق وزار النجف ثم عاد إلى أصفهان[٢].

الحملة العثمانية على إيروان: استؤنفت العمليات العسكرية بين الدولتين الصفوية والعثمانية في عام (١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م)، فتوجَّه السلطان مراد الرابع بنفسه إلى إيران، وفي المقابل خرج الشاه صفي من عاصمته وتوجَّه إلى كردستان للالتقاء به، غير أن الاضطرابات التي نشبت في بلاد الشام ضد الحكم العثماني، والتي أثارها الأمير فخر الدين الثاني المعني، أجبرت السلطان على العودة لمواجهتها، وبعد أن أخمد هذه الاضطرابات وأعدم الأمير المعني في (٢٥ شوال ١٠٤٤هـ/ ١٣ نيسان ١٦٣٥م)، عاد إلى الجبهة الإيرانية، فوصل إلى أرضروم، وانضم إلى قواته المعسكرة فيها بقيادة الصدر الأعظم خسرو باشا.

كان هدف الحملة مدينة إيروان، فزحف الجيش العثماني، البالغ عدده مائتي ألف جندي والمزود بمائة وثلاثين مدفعاً ثقيلاً، بقيادة السلطان، باتجاه المدينة، ولما وصل إليها في (١١ صفر ١٠٤٥هـ/ ٢٧ تموز ١٦٣٥م) ضرب عليها الحصار، ودافعت عنها حاميتها بقيادة طهماسب قولي خان ببسالة، وقد عزَّزها الشاه صفي باثني عشر ألف مقاتل من حملة البنادق، وأرسل جيشاً بقيادة رستم خان عسكر قريباً منها إلا أنه تهيَّب الدخول في معركة سافرة مع الجيش العثماني المحاصِر للمدينة. ويبدو أن حاميتها لم تكن تملك مقومات الصمود أكثر من ذلك على الرغم من

---

(١) العزاوي: جـ٤ ص١٩٨، ١٩٩. مهدوي: ص١٠٣.

(٢) أوزتونا: جـ١ ص٤٧٧. هامر: جـ٣ ص١٩٢٨ ـ ١٩٣٠. إقبال: **تاريخ إيران بعد الإسلام** ص٦٧٧.

تعزيزها، فاستسلمت في (٢٢ صفر/٨ آب) بعد اثني عشر يوماً من الحصار. ودخل الجيش العثماني إلى المدينة[١].

وطارد السلطان مراد الرابع الجيش الصفوي على امتداد نهر الرس ولكنه لم يتمكَّن من ملاقاته والاصطدام به، غير أنه استولى على خوي وتبريز، وهو الفتح العثماني السادس لهذه المدينة، وكان ينوي مواصلة زحفه باتجاه أصفهان، غير أنه عدل عن ذلك بفعل مرضه، فعاد إلى ديار بكر ومنها إلى إستانبول، واستمرت الحملة تسعة أشهر.

واستعاد الصفويون، بعد عودة العثمانيين إلى بلادهم، مدينة إيروان بعد أن حاصروها مدة ثلاثة أشهر وسبعة أيام، وقُتل الوزير مرتضى باشا خلال الحصار، كما استعادوا تبريز والقسم الأكبر من أذربيجان، ثم زحف الشاه صفي باتجاه الجنوب، فاصطدم بأحمد باشا حاكم بلاد الشام عند مهران في (١ ربيع الآخر ١٠٤٦هـ/ ٢ أيلول ١٦٣٦م)، ولم تستطع الفِرَق العثمانية المتمركزة في قارص بقيادة الصدر الأعظم محمد باشا من مساعدته، فغضب السلطان عليه وعزله[٢].

الحملة العثمانية الثانية على بغداد: في الوقت الذي تمكَّن فيه السلطان مراد الرابع من فرض هيبته على السلطنة واستتبَّت له الأمور، وتصاعدت قوته؛ كان الشاه صفي على النقيض من ذلك، إذ أمعن في التخلص من قادته للحد من سلطتهم، فتدهورت أوضاع البلاد ومالت إلى الضعف والتراجع، وقد شكل ذلك عاملاً استغله السلطان العثماني لتحقيق هدفه الذي انتظره مدة خمسة عشر عاماً وهو استعادة بغداد وطرقها التجارية التي تُعدُّ في الوقت نفسه أهداف الدولة العثمانية ذات العجز المالي المتزايد[٣].

ففي عام (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) أعدَّ السلطان مراد الرابع جيشاً ضخماً بهدف تحقيق مشروعه في استرجاع بغداد، واصطحب معه شيخ الإسلام يحيى أفندي، وقد سلك طريق بغداد ـ إستانبول عبر حلب وديار بكر والموصل وصولاً إلى بغداد، فوصل إليها في (٨ رجب/ ١٥ تشرين الثاني) وضرب حصاراً عليها. وقاومت حامية المدينة المؤلفة من أربعين ألف جندي بقيادة بكتاش خان تركمان الحصار المفروض عليها ببسالة. وقبع الشاه صفي في قصر شيرين[٤] مع جيشه يراقب الحصار يوماً بيوم من

(١) الأسترآبادي: ص٢٥١، ٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه. أوزتونا: جـ١ ص٤٧٨ ـ ٤٨٠. إقبال: ص٤٧٧، ٤٧٨.

(٣) صباغ: ص١٦٤، ١٦٥.

(٤) تقع مدينة قصر شيرين في جنوب شرقي كركوك على الحدود العراقية ـ الإيرانية.

دون أن يجرؤ على الاصطدام بالجيش العثماني، وقد أمل أن ترده قوة الحامية وتحصينات المدينة المنيعة، فيدب اليأس في نفوس أفراده فيفكون الحصار ويعودون أدراجهم، لكن السلطان، وقد صمَّم على اقتحام المدينة، اشتبك مع حاميتها الضخمة وقُتل الصدر الأعظم خلال القتال، وكان قد استولى على بعض أبراجها ما سهَّل السيطرة عليها بعد ذلك بيومين، وإذ نفدت المؤن من المدينة في غضون ذلك، اضطرت حاميتها إلى الاستسلام في (١٧ شعبان/ ٢٤ كانون الأول) بعد تسعة وثلاثين يوماً، تكبد الطرفان خلالها كثيراً من القتلى، خمسة آلاف جندي عثماني مقابل عشرة آلاف جندي صفوي بالإضافة إلى الجرحى، واشترط السلطان:

- أن يتم إخلاء بغداد من الإيرانيين فوراً.
- أن يُمنح المحاصَرون الحرية في الالتحاق بجيش الشاه أو بجيش السلطان، وعليه فمن أراد الالتحاق بجيش الشاه يخرج من الباب الأسود، ومن أراد الالتحاق بجيش السلطان يخرج من باب أبي حنيفة النعمان. ويبدو أن صيغة الأمان هذه لم تُرض المتشددين من كلا الجانبين، فقامت مذبحة داخل بغداد ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من الإيرانيين[1].

أقام السلطان مراد الرابع، الذي صار يُدعى باسم فاتح بغداد، مدة واحد وعشرين يوماً في المدينة رتَّب خلالها شؤونها الإدارية، فعيَّن حسين باشا والياً عليها وترك تحت إمرته اثني عشر ألف جندي من بينهم ثمانية آلاف من الانكشارية، وأصلح أسوارها ورمَّم قلعتها كما أصلح قبر أبي حنيفة النعمان، ولما اطمأن أنه لا توجد حملة صفوية مضادة لاستعادتها غادرها عائداً إلى إستانبول، وأبقى فيها الصدر الأعظم مصطفى باشا لإجراء مفاوضات الصلح الذي بدت تباشيره تلوح في الأفق[2].

عقد معاهدة زهاب بين الجانبين: كانت الدولة الصفوية بعد سقوط بغداد تمر بمرحلة تراجع ظاهر بفعل سياسة الشاه صفي القائمة على تصفية مراكز القوى، ما جعله يقبل بعقد الصلح، ومن جهتهم مثَّل استعادة بغداد الهدف الاستراتيجي للعثمانيين، وشكَّل انعطافة مهمة في سياستهم جعلتهم يقبلون بعقد الصلح بعد أن زال الخطر الذي سدَّ منافذ الخليج العربي أمام السلطنة وحرمها من أهم المحاور الاستراتيجية في العراق.

وأثناء إقامة الصدر الأعظم مصطفى باشا في العراق قدم إليه سفير الشاه صفي محمد قولي خان واقترح عليه عقد الصلح، فاشترط الصدر الأعظم حتى يتم الدخول في أمر الصلح انسحاب القوات الصفوية من درنة ودرتنگ اللتين غدتا مركزاً لتجمع

---

(١) صباغ: ص١٦٥.
(٢) أوزتونا: جـ١ ص٤٨١، ٤٨٢.

القوات الصفوية المهاجمة لبغداد. وعاد السفير الصفوي إلى أصفهان وعرض شروط الصدر الأعظم على الشاه الذي وافق عليها وأمر بانسحاب قواته من المنطقتين المذكورتين. وعندما تأكد الباشا من انسحاب القوات الصفوية التي تزامن مع وصول موفد الشاه صاروخان المعني بإجراء الصلح، تداول الجانبان في مذكرات الصلح في منطقة زهاب، قصر شيرين، على الحدود العراقية ـ الإيرانية تقرر في نهايتها ما يلي:

١ ـ يخضع للدولة العثمانية حكم كل من بغداد، جسان، بدرة، مندلي، درنة، والأراضي الواقعة غربي قلعة زنجير إلى طريق شهرزور، وقلعة قزلجة وتوابعها، وجميع القلاع في آخجة، وقارص، ووان، وشهرزور والبصرة، كما يُناط بالدولة العثمانية حكم قبيلتي ضياء الدين وهاروني الكرديتين.

٢ ـ تخضع للدولة الصفوية القلاع الواقعة شرق مندلي، ودرتنگ، وبيرة وزردويكة، وزمر دهاوا، والغابات الواقعة شرق قلعة زنجير ومهربان، وقلعتا كاكور وماكور، الواقعتان في أعالي جبل وان، وقلعة مغاذيرد في منطقة قارص[١].

وبمعنى آخر، تكون بغداد والبصرة والموصل وكردستان الغربية، وشهرزور، من نصيب الدولة العثمانية، في حين تكون أذربيجان الشرقية، ورواندوز، وأرمينيا الشرقية، وبلاد الكرج من نصيب الدولة الصفوية[٢].

وبعد أن حُدِّدت وثيقة الصلح على هذه الصورة، جرى تصديقها في عاصمة الدولتين في السنة نفسها وعُدَّت نافذة المفعول من تاريخ توقيعها.

تعقيب على معاهدة زهاب: تُعدُّ معاهدة زهاب من الأسس التي قامت عليها معاهدات الحدود بين الجانبين الصفوي والعثماني بعد ذلك، لأنها أولى المعاهدات الواضحة التي وُقِّعت بينهما والتي حدَّدت الحدود بشكل دقيق نسبياً مع مراعاة طبيعة البلاد والأرض[٣] من دون النظر إلى التوزيع السكاني، والمعروف أنها شطرت بعض القبائل الكردية إلى قسمين مثل: عشيرة الجاف التي غدا قسم منها، وهو بيرة وزودي، تحت السيطرة الصفوية، في حين وقعت أسرتا ضياء الدين وهاروني تحت الحكم العثماني، الأمر الذي جعل هذه العشيرة مصدر إزعاج وقلاقل بين الدولتين بفعل تحرك أفرادها بين منطقتي الحدود، ثم إن تنازل العثمانيين عن منطقة مهربان لصالح الصفويين، يُعد تفريطاً بها نظراً لأنها كانت تابعة أصلاً لولاية شهرزور العثمانية[٤].

---

(١) أحمدي: ص٨٨. أسود، صلاح شاكر: **الحدود العراقية ـ الإيرانية، دراسة في المشاكل القائمة بين البلدين** ص٦، ٧. صباغ: ص١٩٥.

(٢) صباغ: المرجع نفسه.

(٣) الضابط: ص٣٨.

(٤) علي: ص٨٠، ٨١.

وعلى الرغم من ذلك، فقد حدَّدت هذه المعاهدة الحدود بين الدولتين المذكورتين إلا أنها لم تخط الخطوط الأمر الذي أدَّى إلى اتخاذ مساحات كبيرة كحدود فاصلة بينهما والتي ترتَّب عليه آثار سلبية فيما بعد[١]. واتسمت العلاقة الصفوية ـ العثمانية بالودية فيما تبقَّى من عهد الشاه صفي، وساد الهدوء جبهات القتال، وقد أدَّت العلاقة السياسية الهادئة بينهما إلى امتصاص الأزمات المستجدة والطارئة، وكان الجانب الصفوي الأسبق في استخدام الأسلوب السياسي الودي، فعندما توفي السلطان مراد الرابع، أرسل الشاه صفي وفداً إلى السلطان إبراهيم الأول (١٠٥٠ ـ ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م) الذي خلفه، قدَّم إليه التعازي وهنَّأه بجلوسه على سدة الحكم. وقد هدف الشاه من عمله هذا إقامة علاقة ودية مع السلطان الجديد[٢]. وتعبيراً عن حسن نواياه تجاه الشاه، أطلق السلطان إبراهيم الأول جميع الأسرى الذين سجنهم السلطان مراد الرابع أثناء استيلائه على بغداد، وسلَّمهم للسفير الإيراني[٣].

العلاقة مع الكرج

كانت بلاد الكرج مُقَسَّمة بين الدولتين الصفوية والعثمانية، واتسمت العلاقة الصفوية مع الكرجيين التابعين للصفويين بالودية إجمالاً، وقد تقلَّد عدد من هؤلاء الوظائف العامة في الدولة في عهد الشاه عباس الأول كان من بينهم جورجي سكذية المشهور بموراوي. وعندما توفي الشاه عباس الأول استغل هذا صغر سن الشاه صفي ونشوب القلاقل الداخلية الناجمة عن سوء سِيَر الولاة، وسياسة التخلص من كبار الأمراء؛ فأعلن الثورة على الحكم الصفوي ودعا إلى استقلال بلاده، فكلف الشاه قادته، بإخماد ثورته. وبعد اصطدامات عدة تمكَّن هؤلاء من القضاء عليها، وفرَّ موراوي إلى بلاد العثمانيين وراح يُحرِّض السلطان مراد الرابع على غزو إيران[٤].

وفي عام (١٠٤١هـ/ ١٦٣١ ـ ١٦٣٢م)، ثار حاكم بلاد الكرج طهمورث خان على حكم الشاه صفي واستقل بحكم البلاد، فكلَّف الشاه خسرو ميرزا كرجي، الملقب برستم خان، بإخماد ثورته، فاصطدم به وتغلَّب عليه، وكافأه الشاه بأن عيَّنه حاكماً على بلاد الكرج[٥].

وفاة الشاه صفي

توفي الشاه صفي في قاشان أثناء عودته من مشهد في (١٢ صفر ١٠٥٢هـ/ ١٢ أيار ١٦٤٢م) بسبب الإفراط في الشرب، وحمل جثمانه إلى قم حيث دُفن فيها[٦].

---

(١) أسود: ص٢٣٢.
(٢) مهدوي: ص١٠٥.
(٣) هامر: جـ٣ ص٢٠٩٣.
(٤) إقبال: ص٦٧٦. أحمدي: ص٨٦.
(٥) الأسترآبادي: ص٢٤٦.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٦٠.

الشاه عباس الثاني

١٠٥٢ ـ ١٠٧٧هـ/ ١٦٤٢ ـ ١٦٦٦م

اعتلاء الشاه عباس الثاني العرش الصفوي

بعد وفاة الشاه صفي، رفع الأمراء ابنه عباساً إلى سدة العرش في (١٢ صفر ١٠٥٢هـ/ ١٢ أيار ١٦٤٢م) وعمره تسعة أعوام، ثم تنافسوا في الوصاية عليه حتى استقرت في يد الصدر الأعظم ميرزا تقي اعتماد الدولة وأضحى نائباً للسلطنة، وكان يشغل منصب وزير في مازندران، وما لبث هؤلاء الأمراء أن ائتمروا به وأوغروا صدر الشاه عليه فقتله[١].

يُعد الشاه عباس الثاني من أخيار ملوك الصفويين على الرغم من مساوئه، فقد كان عادلاً إلى حد ما، محسناً للرعية، رحيماً بهم، خفَّض الضرائب عنهم نحو خمسمائة ألف، وكأنه أراد أن يُكفِّر عن مظالم والده، ومنع شرب الخمر واشتد فيه، إلا أن ذلك لم يستمر مدة طويلة، فقد انغمس هو نفسه في الشراب، وجالس معاقري الخمر إلى حد أنه كان لا يصحو إلا لماماً، ما أبعده عن الاهتمام بالشؤون العامة[٢].

الصراع على قندهار مع مغول الهند

لعل الحدث البارز في عهد الشاه عباس الثاني يتمثل في الصراع بين الصفويين ومغول الهند على ولاية قندهار الفاصلة بين البلدين والتي كانت منذ أيام الشاه عباس الأول في أيدي الصفويين. وفي السنة الأولى من حكم الشاه عباس الثاني، قرر ملك الهند شاه جهان (١٠٣٧ ـ ١٠٦٨هـ/ ١٦٢٨ ـ ١٦٥٨م) أن يضمها إلى أملاكه من ضمن سياسته التوسعية في أواسط آسيا واستعادة بلاد ما وراء النهر، بالإضافة إلى أهميتها التجارية والعسكرية مستغلاً انهماك الصفويين بالحرب على الجبهة الغربية ضد العثمانيين. وحاول في بادئ الأمر أن يستعيدها سلماً من يد حاكمها علي مردان نائب الشاه، لكن محاولته باءت بالفشل أمام رفض الوالي، عندئذ هاجمها عسكرياً في عام

---

(١) أحمدي: ص٨٩. إقبال: ص٦٧٩.

(٢) إقبال: المرجع نفسه.

(١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م)، فالتمس علي مردان المساعدة من الشاه صفي لصد القوات المغولية، ويبدو أن الشاه شكَّ في ولائه له وفسَّر طلبه على غير حقيقته، فظنَّ أنه يهدف إلى تدعيم سلطانه والتفاهم مع المغول ثم الخروج عليه، فأرسل قوات كبيرة إلى المدينة للقبض عليه. وعندما وقف علي مردان على ما يُدبَّر له كتب سراً إلى سعيد خان حاكم كابل المغول يلتمس المساعدة من شاه جهان مقابل تسليمه المدينة، فأرسل هذا قواته إلى قندهار فدخلتها وأبعدت القوات الصفوية عنها[١].

وما جرى من توجُّه شاه جهان بعد ذلك إلى أواسط آسيا حيث ضمَّ بلخ وهاجم بخارى بذريعة مساعدة ندر محمد خان ضد ابنه وأمرائه؛ أن تكتل الأوزبك ضد هذا الأخير، فاضطر للفرار إلى خراسان حيث اجتمع بالشاه عباس الثاني في ظاهر أصفهان وطلب منه مساعدة عسكرية تساعده في طرد المغول، فوافق الشاه على طلبه. وزحفت الحملة باتجاه بلخ في عام (١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م)، وعندما علم شاه جهان بذلك دخل في مفاوضات مع ندر محمد خان في (٢٣ شعبان ١٠٥٧هـ/ ٢٣ أيلول ١٦٤٧م) اتفق فيها الجانبان على أن يُسلم المغول بخارى وحصن بلخ إلى محمد ندر خان ويعودوا إلى بلادهم، وعادت القوات الصفوية إلى بلادها.

لم يسكت الشاه عباس الثاني على ضياع قندهار وراح يتجهز لاستعادتها، فعين مرتضى قولي خان قاجار على قيادة جيوش إيران وأمره باستعادتها، فخرج في شتاء (١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م) إليها وهو يعلم أن ثلوج الهندوكوش سوف تعوق إرسال المدد إليها من الهند. والواقع أن ذلك كان حقيقة، ذلك أن دولت خان، نائب شاه جهان في المنطقة، حين شعر بتردد سيده في إرسال الجند إليه خلال فصل الشتاء للدفاع عن المدينة، لم يصمد طويلاً أمام الحصار الصفوي، فاستسلم للصفويين بعد سبعة وخمسين يوماً، وهو لا يعلم أنهم كانوا هم أيضاً على وشك الرحيل بفعل قساوة فصل الشتاء، ونقص المؤن[٢].

وعندما علم شاه جهان بسقوط قندهار، أرسل جيشاً بلغ تعداده ستين ألف فارس وعشرة آلاف راجل بقيادة ابنه أورنجزيب لاستعادتها، وذهب هو إلى كابل ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية، ويتدخل عند الحاجة. وحاصر الأمير المغولي المدينة واشتبك مع حاميتها في معارك جانبية، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، تلقَّى أورنجزيب أمراً من والده بفك الحصار والعودة إلى أكرا بسبب اقتراب فصل الشتاء[٣].

---

(١) Manucci, N: **Mongole India:** I, p180.

(٢) أحمدي: ص٨٩.

(٣) إقبال: ص٦٨١.

هزَّ حصار قندهار الفاشل سمعة المغول كقوة كبرى في الهند، فخشي شاه جهان أن يؤثر ذلك على حكام الأطراف فينتفضوا على الحكم المغولي، لذلك أسرع بإرسال حملة ثانية إلى قندهار بلغ تعدادها خمسين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وزوَّدها بالمدافع وبعض الفيلة والجِمال، وعهد بقيادتها إلى ابنه أورنجزيب أيضاً وصحبه قادة كبار أمثال سعد الله خان ورستم خان. وحاصر الجيش المغولي المدينة في (٢٣ جمادى الأولى ١٠٦٢هـ/ ٢ أيار ١٦٥٢م). استمر الحصار مدة شهرين وثمانية أيام من دون أن يتمكَّن الجيش المغولي خلالها من اقتحام المدينة.

وأثبتت المدفعية الصفوية تفوقها وفعاليتها أمام مدفعية المغول التقليدية، فكبَّدت القوات المغولية خسائر فادحة، ما اضطر السلطان المغولي إلى اتخاذ قرار برفع الحصار. ويبدو أن أورنجزيب كان في وضع أفضل مما تخيله السلطان، أو أنه طلب مدداً لتشديد الحصار على المدينة ورفض السلطان طلبه، فاحتجَّ على قرار الانسحاب، إلا أنه أذعن في النهاية، ففك الحصار عن المدينة وعاد إلى أكرا. والواقع أن ذلك كان خطأً عسكرياً بفعل الخبرة التي اكتسبها أورنجزيب من خلال حملتيه، وكان قد وقف على أوضاع المدينة ومدى ضعف حاميتها على الصمود.

وأرسل السلطان في عام (١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م) حملة ثالثة إلى قندهار بقيادة ابنه داراشكو، وبالغ في تجهيزها، فقد تألفت من سبعين ألف فارس، وخمسة آلاف راجل، وفرقة مدفعية مكونة من عشرة آلاف جندي، وستة آلاف لحفر الخنادق، وخمسمائة جندي لقطع الحجارة، وزوَّدها بكثير من الذخائر والأسلحة.

وحاصرت هذه القوة العسكرية الضخمة المدينة، وأمل داراشكو أن تسقط خلال مدة قصيرة، وجرت مناوشات مع حاميتها، غير أن هذه الحملة، على الرغم من ضخامتها، لم تتمكَّن من اقتحام المدينة، وأثبتت القوات الصفوية تفوُّقها العسكري على القوات المغولية، فاضطر داراشكو إلى رفع الحصار عنها بعد سبعة أشهر، وعاد من حيث أتى.

أدَّت هذه الحملات الثلاث الفاشلة ضد قندهار إلى التخلي نهائياً عن فكرة استعادتها.

العلاقة مع العثمانيين

استمرت العلاقة الصفوية ـ العثمانية جيدة في عهد الشاه عباس الثاني، وعندما اعتلى هذا الشاه سدة الحكم في إيران، أرسل السلطان إبراهيم الأول موفداً إلى البلاط الصفوي حاملاً رسالة تهنئة تعبيراً عن استمرار العلاقة الودية بين الجانبين[1]. واستمر

(١) القزويني: ص٦٣.

تبادل الرسائل الودية بينهما إثر كل مناسبة إلى أن توفي السلطان إبراهيم الأول في عام (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م)، وخلفه ابنه محمد الرابع، وما جرى من نزاع في عهده بين السلطنة العثمانية وحسين بن أفراسياب حاكم البصرة، كاد يؤدي إلى تعكير صفو هذه العلاقة.

والواقع أن البصرة كانت مثار نزاع بين العثمانيين والصفويين مدة نصف قرن، من عام (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) إلى عام (١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م) بفعل موقعها الاستراتيجي بوصفها منفذ الدولة العثمانية على الخليج العربي، بالإضافة إلى ما تحويه من موارد كانت تغطي جزءاً مهماً من اقتصاد الدولتين. وقد تفاهم الجانبان، خلال المفاوضات التي أدت إلى معاهدة زهاب، على اقتسام ما كان مثار نزاع بينهما من مناطقها. وجنح الجانبان إلى السلم الذي استمر مدة ثمانية عقود لم يعكر صفوه سوى بعض الحوادث الصغيرة في بعض نواحي العراق وبخاصة في البصرة من دون أن يؤدي ذلك إلى صراع شامل كالذي سبق المعاهدة المذكورة[١].

ودخلت البصرة في عهد حاكمها علي بن أفراسياب، عهداً جديداً عقب وفاة الشاه عباس الأول. فقد سعى الشاه صفي إلى التقرب من الإمارة الإفراسيابية لتحييدها في صراعه مع العثمانيين في الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني مراد الرابع يستعد لاستعادة بغداد. وقد تركت سياسة التقارب هذه أثراً سيئاً في نفس السلطان الذي ما إن فرغ من فتح بغداد حتى زحف إلى البصرة للقضاء على الأسرة الأفراسيابية، لكن غزارة الأمطار التي هطلت في تلك السنة عرقلت جهوده العسكرية وحملته على تأجيل مشروعه إلى وقت آخر[٢].

وعندما توفي علي بن أفراسياب خلفه ابنه حسين في ظل معارضة عميه أحمد بك وفتحي بك، ما أتاح الفرصة للدولة العثمانية لمهاجمة الإمارة للقضاء على هذه الأسرة. ففي غمرة الصراع الأسري طلب العمَّان المساعدة من الدولة العثمانية، فأمر السلطان مراد الرابع والي بغداد مرتضى باشا بمهاجمة البصرة، فأعلن حسين عندئذ الثورة على العثمانيين وذلك في عام (١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م). وحاصرت القوات العثمانية المدينة ثم دخلتها، وفرَّ حسين إلى أصفهان ملتجأ إلى الشاه عباس الثاني. فأرسل السلطان العثماني وفداً إلى الشاه في عام (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م) طلب منه عدم مساعدة حسين في سعيه للعودة إلى البصرة، فأكرم الشاه مبعوث السلطان وأجابه إلى طلبه[٣].

واعتلى أحمد بك حكم الإمارة الإفراسيابية في البصرة، غير أن عهده اتسم

(١) صباغ: ص١٦٦.

(٢) نظمي زادة، مرتضى أفندي: **گلشن خلفاء** ص٢٢٦.

(٣) العمري، ياسين بن خير الله: **غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد، دار السلام** ص١٧٣.

بالظلم وابتزاز الأموال، فثار عليه السكان، الأمر الذي أتاح للحسين أن يعود إلى حكمها مرة أخرى[١].

وسعى حسين إلى الانتقام من محمد باشا والي الأحساء الذي أدى دوراً بارزاً في تحريض عميه ضده، وحتى يُقوي موقفه استقطب براك، رئيس عشيرة بني خالد، فتمكَّن هذا من طرد محمد باشا من الأحساء وتسلَّم الحكم.

لم تسكت الحكومة العثمانية على خسارة الأحساء فجرَّدت حملة على البصرة في عام (١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م) وضربت الحصار عليها، لكنها فشلت في اقتحامها بفعل استعانة حسين بالعديد من شيوخ القبائل العربية، وعلى رأسهم أمير الأهواز المشعشعي[٢].

العلاقة مع الكرج

تعرَّضت بلاد الكرج في عهد الشاه عباس الثاني للقلاقل بسبب تنافس الأمراء، فتصدى لهم حاكمها خسرو ميرزا أو رستم خان من مقره في تفليس، غير أن ضعف الحكومة المركزية في أصفهان دفع الأمراء المتنافسين على حكم الأطراف إلى التناحر، من ذلك أن رستم خان تعرَّض لمؤامرة في عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) من جانب طهمورث خان بهدف إقصائه والحلول مكانه، غير أنه تعرَّض للهزيمة وفرَّ إلى روسيا، وراح يُثير الروس لمهاجمة بلاد الكرج. فتقدمت جماعة من القوزاق التابعين لروسيا حتى نهر ترك وشيَّد أفرادها بضعة قلاع في داغستان تتحكم في الطريق المؤدي إلى شرقي بلاد الكرج واتخذوها قواعد انطلاق إلى عمق أراضي هذه البلاد، غير أن حكام الكرج وداغستان وشَروان من الصفويين هدموا هذه القلاع وأجبروا قوات القوزاق على الانسحاب والعودة إلى روسيا[٣].

بقي طهمورث في روسيا حتى عام (١٠٧١هـ/ ١٦٥٩م) عاد بعدها إلى إيران ونال عفو الشاه عباس الثاني[٤].

وفاة الشاه عباس الثاني

عندما بلغ الشاه عباس الثاني الرابعة والثلاثين من عمره، ألمَّ به مرض، فنصحه الأطباء بالإقامة في مازندران بفعل صحة مناخها، فذهب إلى أشرف وأقام بها نحو عام، ثم رحل عنها إلى مشهد، وتوفي ليلة (٢٣ ربيع الأول ١٠٧٧هـ/ ٢٣ أيلول ١٦٦٦م) في خسرو آباد على مقربة من الدامغان، ونُقل جثمانه إلى قم حيث دفن في جوار أبيه صفي، وقد حكم خمسة وعشرين عاماً وخمسة عشر يوماً[٥].

---

(١) القزويني: ص٧٤ ـ ٧٥. (٢) صباغ: ص١٦٧.

(٣) أحمدي: ص٩٠. Roemer: p296. (٤) إقبال: ص٦٨١.

(٥) القزويني: ص٧٤. إقبال: ص٦٨٢. مير أحمدي: ص٩٠. Roemer: p301.

الشاه صفي الثاني (سليمان)

١٠٧٧ ـ ١١٠٥هـ/ ١٦٦٦ ـ ١٦٩٤م

أثارت وفاة الشاه عباس الثاني مسألة خلافته وبخاصة أنه لم يُعين خلفاً له، والمعروف أنه ترك ولدين هما صفي ميرزا، البالغ من العمر عشرين عاماً تقريباً وهو من أم شركسية، وحمزة ميرزا، البالغ من العمر ثمانية أعوام وهو من أم كرجية تُدعى نكيهات خانم.

كان الشاه عباس الثاني لا يميل إلى ابنه الأكبر ربما بتأثير زوجته الكرجية التي أرادت ضمان ولاية العهد لابنها على الرغم من صغر سنه، وقد حمله ذلك على الزج به في أحد القصور الملكية حيث قضى شبابه بين النساء والخصيان.

ووفقاً للتقليد الصفوي يُعد الابن الأكبر وريثاً للعرش حتى وإن لم يُعينه والده، فاجتمع أمراء الدولة في دامغان برئاسة الصدر الأعظم ميرزا محمد مهدي، وقرَّروا تعيين حمزة ميرزا خلفاً لوالده، خلافاً للتقليد المتبع، ولا شك بأن والدته أدَّت دوراً بارزاً في ذلك. وحتى يمتصوا الرأي المعارض لهذا التوجه أشاعوا بأن الشاه عباس الثاني قد سمل عيني ابنه صفي ميرزا، فلا يمكنه النهوض بأعباء الحكم.

تزعَّم آغا مبارك رئيس الخصيان الفريق المعارض، فأعلن أن صفي ميرزا بصحة جيدة وسليماً من العاهات، وهدَّد بقتل حمزا ميرزا إذا لم يتراجع أنصاره عن دعمه، فاضطر الأمراء أمام هذا التهديد إلى الموافقة على اختيار صفي ميرزا ملكاً على إيران باسم الشاه صفي الثاني وقد سُمي فيما بعد بالشاه سليمان[1]، وهو الاسم الذي اشتهر به في التاريخ[2]، وتم التنصيب في (٣ جمادى الأول ١٠٧٧هـ/ ١ تشرين الثاني ١٦٦٦م).

---

(١) القزويني: ص٧٥. أحمدي: ص٩٠، ٩١ .Roemer: p305

(٢) كان الشاه صفي الثاني يعاني من أمراض مزمنة، آلام القدمين والنقرس، فأشار المنجمون من حاشيته أن يطلق عليه اسم جديد، ويُعاد حفل تتويجه كي يزول المرض، وبالفعل أقيم احتفال كبير لهذه الغاية، وأُجلس مرة ثانية على العرش باسم الشاه سليمان. انظر: باستاني باريزي، إبراهيم: **سياست واقتصاد عصر صفوي** ص٢٢٥.

لم يكن الشاه سليمان على مستوى المسؤولية، فهو بحكم نشأته بين النساء والخصيان لم يكتسب خبرة في شؤون الحكم ما انعكس على الأوضاع الداخلية في الدولة من واقع نشوب الخلافات بين الأمراء وتنافسهم للاستئثار بالحكم، وقد وزر له ثلاثة هم ميرزا محمد مهدي، وهو وزير والده أيضاً، وقد تخلَّص الشاه منه بالقتل في عام (١٠٧٩هـ/١٦٦٨م) على يد شيخ علي خان زنكنة بحجة عدم اعتنائه بأبيه، وتبوَّأ القاتل منصب الصدارة العظمى وبقي فيه حتى وفاته في عام (١١٠١هـ/ ١٦٩٠م)، وخلفه ميرزا محمد طاهر القزويني.

واتخذ الشاه سليمان دار الحريم مكاناً لإدارة شؤون الدولة مع زوجاته وجواريه ورئيس الخصيان، بدلاً من الديوان، فكانت القرارات تتخذ فيه وتخرج منه إلى الآفاق للتنفيذ[١].

أما في حقل السياسة الخارجية، فلم تتعرَّض إيران خلال عهد الشاه سليمان، الذي استمر ثمانية وعشرين عاماً، لأي غزو خارجي مهم. فقد انهمك الأوزبك في شؤونهم الداخلية في حين شُغل العثمانيون بالحروب مع النمسا وبولندا والبندقية، غير أن شمالي إيران، استرآباد والدامغان وسمنان، تعرَّض لغزوة تركمانية في عامي (١٠٨٦ ـ ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٥ ـ ١٦٧٦م) بقيادة أدينة سلطان، فدمَّر التركمان هذه المناطق وقتلوا السكان، فتصدى لهم كلب علي خان شاملو وطردهم منها وقتل أدينة سلطان[٢].

توفي الشاه سليمان في أصفهان في (٦ ذي الحجة ١١٠٥هـ/ ٢٩ تموز ١٦٩٤م) بسبب إفراطه في الشرب وانغماسه في الفسوق، أو بسبب داء النقرس الذي أجبره على ملازمة الفراش مدة سنتين، وكان يناهز السادسة والأربعين عاماً من عمره[٣].

---

(١) Roemer: p307.

(٢) أحمدي: ص٩١.

(٣) القزويني: ص٧٦. Roemer: pp309, 310.

الشاه حسين

١١٠٥ ـ ١١٣٥هـ/ ١٦٩٤ ـ ١٧٢٢م

اعتلاء الشاه حسين العرش الصفوي

ترك الشاه سليمان سبعة أولاد أكبرهم سلطان حسين ميرزا البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً، وكان الشاه المتوفى قد أوصى بأن يخلفه ابنه الثاني عباس ميرزا البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، والذي اتصف بالحكمة والرزانة والتعقل، على عكس أخيه الأكبر الذي اتصف بضعف النفس والميل إلى الانزواء والابتعاد عن المجتمع، على الرغم من أنهما نشآ في الحريم السلطاني وبين الخصيان[١].

كانت الكلمة الفصل في اختيار الشاه بيد الأمراء والقادة، وقد رفعوا سلطان حسين إلى العرش في أصفهان ليستأثروا بشؤون الحكم، وجرت احتفالات التنصيب في (١٤ ذي الحجة ١١٠٥هـ/ ٦ آب ١٦٩٤م)[٢].

ابتدأ الشاه حسين حياته السياسية بمساندة شيخ الإسلام محمد بگير المجلسي الفقيه المشهور، وقد وجَّهه نحو عمل الخير والابتعاد عن الانغماس في الشهوات، ونفى جماعة المتصوفة من العاصمة لأنه لم يتآلف معهم[٣]، غير أن الدولة الصفوية كانت تمر بمراحل شيخوختها في عهده بفعل الضعف الذي اعترى جسمها، وعجَّل الغزو الأفغاني لإيران في مسيرتها إلى النهاية المحتومة.

الغزو الأفغاني لإيران

عانت إيران، في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، من غزوة مدمرة قام بها الأفغان. والواقع أن هذا البلد قد انهار في عهد الشاه حسين نتيجة الصراعات بين القوى المتنافسة على الحكم، كما نفَّذ هذا الشاه سياسة مذهبية متعسفة أثارت عداء الأفغان السنة الذين كانوا يحتفظون بقندهار باسم شاه إيران.

---

(١) Roemer: pp310-314.

(٢) Ibid: p311.

(٣) Ibid: p312.

والحقيقة أن إقليم أفغانستان لم يكن موحداً في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بل كان مقسماً إلى ثلاثة أقسام هي:

القسم الغربي، ويتبع الدولة المغولية في الهند.

القسم الشرقي، ويشمل هراة وسيستان ويتبع الدولة الصفوية.

إقليم قندهار، المتنازع عليه بين الدولتين الصفوية والمغولية في الهند، فكان يتبع تارة الحكم الصفوي وتارة أخرى الحكم المغولي، إلى أن ضمَّه الشاه عباس الأول نهائياً إلى الدولة الصفوية في عام (١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م)، وتناوب على حكمه منذ هذا الوقت ولاة صفويون حتى مطلع القرن الثامن عشر الميلادي.

وكانت تسكن أفغانستان في العهد الصفوي قبائل عديدة ومتنوعة، أهمها قبيلتان رئيستان هما:

- الغيلزاي في الأجزاء الجنوبية، وهم عشائر مختلطة الجنس.
- الدوراني في الأجزاء الشرقية، وأُطلق عليها اسم العبدلي فيما بعد.

وسكن المناطق الواقعة إلى الشمال من الهند قبائل الأوزبك، في حين سكنت قلب البلاد، قبائل مغولية أهمها: هازار وتايماني وشهر أيماك. وتركَّزت في منطقة هراة قبيلة آرية هي التاجيك، كما وُجدت تشكيلة من القبائل الآرية القديمة في الشرق من كابل في واخان وروشان وكافرستان، هذا إلى جانب بقايا عشائر آرية انتشرت في جبال أفغانستان ووديانها[١].

دانت أغلب هذه القبائل، وبخاصة الآرية والأوزبك، بالمذهب السني في حين شملت عشيرة هازار العناصر الإيرانية الشيعية. وأقام الغيلزاي علاقة ودية مع مغول الهند بوصف الطرفين من السنة، في حين قامت علاقة ودية بين الصفويين والعناصر الشيعية القليلة في أفغانستان.

ووجدت القوى العشائرية في أفغانستان نفسها بين قوتين كبيرتين: إحداهما في الشرق وتتمثل بالقوة الصفوية والأخرى في الجنوب وتتمثل بدولة المغول، ولما كانت هذه العشائر مفككة وغير قادرة على التصدي لأي من هاتين القوتين إلا بشق النفس؛ فقد وقعت في أيدي الصفويين تارة وفي أيدي المغول تارى أخرى.

كان إقليم قندهار في عهد الشاه حسين جزءاً من الدولة الصفوية، لكن حدثت فيه تطورات أدت إلى مطالبة السكان بالاستقلال عنها. ففي عام (١١١٥هـ/ ١٧٠٣م) دخلت مدينة قندهار عاصمة الإقليم في عهد جديد كقوة بارزة على المسرح السياسي الدولي وذلك حين تسلَّم حكومتها كوركين خان الكرجي، المعروف بالذئبي، وراح هذا الوالي

---

(١) نوار: جـ١ ص٨٣، ٨٤.

الصفوي، من واقع إيمانه النصراني وبوصفه تابعاً لدولة شيعية المذهب؛ يضيق بخناق على الأفغان الغيلزائيين السنة، ما أثار مير أويس، أحد أبرز زعماء العشائر الغيلزائية والمسؤول عن إدارة أمور بلدته قندهار، فراح يعمل على إثارة النقمة بين رجال قبيلته ضد كوركين الأمر الذي دفع هذا إلى القبض عليه وإرساله أسيراً إلى أصفهان.

ويبدو أن مير أويس كان ذكياً، فاستطاع أن يتقرَّب من الشاه حسين حتى عفا عنه وأضحى رجله المفضل، وحصل منه على إذن بالذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فاستغل وجوده في مكة، واجتمع بفقهائها وحصل منهم على فتوى تجيز محاربة الصفويين والقضاء عليهم لأنهم أضحوا يشكلون خطراً على المنطقة[١].

وعندما عاد مير أويس إلى أصفهان وجد مبعوث القيصر الروسي بطرس الأكبر (١١٠٠ ـ ١١٣٧هـ/ ١٦٨٩ ـ ١٧٢٥م)، أرشيل، وهو أخو كوركين، يتفاوض مع الشاه حسين باسم سيده بشأن منح روسيا بعض الأراضي التي توصلها إلى الهند والخليج العربي. والمعروف أن سياسة بطرس الأكبر كانت تقضي بالاقتراب من إستانبول وممالك الهند والاستيلاء على إيران وإعادة فتح طريق التجارة القديم بين الشام والهند[٢]، غير أن أرشيل لم يحصل إلا على موافقة الشاه بمنح التجار الروس بعض الامتيازات التجارية[٣].

استغل مير أويس هذه المسألة وأخذ يؤلب الشاه حسين ضد كوركين ويتهمه بميله إلى الروس، فأصدر الشاه مرسوماً في عام (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) عيَّن بموجبه مير أويس رئيساً لشرطة قندهار ومراقباً لأعمال كوركين، غير أن هذا لم يترك الأمور تسير هكذا ضد رغباته، فقرَّر أن يحاسب مير أويس، فأبدى الأمير الأفغاني رغبة في التفاهم وحل الخلاف بينهما سلماً، فطلب منه كوركين أن يزوجه ابنته، وهو يهدف إلى إيذائه والتعرض له، غير أن مير أويس أرسل إليه بنتاً أخرى على أنها ابنته، فأرضاه مؤقتاً، إلا أن الأمير الكرجي رفض إلا أن يحسم الخلاف بحد السيف، ومن ثمَّ كان على مير أويس أن يتخلَّص منه، فاستخدم الحيلة وقتله غدراً أثناء وليمة أعدَّها له وذلك في عام (١١٢١هـ/ ١٧٠٩م) وتسلم حكم قندهار بدلاً منه[٤].

شكَّل انتصار قبيلة الغيلزاي الأفغانية حافزاً لقبيلة الأفغان العبداليين على الثورة ضد الحكم الصفوي في هراة، فتعاون زعيم القبيلة أسد الله خان مع الأوزبك وجهَّز جيشاً بلغ تعداده سبعة عشر ألف مقاتل بينهم خمسة آلاف مقاتل أوزبكي، واصطدم

---

(١) مير أحمدي: ص٩٢.

(٢) الخوند، مسعود: **الموسوعة التاريخية الجغرافية** جـ١ ص٢٦.

(٣) إقبال: ص٦٨٦.

(٤) أحمدي: ص٩٣.

بالقوات الصفوية عند هراة وتغلَّب عليها واستقلَّ بحكم المدينة[١]، فظهرت بذلك إمارة جديدة على حدود إيران الشرقية في هراة، ولكنها لم تكن على علاقة ودية مع شقيقتها في قندهار. وفتح هذا الانتصار الطريق أمام العبداليين للولوج إلى خراسان.

وبفعل العداء بين الغيلزائيين والعبداليين، وحتى يسترضي الصفويين، أقدم مير محمود بن مير أويس على قتال هؤلاء وتمكَّن من التغلب عليهم وقتل قائدهم أسد الله خان، فأرسل إليه الشاه حسين سيفاً مرصعاً ومرسوماً يقضي بتلقيبه حسين قولي خان، أي عبد الشاه[٢] وذلك مكافأة له، ثم إن مير أويس أخذ يُبعد الجنود الصفويين عن ولايته تدريجاً إلى أن استقل تماماً بحكمها[٣].

لم تُرض هذه التصرفات البلاط الصفوي، لكن الشاه حسين لم يكن مستعداً آنذاك لأن يُرسل جيشاً ضد مير أويس، بفعل اندلاع الثورات في سائر ولايات إيران[٤]، لذلك أخذ يسعى إلى التوصل إلى تفاهم معه، فأرسل إليه مبعوثاً للتفاوض على أساس أن يترك له حكم قندهار مقابل بقائها في إطار الدولة الصفوية، إلا أن مير أويس رفض فكرة التفاوض وحمَّل السفير الإيراني تهديداً للشاه جاء فيه: «لتكن واثقاً من أن ساعة الانتقام قد أزفت، وأن الأفغانيين البواسل هم من اختارهم الله لمعاقبة الفرس المارقين»[٥].

الواضح أن الأمير الأفغاني، وقد شعر بعجز الصفويين عن زحزحته، وكان قد استكمل استعداداته العسكرية، وجَّه تهديداً واتهاماً للشاه وتوعَّده بالقضاء على دولته.

وعلى الرغم من هذا التهديد، لم يتخذ الشاه حسين إلا إجراءات ثانوية لضرب مير أويس واستعادة قندهار، وكلَّف حاكم بلاد الكرج خسرو خان بضربه والقضاء عليه وإعادة قندهار إلى الحكم الصفوي.

كان خسرو خان مستعداً لأن يقوم بتلك المهمة للانتقام من مير أويس الذي قتل عمه كوركين، فجهَّز حملة عسكرية بلغ تعدادها خمسة وعشرين ألف مقاتل وتحرَّك نحو قندهار في عام (١١٢٤هـ/ ١٧١٢م)، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، ورفض عرضاً باستسلام السكان ومنحهم الأمان، فاستمات هؤلاء بالدفاع عن مدينتهم وصدُّوا الهجوم الصفوي، وطاردوا الجنود الصفويين وكبَّدوهم أربعة

---

(١) نوار: جـ١ ص٨٩.

(٢) إقبال: ص٦٨٨، ٦٨٩.

(٣) العزاوي: جـ٥ ص٢٠١.

(٤) نذكر من هذه الثورات: ثورة عرب عُمان الذين أخرجوا القوات الصفوية من بلادهم، وتعرُّض مشهد لهجوم قام به ملك محمود السيستاني حاكم تون، الذي عدَّ نفسه من سلالة الصفاريين. إقبال: ص٦٨٩.

(٥) نوار: جـ١ ص٨٨.

وعشرين ألف قتيل كان خسرو خان من بينهم[1].

وجدَّد الشاه حسين محاولته لاستعادة قندهار، فأرسل جيشاً آخر بقيادة محمد رستم، غير أنه تعرَّض للدمار على أيدي القوات الأفغانية. وأتاحت هذه الانتصارات لمير أويس أن يُثبت حكمه في قندهار، واستمر كذلك حتى وفاته في عام (١١٢٧هـ/ ١٧١٥م)[2].

جعل مير أويس من إمارة قندهار قوة كبيرة في المنطقة دفعت خلفاءه إلى التطلع إلى ما وراء حدودها.

خلف مير أويس أخوه عبد الله الذي استبد بالحكم دون الوريث الشرعي، وهو محمود بن أويس البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وبدت الأمور وكأن الأفغان سيقطفون ثمار انتصاراتهم بالتوسع وراء حدود إمارتهم وتحديداً باتجاه خراسان وصولاً إلى إيران، غير أن عبد الله مال إلى التفاهم مع الصفويين وإحلال السلام معهم. ويبدو أنه أدرك أن قندهار تستطيع أن تصدَّ القوات الصفوية المتعاقبة ولكن إلى حين، بالإضافة إلى أنه أراد الانفراد بالحكم، وهو أمر يتطلب وقف الحرب مع الصفويين، وأخذ يعمل على تجهيز بعثة إلى الشاه تحمل عرضاً:

- بإلغاء الجزية المقرَّرة لإيران.
- بعدم إرسال قوات إيرانية إلى قندهار.
- بأن يكون الحكم وراثياً في أسرته[3].

وهذا يعني إرجاع قندهار إلى النفوذ الصفوي.

لا يوحي هذا العرض لعقد الصلح بأن كفة الأفغان خلال تلك المعارك هي التي كانت راجحة، ما أدى إلى تذمر رجاله، ولم يلبث محمود بن أويس أن قتل عمَّه واستولى على الحكم، وأعلن نفسه حاكماً مطلقاً على قندهار[4]، ففتح بذلك باب التحدي بينه وبين الصفويين.

وجهَّز الشاه حسين في عام (١١٣٠هـ/ ١٧١٧م) حملة عسكرية للقضاء على مير محمود، لكن ما جرى من وصول الأنباء إلى أصفهان باستيلاء العثمانيين بقيادة سيف بن سلطان على جزيرة البحرين، دفع الشاه إلى تغيير وجهة سير الحملة إلى هذه الجزيرة لاستعادتها، ولما كان الصفويون يفتقدون إلى أسطول بحري، تحتَّم على قائد الحملة أن يستعين بالأسطول البرتغالي لنقل جنوده إلى الجزيرة، لكن البرتغاليين امتنعوا عن القيام بذلك بحجة عدم دفع الحكومة الصفوية الخراج المترتب عليها لهم، الأمر الذي أدى إلى عودة الحملة من حيث أتت من دون أن تُحقق

---

(١) أحمدي: ص٩٣. نوار: جـ١ ص٨٧، ٨٨. (٢) أحمدي: ص٩٣.

(٣) نوار: جـ١ ص٨٨.

(٤) الصرفي، رزق الله منقوريوس: **تاريخ دول الإسلام** جـ٣ ص٢٣٧.

الغاية التي خرجت من أجلها لا في الشرق ولا في الجنوب[١].

وعلى الرغم من فداحة الخسائر التي تعرَّضت لها الدولة الصفوية، وعِظَم الأخطار المحدقة بها، بدا الشاه حسين ورجاله عاجزين عن تحمل المسؤولية الملقاة على عاتقهم، كما أن معنويات الشعب الإيراني كانت مزعزعة بسبب التدهور السياسي والاقتصادي وتعرض البلاد للكوارث الطبيعية مثل الزلازل، الأمر الذي أعطى مير محمود الفرصة لمهاجمة الأقاليم الشرقية لإيران، ثم التوغل في عمق الداخل الإيراني لتوسيع رقعة مملكته والقضاء على الدولة الصفوية. فأغار أولاً على العبداليين في عام (١١٣١هـ/ ١٧١٩م) واستولى على عاصمتهم سيستان، ثم زحف إلى كرمان واستولى عليها في عام (١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م) على الرغم من المقاومة التي أبداها حاكمها علي خان، ثم هاجم يزد، المدينة المؤدية إلى أصفهان، فسقطت في يده، وفُتح أمامه الطريق المؤدي إلى غربي العاصمة، لكنه توقف في كرمان لإعادة تنظيم صفوف قواته والاستيلاء على بعض المعاقل الرئيسة قبل أن يستأنف الزحف نحو العاصمة، فاستولى على فرح آباد بسهولة بعد أن فرَّت منها الحامية الصفوية، وأخضع جُلفا الواقعة على الضفة الغربية لنهر زاينده رود بعد انقسام سكانها الأرمن والفرس والعرب على أنفسهم.

تجاه هذا التقدم الأفغاني، أرسل الشاه حسين سفارة إلى مير محمود عرضت عليه مبلغاً كبيراً من المال لقاء عودته إلى أفغانستان، فاعتقد الزعيم الأفغاني بأن الصفويين لم يُقدموا على هذه الخطوة إلا لأنهم عاجزين عن التصدي له ووقف زحفه، ما شجَّعه على التقدم إلى أصفهان.

ودفع الشاه حسين قواته إلى گلناباد الواقعة شمالي أصفهان وهي المعبر الوحيد المؤدي إليها حيث جرت المعركة الفاصلة مع القوات الأفغانية، وأسفرت عن انتصار واضح للأفغان، وفرَّ الجنود الصفويون من أرض المعركة إلى أصفهان وتحصنوا بداخلها.

وتقدمت القوات الأفغانية إلى المدينة وضربت الحصار عليها، وقد استمر أشهراً عدةِ حتى نفدت المؤن منها وانتشر الجوع فيها، ولم يجد الشاه حسين مفراً من الاستسلام وفق شروط مير محمود وهي التنازل عن الحكم والزواج بابنته.

وبتنازل الشاه حسين عن العرش لمير محمود، بعد سقوط أصفهان بأيدي القوات الأفغانية، يمكننا القول بأن الدولة الصفوية سقطت فعلاً منذ تلك اللحظة، في حين استمرت شكلاً مدة أربعة عشر عاماً أخرى لتسقط شكلاً وفعلاً على يد نادر شاه الأفشاري في عام (١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م) كما سنرى[٢].

---

(١) فلور، وليم: **بر أفتادن صفويان بر أمدن محمود أفغان** ص٢٩، ٣٠. صباغ: ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) انظر: حول سقوط أصفهان: أحمدي ص٩٣ ـ ٩٦. صباغ: ص٢٠٥، ٢٠٦. نوار: جـ١ ص٨٧ ـ ٩٥.

Savory, R: **Iran under the Safavids:** p126. Roemer: pp320-323.

الشاه طهماسب الثاني

١١٣٥ ـ ١١٤٥هـ/ ١٧٢٢ ـ ١٧٣٢م

اعتلاء الشاه طهماسب الثاني العرش الصفوي

في الوقت الذي هاجم فيه مير محمود أصفهان، أرسل أركان الدولة ولي العهد طهماسب ميرزا ابن الشاه حسين إلى قاشان وقزوين ليجمع جيشاً يساعد به والده ويُنقذ أصفهان من الغزو الأفغاني، لكن ما جرى من تنازل والده عن العرش لصالح مير محمود دفعه إلى الجلوس على العرش الصفوي في قزوين. وعندما علم الشاه محمود بذلك، أرسل فرقة عسكرية إلى قزوين بقيادة أمان الله خان للاستيلاء عليها والقبض على طهماسب الثاني، لكن هذا فرَّ إلى تبريز آملاً في تلقي المساعدة من أهلها[١].

سياسة مير محمود العامة

اتصف مير محمود ببعد النظر السياسي، فبعد أن فتح عاصمة الصفويين وأضحى صاحب الحق الشرعي المستند على القوة، في حكم البلاد، اتبع سياسة معتدلة ارتكزت على الأسس التالية:

ـ العمل على استمرار الحياة العامة، لذلك أبقى الموظفين الإيرانيين في وظائفهم إنما عيَّن بعض المراقبين من الأفغان للتأكد من أن العمل الحكومي لا يسير في اتجاهات مضادة لتوجهات الحكم الجديد.

ـ معاملة أهل أصفهان بالحسنى بهدف استقطابهم.

ـ التعاون مع الأوروبيين، وكالات وتجار، ومنحهم الفرصة لمتابعة أعمالهم التجارية، والإبقاء على امتيازاتهم التي حصلوا عليها في العهد الصفوي.

ـ مكافأة الزعماء الصفويين الذين استمروا على وفائهم للشاه السابق حسين، ومعاقبة الذين خانوه[٢].

---

(١) القزويني: ص٨٢، ٨٣.

(٢) لقد فاجأت هذه السياسة الإيرانيين بعامة، وأملوا بعهد جديد من السلام والهدوء.

كانت هذه هي توجهات مير محمود، إلا أنه واجه عدداً من الصعاب جعلت آماله تتأرجح بين تحقيق ما يصبو إليه وبين الفشل في الوصول إلى الهدف، نذكر منها:

- لقد شكَّك الإيرانيون في نواياه، ونظروا إلى سيطرته على شرقي إيران ووسطها وجلوسه على العرش الصفوي في أصفهان، ودعوته للتعاون معه بوصفه الوريث الشرعي للأسرة الصفوية؛ نظرة لا تخلو من الرياء والخداع من جانبه.

- أحاطت بإيران قوى طامعة أخذت على عاتقها التدخل في الشؤون السياسية الداخلية للسلطنة المنهكة واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها، وأعني بهذه القوى العثمانيين من الغرب والروس من الشرق.

- وجود الشاه طهماسب الثاني في شمالي إيران وهو يعمل على تكوين جيش كبير للدفاع عن بلاده، واستعادة العرش من الأفغان الذي أضحى من حقه، وكان عليه أن يجاهد من أجله بحد السيف، فأرسل ضده حملة عسكرية للقضاء عليه. نجحت الحملة في السيطرة على مدن قزوين وقم وقاشان لكن من دون أن تتمكَّن من القضاء على الشاه.

- بروز زعماء العصبيات العشائرية الفارسية والكردية ومحاولتها الانفصال عن جسم الدولة للتنصل من التزاماتها للعهد الجديد، وفك ارتباطها غير المجدي، من وجهة نظرها، بالأسرة الصفوية.

- بدت بوادر النقص في العديد لدى مير محمود بفعل أنه استنفد كامل طاقته العسكرية خلال عملياته العسكرية للسيطرة على البلاد، وتجنُّب الإيرانيين الانخراط في صفوف قواته، كما كان من المتعذر تجييش جيوش جديدة من أفغانستان وإرسالها إلى إيران، إلا أنه حلَّ هذه المشكلة باستقطاب الأكراد السنة، فكوَّن منهم جيشاً قوياً استطاع بواسطته أن يُوجه حملات ناجحة ضد المدن الثائرة في خونسان وقاشان وشيراز وبندر عباس وبهبان.

- واجه حكم مير محمود ثورات عاتية في مختلف المدن الإيرانية وبخاصة في قزوين، والملفت أن الحامية الأفغانية التي طُردت من هذه المدينة لم تنضم إلى قواته الرئيسة، وغادرت إيران إلى قندهار، الأمر الذي يكشف حراجة وضعه.

الصفويون بين العثمانيين والروس

أثارت أوضاع إيران الداخلية اهتمامات العثمانيين، وكان هؤلاء قد استعادوا قدراً من قوتهم بعد صلح بساروفيتز الذي عقدوه مع آل هابسبورغ في النمسا في (٦ رجب ١١٣٠هـ/ ٥ حزيران ١٧١٨م)[١]، وقد حصلت إيران بموجب أحد بنوده على بعض

(١) أوزتونا: جـ١ ص٦٠١.

الامتيازات في الأراضي العثمانية تمثلت بتسهيلات للتجار الإيرانيين الذين يعبرون الأراضي العثمانية إلى نهر الدانوب[١]، والمعروف أن العثمانيين قد أوقفوا خلال حروبهم مع النمسا تجارة الحرير الإيراني إلى أوروبا لمنع تجار المعادن الثمينة من نقل الفضة العثمانية إلى إيران التي كانت بأمس الحاجة إليها[٢].

وأدركت الدولة الصفوية من جهتها أن السلام الذي تحقَّق بين العثمانيين وآل هابسبورغ سيتيح للعثمانيين إعادة بسط سيطرتهم على مناطق الأطراف الداخلة في مجالهم الحيوي[٣].

وتجاه القلق الصفوي المتزايد، وسعي السلطنة العثمانية إلى التفاوض مع الصفويين، أرسل السلطان أحمد الثالث (١١١٥ ـ ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م)، في عام (١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م) سفيراً إلى أصفهان هو أحمد أفندي لإجراء مفاوضات مع الشاه حسين من أجل تحسين العلاقة بين الدولتين وبحث سبل التجارة الصفوية ـ النمساوية، وتقديم تقرير عن أوضاع إيران الداخلية، وعندما عاد إلى إستانبول قدم تقريره الذي بيَّن فيه أن الدولة الصفوية تتعرض لخطر الأفغان الذي أخذ يُهدِّد حكم الشاه حسين الضعيف[٤].

وعندما استقر مير محمود على سدة العرش في إيران، أرسل والي بغداد حسن باشا مبعوثاً من قبله إلى أصفهان للوقوف على نواياه تجاه السلطنة العثمانية، فأبدى هذا ولاءه لها وأرسل سفيراً من قِبله إلى بغداد هو محمد صادق خان لتأكيد هذا الولاء والطلب من حسن باشا توفير الدعم العثماني للأفغان، للاستيلاء على جميع الممتلكات الصفوية، فأرسل حسن باشا تقريراً مفصلاً بذلك إلى إستانبول[٥].

وبناء على تقرير والي بغداد قرَّر الباب العالي الاستيلاء على مناطق الأطراف: إيروان، تبريز، گنجة وتفليس لتحصين الجبهة الشرقية، وأمر ولاة أرضروم، قارص، وان، جلدر، الموصل، شهرزور، بغداد والبصرة، باجتياح الأراضي الإيرانية الواقعة تحت سيطرة الصفويين فقط[٦]، فأعدَّ حسن باشا حملة عسكرية نجحت في السيطرة على كرمنشاه[٧].

أثارت سياسة التوسع العثماني وضعف الدولة الصفوية طموح القيصر الروسي

---

(١) أوزتونا: جا، ص٦٠١.
(٢) أولسن: ص٩٧، ٩٨.
(٣) صباغ: ص٢٠٦.
(٤) أولسن: ص١٠٠.
(٥) كركوكلي، رسول: **دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء** ص١٦، ١٧.
(٦) أولسن: ص١٠١.
(٧) كركوكلي: ص١٨.

بطرس الأكبر الذي كانت لديه تطلعات توسعية عبر ولايات الكرج وإيران القوقازية وتحويل بحر قزوين إلى بحيرة روسية، بالإضافة إلى تطلعات اقتصادية تتمثل في وضع يده على تجارة الحرير الإيراني وصولاً إلى الهند عبر خيوة وبخارى(١)، لذلك هاجم دربند واستولى عليها وتوجَّه إلى شماخي، وعندما وصل إليها وجد أن القوات العثمانية بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد سبقته إليها بعد أن سيطرت على أرمينيا وبلاد الكرج، ولما كان لا طاقة له بمقاومة الجيش العثماني انسحب من المنطقة وعاد إلى بلاده(٢).

وما جرى على الجانب الأفغاني من استيلاء مير محمود على رشت، قصبة جيلان، في عام (١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م) أن أوجس حاكمها الفارسي خيفة من اجتياح أفغاني لولايته، فطلب المساعدة من القيصر الروسي، فأرسل هذا قواته إلى جيلان لتستولي عليها في الوقت الذي استولى فيه العثمانيون على شماخي وتفليس وشَروان(٣).

ويبدو أن توغل القوات الروسية في عمق الأراضي الإيرانية، هدَّد النفوذ العثماني في تلك المناطق التي استولى عليها العثمانيون، فأرسل السلطان أحمد الثالث رسالة إلى بطرس الأكبر يعلمه فيها أن تجاوز القوات الروسية لمدينة دربند لا يعني إلا الحرب على الدولة العثمانية(٤).

والواضح أن بطرس الأكبر لم يكن راغباً في تلك المرحلة الدخول في صراع مسلح مع العثمانيين من أجل التوسع في أراضٍ إيرانية، لذلك آثر أن يتوقف عن الزحف حفاظاً على باكو ودربند التي استولى عليهما خلال هذه الأزمة(٥).

بعد إعلان السلطنة العثمانية الحرب على الدولة الصفوية واجتياح جيوشها أراضٍ إيرانية، أرسل الشاه طهماسب الثاني رسالة إلى السلطان أحمد الثالث يستفسر عن سبب هذا الاجتياح لبلاده، فردَّ عليه السلطان برسالة برَّر فيها ذلك باستيلاء القوات الروسية على باكو ودربند، والقوات الأفغانية على أصفهان، وهو بالمقابل يريد أن يسترجع إيروان وتبريز قبل أن يستولي عليهما الأعداء، فأدرك الشاه عندئذ أن لا فائدة تُرجى من استمرار تبادل الرسائل مع العثمانيين وتوجَّه إلى القيصر الروسي بطرس الأكبر لطلب المساعدة، فأرسل إليه مبعوثاً هو إسماعيل بك اعتماد الدولة، وحمَّله رسالة تضمَّنت طلب المساعدة العسكرية. وافق القيصر الروسي على الطلب

---

(١) أولسن: ص١٠٢.

(٢) محمد فريد بك: ٣١٨. إقبال: ص٦٩١. نوار: جـ١ ص١٠٠.

(٣) مهدوي: ص١٤٧.

(٤) محمد فريد بك: ص٣١٨.

(٥) شاملوئي، حبيب الله: **تاريخ إيران** ص٦٧٠، ٦٧١.

لكنه اشترط أن يضم أستراباد ومازندران وجيلان إلى دولته، مقابل ذلك، وعندما عاد مبعوثه برفقة المبعوث الروسي، عنَّف الشاه هذا الأخير وردَّه إلى بلاده، ما دفع بطرس الأكبر إلى استئناف سياسة التوسع(١).

كاد التنازع على الأراضي الإيرانية بين العثمانيين والروس أن يؤدي إلى نشوب الحرب بينهما بفعل أن المناطق المتنازع عليها كانت مثار طمع بينهما. فالدولة العثمانية تسعى إلى ضم المناطق الحيوية للإفادة من مواقعها الاستراتيجية وحرمان الروس من هذه الفائدة، وكذلك كانت الدولة الروسية تسعى إلى حرمان العثمانيين من الوصول إلى بحر قزوين للغاية نفسها(٢).

ويبدو أن هذا التنازع كان يضر بمصالح فرنسا التجارية في الشرق؛ لذلك تدخلت لحل النزاع بينهما سلماً، وأرسلت سفيرها الماركيز بوناك إلى إستانبول لتقريب وجهات النظر بين الباب العالي والقيصر، وقد نجح في ذلك عندما تمكَّن الطرفان من عقد معاهدة بينهما في (٢ شوال ١١٣٦هـ/ ٢٤ حزيران ١٧٢٤م) قضت بأن تحتفظ الدولتان بما استولتا عليه من أراضٍ إيرانية وبقيام تحالف بينهما ضد أي محاولة يقوم بها الشاه طهماسب الثاني لاسترداد ما يسيطران عليه، وقد تضمَّنت البنود التالية:

- يكون الخط الممتد من تركستان شرقاً إلى ملتقى نهر الكر والرس إلى دربند، حداً فاصلاً بين ممتلكات الدولتين العثمانية والروسية.
- تحصل الدولة العثمانية على مدن إيران الغربية وهي: قراباغ، گنجة، نخجوان، إيروان، تبريز، خوي، كورس، أرومية، مراغة، سلماس، سننندج، همدان وكرمنشاه.
- تحصل روسيا على سواحل بحر قزوين والمناطق الواقعة شمالي المجرى الجنوبي لنهر الرس، أي المناطق التي سبق للشاه طهماسب الثاني أن تنازل عنها لروسيا وهي: أستراباد، مازندران، جيلان وقسم من شَروان.
- يحتفظ الشاه طهماسب الثاني بما تبقى من أراضٍ إيرانية شرط أن يعترف بنصوص هذه المعاهدة(٣).

الواقع أن الروس حقَّقوا من خلال هذه المعاهدة هدفاً استراتيجياً حال دون وصول العثمانيين إلى شواطئ بحر قزوين، لكن السلطان أحمد الثالث تعرَّض لنقد

---

(١) مهدوي: ص١٤٧، ١٤٨. صباغ: ص٢٠٨.

(٢) صباغ: ٢٠٨.

(٣) Lokhart, H: **The fall of the Safavid dynasty and the Afghan Occupation of Persia**, pp271, 272.

من جانب العلماء بتحالفه مع دولة نصرانية ضد دولة إسلامية واقتسام أراضيها، وتجاهلت المعاهدة الوجود الأفغاني في إيران.

انعكاس المعاهدة الروسية ـ العثمانية على الوجود الأفغاني في إيران

كان للمعاهدة العثمانية ـ الروسية انعكاسات خطيرة على الوجود الأفغاني في إيران، فقد زجَّت مير محمود بمشكلات لم يستطع تجاوزها وأدت إلى نهايته. فبعد أن كان نشاطه محصوراً في قلب إيران، أخذت المشكلات تتوالى عليه من أطرافها، نذكر منها:

ـ الضغط الدولي المتمثل بالدولتين العثمانية والروسية وممارساتهما في اقتطاع أراضٍ إيرانية واسعة.

ـ تعرُّض جيشه لهزائم متكررة في مناطق عدة داخل إيران.

ـ هجوم الأكراد اليزيديين على معسكره.

أرهقت هذه التطورات الداخلية والخارجية مير محمود مادياً وعسكرياً وذهنياً، إذ لم تستطع قدراته العقلية أن تواجه هذه الأعباء الجسام، فبدأت تتداعى، وانعكس ذلك على تصرفاته المعتدلة التي مالت إلى العنف والقسوة، فأخذ يفتك بوجهاء الإيرانيين ثم قتل ثلاثة آلاف مقاتل من الحرس الإيراني بالإضافة إلى كل من خدم الشاه حسين، وطالت المذابح كبار القادة الأفغان، وفرض ضرائب جديدة على الأراضي أرهقت الأهالي، ونهب جنده متاجر الهنود والوكالات الإنكليزية والهولندية. وتطورت حالته الذهنية نحو الجنون والانتحار السياسي، وعلى الرغم من ذلك، أصرَّ على الاحتفاظ بالعرش في أصفهان.

أدرك كبار رجال الأفغان، أن مير محمود لو استمر على هذا النحو سيقضي على ما تبقى من الوجود الأفغاني في إيران، فاستدعوا ابن عمه مير أشرف من أفغانستان وأسندوا إليه ولاية العهد، ثم رفعوه على العرش بعد أن أصيب مير محمود بالجنون تماماً، وذلك في (شعبان ١١٣٧هـ/ نيسان ١٧٢٥م) وما إن تسلم الحكم أمر بقتله(١).

الأفغان في إيران في عهد مير أشرف

التفاهم العثماني ـ الأفغاني: كان على مير أشرف أن يواجه الأزمات الكبيرة التي يتعرَّض لها الوجود الأفغاني في إيران والناتجة عن الصراعات الإقليمية، وقد تمثَّلت القوى المتصارعة بـ:

---

(١) ميرزا مهدي خان أسترآبادي: **درهٔ نادرة، تاريخ عصر نادر شاه** ص١٣٧، ١٣٨. شاملوئي: ص٦٧٠، ٦٧١. أحمدي: ص٩٧. نوار: جـ١ ص١٠١، ١٠٢.

ـ الأفغان بقيادة مير أشرف نفسه الذي سيطر على أصفهان وشيراز وجنوب شرقي إيران[1]، غير أن تعدد القوى الخارجية الطامعة في الأراضي الإيرانية وكذلك الثورات الداخلية، واعتماده على إمكانات بشرية محدودة؛ جعلته يركن إلى الدفاع.

ـ الصفويين بقيادة الشاه طهماسب الثاني الذي عدَّ نفسه صاحب الحق الشرعي في العرش وكان مركزه في مازندران، ونظراً لقلة عديده اكتفى بمراقبة ما يجري من أحداث، وحاول الاستفادة منها، حتى إذا انضم إليه زعيم القاجار، فتح علي خان، أضحى قادراً على المشاركة في توجيه الأحداث.

ـ روسيا التي استمرت في اتباع سياسة بطرس الأكبر بعد وفاته والقاضية بالتوسع على حساب الإيرانيين، وستصبح روسيا قوة كبرى في عهد القيصرة كاترين الثانية (١١٧٦ ـ ١٢١١هـ/ ١٧٦٢ ـ ١٧٩٦م) وستتوسع على حساب الإيرانيين والعثمانيين معاً.

ـ العثمانيين الذين يرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم إيران وحمايتها من الأفغان والروس، وكانت قواتهم قد توغلت مسافات بعيدة في عمق الأراضي الإيرانية بقيادة أحمد باشا، والي بغداد الذي خلف والده المتوفى حسن باشا في هذا المنصب[2].

أبدى مير أشرف في بداية عهده حنكة سياسية، فعمد إلى إخراج الشاه حسين من السجن وتزوج من ابنته ليكتسب شرعية هو بأمسِّ الحاجة إليها، ثم أخذ يسعى للاجتماع بالشاه طهماسب الثاني وهو ينوي الغدر به، فانكشف أمره، وولى الشاه هارباً إلى سِمنان ثم إلى طهران، واستدعى فتح علي خان رئيس قبيلة قاجار وعيَّنه نائباً للسلطنة وأميراً للأمراء، واتفق معه على محاربة الأفغان وطردهم من إيران. وعندما زحف مير أشرف إلى طهران لحصارها رحل عنها الشاه طهماسب الثاني إلى مازندران، ثم توجَّه إلى مشهد بهدف الاستيلاء على خراسان وقطع طريق الإمدادات من أفغانستان عن مير أشرف، وفي الوقت الذي كانا يستعدان للمواجهة باغتهما مير أشرف في دامغان[3].

وحاول مير أشرف إخراج القوات العثمانية إلى ما وراء الحدود الإيرانية ـ العراقية، فأرسل وفداً إلى إستانبول برئاسة عبد العزيز خان وملا رحيم، قدَّما إلى السلطان أحمد الثالث احتجاجاً على معاهدة عام (١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م). ولما كانت السياسة العثمانية العامة آنذاك لا تتفق مع هذا التوجه، فقد أمر السلطان بإخراج الوفد الأفغاني من إستانبول، وشدَّد على الاجتياح العثماني لإيران[4]

(١) ميرزا مهدي خان أسترآبادي: ص٢٠٣.
(٢) نوار: جـ١ ص١٠٤، ١٠٥.
(٣) أحمدي: ص٩٨، ٩٩.
(٤) مهدوي: ص١٥١. صباغ: ص٢١٠.

كان لهذه السياسة العثمانية تجاه الأفغان رد فعل سلبي داخل الرأي العام العثماني أدى إلى استياء معظم الطبقات الأهلية، ما دفع السلطان إلى الطلب من شيخ الإسلام أن يصدر فتوى تجيز قتال الأفغان[1].

الواقع أن المصلحة العثمانية العليا كانت تقضي بتجاوز توجهات الرأي العام، لمواجهة الأخطار والأطماع الروسية في الأراضي الإيرانية، فاتخذ الباب العالي القرار الصعب باستئناف العمليات العسكرية، فأوعز إلى أحمد باشا والي بغداد بالزحف إلى أصفهان في عام (١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م)، حيث التقى بالقوات الأفغانية بقيادة مير أشرف على محور همدان ـ أصفهان. وجرت بين الجانبين رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار واضح للقوات الأفغانية التي ضربت مقدمة الجيش العثماني وأوقفته عن الزحف. ويُذكر بأن المقاتلين الأكراد في الجيش العثماني رفضوا الاشتراك في محاربة الأفغان السنة، وانسحبوا قبل بدء القتال ما أثر على المقدرة القتالية للجيش العثماني الذي انسحب بعد المعركة إلى كرمنشاه تاركاً معظم عتاده في ساحة المعركة ليقع غنيمة سهلة بيد الأفغان[2].

وأرسل أحمد باشا تقريراً مفصلاً إلى إستانبول يشرح فيه وضعه، فأرسل إليه الباب العالي يأمره بمواصلة القتال، فزحف مرة أخرى إلى أصفهان. وتعرَّض مير أشرف في غضون ذلك لخطر داخلي تمثل بتنامي قوة الشاه طهماسب الثاني، فاضطر أن يتفاهم مع العثمانيين للحفاظ على قواته من جهة ومواجهة هذا الخطر من جهة أخرى، فاتصل بأحمد باشا واقترح عليه توقيع اتفاقية صلح بين الجانبين، وردَّ إليه الأسرى والعتاد كدليل على حسن نيته، فكتب أحمد باشا إلى إستانبول يعرض اقتراح مير أشرف، فوافق الباب العالي على توقيع الاتفاقية، وبخاصة أن الضغط الروسي كان قد خفَّ إثر وفاة بطرس الأكبر في عام (١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م)، وقد نصت على ما يلي[3]:

ـ يعترف مير أشرف بتبعيته للدولة العثمانية.

ـ تعترف السلطنة العثمانية بمير أشرف حاكماً على إيران، وتكون الخطبة والسكة باسم السلطان أولاً ثم باسم مير أشرف ثانياً.

ـ تكون المناطق القريبة من إيران وهي: كرمنشاه، لورستان، همدان، نهاوند،

---

(١) علي: ص١٧٨، ١٧٩. صباغ: ص٢١٠.

(٢) مهدوي: ص١٥١. أحمدي: ص١٠٠.

(٣) العزاوي: جـ٥ ص٢٢٢. صباغ: ص٢١١. الضابط: ص٤٠ ـ ٤٢. أوزتونا: جـ١ ص٦٠٣، ٦٠٤.

مراغة، تبريز، خوي، زنجان، گنجة، قرع باغ، تفليس، نخجوان، وشَروان، تحت حكم السلطنة المباشرة.

- تدخل الأهواز في إطار حكم الدولة العثمانية مباشرة.
- يتعهد الطرفان بعدم إيواء الفارين من كلا الجانبين.
- يتم تبادل السفراء بين الطرفين لتحقيق عرى الصداقة.
- تعمل السلطنة على مرور الحجاج الإيرانيين عبر أراضيها.
- يتعهد الطرفان بعدم التدخل في شؤون الأراضي الواقعة تحت سلطة كل منهما.
- تكون هذه الاتفاقية أساساً للصلح بين الطرفين، وتُعد نافذة منذ لحظة توقيعها.

والجدير بالذكر أنها وُقِّعت في همدان، في (١٧ صفر ١١٤٠هـ/ ٤ تشرين الأول ١٧٢٧م)، وعُرفت بهذا الاسم[(١)].

تعقيب على التفاهم العثماني - الأفغاني

- أثبت مير أشرف براعة سياسية في التعامل مع العثمانيين في ظل ظروف صعبة كان يمر بها، فكفَّ أيدي هؤلاء عن الحرب، ونال رضاهم، وأكَّد على استمرار العلاقة الودية معهم على الرغم من أنه أوقف مشروعهم للنفاذ إلى الداخل الإيراني عبر مناطق الأطراف بموجب اتفاقية همدان المذكورة.
- أتاح الاجتياح الأفغاني لإيران للعثمانيين القيام باستعادة المناطق الحيوية التي يعدونها جزءاً من ممتلكاتهم وعماد اقتصادهم والتي كانت في وقت ما سبباً بارزاً في صراعهم الطويل مع الصفويين.
- أيقظ الاجتياح الأفغاني لإيران الروس، وكانت لهم تطلعات للوصول إلى المياه الدافئة وتأمين مجالهم الحيوي، وقد أدى ذلك إلى تشابك مصالحهم مع مصالح العثمانيين، الأمر الذي دفع فرنسا إلى التدخل منعاً لقيام نزاع بينهما يؤثر سلباً على مصالحها التجارية على طول الطرق التي تخترق إيران ومدن السلطنة العثمانية.
- وضعت معاهدة عام (١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م) إيران تحت الوصاية العثمانية الاسمية، وهذا ما كان يهدف إليه مير أشرف من واقع إشراك العثمانيين في العبء الملقى على كاهله بعد أن شعر بالخطر المحدق به والذي أخذ ينمو في الداخل.
- أمَّن مير أشرف بهذا التصرف السياسي مناطق الأطراف الاستراتيجية من خطر اجتياح روسي وذلك حين آلت إلى العثمانيين، وأضحت بمثابة حاجز يفصل بينه

---

(١) صباغ: ص٢١١، ٢١٢.

وبين الروس الطامعين في الأراضي الإيرانية، وكان هذا لصالحه بفعل أنه كان عاجزاً عن تأمين الحماية والدفاع عنها بقواه الذاتية.

ـ دخلت منطقة الأهواز لأول مرة في إطار الحكم العثماني، وهذه نتيجة طبيعية للضعف الذي اعترى الحكم الأفغاني في إيران، وعلى الرغم من أن ذلك مثَّل كسباً مهماً للدولة العثمانية إلا أنه أوقعها بمشكلات فيما بعد.

وهكذا ظلَّت إيران مقسمة على الأطراف الأربعة التالية على الرغم من الجهود التي بذلها مير أشرف من أجل توحيدها: الصفويين والأفغان والعثمانيين والروس. وإذا كان مير أشرف قد وصل من خلال جهوده مع العثمانيين إلى وضع مستقر على الجبهة العثمانية، إلا أنه كان عليه أن يواجه القوى الأخرى التي تُناصبه العداء، وبخاصة الشاه طهماسب الثاني الذي كانت أوضاعه السياسية قد تحسَّنت بعد انضمام نادر خان أفشار إليه، وهو الرجل الذي سيُعرف في التاريخ باسم طهماسب قولي خان، وسيشتهر باسم نادر شاه بعد أن يستولي على الحكم ويتخلَّص من منافسيه مير أشرف وطهماسب الثاني.

ظهور نادر خان الأفشاري ونهاية الوجود الأفغاني في إيران

ينتسب نادر خان إلى قبيلة أفشار التركمانية التي هاجرت من تركستان إثر استيلاء المغول عليها واستقرت في أذربيجان، وظلت فيها إلى أن رحَّلها الشاه إسماعيل الأول إلى خراسان وأسكن أفرادها في أبيورد. وكانت القبيلة تقضي الصيف في أبيورد والشتاء في دستجرد حيث ولد نادر شاه في (محرم ١١٠٠هـ/ تشرين الثاني ١٦٨٨م) في أسرة فقيرة.

امتهن والده رعي الأغنام وجمْع الأخشاب ونقْلها، فعاش في شظف من العيش. وورث نادر مهنة والده، ووقع في شبابه مع والدته في قبضة الأوزبك خلال إحدى حملاتهم الاجتياحية لخراسان ونقلوهما إلى خيوة، فتوفيت والدته في الأسر بعد أربع سنوات وتمكَّن هو من الفرار وعاد إلى وطنه وعشيرته أفشار، ثم دخل في خدمة بابا علي بك حاكم أبيورد وأسدى إليه خدمات جليلة جعلته يُزوجه ابنته[1].

اتصف نادر خان بالطموح السياسي، فقد طمع في حكم أبيورد، وتعجَّل في الوصول إليه من خلال قتل عمه بالسم، ثم رنا ببصره إلى حكم خراسان كلها، فاصطدم بحاكمها ولكنه لم يصمد أمامه وفرَّ من مدينته ليتحول إلى مجرد قاطع طريق، فجمع حوله بعض المقاتلين، وأخذ يشارك في الأحداث، واستقر في قلعة

---

(١) إقبال: ص٦٩٥.

بخراسان عُرفت باسمه فيما بعد، قلعة نادري، واتخذها قاعدة انطلاق لتوسيع دائرة نفوذه، وقد وضع نصب عينيه هدفين:

الأول: التوسع على حساب القوى في الشرق والغرب والخليج العربي.

الثاني: تحرير إيران من الأفغان والتفرد بحكمها بعد أن يقضي على الأسرة الصفوية.

وحتى يُبرر تحقيق هدفيه انتمى إلى الأسرة الصفوية لضربها من الداخل. وكانت إيران قد دخلت في عهد جديد بعد انسحاب القوات الروسية من مازندران وأسترآباد تمثل برحيل الشاه طهماسب الثاني إلى مازندران، فالتقى بفتح علي خان قاجار وضمَّه إلى صفوفه، وأرسل إلى نادر خان طالباً مساعدته لاستعادة مشهد من أيدي الأفغان، وعلى الرغم من أنه استجاب لطلب الشاه إلا أنه اختلف مع فتح علي خان قاجار بفعل أن كلّاً منهما كان يطمع في تحقيق النصر لصالحه الشخصي ما أدى إلى دحرهما أمام القوات الأفغانية العبدالية بقيادة محمود السيستاني في عام (١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م)، فما كان منه إلا أن تخلَّص من منافسه القاجاري، وجدَّد هجماته على مشهد في العام التالي واستولى عليها محققاً أول انتصار على الصعيد المحلي[١]، كما استعاد هراة بعد أن انتصر على حاكمها الأفغاني الله يار خان[٢]، فمنحه الشاه اسمه وسمَّاه طهماسب قولي خان تشريفاً له، كما خلع عليه وأهداه الهدايا تعبيراً عن امتنانه وتقديراً لأعماله التي أعادت الثقة للدولة الصفوية[٣]، فارتفع قدره كما ارتفعت مكانة الشاه الصفوي ما جعلهما وجهاً لوجه على مستوى المنافسة ضد مير أشرف، فأسرع هذا إلى خراسان لضرب خصميه قبل أن تقوم لهما قائمة، ولكن نظراً لنشوب الاضطرابات في أفغانستان وبخاصة في قندهار، وتوزيع فِرَق جيشه على المدن للحماية والدفاع؛ جعله يُقصِّر عن حشد جيش كبير، وما جهَّزه من مقاتلين بلغ تعدادهم ثلاثين ألفاً لم يكن كلهم من الأفغان، لم يكن كافياً لتحقيق انتصار على خصميه، فقد هُزم في معركة مهماندوست في دامغان في عام (١١٤١هـ/ ١٧٢٩م) وارتد إلى أصفهان، فهاجمه نادر خان وانتزع المدينة منه[٤]. وفرَّ مير أشرف إلى شيراز بعد أن قتل الشاه السابق حسين. وعندما دخل الشاه طهماسب الثاني المدينة تأثر بما رآه من الدمار الذي أصابها على أيدي الأفغان وبخاصة قصور الإسرة الصفوية.

كان هدف الشاه طهماسب الثاني طرد الأفغان نهائياً من الأراضي الصفوية، وأدرك نادر خان من جانبه مدى حاجة سيده إليه لتحقيق ذلك، وعندما كَلَّفه الشاه

---

(١) إقبال: ص٦٩٦، ٦٩٧. أحمدي: ص١١٠. (٢) الله يار: تعني حبيب الله.

(٣) أحمدي: ص١١٠. (٤) شاملوئي: ص٦٨١.

بمطاردة فلول القوات الأفغانية والقضاء عليها، طلب المكافأة التي تليق به كقائد منتصر، وما كان باستطاعة الشاه إلا أن يلبي طلبه، إذ كانت القوة العسكرية بيده وتحت إمرته، وما كانت تحت إمرة الشاه من قوة، لا تُمكنه من فرض إرادته عليه. وهكذا أدى نادر خان دوره بمهارة للهيمنة على مقدرات الدولة الصفوية، فحصل من الشاه على حق جمع الضرائب من البلاد، فأضحى المسيطر على القوات العسكرية وعلى القدرات المالية للبلاد[١].

ويبدو أن مير أشرف أدرك أن موازين القوى في إيران لم تعد لصالحه، وأنه بحاجة إلى مساعدة خارجية، ولم يكن أمامه سوى العثمانيين الذين يُوحِّد بينهما المذهب السني والعداء للصفويين؛ فأرسل سفارة إلى إستانبول من أجل طلب المساعدة، فأمده أحمد باشا والي بغداد بفرقة من المدفعية، لكنها ما إن دخلت الحرب معه حتى هاجمتها قوات نادر خان وإبادتها واستولت على عتادها وذخائرها، وتعرَّضت القوات الأفغانية لهزيمة جعلت مير أشرف يجمع أهله وخزائنه ويرحل صوب شيراز، فتعقَّبه نادر خان وألحق به هزيمة أخرى عند زارغان على بُعد عشرين ميلاً من شيراز[٢].

وحاول مير أشرف في غمرة هزائمه وتراجعه باتجاه الشرق أن يتفاهم مع الشاه طهماسب الثاني، لكن هذا رفض حتى الاجتماع به، وتمادى حين هدَّد جميع الأفغان بالقتل إذا لم يسلموه إليه ليعاقبه، فأسقط في يده، فعبر شيراز في طريقه إلى قندهار مع عدد ضئيل من جنده لم يتجاوز المائتين، ما يعني تفكك جيشه وانفضاض الجند عنه، فطاردته الخيالة الصفوية، وحاول أثناء انسحابه أن يفرض سيطرته على اللار وكرمان، فثارت عليه تلك الأقاليم، وأدرك أخيراً أن وجوده في الأراض الإيرانية سوف يقضي عليه، فتابع طريقه إلى قندهار مع شرذمة من جنده، وأرسل أخاه إلى البصرة مع كمية كبيرة من المال لطلب المساعدة من العثمانيين، وعندما وصل إلى منطقة زردكوه في بلوجستان هاجمه خان البلوج وقتله، وأرسل رأسه إلى أصفهان تقرباً من الصفويين، وذلك في عام (١١٤٢هـ/ ١٧٣٠م) . وبنهاية مير أشرف على هذه الصورة أسدل الستار على الوجود الأفغاني في إيران الذي لم يدم أكثر من سبع سنوات[٣].

علاقة الصفويين مع العثمانيين في عهد نادر خان

كان على نادر خان بعد ذلك، أن يواجه القوى الأخرى التي كانت لا تزال

---

(١) نوار: جـ١ ص١١٧، ١١٨.
(٢) إقبال: ص٦٩٩.
(٣) إقبال: ص٧٠٠. منقوريوس: جـ٣ ص٢٤٦. صباغ: ص٢١٣، ٢١٤.

تحتفظ بأراضٍ إيرانية، وهي الدولة العثمانية والدولة الروسية، فبدأ بالدولة العثمانية. وفي الوقت الذي كان فيه الشاه طهماسب الثاني ينتظر استعادة أصفهان من الأفغان بجهود نادر خان، أرسل سفيراً إلى إستانبول في عام (١١٤١هـ/ ١٧٢٩م) يحمل رسالة تتضمَّن شرحاً للأحداث الأخيرة الخاصة بدولته، والطلب من السلطان أحمد الثالث التخلي عن المناطق التي سيطر عليها العثمانيون خلال الاجتياح الأفغاني. كان من الطبيعي أن يرفض السلطان طلب الشاه وردَّ السفير الصفوي خائباً[١].

أزعج الرفض العثماني نادر خان، فنهض لاسترجاع الأرض بالقوة، فاستولى على الأهواز وهمدان ونهاوند وتبريز[٢]. وأثناء وجوده في المدينة الأخيرة تناهى إلى أسماعه هجوم الأفغان العبداليين على هراة، فغادر المدينة ورحل مع قواته للتصدي لهم[٣].

وفي الوقت الذي كان فيه القائد الأفشاري يُحقق انتصاراته في أذربيجان وخراسان، كانت الدولة العثمانية تمر بمرحلة حرجة من واقع الثورة الشعبية التي قادها بترونا خليل[٤] بسبب:

- تدني قيمة الآقجة العثمانية الذي أدى إلى تضخم وركود اقتصادي.
- تزايد معدلات الضرائب العارضة بسبب الحرب على الجبهة الشرقية.
- التضخم السكاني لإستانبول بسبب الهجرة من الأطراف.
- انخراط قسم من الجيش في الأعمال المهنية[٥].

وكان من أبرز نتائج الثورة أن خُلع السلطان أحمد الثالث ونُصِّب ابن أخيه، محمود الأول سلطاناً (١١٤٣ ـ ١١٦٧هـ/ ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤م)[٦]، فأصدر أوامره إلى أحمد باشا والي بغداد وعلى باشا قائد جيش الشرق بمحاربة الصفويين، فاصطدم الأول بالقوات الصفوية التي كان يقودها الشاه في صحراء توريجان قرب همدان في عام (١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م) وانتصر عليها، وهاجم الثاني تبريز في ظل غياب نادر خان، واستولى عليها، وطرد الحامية الصفوية منها[٧].

وبرَّر السلطان العثماني إعلان الحرب، أن الشاه لم يحترم المعاهدة التي أبرمها

---

(١) مهدوي: ص١٥٤.

(٢) ميرزا مهدي خان أسترآبادي: ص٢٣٤، ٢٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٤ ـ ٢٥١.

(٤) هو أحد تجار إستانبول وكان مدعوماً من الانكشارية. محمد فريد بك: ص٣١٨، ٣١٩.

(٥) أولسن: ص١٣٥ ـ ١٣٧. صباغ: ص٢١٤.

(٦) محمد فريد بك: ص٣١٨، ٣١٩.

(٧) كركوكلي: ص٢٥ ـ ٢٧.

مبعوثاه، ولي محمد خان ورضا قولي خان، مع الدولة العثمانية في عام (١١٤٤هـ/ ١٧٣١م) ونصَّت على:

- أن تكون تبريز، كرمنشاه، أردلان، لورستان والحويزة للصفويين.
- أن يحتفظ العثمانيون بحكم: إيروان، تفليس، گنجة، شَروان، شماخي وداغستان.
- أن يدفع الصفويون مائة ألف قطعة ذهبية كتعويض أضرار الحرب.

واضطر الشاه طهماسب الثاني نتيجة خسارته إلى شراء سكوت العثمانيين بطلب الصلح، فأرسل مبعوثاً هو صفي قولي خان إلى بغداد، تباحث معه في شأن الصلح، فتم الاتفاق بينهما في عام (١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م) على توقيع معاهدة عُرفت بمعاهدة أحمد باشا[١]، تنازل بموجبها الشاه طهماسب الثاني عن الكثير من الأراضي الإيرانية، وأهم ما جاء فيها:

- يُعدُّ نهر الرس ودرنة ودرتنك وغيرها من الحدود القديمة حداً فاصلاً بين الممتلكات العثمانية والإيرانية.
- يتنازل الشاه طهماسب الثاني لصالح الدولة العثمانية عن مدن گنجة وتفليس ونخجوان وشماخي وداغستان، وبمعنى آخر عن معظم الولايات الغربية الإيرانية التي كانت الدولة العثمانية تطمع في ضمِّها إليها.
- تكون تبريز وأردلان وكرمنشاه وهمدان والأهواز تابعة للدولة الصفوية.
- تتعهد الدولة العثمانية بمساعدة الصفويين في إخراج الروس من دربند وجيلان.
- تسمح الدولة العثمانية للرعايا الإيرانيين بزيارة العتبات المقدسة في العراق.
- يتعهد الطرفان بتسهيل سبل التجارة وتبادل السفراء بين إستانبول وأصفهان[٢].

عزل الشاه طهماسب الثاني

واجهت معاهدة أحمد باشا عاصفة من الاحتجاجات من كلا الجانبين، فعندما صادق عليها السلطان محمود الأول استثنى تبريز من حصة الصفويين. وانقسم الرأي العثماني بين معارض لها ومؤيد للتمسك بها نظراً لأهميتها العسكرية والتجارية للعثمانيين.

أما على الجانب الصفوي، فعندما علم نادر خان بمضمونها، ثارت ثائرته، وأرسل إلى حكام ولايات الأطراف بعدم تنفيذها، كما أعاد صفي قولي خان إلى

---

(١) كركوكلي: ص٢٨.

(٢) محمد فريد بك: ص٣٢١. إقبال: ص٧٠٢، ٧٠٣. الضابط: ص٤٣. مهدوي: ص١٥٥.

إستانبول، وطلب منه أن يبلغ الحكومة العثمانية أن تختار بين أمرين، إما أن تعيد كل ما استولت عليه من أراضٍ إيرانية أو أن تستعد للحرب[1]، ثم اجتمع بكبار أركان الدولة وقرَّر معهم عزل الشاه طهماسب الثاني وتنصيب ابنه عباس ميرزا، الذي لا يزال رضيعاً مكانه، باسم الشاه عباس الثالث، وتولى هو منصب وكيل السلطنة، فآلت إليه أمور البلاد كلها، وذلك في (٥ ربيع الأول ١١٤٥هـ/٢٦ آب ١٧٣٢م). وسيق الشاه المعزول إلى مشهد حيث سُجن فيها[2].

والواقع أن نادر خان كان يراقب تصرفات الشاه طهماسب الثاني وينتظر ارتكابه أي هفوة ليحقق طموحه في حكم إيران، فلما وقَّع المعاهدة المذكورة مع العثمانيين بغيابه ومن دون استشارته حقد عليه، ورأى أن هذه المعاهدة لا تحقق المصلحة الإيرانية العليا حين:

- أغفلت شرط المائة ألف دينار التي ذكرتها المعاهدة التي سبقتها قبل عام.
- تجاهلت موضوع إعادة الأسرى الإيرانيين.
- نصَّت على التعاون ضد عدو مشترك، وهذا ليس لصالح الصفويين.
- نصَّت على تبادل السفراء بين البلدين، وهذا ليس من مصلحة الصفويين.

---

(١) الضابط: ص٤٣، ١٨٣.

(٢) القزويني: ص٩٠. أحمدي: ص١١١. إقبال: ص٧٠٣، ٧٠٤.

الشاه عباس الثالث

١١٤٥ ـ ١١٤٨هـ/ ١٧٣٢ ـ ١٧٣٦م

الصراع على بغداد مع العثمانيين

إثر تأزم العلاقة بين نادر خان والدولة العثمانية، أعلن الأول أنه سيسير على رأس جيشه للمطالبة بحق له في أراضي العراق. وكان هذا البلد الولاية الأكثر ضعفاً في خاصرة الدولة العثمانية وبخاصة بعد نشوب ثورة العشائر العربية ضد حكم أحمد باشا[١].

وحتى يتفرغ نادر خان للحرب عقد صلح رشت مع روسيا استعاد بموجبه جميع الأراضي الواقعة جنوبي نهر الكر، ورُبط أمر استعادة المناطق الواقعة في شمال هذا النهر، مثل: باكو ودربند، بانسحاب العثمانيين من أرمينيا وبلاد الكرج، فأمَّن بذلك حدود بلاده الشرقية، وتفرَّغ للقتال على الجبهة العراقية وهو مطمئن، فاندفع صوب بغداد عبر ثلاثة محاور: محور درنة ـ شهرزور، ومحور الموصل، ومحور بغداد، على أن تلتقي الجيوش الثلاثة عند المدينة لفرض حصار عليها، وقاد بنفسه القسم الثالث من الجيش المتوجه مباشرة إليها، وانتصر أثناء زحفه على قوة عسكرية عثمانية مؤلفة من اثني عشر ألف جندي، ثم مضى قُدماً إليها وضرب الحصار عليها في (٣ شوال ١١٤٥هـ/ ١٩ آذار ١٧٣٣م)، وأرسل قوة عسكرية إلى الكاظمية لقطع طريق الإمدادات عنها الآتية من البصرة[٢].

دافعت الحامية العثمانية عن المدينة ببسالة، وتحمَّل السكان عبء الحصار وبخاصة بعد نفاد المؤن، فطلب والي المدينة أحمد باشا نجدة عاجلة من إستانبول، فخرج جيش عثماني بقيادة طوبال عثمان باشا لنجدتها، وعندما علم نادر خان بخروجه، ترك قسماً من جيشه على حصار بغداد وتوجَّه مع القسم الآخر صوب كركوك، المكان الذي كان طوبال عثمان باشا قد وصل إليه. وجرى اللقاء الدامي

---

(١) العزاوي: جـ٥ ص٢٣٣.

(٢) المرجع نفسه. علي: ص١٨٥.

بين الجانبين عند هذه المدينة وأسفر عن انتصار العثمانيين، وفرَّ نادر خان مع قواته إلى همدان حيث أعاد تنظيم صفوف قواته وسار مجدداً إلى كركوك، واصطدم بقوات طوبال عثمان باشا وانتصر عليها هذه المرة، وسقط القائد العثماني قتيلاً في أرض المعركة، ثم عاد إلى بغداد لاستكمال حصارها(١).

كان القائد الأفشاري بعد هذه المعركة المظفرة مستعداً لإطالة أمد الحرب في العراق، لو لم يتلقَّ أنباء عن ثورة قامت ضده في إقليم فارس لصالح الصفويين، فاضطر أن يعقد معاهدة تفليس مع أحمد باشا في عام (١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م) على أساس إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل التوسع العثماني في إيران. وتنازلت الدولة العثمانية عن جميع مكاسبها السابقة حتى بغداد، فعادت بذلك جميع المقاطعات التي استولى عليها العثمانيون من إيران إلى الإيرانيين ثانية. وأهم ما جاء فيها:

- تكون الحدود بين الدولتين، الصفوية والعثمانية، كما أقرتها معاهدة (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٢م).
- يتعهد الفريقان برد الأسرى والأسلحة التي استحوذ عليها كل فريق من الآخر.
- يتعهد العثمانيون بعدم منع الإيرانيين من زيارة الأماكن المقدسة في العراق.
- يتعهد العثمانيون برد گنجة وشَروان وإيروان وتفليس، إلى الإيرانيين على أن يتم انسحابهم في أقرب وقت ممكن(٢).

الراجح أن تلك المعاهدة بين نادر خان وأحمد باشا كانت محاولة من الأول لتهدئة الجبهة العراقية حتى يتفرغ لقمع الثورة في فارس ثم يعود مرة أخرى إلى العراق.

ومهما يكن من أمر، فقد واجهت المعاهدة معارضة من جانب السلطان محمد الأول الذي وجد أنها جاءت لمصلحة الإيرانيين، فرفض المصادقة عليها وقرَّر استعادة أملاكه في إيران بالقوة، فجهَّز جيشاً لهذه الغاية عهد بقيادته إلى عبد الله باشا ودفعه إلى قارص(٣).

استغلَّ نادر خان رفض السلطان العثماني المصادقة على المعاهدة، فنهض لإكمال سيطرته على المناطق الاستراتيجية في أرمينيا وبلاد الكرج، واستولى على داغستان(٤). وكانت روسيا آنذاك على وشك الاصطدام مع الدولة العثمانية الأمر الذي استغله نادر خان أيضاً لصالحه، فهدَّد الدولة الروسية من مغبَّة التحالف مع العثمانيين، فاضطر الروس إلى التفاهم معه وفق معاهدة أخرى تضمَّنت ما يلي:

- يُمنع تصدير الحرير الإيراني عبر الأراضي العثمانية.

---

(١) إقبال: ص٧٠٥، ٧٠٦.

(٢) الكركوكلي: ص٣٥. إقبال: ص٧٠٦.

(٣) العزاوي: جـ٥ ص٢٤٥.

(٤) مهدوي: ص١٦١.

- تعهد الروس بالانسحاب من دربند وباكو خلال شهرين ليتسلمها الإيرانيون.
- تقديم مساعدات عسكرية لإيران[1].

الواقع أن تخلي الروس عن دربند وباكو لإيران بتلك السهولة مرده إبعاد الخطر العثماني عن هذه المناطق في الوقت الذي لم تشكل إيران خطراً على روسيا يوازي ذلك الخطر.

وتنفيذاً لهذه المعاهدة أرسلت روسيا إلى نادر خان قوة عسكرية من فوج المدفعية ساعدته على اقتحام مدينة گنجة، ثم سار إلى قارص ليصطدم بقوات عبد الله باشا، وجرى اللقاء بين الجانبين في منطقة باغواند في (٢٦ محرم ١١٤٨هـ/١٨ حزيران ١٧٣٥م). وعلى الرغم من تفوق الجيش العثماني في العدد إلا أن نادر خان أحرز انتصاراً كبيراً مكَّنه من الاستيلاء على تفليس، وظلت إيروان وقارص تقاومان وخرَّ عبد الله باشا صريعاً في أرض المعركة[2].

أثار فشل حملة عبد الله باشا رد فعل عنيف في إستانبول دفع السلطان إلى أن يُسند قيادة جيش الشرق إلى أحمد باشا الذي كان قد عزله عن حاكمية بغداد، وفي الوقت الذي كان فيه نادر خان يستعد لمهاجمة أرضروم، بوابة الأناضول، ليقطع طريق الحرير الذاهب إلى ولايات السلطنة، وصل أحمد باشا إلى المنطقة، واصطدم به في رحى معركة ضارية رجحت فيها كفة العثمانيين، واضطر نادر خان في جو الهزيمة القاتم إلى التراجع إلى وادي موقان، وطلب عقد الصلح لإنهاء حال الحرب بين الدولتين[3].

تتويج نادر خان

عقد نادر خان اجتماعاً في موقان حضره أركان الدولة وقادة الجيش وحكام الولايات والعلماء ومبعوث الدولة العثمانية، جانجي علي باشا، بيَّن فيه للحاضرين تفانيه في خدمة إيران والدفاع عنها ضد أعدائها، وأنه يود الراحة من عناء الحروب وسيقيم في مشهد، وطلب منهم أن يختاروا شاهاً من أبناء البيت المالك للقيام بأعباء الحكم.

والواضح أن هذا المسلك كان مقصوداً منه للوصول إلى الحكم بفعل عدم وجود شخصية صفوية تملأ مكانها بجدارة، بدليل أن المجتمعين نظَّموا وثيقة في عام (١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م) عزلوا بموجبها الشاه عباس الثالث وأنهوا حكم الصفويين من

(١) العزاوي: جـ٥ ص٢٤٨.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) أولسن: ص١٨١.

جهة، ورفعوه شاهاً على عرش إيران من جهة أخرى، فقبل المنصب بعد تردد مقصود أيضاً حتى لا يبدو أنه طامع فيه، فانتهى بتتويجه في (٢٤ شوال ١١٤٨هـ/ ٩ آذار ١٧٣٦م) حكم الأسرة الصفوية تماماً، وقامت مكانها الأسرة الأفشارية في حكم إيران[١].

ونظم نادر خان، الذي اتخذ لقب شاه بعد جلوسه على العرش في إيران، شؤون دولته الناشئة، فعيَّن ابنه رضا قولي ميرزا حاكماً على خراسان يعاونه طهماسب قولي خان الجلائري، وأخاه إبراهيم خان ظهير الدولة حاكماً على أذربيجان، كما عيَّن الحكام على الولايات وأرسل السفراء إلى القيصر الروسي والسلطان العثماني يعلمهما بجلوسه على عرش إيران[٢].

وأُلقي الشاه عباس الثالث في السجن وقُتل في عام (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) مع والده الشاه طهماسب الثاني وأخيه سليمان ميرزا[٣]. وتعرَّضت إيران في ظل الفوضى التي نشبت في عهد الأسرتين الأفشارية والزندية، إلى القلاقل والاضطرابات بسبب التنافس الأسري على الحكم. وعمدت الجماعات المتنافسة إلى تبنِّي مرشحٍ من بقايا الأسرة الصفوية فيرفعونه على العرش ليضفوا على حكمهم شرعيةً هم بأمسِّ الحاجة إليها. وهكذا اعتلى الحكم كل من إسماعيل الثالث وسليمان الثاني وأبو الفتح سلطان محمد، ولكنهم كانوا ألعوبة في أيدي الأمراء المتغلبين، وظل آخرهم في الحكم حتى عام (١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م)[٤].

---

(١) مهدوي: ص١٦٢. أحمدي: ص١١٢. إقبال: ص٧٠٨، ٧٠٩. الكركوكلي: ص٣٧.
(٢) إقبال: ص٧١٠.
(٣) أحمدي: ص١١٢. إقبال: ص٧١٥ .Roemer: p328
(٤) القزويني: ص٩٦. أحمدي: ص١١٢، ١١٣.

الخاتمة

أخذت إيران الصفوية في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي بالتراجع، بعد العصر الزاهي والمزدهر الذي شهدته في القرن السابع عشر الميلادي، استطاعت خلاله الأسرة الصفوية أن تُعيد إلى البلاد وحدتها السياسية والدينية المذهبية، كما أخذت بأسباب التجدد والاقتباس من الغرب الأوروبي، إلا أن الدولة الصفوية لم تلبث أن أخذت تفقد قواها تدريجياً بانغماس ملوكها بالفساد، ما أدَّى إلى ازدياد عوامل الانحلال، وطمع فيها جيرانها. وكان الأفغان المتوثبين أول من بادر بشق عصا الطاعة بعد أن كانوا قد غُلبوا على أمرهم على يد مؤسس الدولة الصفوية ودخلوا في طاعته، وأخذت، إذ ذاك، قبائل البدو المجاورة لإيران تنقض عليها من كل صوب. فغزا الأوزبك بقيادة أمير بخارى، خراسان، ورنا الروس القابعون في استراخان ببصرهم إلى الطرق التجارية بين الهند وأوروبا عبر كابل وهراة ومشهد وطهران وتبريز والتي تتوجَّه شمالاً إلى أرضروم وطرابزون، وجنوباً إلى ديار بكر وحلب والإسكندرون، وما لبثوا أن احتلوا تباعاً دربند (١١٣٤هـ/ ١٧٢٢م) وباكو في السنة التالية، وسيطروا على الضفة الجنوبية لبحر قزوين، وداغستان، وجيلان، ومازندران، وأستر آباد وذلك بموجب معاهدة بطرسبورغ. واغتنم العثمانيون الفرصة السانحة ليثأروا لأنفسهم عما لحق بهم في الماضي من عسف، فسيطروا على أرمينيا والعراق وأذربيجان. وراح الأمير أشرف الذي خلف مير محمود في حكم إيران، والذي ربطته بالعثمانيين وحدة المذهب، يتقرَّب من هؤلاء، فاعترف بفتوحهم، وأعلن ولاءه للسلطان العثماني في إستانبول، وتعهَّد له باستئصال شأفة الشيعة من إيران، ويدل ذلك على أن الدولة الصفوية التي أعطت إيران فرديتها المتميزة، أشرفت على نهايتها، إلا أنها وجدت خلاصها مؤقتاً، على يد زعيم بدوي تركي العرق كان يعيش في خراسان يدعى نادر خان، وقد تغلَّب على الأفغان، وأعاد وحدة البلاد واعترف بحكم الشاه طهماسب الثاني في عام (١١٤٢هـ/ ١٧٣٠م). وكان الشاه بخاصة والإيرانيون بعامة يتوقعون منه أن يعيد الدولة الصفوية إلى سابق مجدها، لذا بادر بالهجوم، فاستعاد خراسان وهراة من الأفغان، وأجبر العثمانيين على التخلي عن العراق والانسحاب من أذربيجان وإيروان وقارص، وما استولوا عليه من قلاع في القوقاز. وبموجب معاهدة إستانبول المعقودة في عام (١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) عادت إلى البلاد الولايات التي كانت لها من قبل، وضمنت لإيران الإشراف على أرمينيا الشرقية، وبسط حمايتها على بلاد الكرج. واضطر الروس إلى

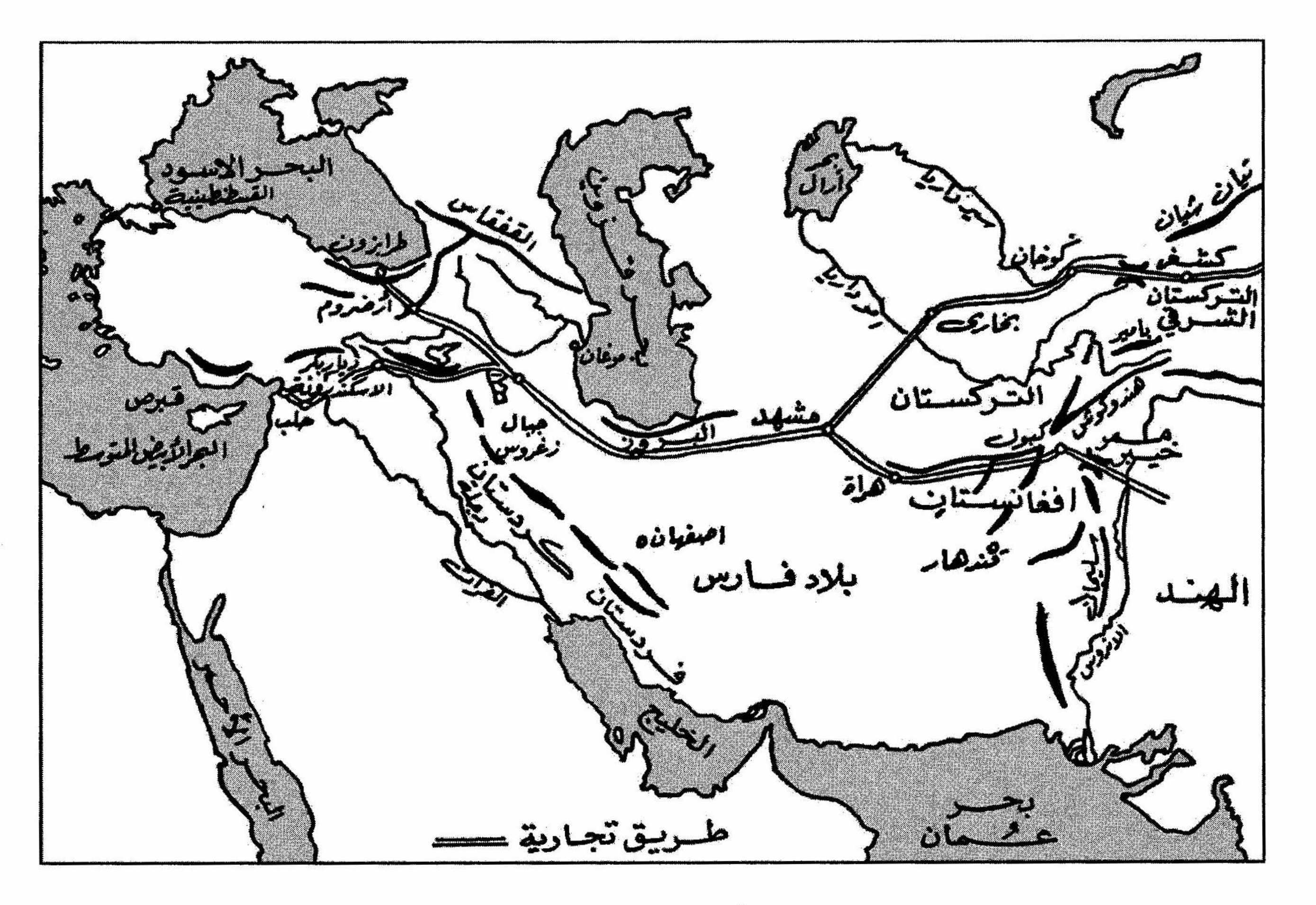
إخلاء الأراضي الشاسعة التي وقعت في أيديهم في شمالي إيران من قبل، ولكن نادر خان تمكّن في عام (١١٤٨هـ/ ١٧٣٦م) من خلع آخر ملوك الدولة الصفوية، ونودي به ملكاً في احتفال مهيب في سهول موقان، فنقل عاصمته إلى مشهد بحيث يتمكن من مراقبة حدود بلاده والدفاع عنها من عبث جيرانها. وفي عام (١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م) توجَّه على رأس جيشه إلى أفغانستان، فاستولى على قندهار وغزنة وكابل، وأخضع لسلطانه كل القبائل، ففُتحت أمامه مداخل الهند، فاجتاز نهر الهندوس ودخل مدينة لاهور، وتغلَّب على الجيش المغولي بقيادة السلطان محمود في كرنال ودخل مدينة دلهي، ثم أعاد الحكم لهذا السلطان وتوجَّه إلى التركستان، فأجبر حاكم بخارى على دفع جزية فادحة، واستبدل خاناً بآخر ممن اعترفوا بالولاء له، ثم فكَّر في إدخال الحضارة الأوروبية إلى إيران، بعد أن خيَّم السلام في ربوعها، إلا أن القدر لم يمهله، فقُتل في عام (١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م) على يد أحد أبناء عشيرته، ويُعدُّ من شاهات إيران العظام.

وتنافس خلفاء نادر شاه على الحكم، فدبَّ الفساد في دولته، صحيح أن ليس من بين خلفائه من يصح مقارنته به، كما أن اختلاف السكان وتباين العناصر في تلك البلاد لم يكن من شأنه أن يُسهل مهمة هؤلاء الملوك، والمعروف أنه اندمجت في إيران، وانضمت إليها، عروق جديدة كالعرب في لورستان، وبعض عناصر العرق الأصفر من المغول والتتار والأتراك. وهكذا بدت إيران خليطاً من القبائل والأقوام، واقتصر حكم ورثة نادر شاه على خراسان، واحتفظوا بمشهد عاصمة لهم، ونجح الأفغان في استعادة استقلالهم، وشكَّل التركمان الذين خرج منهم معظم قادة الدولة الصفوية؛ جماعات عسكرية سيطرت على الولايات الواقعة إلى الشمال والممتدة من أرمينيا إلى أفغانستان، وكانت أصفهان وأستر آباد وقندهار من حواضرهم الكبرى.

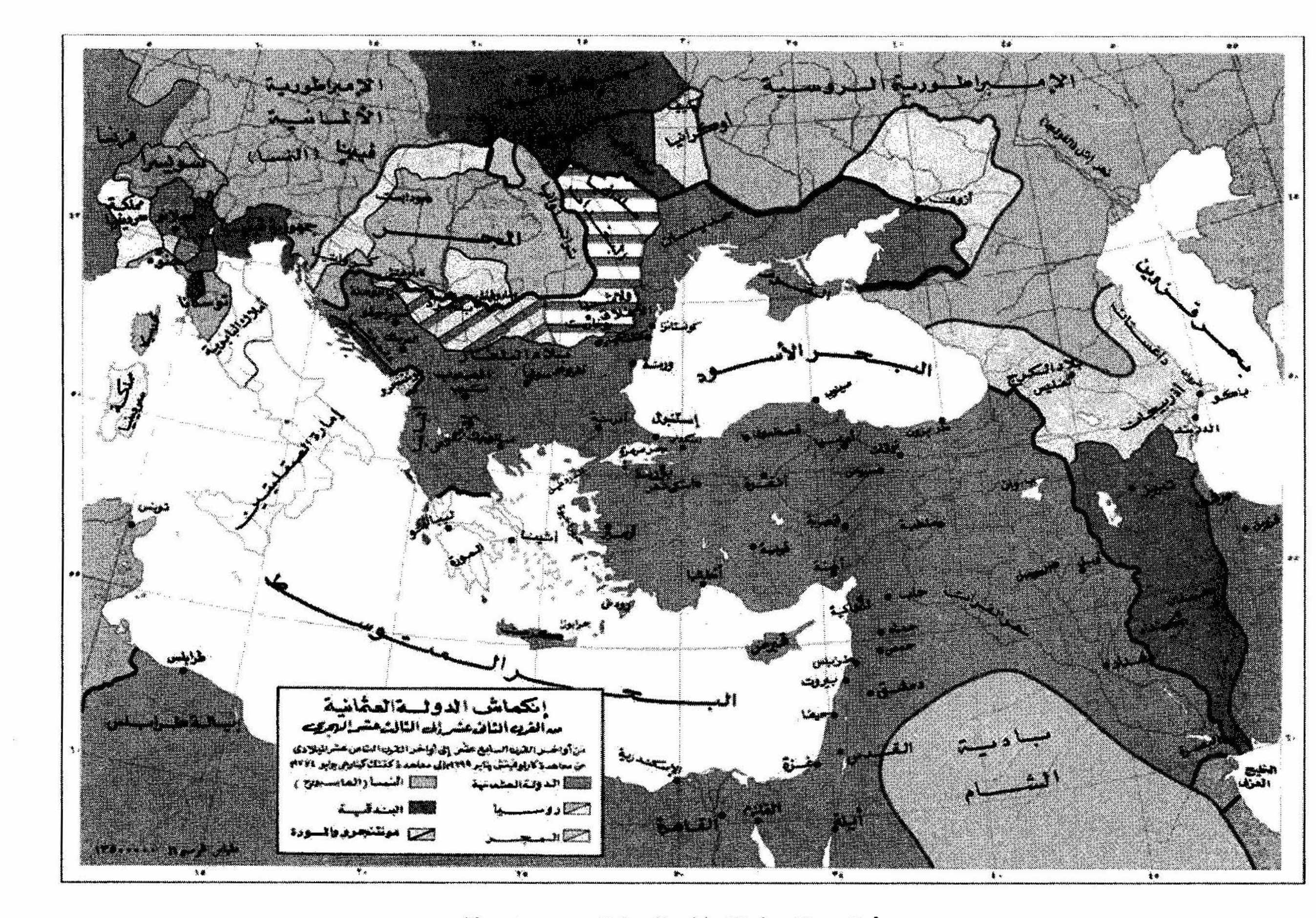
وحاول زعماء قبائل البختيار والزند إقامة سلطة الإيرانيين في الجنوب والغرب، فقامت في البلاد دولة وطنية قومية هي دولة الزند بزعامة كريم خان وانتزع هذا أصفهان وأذربيجان ومازندران من أيدي القوزاق الأتراك التابعين لروسيا، فحقَّق بذلك وحدة إيران الغربية الممتدة من شواطئ بحر قزوين حتى مشارف الخليج العربي واتخذ شيراز عاصمة له.

وما حدث بعد وفاة كريم خان في عام (١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م) من نزاعات أسرية حول العرش لم تكن قاصرة على الأسرة الزندية، بل اشتركت فيها أسرة قاجار التركمانية الخصم العنيد للأسرة الزندية، ونجح آغا محمد القاجاري من انتزاع السلطة من أيدي الزنديين وتخلَّص من منافسيه وأضحى أقوى رجل في إيران، وتوَّج نفسه شاهاً على البلاد قبل أن يلقى حتفه في عام (١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م) مقتولاً.

استمرت الأسرة القاجارية في الحكم حتى أسقطها انقلاب رضا بهلوي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتحديداً في (شوال ١٣٤٤هـ/ نيسان ١٩٢٦م) في ظل آخر ملوكها أحمد القاجاري.



المراكز التجارية الكبرى أواسط وغربي آسيا [عن تاريخ الحضارات العام]



عن أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس

الصراع بين العثمانيين والإيرانيين
خلال القرنين ١٠ و ١١ هـ / ١٦ و ١٧ م

عن أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

❑ أحمدوف، يوريبوري وزاهد الله منزوف:
- **العرب والإسلام في أوزبكستان**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

❑ أسود، صلاح شاكر:
- **الحدود العراقية ـ الإيرانية**، دراسة في المشاكل القائمة بين البلدين، بغداد ١٩٧٢م.

❑ إقبال، عباس:
- **تاريخ إيران بعد الإسلام**. تعريب محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

❑ أوزتونا، يلماز:
- **تاريخ الدولة العثمانية**. تعريب عدنان محمود سليمان. منشورات مؤسسة فيصل للتموين، إستانبول، الجزء الأول ١٩٨٨م، الجزء الثاني ١٩٩٠م.

❑ أوين، روجر:
- **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ ـ ١٩١٤م**. تعريب سامي الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

❑ أولسن، روبرت:
- **حصار الموصل ١٧١٨ ـ ١٧٣٤م**. ترجمة عبد الرحمٰن الجليلي، الرياض ١٩٨٣م.

❑ ابن إياس، محمد بن أحمد:
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. الهيئة المصربة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.

❑ إيڤانوف، نيقولاي:
- **الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤م**. تعريب يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٨م.

❑ بخشي، نظام الدين أحمد:
- **المسلمون في الهند**. تعريب أحمد عبد القادر الشاذلي، الهيئة المصربة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

❑ براون، إدوارد:
- **تاريخ الأدب في إيران**. تعريب أحمد حلمي، جامعة الكويت.

❑ البدليسي، ابن شرف خان:
- **شرف نامه**. تعريب محمد علي العوفي ويحيى الخشاب، القاهرة ١٩٣٠م.

❑ البكري الصديقي، محمد بن أبي سرور:
- **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية**. تحقيق ليلى صباغ، دمشق ١٩٩٥م.

❑ الجميل، سيار:
- **العثمانيون وتكوين العرب الحديث**. مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٩م.

❑ جمعة، بديع وأحمد الخولي:
- **تاريخ الصفويين وحضارتهم**، الجزء الأول. دار الرائد العربي، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م.

❑ الحلو، علي نعمة:
- **الأهواز**، عربستان. بغداد.

❑ حليم، إبراهيم بك:
- **تاريخ الدولة العثمانية العلية**. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

❑ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
- **معجم البلدان**. دار صادر، دار بيروت، بيروت.

❑ الخوند، مسعود:
- **الموسوعة التاريخية ـ الجغرافية**، الجزء الأول، بيروت.

❑ **دائرة المعارف الإسلامية** ج٣:
- دار المعرفة، بيروت.

❑ دحلان، أحمد زين الدين:
- **الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية**. القاهرة ١٣٢٣هـ.

❑ الذهبي، محمد بن أحمد:
- **سير أعلام النبلاء**. تحقيق صلاح المنجد والأبياري وأسعد طلس، مصر ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢م.

❑ رافق، عبد الكريم:
- **العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦م**. دمشق، ط١، ١٩٧٤م.

❑ ابن زنبل، الرمال أحمد بن علي:
- **تاريخ السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد مع قانصوه الغوري سلطان مصر وأعمالها**. القاهرة ١٨٦١م.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن:
- **الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع**. مصر ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.
- الشيبي، كامل مصطفى:
- **الصلة بين التصوف والتشيع**. دار الأندلس، ط٣، بيروت ١٩٨٢م.
- شير، حسن جاسم:
- **تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم**. النجف ١٩٦٥م.
- صباغ، عباس إسماعيل:
- **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية**. دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الصرفي، رزق الله منقوريوس:
- **تاريخ دول الإسلام**. القاهرة ١٩٠٧م.
- الضابط، شاكر صابر:
- **العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وإيران**. بغداد ١٩٦٦م.
- الطباخ، راغب محمد:
- **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**. حلب ١٩٢٦م.
- ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي:
- **عجائب المقدور في نوائب تيمور**. تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
- العرضي، أبو الوفا بن عمر:
- **معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب**. تحقيق عيسى سليمان أبو سليم، الأردن ١٩٩٢م.
- العزاوي، عباس:
- **تاريخ العراق بين الاحتلالين ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦م**. بغداد.
- عصفور، محمد أبو المحاسن:
- **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم**. دار النهضة العربية، بيروت.
- علي، شاكر علي:
- **تاريخ العراق في العهد العثماني**. نينوى ١٩٨٥م.
- العليمي، مجير الدين:
- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. تحقيق إحسان حقي، بيروت.
- العمري، ياسين بن خير الله:
- **غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام**. بغداد ١٩٩٨م.

❑ فامبري، أرمينيوس:
- **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر**. تعريب محمود الساداتي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٥م.

❑ فريد بك، محمد:
- **تاريخ الدولة العلية العثمانية**. تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

❑ القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف:
- **أخبار الدول وآثار الأول**. بغداد ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م.

❑ كركوكلي، رسول:
- **دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء**. بيروت.

❑ كلور، أندري:
- **سليمان القانوني**. تعريب البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- **لسترنج**، كي:
- **بلدان الخلافة الشرقية**. تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

❑ اللواتي، محمد بن عبد الله:
- **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. تحقيق علي المنتصر الكناني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.

❑ لواساني، أحمد:
- **ثلاثة ملوك باسم إسماعيل الصفوي**. بيروت ١٩٨٠م.

❑ نظمي زادة، مرتضى أفندي:
- **گلشن خلفاء**. تعريب موسى كاظم نورس، النجف ١٩٧١م.

❑ النهروالي، الشيخ قطب الدين:
- **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، أخبار مكة المكرمة. تحقيق فرديناند ويستنفلد، خياط، بيروت ١٩٦٤م.

❑ نوار، عبد العزيز سليمان:
- **تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث**، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١م.

❑ الهريدي، محمد عبد اللطيف:
- **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي على أوروبا**. القاهرة ١٩٨٧م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغة الفارسية

- **أبدال**، حسين پسر:
- **سلسلة النسب صفوية**. برلين ١٣٠٢هـ ش.

❑ إقبال، عباس:
- **قسمتي أز ماجراي خليج فارس**. مجلة بادكار، السنة الرابعة، العدد الثالث.
- **مباحث تاريخي أز ابتداي صفويه تا آخر قاجارية**. مجلة بادكار، السنة الثالثة، العدد الثاني.

❑ الأستراَبادي، سيد حسن بن مرتضى حسني:
- **أز شيخ صفي تا شاه صفا**. باهتمام إحسان إشرافي، انتشارات علمي، تهران ١٣٥٨هـ ش.

❑ بابر نامه:
- **تحقيق أنيت بيفردج**، لاهور ١٩٦٩م.

❑ پارساه، دوست منوچهر:
- **زمينه تاريخي اختلافات إيران وعراق**. تهران ١٣٦٤هـ ش.

❑ باستاني، باريزي إبراهيم:
- **سياست واقتصاد عصر صفوي**. تهران ١٣٦٧هـ ش.

❑ بخش، أحمد تاج: **إيران درزمان صفوية**، تبريز، ١٣٤٠هـ ش.

❑ بداوني، عبد القادر ملوك شاه:
- **منتخب التواريخ**. كلكتا ١٨٦٨م.

❑ ابن بزاز، توكلي بن إسماعيل بن حاجي الأدربيلي:
- **صفوة الصفا**. بومبي ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

❑ پازوكي، رضا:
- **تاريخ إيران أز مغول تا أفشارية**. جاب أول، تهران ١٣٣٤هـ ش.

❑ الحسيني، يحيى بن عبد اللطيف:
- **لب التواريخ**.

❑ خواند مير، غياث الدين بن همام الدين:
- **حبيب السير في أخبار أفراد البشر**. تهران.

❑ خورموجي، ميرزا جعفر خان حقايق نكار:
- **نزهة الأخبار**. تصحيح وتحقيق سيد علي آل داوود، تهران ١٣٨٠هـ ش.

❑ دهخدا، علي أكبر بن خان بابا خان:
- **لغت نامه**. مادة إسماعيل الصفوي، مراجعة محمد معين، تهران ١٣٦٦هـ ش.

❑ ذبيح الله، ثابتيان:
- **أسناد نامه هاي تاريخي دوره صفوي**.تهران ١٣٤٣هـ ش.

❑ الرازي الهمداني، عبد الله:
- **تاريخ إيران أز أزمنة باستاني تا سال ١٣١٦. تهران ١٣١٧هـ ش.**

❑ روملو، حسن بك:
- **أحسن التواريخ**. بسعي عبد الحسين نوائي، تهران ١٣٧١هـ ش.

❑ زاهدي، حسين مير زادة:
- **سلسلة النسب صفوية**. برلين ١٩٤٣م.

❑ شاملوئي، حبيب الله:
- **تاريخ تهران**. تهران ١٣٤٧هـ.

❑ شيباني، نظام الدين مجير:
- **تشكيل شاهنشاهي صفوية**. تهران ١٣٣٩هـ ش.

❑ صفوي، رحيم زادة:
- **شرح جنگهاي وتاريخ زندگاني شاه إسماعيل صفوي**. باهتمام يوسف بور.

❑ طهماسب صفوي:
- **تذكرة طهماسب**. شرح وقايع وأحوالات زندگاني شاه طهماسب صفوي. باهتمام عبد الشكور، تهران.

❑ فلسفي، نصر الله:
- **جنك تشالديران**. مجلة دانشكده أدبيات. العدد الأول، دي ١٣٣٢هـ ش.
- **زندگاني شاه عباس أول**. الأجزاء ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥، جاب دوم، تهران ١٣٣٢هـ، ١٣٣٤هـ ش.

❑ فلور، وليم:
- **بر أفتادن صفويان بر أمدن محمود أفغان**. ترجمة أبو القاسم سري، تهران ١٣٦٥هـ ش.

❑ فريدون بك:
- **منشآت السلاطين**. إستانبول ١٢٧٥هـ.

❑ القزويني، أبو الحسن:
- **فوايد الصفوية**. تصحيح وتقديم مريم مير أحمدي، تهران ١٣٦٧هـ ش.

❑ قليخان، رضا المتخلص بهدايت:
- **رياض العارفين**. تهران ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧ ـ ١٨٨٨م.
- **ملحقات تاريخ روضة الصفا**. قم ١٣٤٦هـ ش.

❑ كرماني، أحمد علي خان وزيري:
- **تاريخ كرمان**. تصحيح محمد باستاني باريزي ١٣٤٠هـ ش.

❑ لبكهات، لورانس:

- **انقراض سلسلة صفوية وأيام استيلاي أفاغنة در إيران**. ترجمة مصطفى قولي عاد، تهران ١٣٤٣ هـ ش.

❑ مريم، مير أحمدي:

- **تاريخ سياسي واجتماعي إيران در عصر صفوي**. تهران ١٣٧١هـ ش.

❑ المستوفى، حمد الله القزويني:

❑ نزهة القلوب. بسعي واهتمام كي لسترنج.

❑ منشى، إسكندر بك تركمان:

- **تاريخ عالم أراي عباسي**. تهران ١٣٣٤هـ ش.

❑ مهدوي، عبد الرضا هوشنك:

- **تاريخ روابط خارجي إيران**. تهران ١٣٦٩هـ ش.

❑ مهر آبادي، أبو القاسم رفيعي:

- **آثار ملي أصفهاني**. تهران ١٣٥٣هـ ش.

❑ مؤرخ مجهول:

- **تاريخ قزلباشان**. باهتمام مير هاشم محدث، تهران ١٣٦١هـ ش.

❑ مؤرخ مجهول:

- **عالم آراي صفوي**. باهتمام يد الله شكري، تهران ١٣٥٠هـ ش.

❑ ميرزا، مهدي خان أستر آبادي:

- **درة نادرة**، تاريخ عصر نادر شاه. باهتمام سيد جعفر رشيدي، تهران ١٣٤١هـ ش.

❑ نوائي، عبد الحسين:

- **شاه طهماسب صفوي**. مجموعة إسناد ومكاتبات تاريخي، تهران ١٣٥٠هـ ش.

❑ نواز، شاه خان:

- **مآثر الأمراء**. كلكتا ١٨٨٠ ـ ١٨٩٦م.

- **هامر**، ف.ف:

- **تاريخ إمبراطوري عثماني**. ترجمة زكي علي مازندراني، باهتمام جمشيد كيان فر، تهران ١٣٦٧هـ ش.

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغة التركية

❑ بجوي، إبراهيم:

- **تاريخ بجوي**. مطبعة عامرة، إستانبول، ١٥ صفر ١٢٨٣هـ.

❑ زادة، صولاق:

- **تاريخ صولاق زادة**. إستانبول ١٢٩٧هـ.

رابعاً: المصادر والمراجع باللغات الاوروبية

- Chardin, John: **Travels in persia.**
- Ferishta, M.K: **History of the Rise the Mahamadan Power in India**. Trans by John Briks Delhy, 1997.
- Ghrishman, R: **Iran.** Pelican, A, 1945.
- Hammer, J: **Histoire de L'Empire Ottoman.** Paris 1835-1847.
- Inalçik, Halil: **The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy.** Studies in the Economic History of the Middle East. M.A, Cook.
- Kritovoulos: **History of Mehmed the Conqueror.** Trans by charles, T. Rigges, Greenwood, 1970.
- Lokhart, A: **The Fall of the Safavid Dynasty and the Afghan Occupation of Persia.** Cambridge, 1958.
- Longrigg, Stephen, H: **Four Centuries of Modern Iraq.** Oxford, 1925.
- Manucci, N: **Mongole India.** Trans by william Irvin, Delhi, 1996.
- **Memoir of Jahangir:** trans by Alexander Rogers. Lahore, 2001.
- Pitcher, D.E: **A Historical-Geography of the Ottoman Empire,** Leiden, 1972.
- Pope, A.U: -Catalogue of a loan Exhibition of Early Oriental Carpets.
- **Survey of Persian Art.**
- Roemer, H.R: **The Successors of Timur** in Cambridge History of Iran.
- Savory, R: **Iran under the Safavid.** Cambridge, 1987.
- Sykes, P: **History of persia.** London, 1951.

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

رقم: 520 - 09